

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والخطبة

مشاريع ما بعد الحملة السابعة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤٢٠ / ١٩٩٩

الجزء السادس والثلاثون

(٢)

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — استرداد الأرض المقدسة لبييردوبوا

٢ — من كتاب الأسرار لمارينوسانوتو

— ٣٤٤٣ —

— ٢ —

من كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد
الأرض المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال:

أحدث تحرير عكا سنة ١٢٩١ أثراً هائلاً شمل الغرب الأوربي كله، وهنا شرع رجال الكنيسة، ورجال السياسة والحكم، ورجال الفكر والقلم، كل بدوره يعمل في سبيل الإعداد لمشروع حملة صليبية جديدة، تتوفر لها سبل النجاح، وتوفرت هناك قناعة شاملة أن الطريق إلى فلسطين يمر الآن عبر مصر، وهذه القناعات كانت قد تأسست بالفعل منذ أحداث الحملة الثالثة، ومعروف أنه جرت عدة محاولات لاحتلال مصر جبهوياً، كلها باءت بالافساق، ولهذا وجد من اقترح الهجوم على مصر جانبياً، وهذا ما حاوله لويس التاسع، لدى نزوله القاتل له، على الساحل التونسي، وراجع الأوربيون خططهم أكثر من مرة، وسعوا إلى الاستفادة من دروس ما وقع خلال قرنين من الزمن، وسلف لنا في القسم الأول أن تعرفنا إلى «كتاب الاسترداد» الذي كتبه المحامي الفرنسي بيير دوبوا، ورأينا مشروع هذا الكتاب مشروعاً أكبر من استرداد الأرض المقدسة، مشروعاً قصد بالفعل إقامة دول كاثوليكية ليس في أوربا الشرقية، بل بالشرق العربي كله مع تونس في المغرب، وأن ترتبط هذه الدول كلها مع باريس، مقر المملكة الفرنسية، وأراد دوبوا أيضاً تحويل البابوية من روما إلى فرنسا لتكون حكراً على الفرنسيين.

وندع دوبوا ومشروعه الاستعماري الهائل لتتحول نحو إيطاليا، سي إيطاليا عاصر دوبوا كاتب من رعايا البندقية اسمه مارينو سانوتو Marino Sanuto وشهر بلقب تورسيللو Torsello، كتب بعد تحضيرات استمرت سنوات طوال كتاباً اسمه «كتاب الأسرار للصليبيين

الحقيقتين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة» قدمه في سنة ١٣٢١، إلى البابا يوحنا الثالث والعشرين، (ويذكر أحياناً باسم الثاني والعشرين).

ولد سانوتو [١٢٧٠ — ١٣٤٣] في مدينة ريفوالتي Rivoalti من أعمال جمهورية البندقية، في منطقة سينت سيفرو Seivero، وكان والده من وجهاء البندقية وعضواً في مجلس شيوخها، وقد شغل أدواراً هامة في حياة البندقية وشؤونها البحرية.

ونشأ سانوتو نشأة دينية، وغالباً ما مارس العزف في الكنيسة على آلة موسيقية جديدة، أمانة المنشأ عرفت باسم تورسيللو Torsello، ولاختصاصه بالعزف على هذه الآلة بات يعرف بلقب تورسيللو.

وتقلد سانوتو عدة مناصب، من ذلك مستشاراً في محكمة بلرم ثم في البندقية نفسها، وبحكم الأجواء التي عاشها شارك بالاهتمام بالحروب الصليبية وبأوضاع الأرض المقدسة، وازداد هذا الاهتمام منذ سنة ١٣٠٧، أيام البابا كليمنت الخامس، وإلى هذا البابا قدم مذكرة حول أفكاره وما يراه من مشاريع وكان ذلك سنة ١٣٠٩، وتقدم ورأينا من قبل، في المدخل إلى كتاب دوبوا أن هذا البابا عدّ فرنسياً، وفي فرنسا عاش، وكان قد وصل إلى عرش البابوية سنة ١٣٠٥، أي أن سانوتو تحرك بمشروعه بعد بيز دوبوا بوقت قصير، وعلى هذا عبر مع دوبوا عن تيارات جيلهما، ولا بد هنا من افتراض وجود مؤثرات متبادلة غير مباشرة بين الرجلين.

وكان ملك فرنسا آنذاك — كما رأينا — فيليب الجميل، حفيد القديس لويس، وصحيح أن هذا الملك لم يعرف جده، لكنه حاول أن يتلبس شخصيته، ولا سيما في المجال الديني، والمشاعر الصليبية، وقد

وصف نوغاريت الذي كان المستشار الرئيسي لفيليب من ١٣٠٣ حتى ١٣١٣، مليكه بقوله: «كان مليئاً بالنعمة، محسناً، تقياً، ورحيماً، يمارس دوماً العدل ويتبع الصدق، ولم يكن بذيئاً في كلامه، مؤمناً متحمساً، ومتديناً في حياته، ويبني الكنائس، وينشغل في أعمال التقوى»، ويذكرنا هذا الوصف بأوصاف جوفانفيل للقديس لويس، وكان جوفانفيل قد كتب كتابه أيضاً في هذه الآونة.

وكان فيليب الجميل في الثالثة من عمره عندما توفي جده، وقد تسلم العرش سنة ١٢٨٥ وهو في السابعة عشرة من عمره، وحين تسلم السلطة كانت المملكة الفرنسية مثقلة بالديون، وتحتاج إلى أكثر من ثلاثمائة سنة لوفاء ماعليها، لهذا عمد إلى إنقاص عيار العملة، وإلى فرض ضرائب ثقيلة على البورجوازية في مملكته، وإلى محاولة مصادرة ممتلكات الكنيسة، وقام بتصفية طائفة الداوية واستولى على ثرواتها، وفعل ذلك وهو يتذكر كيف تمنع الداوية عن مساعدة جده في دفع المتوجب عليه من فدية بعد فكك أسره من المنصورة.

وأدت أعمال فيليب هذه، وصراعاته مع إدوارد الأول ملك إنكلترا، ونشاطاته الأخرى في سبيل الاستقلال الدنيوي إلى الصراع مع البابا بونيفيس الثامن، وإلى تبادل التهم والرسائل القاسية، لا بل إلى محاولة اعتقال هذا البابا في سنة ١٣٠٣ في أناني، وكتب فيليب في إحدى المرات إلى بونيفيس يقول: «من فيليب، بفضل الرب ملك فرنسا، إلى بونيفيس العامل بمثابة حبر أعظم، قليلاً من الصحة أتمنى لكم، أو لا شيء، لتكون حماقتكم العظمية معروفة واعلموا أننا في المسائل الدنيوية لا نخضع لأحد أبداً».

وقام البابا بونيفيس بحرمان الملك الفرنسي كنسياً، وقد مرت بنا بعض تفاصيل أخبار الصراعات بين البابا والملك، وكان البابا «ي مارس الجنس بنوعيه، ولا شك أنه كان كاثوليكياً في تذوقه الجنسي، فقد

احتفظ بامرأة متزوجة مع ابنتها بين العاملين على خدمة فراشه، وحاول أن يغوي عدداً من الشباب ذوي الطلعة البهية، والقوام الممشوق، ويبدو أنه نجح في ذلك إلى أبعد الحدود، وقد نقل عنه قوله في تعريف الجنس وممارسته، أن هذه الممارسة (لا يتعدى إثمها قيامك بفرك يديك ببعضهما)، ولا شك أن بونيفيس قد مارس الزنا واللواط، وكانت هذه الممارسة القاعدة التي استند عليها نوغاريت في حملته عليه، وقد رأينا أصدقاء ذلك لدى دوبوا، وفي التشدد على ضرورة الاصلاح الكنسي الشامل، وأن هذا شرط أساسي لاسترداد الأرض المقدسة.

ولا شك أن سانوتو الايطالي الذي عمل في الكنيسة قد عاش هذه الأجواء، وتأثر بها، لكن ذلك لم يثبط من عزيمته، على أساس أن الدعوة الصليبية كفيلة بإحداث التغييرات الداخلية الشاملة في العالم الكاثوليكي، وفي سبيل مشروعه ارتحل سانوتو إلى بلدان المشرق، فزار أرض الشام والاسكندرية، ويحتمل أنه زار أيضاً تونس ثم منطقة القبائل في الجزائر الحالية، وعرف الأراضي البيزنطية واهتم كثيراً بدولة أرمينيا في كليكية الشامية، وأثارته حملات السلطان بيبرس ضدها.

واكتمل مشروع كتابه سنة ١٣٢١ حيث قدمه إلى البابا، فشكل البابا لجنة لفحص هذا الكتاب، الأمر الذي حدثنا سانوتو عنه في مطلع كتابه، وبعد ذلك تابع عمله، وقدم نسخاً عن كتابه سنة ١٣٣٣، إلى بعض ملوك وحكام عصره.

وكنا لدى التعامل مع كتاب بيبر دوبوا، قد عددناه مرة لعصره، وقلنا أنه من الصعب الحديث عن تأثير هذا الكتاب على السياسة الفرنسية الرسمية، لأن دوبوا عجز عن الدخول إلى دائرة المستشارين الملكيين، وعلى عكس دوبوا، أثر كتاب سانوتو على السياسة البابوية وعلى مشاريعها الصليبية، ومثلما وضع لدينا أن أفكار دوبوا قد نهلها من مصادر عصره وسواه ولم يبتكرها، كذلك نجد أن سانوتو قد نهل

من كتابات معاصيه، ولا سيما مما كتبه الراهب الفرنسيسكاني فيدانزيو دي بادوفا, Fidenzio de Padova الذي كتب عن تحرير الأرض المقدسة.

هذا وتزوج سانوتومتأخراً، ورزق بولد واحد، كما أنه كتب رسائل أخرى مع بعض الكتب غير كتاب الأسرار، وجاء كتاب الأسرار بمثابة موسوعة كبيرة ليس كل ما فيها يهم موضوع الحروب الصليبية بشكل مباشر، لذلك وقع الاختيار على المهم من الكتاب، إنما جرت المحافظة على ثبت محتوى الكتاب كاملاً، وكان قد جعل كتابه في ثلاثة كتب، كل كتاب منها في عدة أقسام وفصول، ولعله يكفي القول أنه توجب على العرب التعرف إلى هذا الكتاب منذ زمن طويل، فنحن نرى فيه أسس المشروع الصهيوني الذي طبق في مشرقنا العربي، كما نرى فيه نصاً أخطر بكثير من «بروتوكولات حكماء صهيون»، وليس من الغلو بمكان أننا نرى فيه مخططاً تاريخياً لما حدث في كامب ديفيد، وما يحدث في هذه الأيام.

والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين

وموضوعه الحفاظ على المؤمنين وطرد الكفرة وضمحلهم، وكذلك العمل من أجل استرداد الأرض المقدسة، والمحافظة عليها هي ومناطق أخرى كثيرة، وإبقاء الجميع بسلام وأمان .

المؤلف هو مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، الذي هو من مدينة ريفوالتي، ومن منطقة سينت سيفرو، من أعمال البندقية.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي آمين

في ٢٤ أيلول لعام ١٣٢١، أدخلت أنا مارينو سانوتو، الملقب بتورسيللو، من البندقية، بنعمة غامرة، إلى حضرة أبينا، قداسة البابا، وقدمت له نسختين من رسالة حول استرداد الأرض المقدسة، والحفاظ على المؤمنين، نسخة مغلفة باللون الأحمر، والثانية بصليب، وقدمت له أيضاً أربعة مصورات أرضية، الأول عن البحر المتوسط، والثاني عن الأرض والبحر، والثالث عن الأرض المقدسة، والرابع عن أرض مصر، وكل ما كنت عازماً على قوله له، سلمته إياه مكتوباً، كما هو وارد فيمايلي:

وقبل الأب الأقدس كل الذي ذكرته أمامه، بكل لطف وعرفان، وأمر بأن تتلى عليه المقدمة، وجزء من المحتوى وبعضاً من النصوص بحضوري، ولم يكتف بهذا بل سألني عن عدد من القضايا واستوضح حولها، وقد أجبته على كل ما سألني عنه، وفي الختام قال لي مايلي: «أريد إخضاع هذه الرسالة للفحص»، فأجبته بكل احترام: «هذا ما يطيب لي على أن يتسم الفاحصون بالأمانة»، فأجابني: «لا يساورك أدنى شك حول هذا الشأن»، وأضاف مطمئناً لي يقول: «يمكنك الذهاب حيثما ترغب»، وعندها غادرت، وتلطف بذاته فاستدعى بوانثيودي است Boentio de Ast، وكان من رهبنة الدومنيكان، ونائباً أسقفياً في بلاد أرمينيا، ويعقوب دي كامرينو Jacob de Camerino، من رهبنة طائفة الفرنسيسكان الملتحين، وكان عائداً من زيارة لأخوانه في بلاد فارس، ومتى القبرصي، وبولينو من التابعين للبندقية، وكانا أيضاً من طائفة الرهبان الفرنسيسكان، وناولهم نسخة الرسالة المغلفة بشكل

صليب، وطلب القيام بتفحصها بكل دقة، وأن يرفعوا تقريراً حولها إليه، وانصرف الجميع نحو دراسة الرسالة بدقة وأمانة، وأكبوا على عملهم في بيت بولينو Paulino ، وكتبوا تقريرهم ورفعوه بالاجماع، وبعد مضي ثلاثين يوماً، من تسلم البابا التقرير، وفي يوم السبت من بعد الظهر استدعى الرهبان المذكورين، ثم قابلني أنا أيضاً بترحاب، وسأل الرهبان المذكورين مراراً: «هل أنتم على رأي واحد بهذا الصدد؟» فأجابوه باحترام: «نعم أيها الأب الأقدس، نحن على رأي واحد، ومتفقين وقد كتبنا رأينا حول الموضوع»، وسألهم البابا أسئلة أجابوه عليها، وأجبت أنا على بعضها، ثم أنهى الجلسة بقوله: «لقد تأخر الوقت، اتركوا تقريركم الخطي هنا، ولسوف نستدعيكم من بعد»، وهكذا غادرنا وبقيت الرسالة عنده مع التقرير.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي آمين

أنا مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، من تابعة البندقية، أتقدم إلى قداستكم بكل تواضع وتقوى، بشأن الموضوع الذي مثلت من أجله في حضرتكم، وهو الموضوع المتعلق بشكل خاص بالصالح العام للمسيحية جميعاً في الماضي والحاضر، وأنا لست مدفوعاً من قبل أي ملك أو أمير، أو جماعة، أو محرض من قبل أي شخص على الاطلاق، بل مدفوعاً بمحض إرادتي ورغبتني، ذلك أنني بعد التأمل ملياً حول الخير العميم، وحول المحصلة التي من الممكن لقداستكم تحقيقها بنفقة زهيدة، لابل من دون أية نفقة أو إنفاق، والتمكن من إذلال كبار أعداء الايمان المسيحي وإبادتهم، وخاصة سلطان القاهرة، وأزبك خان التتار المتحكمين بالبلاد الجنوبية، وهو الذي انتشر خبره لدى عدة شعوب على أنه قوي جداً، ومثله الترك الذين هاجموا بلاد الامبراطورية البيزنطية حتى تخوم جزيرة المورة، التي هي تحت حكم اللاتين، يضاف إلى هذا أنه من الممكن مساندة سلطان التتار الحاكم في توريز (تبريز)، وفي بلاد العجم، ذلك أنه عدو لكل من سلطان القاهرة وخان الجنوب، وقد حدث فيما مضى أنه دافع بكامل قدرته عن مملكة أرمينيا ضد المسلمين المعتدين.

ولقداستكم تقدير ضرورة إبادة الأمة الإسلامية، التي نشرها محمد (ﷺ)، ولتعلم قداستكم أن هذا أمر ممكن تحقيقه، حسبما سيتضح الأمر لكم من خلال ما جاء في هذا الكتاب، وسترون أنكم ستتمكنون — بعون الرب — بسهولة ويسر من احتلال أرض الميعاد المقدسة، ومعها باقي المناطق المجاورة، وسيكون بإمكان قداستكم إعادة الاغريق

وباقى الهراطقة إلى حُضن الكنيسة الرومانية الأم، وأُستطيع أنا أن أقول بكل تأكيد: لقد تشوقت نفسي إلى مثل هذا اليوم، اليوم الذي أُجاب فيه إلى ما أنتظر، وأُستطيع فيه المثول أمام حضرتكم، لأهدي إليكم كتبى كلها.

وكنت، في سبيل مشروعى هذا، قد عبرت البحر خمس مرات، حيث ذهبت مرة إلى قبرص، وثانية إلى أرمينيا، وثالثة إلى الاسكندرية، كما ذهبت إلى رودس، وكنت قبل أن أقوم بهذا كله قد أقمت مدة طويلة في كل من الاسكندرية وعكا، وذلك دون خرق للحظر الذي فرضته الكنيسة، وقضيت على كل حال وقتاً طويلاً من أيام حياتى في جزر بلاد الاغريق، ولهذا أعدّ نفسي مطلعاً بشكل جيد على أحوالها، ولاسيما على الأوضاع في إمارة المورة، وقدمت الآن حتى أضمن وضع هذه الكتب أمام قداستكم، من البندقية، عبر طريق البحر إلى بروغو Brugu، ثم أخذت طريقى براً إلى بلاطكم، وكلي أمل أن تنظر قداستكم في أمر هذه الكتب، أو تكرموا بتسليمها إلى من يتفحصها، كما يطيب لكم، راجياً من الخالق العلي، ومن علمكم الشائع، ومن لطف قداستكم المعروف في كل مكان، أن تعملوا ما هو نافع وصالح في هذا المقام.

أيها الأب الأعظم قداسة، لقد صليت دوماً وما برحت أصلي وأدعو طالباً من خالق الجميع، أن يتلطف فيحفظ قداستكم طويلاً في كنيسته المقدسة، وأن يمنحكم النعمة لتنجزوا بتوفيق الذي هو نافع لمجده ولحمده، ولانتشار الإيمان المسيحي.

وبالنسبة لي إنني خاضع لأوامركم دوماً، حسبما هو متوجب على مسيحي مؤمن، أمين.

تقرير الأخوة الرهبان حول رسالة مشروع الأرض المقدسة حول موضوع الكتاب الأول:

أيها الأب الأقدس: بعد تفحصنا الرسالة بكل دقة، اتضح لنا أنه اعتماداً على محتوى الكتاب الأول، من الممكن تجهيز كل ما هو لازم، بطريقة لائقة، من أجل ركوب البحر، والعبور إلى مصر، ولا شك أن موارد السلطان ستضعف، وستنشل قواه ومقوماته، هذا وإن المواد التي نستوردها من البلدان الخاضعة للسلطان، من الممكن الحصول عليها من بلدان أخرى، وعندنا أن هذا سهل تحقيقه، إذا ما نظرنا إلى الماضي، وإلى ما برح يحدث الآن، ذلك أنه من الممكن الحصول على تلك المواد من توريد ومن بغداد، عبر البحر الكبير، وبرا عبر أرمينيا الصغرى، ويبقى السؤال متعلق بمادة الكتان، حيث لا نعلم هل ينبت الكتان في غير مصر أم لا.

وبين الكتاب أنه للوصول إلى الهدف يتوجب الأخذ بثلاث إجراءات:

الاجراء الأول : أن تكون أوامر الحرمان الكنسي أشد مما اعتيد عليه، وقد تظهر الأوامر متشددة للغاية، غير أن ذلك هو الأنفع، وقد طالب المؤلف في القسم الرابع — الفصل الثاني ، بملاحقة المخالفين، مثلما يلاحق الهراطقة، وأن تطبق على من يدعمهم أو يمنحهم المأوى والحماية العقوبات نفسها التي تفرض بحق الهراطقة، ولانجاح المشروع، ينبغي تعيين مفتشين يتولون ملاحقة أمثال هؤلاء الناس، وإنزال العقوبات بهم.

وبشأن ما قاله في الفصل الخامس من القسم عينه: «ليكن محظوراً على أي إنسان — تحت طائلة العقوبات الواردة أعلاه — شراء أية بضائع يخمن — أو يعرف — أنها قادمة من الأراضي الخاضعة للسلطان» فالذي نراه أن هذا الاجراء سوف يسدد ضربة ماحقة لبلاد السلطان، كذلك كان قد قال في «المختصر الوجيز» بوجوب إلزام أي عامل، أو وكيل، أو جماعة (كومونة) بملاحقة من يخالف قرارات الكنيسة، تحت طائلة الحرمان الكنسي الكبير، وهنا نجد من الضروري التشديد على عبارة «جماعة»، لأن من النادر أن تقوم مدينة بكامل عناصرها بالمخالفة، ثم إنه لم تجر العادة بإنزال العقوبة بمجموعة بشرية كلها، يضاف إلى هذا أنه ورد في المكان نفسه : أن على كل من اطلع على هذا الأمر وجوب التشكي على كل مخالف للقوانين تحت طائلة الحرمان الكنسي، ونحن نرى أن هذا قاس جداً، حيث لم يستثن أية حالة خاصة أو وضع منفرد.

الاجراء الثاني : يتعلق بقوله في الفصل السابع من القسم الرابع بوجوب إعداد عشرة غلايين لمراقبة البحر، ثم خفض العدد وينزل إلى سبعة غلايين تتولى مراقبة البحر لمدة ثمانية أشهر فقط، والذي نراه أن عشرة غلايين هي بلا ريب ضرورة وأيضاً كافية، لأنه ينبغي مراقبة البحر على مدار أشهر السنة كلها، حيث تعود الناس في أيامنا على ركوب البحر في الشتاء أكثر مما كانوا يفعلونه فيما مضى.

الاجراء الثالث: هو المتعلق بتعيين قبطان واحد يكون رجلاً صالحاً مجرباً، وعظيم القدرة، والذي نراه أنه من الضروري بسبب الطوارئ التي تحدث بكثرة يومياً تزويد هذا القبطان بمستشارين أمناء، وصالحين، ورجالاً ذوي خبرة ومعرفة بشؤون البحر، وبعادات التجار، وأن يعمل كل شيء بعد التشاور معهم، ذلك أنه إذا ما حدث حدث ما، بدافع من التعجرف، أو الشره، أو لسمة شريرة وجائرة، وعمد إلى

استخراج الغرامات من غير حق من التجار الشرفاء، قد تنهار التجارة بكل سهولة، وقد تطرق المؤلف إلى هذا الموضوع في الفصل الأول من الكتاب الثاني، والذي نراه أنه يكفي أن يكون في كل غليون رجلاً نزيهاً يتولى عمل المشرف الأعلى.

حول موضوع الكتاب الثاني:

نرى أنه بالنسبة لما جاء في الجزء الأول، أن الحل الأمثل هو أن على قائد الجيش الثاني، أي الجيش المكون من خمسة عشر ألف رجل، مع ثلاثمائة فارس، أن «يختار قاعدة له في أحد المراسي المصرية، حتى يستقبل هناك جماعات العابرين بحراً»، وبهذا المقام نتساءل: أي مرسى سيكون هذا المرسى، على الرغم من سماعنا عن شواطئ تتوافق مواصفاتها مع التي وردت في الكتاب؟

ونحن نقرّ الجزء الأول، باستثناء قوله: «أن تتم الدعوة للحملة الصليبية في السنة الثانية أو الثالثة» فالذي نراه وجوب الشروع بذلك الآن على الفور، وطبعاً بعد الإعداد الموائم.

وفيما يتعلق بما قاله في خاتمة الجزء الثاني من أنه «ينبغي عدم قيادة جيش الرب مباشرة بطريق البر إلى المرسى المصري المشار إليه أعلاه»، نرى وجوب أن يضاف هنا إلى ما تقدم أن الملك القديس لويس، لما عبر البحر في المرة الأولى، أخذ طريق قبرص، في حين أنه لما قام بحملته الثانية كان — بعدما اختبر ما هو الأفضل — عازماً على قصد مصر مباشرة، غير أنه بدّل الطريق واتجه نحو تونس، ومن هناك عبر إلى السماء، وكان سبب ذلك أنه لم يؤمن وصول الميرة والامدادات الأخرى، وحصل الشيء ذاته مع الأمير إدوارد، الذي صار فيما بعد ملك إنكلترا، فإننا نقرأ أنه بعد تفحص الأماكن والشؤون البحرية، وقع اختياره على ما اختاره [الملك الفرنسي]، مع أنه كان أيضاً عازماً في

البداية على الاستيلاء على الأرض المقدسة، وأن يقوم في مرحلة لاحقة بالاستيلاء على مملكة القسطنطينية وتاجها.

وبشأن قوله في خاتمة الجزء الثالث: «على المقاتلين المسيحيين بعد التمرکز والتحصن البقاء بشكل دائم»، يبدو لنا أن هذا صحيحاً، إذا ما تحقق ما قيل من قبل حول المرسى المصري.

وتضمن الجزء الرابع وصف أساليب القتال، وأنواع الأسلحة والاحتياطات البحرية، وهذه أمور لا خبرة لنا فيها، ولسنا مؤهلين بما فيه الكفاية لإصدار الرأي حولها، ويبدو لنا — مع ذلك — أن ما قيل عنها متوازن ومرتب ترتيباً حسناً.

حول موضوع الكتاب الثالث:

الكتاب الثالث كتاب تاريخي، رسم الماضي لإعطاء تحذير للمستقبل، وجاء في القسم ما قبل الأخير وصف للترتيبات المتعلقة بمملكة سورية ومصر، وخاصة الأرض المقدسة، وحوى الجزء الأخير أمثلة كثيرة تعلقت بالجيش وبالاحتياطات المتوجب اتخاذها أثناء الحرب، وجاء في النهاية عرض لقانون ملوك القدس.

ويساعد كل ما تقدم على المحافظة على البلاد، أكثر مما يساعد على الاستيلاء عليها، وأبحاث الكتاب أبحاث طويلة ومسهبة جداً، مما دفعنا إلى عدم تفحصها كلها، ومهما يكن الحال، الذي نراه هو أن الأسلوب أسلوب جيد، وجدير بالثناء.

أسرار الصليبيين الحقيقيين

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي

آمين

مذكرة مرفوعة إلى جلالة الملك، بكل احترام وخضوع، من قبل مارينو سانتو، المعروف بلقب تورسيللو، من البندقية، الذي قدم إلى جلالته الكتب والمصورات الأرضية من أجل احتلال الأرض المقدسة والمحافظة عليها مع المناطق المجاورة لها، وهو يقول: إنه لن يكون لجلالتكم مجد من جراء الاستيلاء على العالم ونيل الفردوس، أدنى مما ناله الاسكندر الذي استولى على العالم، ويمكن أن يتم لكم ذلك باتباع الترتيب التالي، والطريقة الموضحة فيمايلي:

أولاً: على جلالته الشروع برحلة عبور البحر، وفق الطريقة المعدة، أو وفق أية طريقة قد تروق لجلالتكم، وإذا ما تعذر تنفيذ ذلك فوراً مع عدد كبير من الناس، فليكن ذلك — على الأقل — بوساطة عشرة غلايين، كل غليون منها مشحون بمائتين وخمسين رجلاً، للتحكم بالبحر ومراقبته، وثلاثمائة فارس، وألف من الرجالة الشجعان للحفاظ على بلاد أرمينيا، ذلك أنه سيكون أذى عظيماً وعاراً كبيراً على المسيحية كلها، إذا ضاعت تلك البلاد.

ثانياً: ينبغي إعداد ترتيبات مع قداسة البابا كي يرسل موفدين من قبله، مع مبعوثين من قبلكم إلى جميع البلدان المسيحية، لإبلاغها أنه إذا ما توجب الاحتفاظ بالأرض المقدسة تحت السلطة المسيحية، فإنه مطلوب من كل بلد منها الاسهام، وسوف يخصص لكل بلد منها نصيب من البلاد بقدر ما كان قد ساهم به، وجميع المكاسب التي سوف تتجمع من جراء ذلك، سوف توضع في مكان آمن ومضمون، ولا

يصرف شيء منها، إلا لتمويل العبور المقدس.

ثالثاً : حبذا لو تلطفت جلالتم بعقد ميثاق صداقة مع دوج البندقية وحكومتها.

رابعاً : وأتمنى أن تعينوا من قبلكم قائداً للجيش، ممن ترونه لائقاً، على شرط اتباع الترتيبات الموضوعية في الكتب التي رفعتها إلى جلالتم، وإذا ما أنجزت — بعون الرب — جلالتم هذه الترتيبات، فإنني أعتقد أن الملك روبرت، والملك فردريك صاحب صقلية، وامبراطور القسطنطينية سيكونوا طائعين لكم في كل ما هو معقول، وبهذه الطريقة سيتمكنون من احتلال الأرض المقدسة والبلدان المجاورة لها، لابل كل ما بقي من العالم لن يستطيع الصمود أمام جلالتم، ويمكنكم التأكد من هذا كله من خلال الكتب ومصورات الأرض المشار إليها من قبل.

وبخصوص البند الأول، إنه إذا ما اعترض معترض وقال بأن القوة المسلحة سوف تكون ضئيلة جداً، فإن مارينو سانوتو يجيب بأن تلك سوف تكون — بعون الرب — كافية للقيام بهذه المهمة، لأنها سوف تجد في قبرص وفي رودس وفي غيرها من جزر اليونان نحو عشرة غلايين جيدة التسليح سوف تنضم إلى أسطولكم، فضلاً عن هذا، يمكن للجزر المذكورة تجهيز عشرة غلايين أخرى في زمن وجيز، ويضاف إلى هذا، إنه غالباً ما يوجد في ذلك الجزء من البحر عدد من السفن العائدة للتجار، من الممكن الاستعانة بها لا يقل عن عشر سفن منها، شريطة التحكم بالبحر بشكل جيد، بعون الرب.

أما جزيرتا قبرص ورودس فيمكنهما بيسر تأمين ثلاثمائة وخمسين فارساً، يتولون بلا انقطاع حماية منطقة أرمينيا، وعندما سيسمع المسيحيون بالأمر، فإن عدداً كبيراً منهم سوف يهبون لتقديم العون

والنجدات.

وهكذا نجد بشكل منطقي أن بلاد أرمينيا وقبرص ورودرس وغيرها من جزر البحر، ستنال حراسة كافية، وبذلك سوف تتضاءل كثيراً موارد السلطان ولسوف يلحقه ضرر عظيم من جراء ذلك، وستجد الشعوب المسيحية القانطة من رؤية أي عمل مفيد، تشجيعاً كبيراً، ولسوف تتبرع بما لديها بسخاء أعظم للتفريج عن الأرض المقدسة ومساعدتها، وإذا لم تتم المبادرة باتخاذ إجراء سريع وفعال، سوف يلحق الشعوب المسيحية اليأس، وسيحقد بالمسيحية كلها خطر عظيم، وخاصة بالمسيحيين القاطنين في تلك البقعة من البحر إذا لم تبادر جلالتم (*) فتتلف بتقديم العون وسبل الخلاص.

* — يرجح أن هذا الخطاب قد رفع إلى فيليب الجميل ملك فرنسا.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي آمين

هناك في الوقت الحالي ثلاثة إجراءات ملحة لصالح المسيحية هي:

١ — المحافظة على منطقة أرمينيا.

٢ — إحداث تنظيم على الأرض وفي البحر بشكل دائم لليوم وللمستقبل، والقيام بملاحقة المخالفين. وتعيين مشرفين لهذه الغاية.

٣ — شحن غلايين لمراقبة البحر، مع وجوب تطبيق عملها حسبما هو موضح ضمن هذا الكتاب.

وقد يسأل سائل: «كم من الجند سوف يلزم للحفاظ على أرمينيا؟» وله أجيب باحترام، أنا مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو من البندقية قائلاً: إنه يلزم للحفاظ عليها ثلاثمائة فارس وألف من الرجال، وعشرة غلايين، جيدة التجهيز، تمولها الكنيسة الرومانية بالاشتراك مع مملكة قبرص وجزيرة رودس، وجزر بلاد الاغريق، لأنه إذا ما تأمنت الحراسة البحرية بوساطة الغلايين المذكورة، وغيرها من أنواع السفن التي تكون هنا وهناك، سوف يكون بإمكان مملكة قبرص أن تؤمن باستمرار إرسال الامدادات إلى أرمينيا، هذا وفيما يتعلق بفرسان الاسبتارية، إنه بسبب إنخفاض النفقات التي تقتضيها حماية جزيرة رودس، وبسبب الامدادات المرسله من قبرص ومن أرمينيا، يمكنهم بيسر تأمين نفقات مائة وخمسين فارساً من المجهزين للذهاب إلى أرمينيا، وسوف يبادر العديد من الكاثوليك من بلدان عدة — لدى سماعهم بالعون الذي تقدمه الكنيسة — إلى المساهمة، وكذلك سيفعل الأرمن حسب إمكاناتهم، ذلك أنهم سيتوقفون وقتها عن دفع الجزية إلى

السلطان، ويسخرون من جهة أخرى إمكاناتهم لتجهيز جيش خاص
٠٣٢٠

ومن الممكن عقد آمال عالية — دون الخشية من الانتكاسة —
بالحصول على موافقة التتار، ومساعدة الذين يحكمون في بلاد فارس
وفي بلاد الكلدانيين، حتى وإن كانوا بغالبيتهم من أتباع تلك العقيدة
المنبوذة، ذلك أن المرجح هو تطلعهم أولاً إلى ما هو مفيد لصالحهم قبل
صالح الآخرين.

وللوصول إلى غاية هذا كله، سوف تتكلف الكنيسة مبلغ مائة
 وخمسين ألف فلورين ذهبي، وبالمقابل سوف يلحق بالسلطان خسارة
 سنوية مقدارها مليون فلورين ذهبي، فضلاً عن بقية الأضرار التي
 سوف يتحملها هو والشعوب التي تحت سيطرته، شريطة أن تستمر
 الكنيسة بملاحقة المخالفين بوساطة المشرفين التي تولت تعيينهم.

وإذا ما سئلت لماذا يقوم سلطان مصر بشن هذا العدد من الحملات
 ضد منطقة أرمينيا، طالما أنه يتسلم من الأرمن جزية أعظم من المبالغ
 التي يجبيها من مملكته ومن الخاضعين له، فضلاً عن أن هذه الحملات،
 تستدعي الكثير من النفقات؟ أجيب إن لذلك أسباب ثلاثة:

أولها : إنه بعمله هذا يقوم بتحويل طريق التجارة التي كانت تمر عبر
 أرمينيا إلى أراضيه.

وثانيها : هو أن أرمينيا تقع فيما بين تركيا المدعوة بآسيا الصغرى،
 وبين الأراضي الخاضعة للسلطان، فإذا ما استولى عليها سوف تتضاعف
 قدرته وإمكانات الأتراك وغيرهم من المسلمين الموجودين في بلدان
 مجاورة، ويجعله هذا يضمن أن بمقدوره الوقوف في وجه التتار،
 المتسلطين على بلاد فارس وبلاد الكلدانيين، ولهذا السبب حاول العديد
 من المسلمين مراراً توحيد كلمتهم، وقد ساعدتهم في ذلك بعض التتار

مع بعض الأرمن.

وثالثها: الرغبة في تدمير قوى المسيحيين الموجودين في الجزء المقابل من البحر، فإذا لم نبادر ونتخذ أسباب الحيلة، فإن أرمينيا لن تتمكن من البقاء طويلاً تحت سلطان المسيحيين، ولن تكون الوحيدة في مواجهة هذا المصير، بل ستعرض للمخاطر نفسها قبرص ورودرس وما تبقى من جزر بيزنطة.

وإذا ما حدث — لا سمح الرب — وتحالف — كما هو متوقع — السلطان والأتراك فإنهم سينالون العون من التتار الذين يحكمون بلاد الخزر (القبيلة الذهبية) وغيرها من المناطق الجنوبية، ذلك أن إرادتهم اليوم غير موحدة، ومع ذلك يخشى أن يتبدل حالهم في المستقبل، لهذا نتمنى على قداستكم إيجاد العلاج المناسب الذي ترونه.

الألقاب التي تطلقها رعايا السلطان عليه

السلطان الأعظم، السيد الأجل، السلطان الناصر، الشاهنشاه، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، سلطان الاسلام والمسلمين، فلان الدنيا والدين، مبيد الطغاة والبغاة والكفار، ولي أمير المؤمنين، سلطان العرب والعجم والترك، فاتح الأقطار، وهازم جيوش التتار، اسكندر الزمان، ومولى الاحسان، ملك البحرين، مملك أصحاب المنابر والأسرة والتيجان، سيد الملوك والسلاطين محمد ابن السلطان الملكي، سلطان البسيطة، السلطان الملك قلاوون».

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي آمين

أول رسالة كتاب الأسرار للحفاظ على المؤمنين، ولطرد الكفرة ولاضمحلهم، وللعمل كذلك من أجل استرداد الأرض المقدسة، والمحافظة عليها، هي وغيرها من المناطق، وإبقاء الجميع بسلام وأمان.

إلى قداسة مولانا البابا، الحبر الأعظم للكنيسة المسكونية الرومانية، من مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، الذي هو من مدينة البندقية، ومن منطقة سينت سيفرو، من أعمال البندقية.

بعد لثم قدميكم المقدستين بتواضع واحترام.

في سبيل مجد الرب القدير، وإكراماً لمولانا يسوع المسيح، ومن أجل إعلاء شأن الايمان المسيحي، قد أخذت على عاتقي القيام بعمل شاق، وقد سهرت الليالي الطوال كي أعثر على سبيل يقود إلى استرداد أرض الميعاد المقدسة، والحفاظ عليها، بشكل أعظم ضماناً من الماضي، ففي تلك الأرض جرى خلق العالم، وفيها كان خلاصه حسبما جاء في الكتابات المقدسة، ففي الخليل (حبرون) تكوّن آدم، الأب الأول للبشر، وفي القدس صلب الرب لفداء العبد والبريء بدلاً من المذنب، وبدل الرب الطينة، وهناك أيضاً كما ذكر يوثيل قول الرب: «أجمع كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهوشافاط، وأحاكمهم» [يوثيل : ٣ / ٢].

ومرد هذا كله محبة الأرض المقدسة في كل قلب لامس شغافه حب الرب وحب موطنه، واسترداده وزيارته، وخير الرب وجلالته واحترامه، والخوف والرهشة الدنيوية، وأداء الحساب الأخير.

لأول عشق سحر خاص وجاذبية، وهكذا يبحث المولود حديثاً عن أمه وعن ثدييها، وكذلك ترجع الأنهار إلى البحار، أي إلى حيث

خرجت، وأيضاً يجذب المغناطيس، لأن في المغناطيس طاقة تجذبه دوماً إلى القطب الذي جاءت منه بدايته.

ومثل هذا لا يستطيع المؤمن صم أذنيه لدى سماعه الرب وهو يقول ليعقوب: «قم اخرج من هذه الأرض وارجع إلى أرض ميلادك» [خروج: ٣١ / ١٣]، فبدلاً عن ذلك عادت إلى هناك تلك الأمة الآثمة المفسدة، التي لم توجه قلوبها قط نحو الرب، ولا أسلمت إليه عقولها، بل مثل الصل، أصمت آذانها.

ويتوجب الآن على المسيحيين الحاليين التحرك بدافع العرفان للمخلص وإكراماً له، فهو الذي صعد على الصليب، مثلما يصعد على سفينة، وكان قد أوضح للذين فداهم بدمه ضرورة حمل الصليب ذلك أنه هو الذي قال: «من لا يحمل صليبه ويتبعني ليس جديراً أن يكون لي حوارياً»، ولهذا عندما صعد إلى السفينة (لحقه حواريوه) وكان ذلك صورة ورمزاً ليسوع الذي صعد السفينة، ثم ذهب إلى مدينته (حسبما سيأتي في الفصل الثاني)، وهكذا لن نتمكن من الذهاب إلى تلك المدينة إلا على سفينة الصليب، والخوف والرهشة من الحساب الصارم سوف تخيم علينا عندما يأتي الديان غاضباً، وعندما يأتي يكون كل شيء أمامه مكشوفاً ومعري بما في ذلك القدس حيث قال: «ويكون في ذلك الوقت أني أفتش أورشليم بالسرج» [صفنيا : ١ / ١٢]، فهل يا ترى سيبقى أي شيء مغطى في مصر، عندما يفتش الرب بسرجه كل شيء في القدس،؟ ولسوف يدعو صوت الملاك جميع الخلق إلى وادي شعفاط منادياً: «قوموا أيها الموتى، وهلموا إلى الحساب»، فلنبادر بالذهاب إلى هناك، إما شخصياً، أو بالمساهمة بما نتبرع به، ومن الأفضل أن نمضي إلى هناك قبل أن نسبق، ولنبدل قصارى جهدنا للحصول على قطعة من تلك الأرض، إما بالحرب، أو بالمال، حتى لا نكون يوم القيامة ضيوفاً وغرباء بل من سكان بيت الرب وأتباع القديسين، لأنه كما قال زكريا: «من لا يصعد

من قبائل الأرض إلى أورشليم ليسجد للملك رب الجنود، لا يكون عليهم مطر» [زكريا : ١٤ / ١٧].

وبالنسبة لي لقد أثارتني هذه الأمور، فكان أن عمدت إلى كتابة هذه الرسالة حول أرض الميعاد المقدسة، ونسقت كتبها ورتبت أجزائها لأرفعها إلى صاحب الكرسي الرسولي المقدس، حتى ينظر إلى محتوياتها، ويستدرك ما فيها من نقائص ويصلحها عند الضرورة، ويقرر ما سيكون نافعا لمجد الرب، ولمجد كنيسة المقدسة.

وإكراماً للثالوث الأقدس قمت بتقسيم هذه الرسالة إلى ثلاثة كتب، لأنه عندما يكون الجسم عالياً يعطى ثلاث صفات سريعاً:

١ — بلسم لتحسين أوضاعه، لأن الدواء لا يعطي مفعولاً، إلا إذا كانت استعدادات المريض موائمة.

٢ — الدواء الموائم، لإزالة المرض، وإعادة الصحة.

٣ — وللمحافظة على الصحة يعطى راتباً غذائياً موائماً، يتجنب فيه كل ما هو مضر حتى وإن كان شهياً، ذلك أن علينا اختيار ما هو مفيد للصحة حتى وإن كان مرأً.

وبناء عليه يحتوي الكتاب الأول على نوع من الشراب، أي على ما يلزم لتحرير الأرض المقدسة ومعالجة أمورها، ذلك أنها رازحة منذ زمن طويل كالسقيم المقعد تحت سلطان شعب فاسد، ويقود الكتاب الثاني إلى الصحة، وإلى التحرر التام، وأما الكتاب الثالث، فهو يرشد إلى كيفية العمل للمحافظة عليها حتى لا تقع مجدداً تحت حكم الكفار،

والكتب مقسمة بدورها إلى أقسام عامة، تسهل استيعاب مضمونها بسرعة وإيجاز، ومثل هذه الأقسام مجزأة إلى فصول تساعد على فهم كل موضوع يجري بحثه بوضوح وبدقة، وهكذا نجوز مما هو شامل إلى ما

– ٣٤٧٠ –

هو مفصل، أما محتوى تلك الكتب والأقسام، والفصول فقد رتبناها
كمايلي:

الكتاب الأول حول مشروع الأرض المقدسة

ويحتوي على الاجراءات والاستعدادات المتوجبة لاسترداد الأرض المقدسة، وهو في خمسة أقسام:

القسم الأول: ويشتمل على طرق إضعاف قدرة السلطان، وتبيان كيف أن باستطاعة المؤمنين بالمسيح الحصول على المنتجات اللازمة دون الاضطرار إلى الذهاب إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، وتقدير للأذى العظيم وللأضرار الكبيرة التي سيتكبدها الكفار أتباع السلطان، إذا توقف التعامل البحري معهم، وهذا القسم في ستة فصول:

الفصل الأول: تبيان للأرباح التي يجنيها السلطان وشعبه من المنتجات القادمة من الهند، مع أسماء المراسي إلى حيث تشحن تلك المنتجات، وكيفية تحويلها عن المناطق الخاضعة لنفوذ السلطان.

الفصل الثاني : إيضاح كيف أن المنتجات التي نحتاجها، والقادمة إلينا من بلاد السلطان، يمكن الحصول عليها من بلاد المسيحيين.

الفصل الثالث: تبيان طريقة لمنع عبور الأفاوية والكتان والقنب والأقمشة المنسوجة، من مصر إلى البحر المتوسط فأوروبا، ذلك أن الإتجار بها يعود بأرباح كبيرة على السلطان وعلى الشعب الخاضع له.

الفصل الرابع : ذكر للأضرار التي سوف تلم بالسلطان وبالشعب الخاضع له في حال إيقاف تصدير الذهب والفضة والحديد وبقية أنواع المعادن وغير ذلك من المنتجات إليهم.

الفصل الخامس: تبيان للخسائر الفادحة وللنفقات الكبيرة التي ستتوجب على السلطان وتنزل به إذا أوقف تصدير المواد الغذائية، والمنتجات المتنوعة، من بلاد المسيحيين إلى بلاده.

الفصل السادس : وصف بلاد مصر، وتبيان الضرر العظيم الذي سوف يلم بمصر إذا ما انقطعت عنها السفن مع باقي الأصناف المحتاجة للملاحة البحرية.

القسم الثاني: ذكر كيف أن إحدى المناطق الخاضعة للسلطان قد تعرضت للضعف، وهو في فصلين:

الفصل الأول: شرح كيف تضاعفت ثروة إحدى المناطق الخاضعة للسلطان، والمعني بذلك المنطقة الواقعة خلف البادية وكذلك في بعض أرجاء سورية.

الفصل الثاني : يوضح كيف أن عدد السكان وخاصة الرجال المقاتلين، قد تضاعف في الأراضي الخاضعة للسلطان .

القسم الثالث: ذكر للبضائع التي يحتاجها المسلمون، والتي لا بد لهم من الحصول عليها من الخارج، ويقع هذا في فصلين:

الفصل الأول: الأسباب الداعية لمنع تصدير السفن وباقي اللوازم المحتاجة للملاحة إلى المسلمين في مصر.

الفصل الثاني: تبيان للطرق والاجراءات التي يتخذها المسلمون في مصر للمحاماة عن منطقتهم، ولكي يحصلوا من البلدان الأخرى على الغلمان والجواري.

القسم الرابع: وجوب إيجاد إجراء للمقاطعة أنفع من الاجراء الحالي، وكيفية إعداد الغلايين اللازمة للدفاع عن المسيحيين الساكنين في تلك المناطق من البحر، وبالوقت نفسه لتدمير المسلمين، وكيفية العمل لمنع أية أعمال تجارية على الإطلاق مع البلاد الخاضعة للسلطان عبر البحر المتوسط، ويحتوي هذا القسم على سبعة فصول:

الفصل الأول : لماذا يتوجب منع أي اتجار مع المسلمين الخاضعين

للسلطان من دون استثناء، أو اتصال بهم، أو سفر إلى بلادهم.

الفصل الثاني: لماذا يتوجب على جميع المسيحيين مطاردة المخالفين لأوامر الكنيسة في هذا المجال، في كل مكان، وليس فقط في البحر بل وفي البر.

الفصل الثالث : وجوب إغلاق الطرق في وجه البضائع التي اعتاد التجار على نقلها من الأراضي التابعة للسلطان، عبر أفريقيا كلها، ثم عبر الأندلس حيث يقيم المسلمون.

الفصل الرابع: أسباب وجوب أن يشمل هذا الحظر حتى الشمال من نهر سيحان حتى آني Annia .

الفصل الخامس: الأسباب المسوغة لمنع أي مسيحي من شراء أية بضائع مجلوبة من البلدان الخاضعة للسلطان، مهما كانت الطرق التي جاءت منها.

الفصل السادس: العقوبات المتوجب إنزالها بالأمرأ وبحكام المناطق وبالجماعات التي لا تلتزم بهذه الإجراءات، فتستقبل تلك البضائع في مراسيها، أو في أراضيها.

الفصل السابع : مراقبة البحر وحراسته، وكيفية تأهيل الجهاز الأمني الأول للمسيحيين — أي الجيش — للحرب، ومقدار التكاليف.

القسم الخامس: الأسباب المسوغة لتوجب يقظة الكنيسة في هذا المجال وهو في ثلاثة فصول :

الفصل الأول: الحث على متابعة تنفيذ هذا المشروع بعد الإقلاع به مباشرة.

الفصل الثاني: التوجه بشكل ملح ببناء نحو المسيحيين في البلدان الأوربية وطلب النجدة منهم ومن زعمائهم وملوكهم.

الفصل الثالث: خاتمة فيها خلاصة كل ما ورد في الكتاب الأول.

بداية الكتاب الثاني من هذه الرسالة.

ويحتوي على الطرق الواجب اتخاذها والوسائل

المتوجب استخدامها لاسترداد الأرض المقدسة

وهو في أربعة أقسام

القسم الأول : تنظيم الجيش المسيحي الثاني وشكله، وهو في أربعة فصول:

الفصل الأول : وجوب وجود قبطان واحد، مع المؤهلات التي ينبغي توفرها فيه، وعدد معاونيه والأماكن المتوجب عليه الرسو فيها.

الفصل الثاني : الدولة البحرية الأكثر مواءمة لتنفيذ هذا المشروع.

الفصل الثالث: الإعداد للإبحار، والتجهيزات الواجب تهيئتها من أجل عبور مجموعة من الجنود، وتحضير الامدادات، وسبل اكتساب صداقة التتار.

الفصل الرابع: كمية النفقات اللازمة لجيش قوامه خمسة عشر ألفاً من الرجال وثلاثمائة من الفرسان، والعطاء الواجب أن يؤمن لهم.

القسم الثاني: تحديد الطرق التي يرى بعضهم أنها أكثر مواءمة ليركبها الجيش تحت راية الكنيسة، وتسمية أفضل طريق بحرية للوصول إلى مصر، وهو في عشرة فصول.

الفصل الأول : في أنه لا يجوز أن تسلك راية الكنيسة طريق البر.

الفصل الثاني : ردّ رأي القائلين بوجوب رفع هذه الراية على أرض أرمينيا أو سورية أو القدس في الأرض المقدسة، أولاً.

الفصل الثالث: رفض رأي القائلين بوجوب الإنزال البحري في قبرص، أولاً.

الفصل الرابع: التحصينات وملحقاتها، وحديث حول التفكير الدأوب لدى البابا ولدى أخوانه بشأن حشد هذا الجيش من رعيته ومن المؤمنين بغية ضمان التحصينات، والذي تم في الماضي للاستيلاء على تلك التحصينات، وما ينبغي الآن القيام به للغاية نفسها.

الفصل الخامس: مثل رمزي يتعلق بشجرة يتوجب اقتلاعها، وما هو متعلق بها، وبالينابيع التي ترويتها، وبالثمار التي تعطيها وتنتجها، وحول الذين يذهبون لشراء ثمارها، وكذلك حول الأمراء الأتقياء الذين لم يريدوا ولا أرادوا وما زالوا يريدون اقتلاعها، وحول ما تمّ ويمكن أن يتم بهذا الشأن.

الفصل السادس: حديث حول التحصينات وما لف لفها.

الفصل السابع: حديث حول الشجرة وتوابعها.

الفصل الثامن: ضرب مثل فيه برهان على ضرورة محاربة المسلمين في مصر، إذا ما أردنا استرداد الأرض المقدسة، وهو برهان مقتبس مما جرى بين أهل البندقية، والسيد بطريك أكويلا أثناء الخلاف حول النمسا.

الفصل التاسع: سوق برهان آخر باهر، صدوراً مما حدث في مصر أيام القديس ملك فرنسا، وفي أيام اثنين من ملوك القدس اللاتين.

الفصل العاشر: الذي ينتظره الذين يطبقون — بعون يسوع المسيح — تدابير هذه التوصية.

القسم الثالث: بناء سور أمني في مصر البحرية، واختبار تطبيقي للقدرة على محاربة المسلمين، وهو في أربعة فصول.

الفصل الأول: حول الوسيلة التي يستطيع المسيحيون بوساطتها الاستمرار في تحصينات مصر البحرية، وذلك وفقاً لما قامت به البندقية التي تمكنت من الصمود في وجه الغاليين حين زحفوا ضدها، وكذلك في وجه الأفارقة والقبارصة وأتيل، واللومبارد، وسواهم.

الفصل الثاني: حول الاستعدادات التي يمكن للمسيحيين بوساطتها حماية أنفسهم في مصر، ضد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة.

الفصل الثالث: كيف يمكن للصليبيين أن يزعموا أركان مصر، ضرب مثل بما تمكن من صنعه البنادقة وأصحاب المدن، والأماكن القائمة على مستنقعات وعلى أنهار.

الفصل الرابع: جواب مقنع لما قد يثار من شكوك.

القسم الرابع: ويدور حول الخطة والأسلوب والترتيب والاحتمالات الممكن حدوثها في حال نشوب المعارك وما يتعلق بها، وذلك من أجل تحقيق مشروع الأرض المقدسة بنجاح، وفيه إيضاح على أن المسلمين والمنشقين لن يتمكنوا بشكل منطقي من الدفاع عن الأرض، وفيه تسع وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: ما يثار من اعتراضات حول قدرة الجيش المسيحي، وحول العوائق المفترضة، التي قد تحول بينه وبين الوصول إلى النتيجة المتوخاة، وجواب منطقي لتلك الاعتراضات.

الفصل الثاني : بعض الحجج حول إمكانية أن يهاجم السلطان من جهة النيل، والإجابة لهذه الحجج.

الفصل الثالث: المثل الذي ضربه قورش ملك الفرس، ووثائق الجيش الصليبي.

الفصل الرابع: التساؤل عما إذا كان عدد المراكب التي عند المسلمين

على النيل يمكنها مقاومة جيش الصليبيين، وإيجاد حل لهذه المشكلة.

الفصل الخامس : حول المؤن والدفاع وتجهيز سفن الجيش الصليبي.

الفصل السادس : ما يفترض أن تكون عليه السفن حتى تكون صالحة لعبور البحر، وتحقيق مشروع مصر بنجاح.

الفصل السابع: حول السفن المؤهلة لنقل الامدادات وباقي الأشياء المناسبة للجيش سواء عن طريق البحار، أو عن طريق الأنهار، وحول كيفية الملاحة في المياه العذبة، وحول ما هو أكثر فائدة لإنجاز المشروع المذكور.

الفصل الثامن : أصناف الأسلحة وتعدد أشكالها من دفاعية وهجومية، وذلك مما يحتاجه الجيش الصليبي.

الفصل التاسع: كيف يقوم القبطان بتنظيم عناصر ذلك الجيش، وكيفية توزيع المؤن عليها، حتى يسير كل شيء بنظام وبوئام.

الفصل العاشر: كميات الميرة، والطرق المتبعة لدى أهل البندقية لتوزيع الميرة على العاملين في غلايينهم، وعدد الأفراد المستخدمين، والزمن، والوزن، والعيارات، والمقاييس، وكل ما يناسب منطقياً إكماله.

الفصل الحادي عشر: عدد الغلايين التي يحتاجها الجيش الصليبي، وأشكالها، في أعماله البحرية لكي يستولي على بلاد مصر، وكيف على القبطان التصرف لإنجاح ذلك.

الفصل الثاني عشر: الأسلوب الفني المتبع لصناعة الأدوات للملاحة، والزمن المحتاج، والترتيب المأخوذ به لحفظها ولتكون أسرع وخاصة المجاذيف.

الفصل الثالث عشر: حول أنواع باقي السفن التي يحتاجها الجيش الصليبي لنقل الميرة وبقيّة أشكال المواد اللازمة للصليبيين الذين

سيعبرون البحر فيما بعد، وحول الأماكن وأسمائها وعددها، والترتيب الواجب اتباعه لإيصال الميرة، وحول الأماكن التي يتوفر وجودها، أو يمكن الحصول عليها. وفي هذا الفصل إيضاح أن السفن العائدة للكنيسة الرومانية المقدسة لاتناسب ولا تفيد.

الفصل الرابع عشر: إيضاح كيف أنه لا بحار إلى مصر ينبغي توفر رؤية جيدة، ومناخ مناسب، وإيضاح لفوائد مناخ مصر وكثرة المياه فيها.

الفصل الخامس عشر: المواصفات المطلوبة من الأشخاص الذين يمكن للكنيسة الرومانية المقدسة أن تتعاقد معهم لقاء عطاء، حتى يتحقق هذا المشروع.

الفصل السادس عشر: حول شكل تبديل عناصر الجيش وطريقة ذلك، وحول المشافي للمرضى، وكيف ينبغي تأمين كل شيء سلفاً، وحول النساء المتزوجات المرافقات لرجالهن، وحول شؤون الأراامل والورثة وغير ذلك من الأمور الواجب أخذها بعين التقدير.

الفصل السابع عشر: حول المناطق الأماكن التي يمكن أن يتوفر بها ملاحون مهرة للملاحة في المياه العذبة مثلما في البحار.

الفصل الثامن عشر: حول الملاحين القاطنين في الشطر الآخر من ألمانيا، وهم من حيث المبدأ صالحون لإعطاء إرشاداتهم، ومفيدون في الإسهام في إنجاح الحملة .

الفصل التاسع عشر: حول التبشير من أجل حملة صليبية عامة، وأنواع العساكر اللازمين لاحتلال مصر.

الفصل العشرون: حول عدد الرجال اللازمين لكل غليون، لتأمين الحماية الموائمة له، ووظائف هؤلاء الرجال، وأعمالهم، والمرتبات،

والوقت، ونفقات الأطعمة اللازمة لثلاثمائة فارس وأجورهم.

الفصل الحادي والعشرون: إيضاحات وتنبيهات، وأوامر، وإجراءات احتياطية متعلقة بذلك الجيش.

الفصل الثاني والعشرون: حول صناعة الأعتدة، والأسلحة، وخاصة آلات الرمي، والمقذوفات، وكل ما من شأنه تطوير تلك الأسلحة.

الفصل الثالث والعشرون: كيف يمكن للمأجورين من قبل الكنيسة الأم المقدسة، القيام، بعد نزولهم على شواطئ مصر البحرية، بإرباك المنشقين والمسلمين بوساطة غلايينهم، وتكبيدهم الأضرار الكبيرة والخسائر الفادحة، وذلك قبل وصول جحافل الصليبيين.

الفصل الرابع والعشرون : إعدادات متقدمة وتنظيمات واحتياطات موائمة تماماً تتعلق بالأسطول البحري.

الفصل الخامس والعشرون : وصف المناطق البحرية الخاضعة للسلطان وأسماء الشواطئ والمراسي البحرية، والجزر، والفوارق بين مكان وآخر مع وصف للشواطئ التونسية التي هي امتداد بحري لها.

الفصل السادس والعشرون : وصف للمناطق البحرية الواقعة تحت سيطرة أرمينيا وصولاً إلى المناطق الخاضعة للسلطان، وكذلك المناطق التابعة لتركيا من جهة الشمال.

الفصل السابع والعشرون : حول دور الصليبيين المأجورين من قبل الكنيسة الرومانية المقدسة، لدى نزول الجيش المسيحي على الشاطئ المصري، وحول ضرورة الاستيلاء على نهر النيل، وتبيان كيفية الاستيلاء على جزيرة رشيد، وكم ينبغي أن يبلغ تعداد أولئك الصليبيين، وفيه إيضاح على أن من المتوقع منطقياً اضطراب المسلمين إلى التخلي عن أرض مصر للمسيحيين.

الفصل الثامن والعشرون: أسئلة وأجوبة حول الاعتراضات المثارة ضد قدرة المسيحيين: أي هل يستطيعون بعد إخضاع أرض مصر مجابهة قوات السلطان، لابل وقوات المسلمين جميعاً، ومن ثم متابعة العمل للاستيلاء على أرض القدس وسورية، وإيجاد حلول للمشاكل الناجمة عن مجاورة القدس وسورية، ووسائل اكتساب صداقة التتار.

الفصل التاسع والعشرون: مذكرة خاصة بالأمراء والأعيان الذين يفكرون بهدوء وعقلانية حول شؤون السلاح والحروب.

بداية الكتاب الثالث من هذه الرسالة

ومنه يمكن أن نعرف كيف ينبغي العمل للحفاظ على

أرض الميعاد المقدسة في حالة جيدة وسليمة

مطمئنة، وذلك بعد إخضاعها للسلطة المسيحية،

في سبيل مجد الرب وشرف الكنيسة الكاثوليكية

ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر قسماً

القسم الأول: حول الأمم المتعددة التي توالى على الحكم في الأرض المقدسة، ويتألف من أربعة عشر فصلاً.

الفصل الأول: تبيان الأسباب التي جعلت أرض الميعاد المقدسة عرضة لهجمات جميع الأمم، ولماذا حدث لأهلها أن نكبوا مراراً، وطردها من أرضهم.

الفصل الثاني : كيف بدأ أبناء حام بزراعة أرض الميعاد، ولماذا طردوا منها.

الفصل الثالث: كيف زرع بنو إسرائيل المنحدرين من سام من خلال إبراهيم، لوض الميعاد، بعدما طردوا منها أبناء حام أو استبعدوهم.

الفصل الرابع: كيف كان سلوك بنو إسرائيل في أيام القضاة الأربعة عشر.

الفصل الخامس: كيف أخذ الشعب ينصب لنفسه ملوكاً، وكيف انقسمت المملكة إلى مملكتين، مملكة يهوذا، ومملكة الأسباط العشرة، ونهاية المملكة الثانية.

الفصل السادس: تطور مملكة يهوذا — أي القدس — ونهايتها.

الفصل السابع: موت إرميا وحزقيال، سبي من بقي من يهوذا إلى بابل، وكيف احتل قورش بابل.

الفصل الثامن: نهاية السبي، والعودة أيام الكاهن يشوع، والشروع بإعادة بناء الهيكل.

الفصل التاسع: أخبار يهوديت، وعزرا، ونحميا، وإستير وما آثرهم في أيام الكاهن الأعظم يواكيم إيليا، وفي أيام يهوذا.

الفصل العاشر: الضغينة التي أظهرها الكاهن يوحنا ثم خلفه جاد، وموت الاسكندر أيام أونيا، اضطهاد بطليموس لليهود، وترجمة الكتاب المقدس على يد السبعين مترجماً أيام الكاهن الأعظم أليعازر.

الفصل الحادي عشر: الخلافات بين اليهود أيام أونيا، والحروب التي شنت عليهم من سورية ومن مصر، واضطهاد سلوقس وأنطيخوس ملكي سورية لليهود، وخلع أونيا وموته، وكذلك أخبار المكابيين ويطولاتهم.

الفصل الثاني عشر: عودة حكم الملوك إلى أرض الميعاد.

الفصل الثالث عشر: الجريمة الفظيعة التي اقترفها اليهود لدى ملاحقتهم للمسيح ولرسله.

الفصل الرابع عشر: دمار القدس، وطرد اليهود ونفيهم من تلك الديار على أيدي الرومان أبناء يافث.

القسم الثاني: بداية قيام الكنيسة الشرقية وهو في أربعة فصول.

الفصل الأول: البداية المجيدة للكنيسة الشرقية.

الفصل الثاني: فتور الحماس الأول في الكنيسة، وما تبع ذلك من أحزان على يد كسرى.

الفصل الثالث: انتصار هرقل على كسرى.

الفصل الرابع: الاضطهاد الاسلامي للكنيسة الشرقية، وتبيان أوضاعها المقلقة حتى قدوم الحملة الصليبية الأولى بقيادة غودفري دي بولليون، وبطرس الناسك، وهو في ثمانية فصول.

الفصل الأول: وقوع هرقل في الهرطقة، واحتلال عمر خليفة محمد (ﷺ) للأرض المقدسة.

الفصل الثاني : بداية ظهور محمد (ﷺ) وكيفية استيلائه على البلدان.

الفصل الثالث: حياة محمد (ﷺ) وموته واقتسام إرثه.

الفصل السادس: حملة شارلمان للتفريج عن الأرض المقدسة.

الفصل السابع: رجوع شارلمان ومعه الآثار المقدسة.

الفصل الثامن: تدهور أوضاع أرض الميعاد المقدسة، لا سيما بعد اندحار امبراطورية القسطنطينية.

القسم الرابع: حول النهضة الرائعة لشعوب الغرب من أجل تحرير الأرض المقدسة أيام بطرس الناسك، وهو في أربعة عشر فصلاً.

الفصل الأول: ابتهاج من القلب من أجل الخلاص، وبداية الخلاص

المؤمل.

الفصل الثاني: معاودة الاحتشاد بسرعة من أجل العبور إلى الأرض المقدسة.

الفصل الثالث: زيارة غالتيري Gualteri للقدس، ومواكبته حتى القسطنطينية.

الفصل الرابع : الحج الذي قاده بطرس الناس حتى القسطنطينية وضم حشداً كبيراً من الناس.

الفصل الخامس: أخبار الحجاج ومآثرهم أثناء وجودهم في الضفة الأخرى من بحر الروم المسمى ذراع القديس جرجس (البوسفور).

الفصل السادس : تدمير الحشود الفوضوية التي قادها إلى الحج الكاهن كاندسكوكو Condescauco.

الفصل السابع : الاخفاق التام للحشود الشعبية التي توجهت إلى الحج بدون أن يكون على رأسها قائد مسؤول.

الفصل الثامن: حج هيوج الكبير ووقوعه بالأسر، وكيف أن بوهموند قد عزم على التوجه إلى الحج.

الفصل التاسع : حج غودفري دي بولليون، وإطلاق سراح هيوج الكبير.

الفصل العاشر: شجار بين الحجاج وبين امبراطور القسطنطينية ثم مصالحة.

الفصل الحادي عشر: زحف بوهموند نحو القسطنطينية.

الفصل الثاني عشر: حملة كونت طولوز (صنجيل) مع أتباعه وما جرى له مع الامبراطور.

الفصل الثالث عشر: الاستيلاء على مدينة نيقية، ووصول بقية البارونات.

الفصل الرابع عشر: الانقسامات بين صفوف الحجاج وهجوم التركمان عليهم.

القسم الخامس: حول انتصارات الحجاج في مملكة القدس، والشقاكات بينهم حتى أيام الملوك، وهو في ثمانية فصول.

الفصل الأول: انتصارات تانكرد وبلدوين، اللذان وصلا قبل سواهما، ونشوب خلاف بينهما، ثم مصالحتها.

الفصل الثاني: انتصارات ناجحة يحققها بلدوين في الشمال.

الفصل الثالث: زحف الجيش الأساسي ضد أنطاكية.

الفصل الرابع: وصف مدينة إنطاكية، وحصارها.

الفصل الخامس: التحصينات المتنوعة عند المهاجمين وعند المدافعين، والحملة المتبادلة بينهما.

الفصل السادس : سقوط إنطاكية، واكتشاف حربة المخلص التي طعن بها جنب المسيح، وهزيمة كربغا.

الفصل السابع: زحف الحجاج نحو القدس.

الفصل الثامن: حصار القدس وسقوطها.

القسم السادس : تحرير كامل الأرض المقدسة، وتطور مملكة القدس في أيام ملوكها اللاتين، وهو في أربعة وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: اختيار غودفري دي بولليون ملكاً على القدس، وغيرته على الدين.

الفصل الثاني: نصر وهبه الرب للحجاج على حشود لاتعد من الأمة الماكرة.

الفصل الثالث: عودة الحجاج وبقاء عدد ضئيل منهم، وشجاعة مدهشة في الاستيلاء على يافا، ورام الله، وغزة، وكيف حصل بطريك القدس على ربع المدينة المقدسة.

الفصل الرابع: تنويع بلدوين الأول، والاستيلاء على أرسوف، وقيسارية، وانتصار مزدوج على المصريين، والاستيلاء على كل من طرطوس وعكا.

الفصل الخامس: وقائع وأحداث في كونتية الرها، وفي إمارة أنطاكية، وفي طبرية.

الفصل السادس: الاستيلاء على جبيل وعلى طرابلس، وعصيان بلدوين، وموت تانكرد، وبرترام.

الفصل السابع: نجاح جوسلين، وانتصار روجر على التركمان.

الفصل الثامن: بناء قلعة الشوبك، والحصن المسمى اسكندرون، وموت الملك.

الفصل التاسع: انتخاب بلدوين ملكاً.

الفصل العاشر: انتصار التركمان على الملك، ووقوعه بالأسر، وأسر الكونت جوسلين.

الفصل الحادي عشر: انتصارات على التركمان، ومعاهدة بين السريان وبين دوج البندقية.

الفصل الثاني عشر: وصف لأوضاع صور ولموقعها والاستيلاء عليها.

الفصل الثالث عشر: إطلاق سراح الملك، وانتصارات كبيرة على التركمان.

الفصل الرابع عشر: موت الملك بلدوين، وتنصيب فولك ملكاً ثالثاً على القدس.

الفصل الخامس عشر: الموت المشرف لجوسلين، وانتصار كبير للملك، وبناءؤه الحصنين.

الفصل السادس عشر: موت كونت طرابلس، وزحف امبراطور القسطنطينية نحو أنطاكية.

الفصل السابع عشر: بعض الطرق التي سلكها الامبراطور وموته، والاستيلاء على مدينة بانياس.

الفصل الثامن عشر: الثناء على الملك فولك وعلى انتصاراته، تنظيم المنطقة الساحلية كلها، وموت هذا الملك .

الفصل التاسع عشر: بعض مآثر الملك بلدوين الثالث ملك القدس، وقدم الامبراطور كونراد، والملك لويس ملك فرنسا، وإنجازاتها.

الفصل العشرون: موت أمير أنطاكية وكونت طرابلس، وموت الملك بلدوين وحملات متكررة قام بها التركمان.

الفصل الحادي والعشرون: انتصار عموري على المصريين، والمعاهدة معهم ضد سلطان دمشق، وبعض ما جرى في أنطاكية، واغتيال خليفة مصر.

الفصل الثاني والعشرون: حصار كل من القاهرة ودمياط.

الفصل الثالث والعشرون: حماسة الملك عموري وغيرته على الملك، وكيف أراد الموارنة العودة إلى الإيمان الصحيح.

الفصل الرابع والعشرون: مآثر الملك بلدوين المجذوم الذي نصب ملكاً سابعاً، وظروف الانشقاق من أجل تنصيب غي ملكاً ثامناً.

القسم السابع : صورة الأوضاع المزدهرة في الأرض المقدسة أيام الملوك اللاتين، وهو يقع في ثلاثة فصول.

الفصل الأول: كيف أثمرت أرض الميعاد بأمرأء وبيارونات.

الفصل الثاني: كيف أثمرت الأرض المقدسة، أرض الميعاد، برجال دين وبأساقفة، وتقديم وصف لمدينة القدس.

الفصل الثالث: كيف أثمرت الأرض المقدسة، أرض الميعاد، برهبان، ومتقشفين وبنسك.

القسم الثامن: أسباب دمار أرض الميعاد المقدسة، وفقدانها في أيام صلاح الدين، وفيه ستة فصول.

الفصل الأول: الطقوس الدينية لدى الروم السريان من سكان أرض الميعاد.

الفصل الثاني: عادات الذين يدعون باسم البوليسيين، وكذلك الموارنة.

الفصل الثالث: الطقوس الدينية لدى الجورجيين والأرمن وعاداتهم.

الفصل الرابع: الطقوس الدينية لدى اليعاقبة والنساطرة والمستعربين.

الفصل الخامس: انحطاط أخلاق كثير من الغربيين الذين قدموا إلى الأرض المقدسة.

الفصل السادس: تدهور أحوال رجال الدين والرهبان.

القسم التاسع: ضياع أرض الميعاد المقدسة في أيام صلاح الدين، وفيه ثمانية فصول.

الفصل الأول: عقاب الرب العادل الذي أنزله بالسكان الفاسدين في الأرض المقدسة.

الفصل الثاني: كونتية الرها، وأسر كونتها وحاكمها الشقي، وقلعة عرقة ومدينة بانياس.

الفصل الثالث: كيف تمكن صلاح الدين من التملك على مملكتين هما، مملكة مصر ومملكة دمشق.

الفصل الرابع: حظر مجمع اللاتيران لنقل الأسلحة وما شاكلها إلى المسلمين. مذبحة مروعة اقترفها صلاح الدين بحق الشعب الصليبي.

الفصل الخامس: ضياع المنطقة الساحلية بكاملها تقريباً.

الفصل السادس: خسارة كل من مدينتي القدس وعسقلان.

الفصل السابع: بكاء راثي لضياع مدينة القدس المقدسة.

الفصل الثامن: كيف حاصر صلاح الدين مدينة صور.

القسم العاشر: النجيدات التي قدمت من البلدان الغربية إلى الأرض المقدسة، أيام صلاح الدين، وفيه تسعة فصول.

الفصل الأول: ردات الفعل المدهشة التي عبر عنها الغربيون، واهتمام الحبرين الأعظمين بتنظيم حملة جديدة.

الفصل الثاني: سفر امبراطور روما، وموته [غرقاً]، وأيضاً حصار عكا من قبل غي ملك القدس.

الفصل الثالث: وصول نجيدات إلى الصليبيين وإلى المسلمين سواء، ووقوع وقائع هائلة.

الفصل الرابع: وصول كل من ملكي فرنسا وإنكلترا، والاستيلاء

على مدينة عكا.

الفصل الخامس: الأوضاع البحرية في المنطقة، ونشوب خلافات مؤسفة بين الملكين المسيحيين، وعودة ملك فرنسا إلى بلاده.

الفصل السادس: خطة الحشد الصليبي لحصار القدس، ثم تراجعها عن متابعة تنفيذ المشروع، وإعادة بناء عسقلان، والطنطورة.

الفصل السابع: إعلان غي ملكاً على قبرص.

الفصل الثامن: عودة ملك إنكلترا نحو بلاده، وتتويج أول ملك على أرمينيا، حج الألمان، وموت صلاح الدين، والحكم في الأرض المقدسة حتى تسلمه من قبل عموري ملك قبرص.

الفصل التاسع: خلافات وانقسامات بين المسلمين، ونص اتفاقات الهدنة.

القسم الحادي عشر: حملات جديدة إلى الأرض المقدسة، شرح لأوضاعها وتقلب الأوضاع، وتداول الحكم فيها منذ وفاة صلاح الدين حتى صليبية القديس لويس، وفيه ستة عشر فصلاً.

الفصل الأول: انطلاق أعداد كبيرة من الصليبيين إلى الجانب الآخر من البحر، بفضل دعوة فولكون Fulcone.

الفصل الثاني: خرق الهدنة من قبل المسلمين.

الفصل الثالث: تمزقات داخل الجيش الصليبي، وإعادة النظر في الهدن. موت الملك عموري، وعقد مؤتمر من أجل زواج وارثة العرش.

الفصل الخامس: وصول جين دي بريين وتتويجه، وهجوم المسلمين على عكا وعلى من فيها من الصليبيين.

الفصل السادس : الحشد العام للعبور إلى عكا، والذي أنجز في أرض الميعاد.

الفصل السابع: حصار دمياط، والصراع بين النائب البابوي والملك، ثم فقدان مدينة القدس المقدسة.

الفصل الثامن: الاستيلاء على دمياط، وسرعة الانغماس في الرذيلة والآثام.

الفصل التاسع: اشتباكات متفرقة، وخيبة الحشد الصليبي، وخسارة دمياط.

الفصل العاشر: قلق الحبر الأعظم واهتمامه مع الكرادلة بإرسال الامدادات إلى الأرض المقدسة، انتقال مملكة القدس إلى كونراد بن الامبراطور فردريك الثاني.

الفصل الحادي عشر: عبور الامبراطور على رأس قوة صغيرة، على الرغم من معارضة الكنيسة، والذي صنعه في قبرص.

الفصل الثاني عشر: أعمال الامبراطور في الأرض المقدسة، وتجديد الهدنة.

الفصل الثالث عشر: تقديم طلب إلى الامبراطور بإرسال ابنه كونراد إلى مملكة القدس. ونقل النائب الفاسد.

الفصل الرابع عشر: نقض المعاهدة المعقودة بين [أهل الأرض] وبين الامبراطور فردريك حول مملكة القدس.

الفصل الخامس عشر: عبور ملك نافار إلى الشرق، وإعادة النظر في بقية الهدن.

الفصل السادس عشر: عبور رتشارد دي كورنبي أيضاً، وانتقال ملك

مملكة القدس إلى أيدي الملكة إليزابيث.

القسم الثاني عشر: القديس لويس وحملتيه، مشاكل متواصلة ومتنوعة في الأرض المقدسة، حتى طرد الصليبيين منها، وفيها اثنان وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: كيف حمل لويس ملك فرنسا الصليب، معارك الصليبيين في الأرض المقدسة، ضياع القدس المدينة المقدسة.

الفصل الثاني: عبور الملك لويس واحتلاله لمدينة دمياط.

الفصل الثالث: وقوع الملك لويس بالأسر، وإعادة دمياط.

الفصل الرابع: أوضاع الأرض المقدسة يوم كان القديس هناك.

الفصل الخامس: خلافات بين أهل جنوى وأهل البندقية والبيازنة.

الفصل السادس: حروب التتار ضد المسلمين، وضد المسيحيين أيضاً.

الفصل السابع: مطالبة إليزابيث بمملكة القدس من النائب هناك. تدمير بعض المناطق من قبل الصليبيين ومن قبل المسلمين.

الفصل الثامن: حملات متفرقة لسلطان مصر ضد الصليبيين، ومؤامرات متبادلة بين الجنويين وبين البنادقة.

الفصل التاسع: حملات متفرقة من البندقداري ضد الصليبيين، وفقدان مدينة أنطاكية.

الفصل العاشر: عبور ملك فرنسا، القديس لويس إلى تونس وموته. معاهدة فيما بين ملك صقلية وبين ملك تونس.

الفصل الحادي عشر: حملات البندقداري ضد الصليبيين، وكيف حرض الصليبيون التتار ضده، ومحاولة للتهادن غير موفقة.

الفصل الثاني عشر: مغادرة الأمير ادوارد للأرض المقدسة. إرسال بعض الامدادات من قبل الكنيسة ومن قبل ملك فرنسا، وحوادث متفرقة.

الفصل الثالث عشر: اهتمام مجمع ليون بإرسال حملة إلى الأرض المقدسة.

الفصل الرابع عشر: خلافات داخلية وخارجية بين المسيحيين في الغرب حول إرسال حملة إلى الأرض المقدسة.

الفصل الخامس عشر: البلاط الروماني يضع حداً للخلاف ما بين ملك قبرص والأنسة مريم، وتنازل الأميرة مريم عن حقوقها لصالح شارل ملك صقلية.

الفصل السادس عشر: وصول نائب عن الملك شارل إلى عكا، وتقديم أهل المدينة الولاء له.

الفصل السابع عشر: حروب وموت البندقداري، شقاق بين أمير أنطاكية وبين الداوية، ومحاولة ملك قبرص الاستيلاء على عكا.

الفصل الثامن عشر: مؤتمر للصليبيين والمسلمين في المرقب.

الفصل التاسع عشر: موت هيوغ ملك قبرص وهو في طريقه إلى صور، وحصول ابنه هنري على عكا.

الفصل العشرون: ضياع اللاذقية وطرابلس.

الفصل الحادي والعشرون: ضياع مدينة عكا.

الفصل الثاني والعشرون: ضياع باقي أجزاء الأرض المقدسة.

القسم الثالث عشر: بعض الأحداث والنتائج التي أعقبت فقدان الكامل للأرض المقدسة، وهو في أحد عشر فصلاً:

- الفصل الأول : انتقام السماء من المسلمين .
- الفصل الثاني: خلافات بين الأمراء البحرية الذين لم يغادروا البلاد.
- الفصل الثالث: الأصل المخزي للتتار وبداية الحروب.
- الفصل الرابع: انتصار التتار على الأتراك.
- الفصل الخامس: توسع مملكة التتار باتجاه الغرب وباتجاه الجنوب.
- الفصل السادس: قبول منغوخان المغول للعماد بوساطة ملك أرمينيا، وإرساله لأخيه هولاكو ضد المسلمين.
- الفصل السابع: استيلاء هولاكو على بلاد فارس وقتله لخليفة بغداد، واستيلائه على شطر من سورية.
- الفصل الثامن: مسلك خلفاء هولاكو مع المسيحيين ومع المسلمين.
- الفصل التاسع: سمات التتار ومهارتهم في الحروب.
- الفصل العاشر: بعض بطولات القبارصة ضد المسلمين. حملة غازان ضد المسلمين والمقاومة التي جوبه بها.
- الفصل الحادي عشر: انتزاع حكم قبرص ظليماً من الملك هنري.
- القسم الرابع عشر: وصف أوضاع الأماكن، وبشكل رئيسي في الأرض المقدسة.
- وهو في اثني عشر فصلاً.
- الفصل الأول: وضع الأقاليم التي تحد الأرض المقدسة.
- الفصل الثاني: المنطقة الساحلية لسورية كلها.
- الفصل الثالث: وضع الأماكن الرئيسية في أرض الميعاد المقدسة.

الفصل الرابع: أوضاع الجبال في المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن نحو الشرق .

الفصل الخامس : وضع الجبال الرئيسية على هذا الجانب من الأردن.

الفصل السادس: مجاري المياه والأنهار في الأرض المقدسة.

الفصل السابع: الحجج من عكا خلال الناصرة حتى القدس.

الفصل الثامن: الحجج خلال مدينة القدس المقدسة وجبل صهيون.

الفصل التاسع: الحجج إلى الأماكن المقدسة من حول القدس.

الفصل العاشر: الحجج إلى الأماكن المنسية في القدس.

الفصل الحادي عشر: الحجج إلى بيت لحم وإلى الخليل.

الفصل الثاني عشر: أوضاع مملكة مصر.

القسم الخامس عشر: الإجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرة التي ورد ذكرها، وهو في خمسة وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: الإجراءات الضروري للاحتفاظ بها، دراسة للخطط العسكرية، وللقيام بتدريب متواصل على استخدام الأسلحة.

الفصل الثاني: الفائدة الكبرى للعازمين على الذهاب إلى قتال العدو، بعدم كشفهم عن مقاصدهم وخططهم.

الفصل الثالث: ضرورة الاهتمام بمعرفة خطط أعدائهم.

الفصل الرابع: أمثلة عديدة حول ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب المخاطر الكثيرة التي تتعرض الجيوش لها بالعادة وهي على طريقها.

الفصل الخامس: كيفية إقامة المخيم.

الفصل السادس: توضيحات وأمثلة تدل على خطورة ترك العدو يستدرجنا إلى خوض المعركة.

الفصل السابع: مواصفات المكان الموائم لخوض المعركة.

الفصل الثامن: الاحتياطات الواجب اتخاذها لدى قيادة الجيش لخوض المعركة.

الفصل التاسع: بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لهزم جيش العدو.

الفصل العاشر: بعض الإجراءات الاحتياطية والأمثلة لإعادة تنظيم الجيش في حال إصابته بانتكاسة.

الفصل الحادي عشر: بعض الإجراءات الاحتياطية والأمثلة لنصب كمائن للعدو.

الفصل الثاني عشر: بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لقطع طريق الفرار على العدو.

الفصل الثالث عشر: بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لإخفاء الكمائن.

الفصل الرابع عشر: بعض الاجراءات الضرورية اتخاذها في حال تحقيق النصر في المعركة، وإجراءات احتياطية ضد الفارين.

الفصل الخامس عشر: طرق متعددة لإلقاء الحصار، والإجراءات الاحتياطية اللازمة.

الفصل السادس عشر: توصيات مفيدة للعساكر والتعليمات.

الفصل السابع عشر: وجوب الاكتفاء بملك واحد بعد الاستيلاء

على أرض الميعاد.

الفصل الثامن عشر: يتوجب على الملك الامتناع عن النفقات غير الضرورية وغير ذلك من الأباطيل.

الفصل التاسع عشر: الجرم الذي يقترفه الملك الفاسد الأخلاق، ضد المملكة.

الفصل العشرون: كيف ينبغي على الملك، بدافع من القناعة وبإرشاد من العقل لجم شهواته وملذاته الجسدية.

الفصل الحادي والعشرون: كيف يمكن للملك لجم شهواته وملذاته الجسدية، وتأمين الثروات الوافرة.

الفصل الثاني والعشرون: اهتمام الملك بشريعة الرب وغيرته عليها، وطاعته لوصاياه.

الفصل الثالث والعشرون: تقوى جلالة الملك ولطفه وعطفه على رعيته.

الفصل الرابع والعشرون: عدالة الملك وإنصافه وصحة أحكامه.

الفصل الخامس والعشرون: إعادة موجزة لكل ما قيل بشأن الحفاظ على الأرض المقدسة.

بداية الانجيل المقدس للقديس يوحنا

«في البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت عند الرب، وكان الرب الكلمة، هذا كان في البدء عند الرب. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه.

كان إنسان مرسل من الرب اسمه يوحنا. هذا جاء للشهادة للنور لكي يؤمن الكل بواسطته. لم يكن هو النور، بل ليشهد للنور. كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم. كان في العالم وكون العالم به، ولم يعرفه العالم. إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله. وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الرب، أي المؤمنون باسمه، الذين ولدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الرب.

والكلمة صارت جسداً، وحل بيننا، ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الأب مملوءاً نعمة وحقاً» [يوحنا: ١ / ١ — ١٤]

من إنجيل مرقس

قال يسوع في ذلك الزمان لحوارييه:

«فأجاب يسوع وقال لهم، ليكن لكم إيمان بالرب. لأنني الحق أقول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون، فمهما قال يكون له. لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فأمنوا أن تنالوه فيكون لكم. ومتى وقفتم تصلون فاغفروا إن كان لكم على أحد شيء لكي يغفر لكم أيضاً أبوكم في السموات زلاتكم. وإن لم تغفروا أنتم لا يغفر أبوكم الذي في السموات

أيضاً زلاتكم» [مرقس : ١١ / ٢٢ — ٢٦].

من إنجيل لوقا

قال يسوع في تلك الأيام لحوارييه: «وأنا أقول لكم اسألوا تعطوا،
اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم». [لوقا : ١١ / ٩]

من إنجيل متى

«لما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبس (بانياس) سأل تلاميذه
قائلاً: من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟ فقالوا، قوم: يوحنا
المعمدان وآخرون إيليا، وآخرون إرميا، أو واحد من الأنبياء، قال
لهم: وأنتم من تقولون إني أنا؟ فأجاب سمعان بطرس وقال: أنت هو
المسيح ابن الرب الحي. فأجاب يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان بن
يونا، إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السموات. وأنا أقول
لك أيضاً: أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة وأبواب
الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما
تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على
الأرض يكون محلولاً في السموات». [متى : ٦ / ١٣ — ١٩].

ارحمنا يا رب، أبانا الذي في السموات

«أمل أذنك يا إلهي واسمع، افتح عينيك وانظر خربنا والمدينة التي
دعي اسمك عليها لأنه لا لأجل برنا نطرح تضرعنا أمام وجهك، بل
لأجل مراحمك العظيمة. يا سيد اسمع، يا سيد اغفر، يا سيد اصغ
واصنع، لا تؤخر من أجل نفسك يا إلهي لأن اسمك دعي على مدينتك
وعلى شعبك». [دانيال : ٩ / ١٨ — ١٩].

بسم الأب والابن والروح القدس آمين

سنة الرب ١٣٠٧.

في سنة ١٣٠٧ لتجسيد ربنا يسوع المسيح، الذي هو نورنا وحياتنا، وفي شهر كانون الثاني، باشرت بتصنيف هذا الكتاب، وبالمخلص الموجز الأول المتعلق بالأرض المقدسة، لأن الحقيقة هي من الروح القدس، وغير مهم على لسان من يعلنها.

في سبيل إضعاف قوى السلطان مع الشعب الخاضع له، يتوجب تطبيق الحظر بجدية أكبر وبفعالية أعظم مما كان عليه الحال في الماضي، بحيث أن لا يتمكن أي إنسان من الوصول إلى البلدان الخاضعة للسلطان، حسبما سنرى فيما يلي في الفصل الأول من القسم الرابع، على أن يسري ذلك ليس على البحر فقط، بل على البر أيضاً، كما سنرى في الفصل المقبل، وأن يجري إنزال عقوبات بالذين يخالفون وكذلك بالذين يتعاملون معهم، لا سيما في حقل التجارة، وأن تكون هذه العقوبات مثل التي تطبق ضد الهراطقة، وليكن على الجميع محرماً تحت طائلة عقوبة مماثلة، تسلم بضائع واردة من أفريقيا، لابل حتى من إسبانيا من المناطق المقطونة من قبل المسلمين، وكذلك أية سلع قادمة من الهند عبر المناطق الخاضعة للسلطان كما سنرى في الفصل الثالث من القسم الرابع.

وليكن محرماً بالطريقة ذاتها على أي إنسان شراء المنتوجات المذكورة أعلاه من البلدان الشمالية، الممتدة من حدود أرمينيا إلى تخوم آني، كما سنوضح في الفصل الرابع من القسم الرابع.

وليحرم أيضاً، بالشكل نفسه على أي إنسان شراء أو تسليم البضائع التي مصدرها الأراضي الخاضعة للسلطان، سواء أتم ذلك في بلاد اليونان أو جزرها، أو في أي بقعة من العالم، وأن يشمل ذلك أيضاً البضائع التي تأتي تسلاً، وذلك كما سنوضح في الفصل الخامس من القسم الرابع.

وليكن هذا أيضاً محظوراً، تحت طائلة العقوبة الجسيمة التي يتم تحديدها، والتي ينبغي إنزالها بحق سادة المناطق والجماعات والتكتلات البشرية، وبحق كل من يخالف ما رسمته الكنيسة، وينبغي ملاحقة هؤلاء وعدّهم هراطقة، وملاحقة كل من يود دعمهم بمساعدة أو بمشورة، أو بمنح امتياز، حسبما هو وارد في الفصل السادس من القسم نفسه.

وليصدر أيضاً أمر بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بحق كل من يعرف بوجود أفراد أو أشخاص خالفوا هذه الأوامر، ولم يبادروا إلى الإبلاغ عنهم بأسرع ما يمكن، وبطريقة مشروعة.

ويشترط هنا بشكل مطلق عدم إفشاء اسم الشاكي لا للمشتكى عليهم ولا لأي إنسان كان، وإذا صدر الحكم بعدم وجود ما يدعو لإنزال عقوبة الحرمان الكنسي، أو مهما كان الأمر، ينبغي إعطاء الشاكي ثلث ما ينتزع من المشتكى عليه، ومهما يكن من أمر يبقى سريان الالتزام بالسرية كما بينا أعلاه.

وإذا راق لقداسة الحبر الأعظم التنفيذ الفعلي لهذه القرارات، فليعمد إلى تطبيق الأمر الكنسي بكل دقة، ودونها إهمال من قبل أي إنسان، وذلك بأن يعلن عنه في جميع المدن البحرية في أيام الآحاد والأعياد، لأننا نرى بالواقع أن الأوامر المتقدمة التي صدرت عن المجامع المقدسة أو عن البابوات، طواها الزمن ونسيت، لأنه لم يعلن عنها في الكنائس،

حتى أن رجالاً مثقفين ما برحوا يعتقدون أن تصدير البضائع العادية إلى البلدان الخاضعة للسلطان أمراً جائزاً.

والطريقة الأفضل للاعلان عن ذلك القرار الكنسي، كما نرى هو أن يجري ذلك بعد تلاوة الانجيل، وقبل الشروع بالصلاة، فهذا أجدى وأنسب، فهو الوقت الذي يكون الشعب بالعادة مجموعاً به ومهيئاً أكثر.

ولتنفيذ هذا المشروع هناك حاجة إلى غلايين، كما هو مبين في الفصل السابع من القسم الرابع من هذا الكتاب، ومن الضرورة بمكان تعيين مشرفين رسميين يتولون إنزال العقوبة بحق من يخالف هذه القرارات.

بسم الرب الأزلي
آمين

سنة الرب ١٣٠٦

في السنة ١٣٠٦ لميلاد مولانا يسوع المسيح، وفي شهر آذار، وبشكر للرب الكلي القدرة، وفي سبيل مجد اسمه القدوس وإكرامه، ومن أجل كرامة سيدنا وأبينا البابا الحبر الأعظم، وأيضاً من أجل رفع شأن الإيمان المسيحي، ولخزي السلطان وكل من يتبع محمداً (ﷺ)، وفي سبيل عودتهم ورجوعهم إلى الكنيسة الأم الحنون، ومن أجل ازدهار الإيمان بالصليب الفادي المحبوب، باشرت العمل بهذا الكتاب، بنعمة منه تعالى، أنا مارينو سانوتو، المشهور بلقب تورسيللو، من منطقة سينت سيفرو، ومدينة ريفوالتي من أعمال البندقية، وأنا أيضاً خادم أمين متواضع، كنت ملتحقاً من قبل بخدمة أبينا ومولانا في المسيح، الطيب الذكر، الذي كان معيناً كردينالاً شماساً على كنيسة القديس يوستاكي . Eustachii

فلقد ظل يقلقني طوال حياتي همّ واحد هو القيام بإجراء أبحاث حول المعطيات التي وجدت فيها الأرض المقدسة مع باقي مناطق ما وراء البحر، سواء في البحر أو البر، وهذا ما سأعرضه بكل نشاط ومحبة، منحنياً بتواضع عميق، جاثياً على ركبتني، كمسيحي أمين.

بداية الكتاب الأول حول مشروع الأرض المقدسة
وهو يتضمن الترتيبات اللازمة والاستعدادات لاسترداد الأرض
المقدسة وهو في خمسة أقسام.

القسم الأول

ويشتمل على طرق إضعاف السلطان،
وتبيان كيف أن باستطاعة المؤمنين بالمسيح
الحصول على المنتجات اللازمة دون الاضطرار
إلى الذهاب إلى الأراضي الخاضعة للسلطان،
وتقدير للأذى العظيم والأضرار الكبيرة
التي سيتكبدها الكفار أتباع السلطان، إذا
توقف التعامل البحري معهم، وهذا القسم
في ستة فصول:

الفصل الأول: تبيان للأرباح التي يجنيها السلطان وشعبه من
المنتجات القادمة من الهند، مع أسماء المراسي إلى حيث تشحن تلك
المنتجات، وكيفية تحويلها عن المناطق الخاضعة لنفوذ السلطان.

ينبع القسط الأكبر من العظمة والهيبة، والمداخيل التي ينعم بها
السلطان والشعوب الخاضعة له، من كون الأصناف النادرة، والبضائع
الكثيرة، لا تنتج كلها في أراضي السلطان والبلدان الخاضعة له، بل في
بلاد الهند وأراضيها، وهي تعبر من المحيط الهندي نحو الغرب بطريق
البحر، ولهذا المحيط في تلك المناطق مرسيان هما: المليبار، وكولم، ذلك أن
الأصناف النادرة والمنتجات الواردة من الهند ترسل إلى هذين
المرسيين، ومن هناك تحمل من جديد على مراكب من أجل تصديرها
نحو الغرب، انطلاقاً من أربعة مراسي، ثلاثة منها واقعة في الأراضي
والشواطئ التي يسيطر عليها التتار سادة بلاد فارس، وواحد من هذه

المراسي موجود على اليابسة، واسمه هرمز، والثاني موجود في جزيرة صغيرة اسمها كيش، والثالث عند مصب النهر النازل من بغداد، وكانت الكمية الأكبر من الأصناف النادرة ومن المنتجات التي كانت تصدر في الماضي نحو الغرب، تمر عادة ببغداد، ومن هناك إلى أنطاكية وكيكيا على البحر المتوسط، وكانت الأصناف النادرة في ذلك الزمن مع غيرها من منتجات الهند، تصل بكميات أكبر، وبأسعار أرخص مما هي عليه الآن.

أما المرسى الرابع فهو الذي اسمه مرسى عدن، وهو قائم في شبه جزيرة ثابتة في بلاد المسلمين، وتشحن الأصناف النادرة والبضائع القادمة من الهند مجدداً من ذلك المرسى، وترسل من هناك عبر أراضي المسلمين في رحلة تستغرق تسعة أيام على ظهور الجمال، حتى تصل إلى مكان اسمه قوص، وتنقلها القوافل من هناك إلى القاهرة عن طريق نهر النيل خلال خمسة عشر يوماً، ويفيض النيل في حوالي تشرين الأول ولهذا فإن الأصناف النادرة والبضائع النازلة إلى القاهرة عبر ذلك النهر، تنقل عبر تعرجات طولها ما بين القاهرة والاسكندرية حوالي المائتي ميل، وتسهيلاً للسفر تواكب المراكب الضفة اليسرى التي يسيطر عليها المسلمون، ومن القاهرة تتوجه الأصناف النادرة وغالبية البضائع القادمة من الهند، إلى الغرب، عبر طريق الاسكندرية، ويستوفي السلطان عند مختلف مواقع التعشير مبالغ تساوي ثلث مداخل خزينته، هذا عدا عن المرباح والمنافع التي يجنيها التجار والشعب.

وهناك كمية أقل من الأصناف النادرة ومن البضائع المرسل إلى الغرب، تنزل الآن باتجاه المراسي الثلاثة المذكورة أعلاه، والواقعة في المناطق الخاضعة للتتار، ومن هناك ترسل إلى بغداد، ومن بغداد هناك طرق كثيرة يمكن لتلك البضائع أن تنقل عبرها نحو البحر المتوسط، وهذا ما يجري الآن فعلياً، دون المرور مطلقاً بالمراسي أو بالشواطئ، أو

بالأراضي الخاضعة للسلطان.

وبناء عليه ينبغي الوقوف في وجه الذين يسعون نحو بلاد السلطان لابتياح الأصناف النادرة، وبقية أنواع البضائع، ومن ثم نقلها عبر البحر المتوسط، ومن المتوجب منع هؤلاء، حسبما تقدم الذكر في الموجز، ففي هذا الموجز جرى التركيز على وجوب منع أية بضائع قادمة من الأراضي الخاضعة للسلطان، بشكل قطعي ودقيق، وقتذاك سوف تتحول جميع هذه الأصناف النادرة والبضائع عن مساراتها المعتادة، لتسلك طرق بلاد التتار، لأنه مثلما تنساب المياه طبيعياً إلى الوديان، كذلك تتدفق البضائع عبر الطرق التي يوجد عليها عدد أكبر ممن يشتريها، وبناء عليه سيجد الشعب المسيحي الكميات الكافية من كل ما يلزمه من تلك البضائع، ويجني التجار نصيبهم الكامل من الأرباح.

ثم ماذا بعد هذا؟ بعد هذا يمكن للتجار المسيحيين سلوك ذلك الطريق، أي الاتجاه إلى الهند عبر طريق بلاد التتار، وبالفعل يمكن لكثيرين القيام بهذه الرحلة، ذهاباً وإياباً، ذلك أن السلطان لا يسمح لمسيحي واحد بالمرور بأراضيه إذا كانت لديه نية بالذهاب إلى الهند، والذي يحدث الآن فعلياً يبرهن لنا على صحة هذا الطرح، فعندما توضع عراقيل في وجه انتقال البضائع، وحواجز تحول دون وصولها إلى مكان ما عن طريق واحد، نجد التجار، وهم الساهرون على مصالحهم الذاتية يفكرون وينحشون عن طريق آخر يمكن ركوبه، حتى يتمكنوا من توصيل بضائعهم إلى ذلك المكان ذاته، وقد قيل: «التاجر الصالح هو المدرك للمصالح»، فهو لا يمنح نفسه طعم الراحة مالم يكتشف طريقاً للوصول ببضائعه إلى حيث الحاجة إليها أكبر، وبالتالي إلى حيث يمكنه جني أكبر قدر من المرباح، ويمكن لقداستكم أن تتبين بشكل جيد ما أعنيه، فكل واحد يعرف أنه من جهة التتار، أي عن طريق بغداد وتوريز كانت البضائع تسير منذ زمن بعيد ولا تزال تسير حتى اليوم كل

البضائع تقريباً نحو البحر المتوسط، ولا سيما البضائع التي خفّ وزنها وارتفع ثمنها، من أمثال التوابل والقرفة والجوز هندي وغير ذلك.

أما ما تبقى من بضائع هي أكثر وزناً وأقل ثمناً مثل الفلفل والزنجبيل والبخور والقرفة وغيرها فإنها تحمل من عدن إلى الاسكندرية، بكميات أكبر من تلك التي تحمل عبر الطريق الآخر المشار إليه من قبل.

هذا وإن البضائع المحمولة عن طريق بلاد فارس والكلدانين — حسبما أشرنا من قبل — هي أفضل نوعية بما لا يقاس من البضائع التي تحمل إلى الاسكندرية، وخاصة الزنجبيل والقرفة أيضاً.

وواقع الحال أن الزنجبيل المحمول عن طريق التتار هو من نوع أفضل وأعلى ثمناً من ذلك المحمول إلى الاسكندرية وذلك بنسبة تتراوح ما بين عشرة بالمائة إلى عشرين بالمائة، وسبب ذلك هو أن البضائع الأعلى جودة تحمل عن طريق التتار، لأن حمل تلك البضائع عبر ذلك الطريق وإن استوجب نفقات أعلى للحمل والنقل غير أن المكوس ضئيلة، في حين أن نفقات نقل البضائع من جهة مصر زهيدة، لأن المراكب تسير على محاذاة الضفة اليمنى للنهر بكل سهولة، لكن المكوس التي تدفع إلى السلطان هي أعلى.

ولهذا يختار التجار للطريق الأول بضائع أعلى جودة، لأنهم يعرفون جيداً جميع هذه الميزات، ويعرفون أن نفقات النقل هي هي سواء أكانت البضائع ثمينة أم لا، فضلاً عما تقدم، إن الزنجبيل المحمول إلى الاسكندرية مجفف وفيه كثير من التلف والتسوس، وهذه النسبة أعلى منها بالنسبة لما يحمل عبر الطريق الآخر، ويعتقد أن مرد ذلك هو أن الطريق البحري أطول من طريق بلاد التتار، لأن من المعروف أن الزنجبيل صنف يتعرض للفساد بسهولة.

الفصل الثاني: إيضاح كيف أن المنتجات التي نحتاجها، والقادمة إلينا من بلاد السلطان يمكن الحصول عليها من بلاد المسيحيين.

يبلغ إنتاج الحرير والسكر من بلدان السلطان كميات كبيرة لا يستهان بها، ويجني السلطان ومثله المسلمون من ذلك أموالاً كثيرة كرسوم مرور وكضرائب فإذا توقف المسيحيون عن استيراد ذلك، فإن هذا يلحق بالسلطان، وبالمسلمين ضرراً كبيراً بالغاً، لاسيما وأنه من الممكن إنتاج الكميات التي نحتاجها من السكر في قبرص، ومن هنا يمكن للمسيحيين تأمينها، يضاف إلى هذا يجري إنتاج السكر في رودس والمورة ومالطة، وكذلك في صقلية وغيرها من البلدان، وعلى هذا يمكن تأمين ما نحتاجه من سكر وإنتاجه إذا ما تمّ الاهتمام بالموضوع، ومن الممكن كذلك إنتاج الشرائق في أبوليا وفي صقلية، وكريت وجزر اليونان وقبرص، وذلك بكميات وافرة، وإذا ما طبق أمر الحظر بشدة أكبر مما جرى في الماضي، وقتها من الممكن إنتاج الشرائق بكميات أكبر في هذه المناطق وفي غيرها من البلدان التي من الممكن أن يعيش فيها دود القز، وبناء عليه إذا ما أمعنا النظر في الأمور، يمكن للمسيحيين إنتاج ما يكفيهم من الحرير، ولن يعانون كثيراً في سبيل تأمين ما يلزم من سكر.

الفصل الثالث: تبيان طريقة منع عبور الأفاوية والكتان والقنب والأقمشة المنسوجة من مصر إلى البحر المتوسط فأوربا، ذلك أن الاتجار بها يعود بأرباح كبيرة على السلطان وعلى الشعب الخاضع له.

ينبت الكتان في مصر بكميات كبيرة، ومنه تصنع أنواع كثيرة من الأقمشة، كما أنهم ينسجون الكتان ممزوجاً بالحرير، وتصنع ثياب الحرير الخالص في مصر، مع أن مصر لا تنتج الحرير، هذا وتحمل تلك الأقمشة مع الكتان والبضائع المذكورة أعلاه، باستمرار عبر تركيا أو عبر أفريقيا على مراكب مسيحية وإسلامية حتى البحر الأبيض الكبير

والبلدان الأوربية، ومع أن الكتان متوفر بوفرة في البلدان المسيحية، غير أنه أدنى جودة من الكتان المصري الذي يصدر إلى الغرب، وبما أن الكتان المصري هذا من غير الممكن إنزاله إلى السوق بشكل مربح عبر المتوسط، إذا ما طبق الحظر بشكل دقيق، وكانت هناك مراقبة صارمة للبحر، وبذلك سوف يتكبد السلطان مع مسلمي الأندلس خسائر جسيمة، ولنتذكر هنا أيضاً أن الأراضي الخاضعة للسلطان تنتج بشكل خاص الأفاوية والقرفة بكميات كبيرة في مصر، ويصدر من هذه الأصناف كميات كبيرة جداً إلى بلدان مختلفة من العالم عبر المتوسط.

الفصل الرابع: ذكر للأضرار التي سوف تلحق بالسلطان، وبالشعب الخاضع له، في حال إيقاف تصدير الذهب والفضة والحديد وبقية أنواع المعادن وغير ذلك من المنتجات إليهم.

بما أنه لا يوجد في البلدان الخاضعة للسلطان لا ذهب ولا فضة خالصة ولا قصدير ولا معادن أخرى، يضاف إلى هذا لا يوجد فيها لامرجان ولا عنبر فكل هذه الأصناف تصل إلى بلاده عبر الطرق البحرية، ويفرض السلطان عليها في الاسكندرية مكوساً عالية.

وكان الرسم الذي يستوفى في الماضي على الذهب الواصل إلى السكة ستة وثلاثين بالمائة، وحيث أن أسعار الذهب عالية جداً في الغرب، فقد جرى في هذه الأيام إهمال الذهب، والاعتماد على الفضة التي ازداد استيرادها، ويستوفى في الاسكندرية عن تجارة الفضة رسم يبلغ أربعة ونصف بالمائة، لكن حصل بعض التجار في أيامنا هذه على امتياز أن لا يدفعوا عن الفضة سوى رسم مقداره ثلاثة ونصف بالمائة، ويتقاضى السلطان على جميع الفضة المستوردة لصالح السكة في القاهرة رسماً مقداره العشر، أما النحاس فإن الرسم المستوفى عليه في الاسكندرية وغير الاسكندرية من المركز قد يصل إلى ما يقارب الربع، أما القصدير فإن الرسم المفروض عليه في مختلف مراكز التعشير فقد يصل إلى

الخمس، هذا وبالإضافة إلى ما يستوفيه السلطان من مكوس عالية على القصدير والفضة الصرفة، ويستوفي أيضاً مثل ذلك على المرجان والعنبر، ويجري توزيع هذه البضائع كلها في مصر امتداداً إلى الحبشة وإلى الهند، ولا شك أن في هذا مرباح وافرة لصالح السلطان والتجار لديه ولشعبه.

الفصل الخامس: تبيان للخسائر الفادحة وللنفقات الكبيرة، التي ستتوجب على السلطان وستنزل به، إذا أوقف تصدير المواد الغذائية والمنتجات المتنوعة من بلاد المسيحيين إلى بلاده.

فضلاً عما تقدم يحمل التجار إلى الإسكندرية وإلى الأراضي الخاضعة للسلطان كميات كبيرة من الزيت والعسل والأعلاف للمواشي، واللوز وأنواع الصمغ، وباختصار إن عائدات السلطان في مختلف مراكز التعشير هي الربيع، ويحمل التجار أيضاً الحرير والأقمشة والصوف، والمنسوجات الحريرية أو المنسوجات الكتانية مع أشياء أخرى كثيرة كلها يدر على السلطان وعلى شعبه أرباحاً وفيرة وقد يحدث في بعض الأحيان قصور بفيضان النيل، وبذلك فإن الأراضي التي لا يلحقها الفيضان لا تعطي غلالاً، وذلك مثلما حدث بعد مدة قصيرة من سنة عكا وسورية، ولولا إمدادات القمح التي بعثت إلى المصريين لاض وقتذاك في غالبيتهم إلى الموت أو ترك البلاد.

الفصل السادس: وصف بلاد مصر، وتبيان الضرر العظيم سوف يلم بمصر إذا ما انقطعت عنها السفن مع باقي الا المحتاجة للملاحة البحرية.

لما كانت الأخشاب غير متوفرة في مصر، وأيضاً لا يوجد فيها ولا القار، وهذه هي المواد التي تتحكم بتطور الملاحة البحرية وبجودتها، وبما أن المسلمين لا يقدرون على الحصول عليها

المتوسط، فإنه إذا لم تكن لديهم سفن فمن الصعب أن تتمكن مصر من الصمود، ولا سيما القاهرة، ومثلها في ذلك مثل المناطق المكتظة بالسكان في بلادهم.

ومرد ذلك إلى أن القاهرة قائمة على ضفاف نهر النيل، والمسافة من القاهرة إلى البحر تبلغ قرابة المائة ميل، ونهر النيل يصب في البحر المتوسط، وله أربعة فروع، واسم الفرع الأول منها فرع تنيس، من جهة الصحراء، واسم الفرع الثاني فرع دمياط، واسم الفرع الثالث فرع البرلس، وأما الفرع الرابع فهو فرع رشيد، وفرع رشيد قريب من الاسكندرية وهو من جهتها، وبين هذه الفروع الأربعة اثنان أكبر حجماً وأهمية وهما فرعا دمياط والبرلس، ولأحد الفرعين الآخرين المسمى فرع تنيس حوض أعمق، وهو قادر على استقبال السفن الأكبر حجماً، والأكثر ثقلًا، حيث يوجد داخل الحوض بحيرة كبيرة وفسحة واسعة تسمح لعدد كبير من السفن أن ترسو فيها، والميناء موجود في المياه المالحة، وأما الفرع الآخر المدعو البرلس، فإن حوضه أقل عمقاً من الثلاثة الآخرين، ويستقبل سفناً أقل ضخامة، هذا وتستطيع الغلايين دخوله في موسم الفيضان، وبعده بمسافة وجيزة بحيرة ثانية، واحد من أجزائها تارة عذباً وتارة أخرى مالحة، ويبلغ داخل الزوايا الأربع لهذه الفروع نزولاً من الدلتا حتى البحر مائة وعشرين ميلاً، وإذا ما سرنا من دمياط إلى الاسكندرية بمحاذاة البحر فالمسافة مائتي ميل، وإذا ما سائرنا مجرى النيل من القاهرة نحو الجنوب، يقال إن الذي تحت سيطرة السلطان يبلغ مسافة مائة ميل، وللنيل الواقع تحت حكم السلطان فروع عديدة، حولها بحيرات كثيرة، ومستنقعات وتشعبات وأقنية كثيرة تجري في أرض مصر وتتدفق فيها وتسقي الأراضي وتؤمن ريعها.

وعلى ضفاف النيل وفوق مياهه عدد كبير من المحطات، ولهذا السبب تنقل البضائع والأغذية، ومختلف أنواع البضائع والمنتجات على

السفن، وحركة النقل والتجارة هذه نشطة جداً، هذا ويستوفي السلطان مكوساً على الأخشاب والحديد والقار التي تحملها السفن هنا وهناك ما يعادل ربع قيمتها، ولا شك أن هذا مبلغاً كبيراً، ويستوفي السلطان على كل مركب مبحر سواء أكان كبيراً أم صغيراً ثلاثة دنائير ذهبية، وهي تعادل ثلاثة فلورينات ذهبية ونصف فلورين.

ويتضح من هذا كم هو مهم عدد السفن التي تمر في موسم الفيضان عندما يجري حمل القمح إلى القاهرة، فوقتها تزداد كثافة حركة الملاحة على النيل وعلى بحيراته ذهاباً وإياباً، وإذا ما تأملنا كثافة حركة الملاحة وكثرة الرحلات، نرى بالفعل ما يثير الدهشة.

ويسكن في القاهرة مجموعات كبيرة من التجار والحرفيين، ويحكم في قلعة القاهرة السلطان ويقيم بها قاداته وأعوانه، وتمتد سلطته لتشمل مساحة قدرها نحو ألفي ميل، وأعداد المسلمين في مصر كبيرة، وبما أن سلطة السلطان متمركزة في مكان واحد، فهو على ذلك السيد الوحيد الذي يحكم مصر كلها مع الصحراء والمناطق التي خلفها امتداداً إلى أرمينيا والمياه الباردة المتاخمة للأراضي الخاضعة للمغول، وهكذا إذا ما حرم المسلمون من القدرة على الملاحة، لن يعود بالإمكان نقل البضائع والمؤن والامدادات لا إلى القاهرة ولا إلى القلعة، لأنه وقتذاك تصبح كلفة النقل أعلى من ثمن تلك البضائع، آخذين بعين الاعتبار أنه لا يمكن نقلها عن طريق البر.

ولهذا إنه من المناسب أن يتشتت سكان القاهرة وجند القلعة، والشعب الموزع بينهم، في جميع أرجاء مصر، التي هي مناطق شاسعة واسعة، فإذا تشتتوا في أنحاء مصر، يغدو من الطبيعي وقوعهم منطقياً تحت حكم سلطات متعددة مما يثير المنازعات بينهم، وحيث يستبد التشتت تسود التفرقة، وقد كتب «كل أمة منقسمة على ذاتها تخرب».

القسم الثاني :

ذكر كيف أن إحدى المناطق الخاضعة للسلطان قد تعرضت للضعف وهو في فصلين:

الفصل الأول: شرح كيف تضاعفت ثروة إحدى المناطق الخاضعة للسلطان، والمعني بذلك المنطقة الواقعة خلف البادية، وكذلك في بعض أرجاء سورية.

كانت — فيما مضى — المناطق الخاضعة لحكم السلطان خارج مصر، فيما وراء الصحراء باتجاه أرمينيا، وصولاً إلى المياه الباردة، الموجودة على حدود البلاد الخاضعة للتتار، أكبر، وأقوى، وأغنى منها اليوم، أي لما كان الصليبيون يسكنون في عكا وسورية، وأسباب هذا التراجع عائدة إلى أن منتجات السكان المحليين وبضائع وتجارات غيرهم من الشعوب، التي كانت تعبر من عكا ومن سورية قد بقيت في كنفها في البلاد الإسلامية، لأن الذين كانوا يستلمون تلك البضائع نوا من المسيحيين، ولأن شعب المسلمين شعب خامل كسول.

الفصل الثاني: يوضح كيف أن عدد السكان، وخاصة الرجال المقاتلين قد تضاعف في الأراضي الخاضعة للسلطان.

لقد تفضل الرب وتكرم في تنصيب رجل حازم سيداً على أرمينيا هو الأخ يوحنا، من رهبان طائفة الفرنسيسكان ليذل السلطان والمسلمين وليردعهم. فقد عمل بدهاء ولمدد طويلة من أجل تخريض التتار وإثارتهم ضدهم، وكانت محصلة ذلك حرمان أرض المسلمين الممتدة إلى مصر، لحقب طويلة من عدد كبير من الرجال، ومن كميات لا تحصى من الثروات، وكانت المحصلة ضياع وتشتت غالبية جنود السلطان، وإفلاس الشعب المسلم، لأن الكثيرين منهم غادروا البلاد، وباتت الأحوال في الوقت الحاضر ووصلت إلى حد أنه لم يعد في هذا الجزء من

-٣٥١٥-

البلاد لا رجال ولا ثروات، مقارنة بما كانت عليه الأوضاع فيما مضى،
ولولا المساعدات التي يبعث بها السلطان إلى هناك، لما كان قد بقي أحد
أو أي شيء على الإطلاق.

القسم الثالث

ذكر للبضائع التي يحتاجها المسلمون، والتي لا بد لهم من الحصول عليها من الخارج، ويقع هذا القسم في فصلين:

الفصل الأول : الأسباب الداعية لمنع تصدير السفن وباقي اللوازم المحتاجة للملاحة، إلى المسلمين في مصر.

يمكن لكل إنسان أن يرى بكل وضوح ما حدث في الماضي عندما قررت حكمة سلفكم تعميم قرارها الرسمي بحظر تصدير الأخشاب والحديد والقار إلى بلاد المسلمين لأن الإيرادات والأرباح من الرسوم التي يستوفيهما السلطان في أرض مصر، كانت بالكامل وما تزال مرتبطة بالذين يديرون أعمال الملاحة، ويفضل هذه الملاحة نال السلطان وما برح ينال ثروات ثمينة، وإذا ما تمعنا بالدراسة، نتيقن بأن سلطته قائمة فقط بفضل المرباح التي يجنيها من أعمال الملاحة.

الفصل الثاني: تبيان للطرق والاعراض التي يتخذها المسلمون في مصر للمحاماة عن منطقتهم، ولكي يحصلوا من البلدان الأخرى على الغلمان والجواري.

فضلاً عما تقدم إن الناس الذين يولدون في أرض مصر وأحوالها غير صالحين إطلاقاً لحمل السلاح، مقارنة بالمجلوبين من مناطق أخرى، فقد استغل السلطان والقادة لديه الثروات المجنية من وراء الملاحة بالبحر، وأخذ السلطان يرسل تجاراً يشترون من عدة بلدان غلماناً مسيحيين، ووثنيين سواء، وذلك من أي مكان يستطيعون ابتياعهم فيه بالمال، وكانوا بعد الحصول عليهم يدربونهم على استخدام السلاح، ويعلمونهم فنون القتال، وهم الآن بالفعل سادة المناطق المصرية، والبلدان الخاضعة للسلطان، وبهم يحفظ السلطان بلاده ويحميها،

وبفضل قوتهم طرد السلطان الصليبين من أرض الميعاد، ويجلب في الوقت نفسه إلى البلدان الخاضعة للسلطان جوارى من مختلف المناطق سواء أكانت مسيحية أم وثنية، فهم يحصلون عليهن للمتعة الجسدية، ويخضعوهن — هلاكاً لأنفسهن — لشرعة محمد (ﷺ).

القسم الرابع

وجوب إيجاد إجراء للمقاطعة أنفع من الإجراء الحالي، وكيفية إعداد الغلايين اللازمة للدفاع عن المسيحيين الساكنين في تلك المناطق من البحر، وبالوقت نفسه لتدمير المسلمين، وكيفية العمل لمنع أية أعمال تجارية على الإطلاق مع البلاد الخاضعة للسلطان عبر البحر المتوسط، ويحتوي هذا القسم على سبعة فصول:

الفصل الأول: لماذا يتوجب منع أي إتحاد مع المسلمين الخاضعين للسلطان من دون استثناء، أو اتصال بهم، أو سفر إلى بلادهم.

للاطلاع بها العمل المقدس الهادف إلى استرداد الأرض المقدسة التي رآها بدمه الغالي مولانا يسوع المسيح، الابن الوحيد للرب الحي، ولإكمال ذلك من الضروري تماماً أن يعمم الحظر رسمياً في العالم كله، أي الاعلان بشكل عام إنه ممنوع أن يرسل إلى هناك الخشب والحديد والقار، وأن يؤخذ من هناك بشكل عام أي صنف من الأصناف، وسبب ذلك هو مايلي:

عندما يود المسيحيون استلام المنتجات الخاصة والسكر والحديد، ومختلف أنواع البضائع من المشرق، يذهبون إلى هناك، ويعودون، ومعهم البضائع التي من المؤكد أنها غير مخالفة للحظر، وهنا يحدث أن المسيحيين المخالفين ومثلهم كذلك المسلمين، الذين يمتلكون هم أيضاً سفناً خاصة بهم، أنهم يقدمون إلى الغرب محملين بالبضائع ومن ثم يعودون وهم يحملون على سفنهم الأخشاب والحديد والقار، والرقائق، إلى مصر والأراضي التابعة للسلطان، وهكذا يحدث أن المسيحيين الذين يريدون أن يكونوا طائعين للكنيسة، يتورطون في تقديم المساعدة إليهم، وإنه لمن الأفضل لهؤلاء المسيحيين المخلصين أن يتجمعوا على البحر أو

على اليابسة، في المراسي، أو في أي مكان، وأن يحتشدوا سوياً مع سفن المسيحيين المخالفين، وهناك لا بد من وجود المسلمين مع سفنهم المحملة خشباً وحديدًا وقاراً، ورقيقاً، وإذا ما غضوا النظر عنهم، يكونوا قد ساعدوهم وأنقذوهم وسهروا على سلامتهم، ودعموهم.

وإذا ما تصرفنا على عكس ذلك، يتوجب إلقاء القبض على الأشخاص التابعين للبلدان والأراضي الخاضعة للسلطان، ومصادرة بضائعهم، ووقتها لن يتجروا ثانية على ركوب البحر من جديد.

وبناء عليه يتضح تمام الوضوح أنه في حال الاعلان الرسمي عن هذا الحظر في العالم كله، وفي حال تطبيقه بشدة، أي أن يكون واضحاً تماماً لكل من يعمل في قطاع البحر، أنه ممنوع تمام المنع السفر إلى الأراضي التابعة للسلطان، وأن كل من يخالف هذا الحظر، خرقاً لأوامر سادتهم وجماعاتهم سينال العقاب، ولسوف يلقي القبض على المسيحيين المخالفين وعلى المسلمين غير الملتزمين بهذا المشروع المقدس، ووقتها سيكون الذين أوكلت إليهم أمور الإشراف والرقابة على البحر على استعداد لتأدية مهامهم طوعية وعن طيبة خاطر، ومن ثم فرض الالتزام بهذا التدبير المفيد.

وعلينا على كل حال أن نتذكر أنه لما ضاعت عكا وسورية أعلن رسمياً الحظر على الذين يذهبون إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، أو الذين يعودون منها محملين بالبضائع، وكان الحظر قد قضى بالإعلان بأن الذين يخالفونه هم سفلة، ويعتدون محرومين من الوصية، أي إنهم لا يستطيعون كتابة وصاياهم، ولا وراثة ما ترك لهم في وصايا غيرهم، مع الإعلان أنهم غير مؤهلين للقيام بأي حصر إرث سواء أكان ذلك من جهة المعطي أو من جهة المستفيد، ثم طردهم من جميع الوظائف العامة التي يشغلونها، ومنع منحهم أية وثيقة شرعية، وبشكل عام يتوجب مصادرة جميع ممتلكاتهم، وإذا ما أُلقي القبض عليهم يتوجب إبقاءهم

سجناء تحت حراسة الذين ألقوا القبض عليهم.

الفصل الثاني: لماذا يتوجب على جميع المسيحيين مطاردة المخالفين لأوامر الكنيسة في هذا المجال، في كل مكان، وليس فقط في البحر بل وفي البر:

كان الحظر فيما مضى يطبق في مجالات البحر فقط، أي كانت تجري ملاحقة المخالفين بحرّاً لا برّاً، والآن إذا قررت قداسكم بإلهام من الروح القدس تنفيذ الأوامر المذكورة أعلاه، وأعلنت أنه مقدس وموالم تماماً التشدد في تطبيق هذا الحظر — أقول بكل تواضع بشكل دائم — على الأرض وفي العالم كله، وقتها من الممكن تطبيق إجراء ملاحقة المخالفين بشكل أشد وأكثر جدوى، ذلك أن مراقبة البحر لوحده لا يكفي، ولا يمكن منع هذا أو ذاك عن الابحار كلياً، أو عبور البحر حتى الأراضي التابعة للسلطان، ومرد ذلك إلى أن الغلايين لا يمكنها البقاء في عرض البحر أمام العواصف، ولا حتى عندما يكون البحر هادئاً، ثم إنه في بقائها في فصل الشتاء ليلاً خارج الميناء خطر، يضاف إلى هذا لايمكنها البقاء في فصل الصيف لأيام طويلة في عرض البحر، من دون التردد على الشاطئ للتزود بالماء للشرب وللإستخدامات الأخرى، هذا ومن غير الممكن مراقبة البحر مراقبة عامة مجدية بوساطة البوارج حتى وإن شحنت بالمقاتلين، لأن البحر واسع جداً، وما أن تبتعد عن الشاطئ إلى عرض البحر حتى تتمكن سفن المخالفين من الابحار أيضاً، ومن ثم في مرسى من مراسي بلاد السلطان ترسو به، وستجد الترحيب والمعاملة الطيبة، لأن الناس هناك بحاجة إليها، ومثلما يكون بمقدور هؤلاء المنافقين الذهاب إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، يكون أيضاً بمقدورهم العودة منها إلى بلادهم، وبناء عليه إذا أردنا أن يعطي الحظر النتائج المتمناة، يجب إيقاف أي تحرك تجاري نحو الأراضي والأماكن الخاضعة للسلطان وفوقها أيضاً، والقيام من ثم بمطاردة

المخالفين ومصادرة بضائعهم سواء في البر أو في البحر، ونظراً لأن هؤلاء المسيحيين المنافقين الأثمين، كانوا في تلك الأزمان — أي لما بدأ العمل بذلك الحظر — لدى عودتهم إلى بلدانهم سبباً للأذى ولمحنة شيطانية للجماعات عديدة، فبسبب كثرة البضائع والأرباح التي كانوا يعودون بها، جاء عملهم بمثابة محرض لغيرهم لكي يخالفوا مثلهم، وذلك لهلاك أنفسهم، ومن جراء ذلك أقدم العديد على المخالفة وراحوا ورجعوا عدة مرات، وبذلك افتتحوا المسيرة اللعينة لهذه العادة البائسة، لذلك فإن هؤلاء يستحقون أن يعاملوا معاملة الهراطقة لمخالفتهم هذا الأمر المجيد، كما ينبغي ملاحقتهم هم وبضائعهم في العالم كله كيلا يصبحوا مثلاً شريراً يقتدى به، وكيلا يدفع موقفهم أناساً آخرين إلى التشكك، وذلك بسبب ما اقترفوه في الماضي من شرور، ولهذا يتوجب معاقبتهم عقاباً رادعاً ليكونوا عبرة لمن اعتبر، ولا شك أن الرعب سوف يحل في قلوبهم إذا ما جرى نشر عدد من الغلايين التي ترفع علم الكنيسة، ويساعد هذا على تنفيذ هذا المشروع المقدس والمفيد.

الفصل الثالث: وجوب إغلاق الطرق في وجه البضائع التي اعتاد التجار على نقلها من الأراضي التابعة للسلطان عبر أفريقيا كلها، ثم عبر الأندلس حيث يقيم المسلمون.

من الموائم إيقاف حركة نقل البضائع القادمة من الأراضي التابعة للسلطان، وبناء عليه من الضروري منعها من المرور من جبال برقة المجاورة للأراضي الخاضعة للسلطان، وكذلك من أراضي ملك تونس، ومن الأراضي الواقعة تحت سيطرة المسلمين في الأندلس، وكل من يتجرأ على تسلم أية بضائع أو أصناف نادرة أو منتجات قادمة من الهند، أو شرانق الحرير أو السكر أو الكتان، ينبغي إنزال العقوبات نفسها المقررة على من يتلقى بضائع واردة من أراضي السلطان وبلاده،

وبذلك لن يتجرأ هؤلاء المسلمون المغاربة من الجنوب على ركوب طرق أراضي السلطان لكي يبتاعوا منها تلك الأصناف والبضائع، وهذا ما وقع في الماضي يوم كان تطبيق الحظر تطبيقاً شديداً وأكثر دقة.

الفصل الرابع: أسباب وجوب أن يشمل هذا الحظر حتى الشمال من نهر سيحان وصولاً حتى آني:

وأيضاً ليكن من جهة الشمال عند تخوم كليكية، المدعوة في هذه الأيام أرمينيا، من النهر المسمى سيحان، مروراً حتى الشاطئ التركي الذي كان فيما مضى تابعاً لبيزنطة، ونزولاً حتى آني، ليكن محظوراً على أية بضائع قادمة من الهند أو من أراضي السلطان المرور، وبالطريقة نفسها هذه المقدمة الذكر بخصوص بلاد المغرب، وينبغي أن يكون ذلك تحت طائلة الحرمان الكنسي، وسبب ذلك أنه في تلك المناطق حركة نشطة، وخاصة في منطقة كايا وأضاليا، لبيع الخشب والقار والرقيق من الغلمان والجواري من المسيحيين والوثنيين، وكذلك الحرير وغير ذلك من البضائع التي تنقل جميعاً إلى هناك من الأراضي التابعة للسلطان، وبشكل خاص من مصر، ذلك أن هذه البضائع تفرغ هناك، ومن ثم يعاد تصديرها وبيعها، وإرسالها مجدداً إلى تركيا، كما يجري إرسال السكر والكتان والتوابل وأصناف أخرى كثيرة، فبهذه السلع يجري إغراق تلك المناطق، ونظراً لوفرته يجري شحن الفائض منها بحراً نحو البلدان الأوربية.

وكما تقدم بنا القول، وإنه نزولاً من آني يقضي بالوصول حتى سكوتاري Scutari الواقعة في الوسط مقابل القسطنطينية، لأن الأتراك — الذين هم أسوأ الخلق بين المسلمين — قد استولوا على جميع البلاد الواقعة فيما وراء أويدوس Auedos شرقاً، وقد قتلوا العديد من الاغريق، وأسروا الكثيرين، وباعوهم في أسواق النخاسة، فضلاً عن هذا عاد أولئك الأتراك من جديد، فأخذوا يمحرون عباب البحر، وقد

دمروا جزراً عديدة في المنطقة بكل وحشية مذهلة، إلى حد أن تلك الجزر قد خربت تماماً.

ويلزم الانتباه إلى أن الشخص الذي سوف تتولى كنيسة الرب المقدسة، الأمر بتعيينه قائداً، قد يتمكن من أن يوجب على المسلمين القاطنين في تلك المناطق الامتناع عن تصدير أو استيراد أية سلعة من الأراضي التابعة للسلطان، وسوف يلتزم هؤلاء بالأوامر، لأنهم أنفسهم يحتاجون إلى القمح وبضائع غيرها كثيرة، فضلاً عن هذا سيخافون من الغلايين المسيحية، وإذا لم يلتزموا، يتوجب تطبيق الحظر ذاته المطبق تماماً ضد كل مسيحي يتجرأ على الذهاب إلى الأراضي التابعة للسلطان، على الذين يقدمون على قصد المناطق التركية وسيلحق هذا بالأتراك أذى عظيماً، لأن الأتراك هم أسوأ المسلمين الذين لهم علاقة بالمسيحيين الأشرار ويتعاملون معهم تجارياً، مخالفين بذلك قرارات الكنيسة ومعتلين لأوامرها أكثر من أي شعب آخر في العالم.

الفصل الخامس: الأسباب المسوغة لمنع أي مسيحي من شراء أية بضائع مجلوبة من البلدان الخاضعة للسلطان، مهما كانت الطرق التي جاءت منها.

ينبغي ألا يتجاسر أحد من الناس، في أية بقعة من بقاع الدنيا، ولا سيما في بلاد الاغريق، وفي الجزر التابعة لها على شراء أو تسلم أية أصناف نادرة أو بضائع من الهند، ولا شرانق حرير ولا سكر ولا كتان، إذا ما خمن، أو تأكد أنها مجلوبة بحيلة أو وسيلة من الأراضي التابعة للسلطان، وإذا فعل تنزل عقوبة الحرمان نفسها، وسبب ذلك أنه في الماضي عندما كان المسيحيون يمتنعون من الذهاب إلى بلاد السلطان، أكثر مما يفعلوه اليوم، كانت جزراً ومناطق بحرية كثيرة تستقبل المهربين الواصلين محملين بضائع من بلاد السلطان، ونجم عن ذلك أن غالبية من التجار المسيحيين في المناطق البحرية، كانوا يحملون — في ظل هذه

الأوضاع — البضائع الموائمة، ويستخدمون الأراضي التابعة للسلطان، فيعبرون إلى تلك الجزر والمناطق، وكانوا من هناك يسمحون لأنفسهم — بضميرهم الواسع — بإرسالها إلى البلدان المسيحية في الغرب.

الفصل السادس: العقوبات المتوجب إنزالها بالأمراء وبحكام المناطق وبالجماعات التي لا تلتزم بهذه الاجراءات، فتستقبل تلك البضائع في مراسيها، أو في أراضيها.

ومن أجل أن تطبق هذه القضية المقدسة تطبيقاً كلياً لمجد سيدنا يسوع المسيح، وحمده، ولكي تنزع من أمام الجناة فرصة الخطيئة، ليتلطف الأب الأقدس وليوافق على أن يزداد على هذا الحظر: إن على كل حاكم أو مسؤول عن منطقة أو أي شخص معهود إليه القيام بمثل تلك المهمة، أن يتعهد ألا يقبل بأي شكل من الأشكال على أراضيها أو أراضي أتباعه، الذين ينتهكون هذا الحظر، أو حدوث شراء لبضائعهم هناك، أو أن يقدم لهم النصيح أو أي عون أو منحة أو نجدة، أو بأن يدعموا بأية طريقة من الطرق، وذلك تحت طائلة العقوبة نفسها، التي يستحقها الذين يدعمون فساد الهراطقة أو يشايعونهم.

فإذا ما تم ذلك كله، فإن الرب سوف يفتح الطريق لتحقيق هذا المشروع كله، أما إذا لم يرق لقداستكم إنزال هذا النوع من العقوبة بحق هؤلاء الناس، فإنني أعتقد أننا لن نستطيع قهر الكفرة غير المؤمنين ونفيهم، ومثلهم أيضاً المنافقين الذين اغتصبوا من المؤمنين ملكية الأرض المقدسة، ما دما غير قادرين على إلزام حتى التابعين لنا بالتنفيذ، وعاجزين عن منعهم بأن يحملوا إلى أعدائنا مثل هذه المساعدة، وهذا الامتياز، لكن إذا راق لقداستكم فرض هذا الإلزام، وهذا الحظر، فكل شيء يمكن أن يتم بسهولة ويسر.

الفصل السابع: مراقبة البحر وحراسته، وكيفية تأهيل الجهاز الأمني

الأول للمسيحيين — أي الجيش — للحرب، ومقدار التكاليف.

ما أن توافق قداستكم على الحظر المذكور في الموجز المتقدم، أتمنى أن تتكرم قداستكم بالهام من الروح القدس، أن تأمروا بالاعلان عن ذلك في كل مكان، من أجل مراقبة البحر، لملاحقة المسلمين والمسيحيين الآثمين الذين يروحون ويغدون من وإلى الأراضي التابعة للسلطان، وكل من يخرق هذا الأمر المحق تماماً، من أمثال هؤلاء، ينبغي أن يتولى مطاردتهم في كل مكان، وبشكل دائم القائد الذي تعينه كنيسة الرب المقدسة، وعلى ذلك القائد اتخاذ التدابير الكفيلة بعدم دخول الحديد وبقية أنواع البضائع إلى أرمينيا، وذلك عندما يتأكد أنه من الممكن إعادة تصديرها من هناك إلى البلدان الخاضعة للسلطان، والسبب هو مايلي: إن أرض ملك أرمينيا متاخمة لبلاد السلطان وبلاد غيره من المسلمين، ومن المتوجب إعطاء قبطانكم — أقول دوماً بكل تواضع — عشرة غلايين، يوجهها إلى الجهة التي تأمر بها قداستكم، وذلك من أجل العبور الكبير، ويشترط تسليح تلك الغلايين، ويقصد منه إنجاح مشروعكم لحمد الرب ومجده، وعلى هذا ينبغي أن يتحلى الذي سيكون القبطان بمؤهلات لا تدع مجالاً لأي مسيحي مطيع القيام بمعارضته مطلقاً.

ويتوجب شحن تلك الغلايين لمدة تسعة أشهر وتزويدها بطاقم مدرب وأن تكون أحوالها جيدة، فيها كل ما يلزم من مؤن وسلاح، وينبغي على القبطان القيام بمراقبة البحر لمدة سنة، وأن يمنح امتياز أن كل ما يستولي عليه هو ورجاله الذين تحت إمرته يكون له ولهم، وبهذه الوسيلة سيزدادون يقظة، وغيره من أجل الكشف عن كل من تسول له نفسه مخالفة هذا الأمر المقدس وملاحقته، ونيل هذه الأسلاب أمر ضروري لهم تماماً من أجل الانفاق على عيشهم، وأداء مهمتهم.

وإذا ما رغبت قداستكم في معرفة كم سيكلف هذا كله، نجيب أن

شراء الغلايين وشحنها بالعتاد والسلاح سوف يحتاج إلى مبلغ خمسة عشر ألف من الفلورينات، مقابل الرواتب ونفقات الأطعمة وبعض الحاجيات الأخرى على أساس أن يكون على ظهر كل غليون مائتين من الرجال مع مشرف أعلى يكون شهياً وكفئاً، يمكن للقبطان أن يجد لديه، وقت الحاجة، النصيحة والمساعدة والدعم، ويضاف إلى المجموع مبلغ ألفين وخمسة وتسعين من الفلورينات، وإذا ما أضفنا إلى هذا كله رواتب تسعة أشهر، يصبح المجموع سبعين ألفاً من الفلورينات، على أساس أن كل فلورين يساوي سولدين من نقود البندقية الفضية.

وجدير بالأخذ بعين الاعتبار، أننا إذا ما أردنا أن نكون مسلحين بشكل جيد، وأن تكون طواقم الغلايين مدربة بما فيه الكفاية حول شؤون البحر والملاحة فمن الضروري الشروع بتوقيع العقود منذ أيام عيد الميلاد، وفي الحقيقة تبدأ كل المؤسسات التي تريد إرسال سفن إلى بلدان مختلفة باكراً باختيار الطاقم المناسب، وهكذا إننا إذا ما تأخرنا نحصل على عناصر أدنى كفاءة، ويزيد مثل هذا التأخير في كلفة الغلايين.

وإذا رأيت قد استكم في البداية أن نفقات هذه الطواقم عالية جداً، بإمكانكم الاكتفاء بسبعة غلايين ضمن المواصفات والشروط المبينة أعلاه، وإذا شكك أحدهم بإمكانية توفير قبطان يتمتع بالمؤهلات المطلوبة، نجيب بأنه من المنطقي العثور عليه، لا سيما عندما نغريه بالراتب وبالحصصة التي سينالها من الغنائم، التي نقدر عقلاً أن سوف تكون كبيرة جداً على الأرض، وفي البحر، وبذلك تكون كلفة هذا الجيش نحواً من خمسين ألف من الفلورينات، ما عدا كلفة الغلايين وتجهيزها وتسليحها، والمهم في الأمر أن يحقق المشروع النتيجة المتوخاة.

ومن المؤكد أن هذه الغلايين ستكون ضرورية جداً للدفاع عن الأراضي الأوربية نفسها، ولضمان سلامة المؤمنين الساكنين فيها،

وللانطلاق بنية مهاجمة المسلمين، وبشكل خاص الذين يركبون البحار ويتاجرون مع المناطق التابعة للسلطان، وللاحقة المسيحيين المخالفين والمنشقين والمسلحين وجميع أنواع الكفرة المتبقين، لمنعهم من استيراد السلع والتجارات إلى الأراضي المذكورة، أو تصديرها، ولسوف تكون النتيجة أعظم فعالية إذا طبقت الإجراءات ذاتها على البر، وإذا عمل بالأسلوبين معاً، فوقتها ستكون النتيجة أفضل بكثير، وباختصار إنني كلما تفحصت المسألة وتأملت فيها ملياً، وتفكرت بالفوائد والمنافع التي ستنتج عن الالتزام بهذه الإجراءات على الأرض، وعن ملاحقة من يخالفها مع بضائعهم، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار العون الذي يمكن أن تقدمه الغلايين التي تستطيع قداستكم الحصول عليها من جزر اليونان وقبرص وغيرها، وإذا ما رسمت قداستكم الرسولية السامية هدفاً أولياً ورئيسياً لتحقيقه، أعتقد أنه بخمسة غلايين فقط، سيكون — كما تقدم وقلنا — من الممكن في الوقت الحالي، الحصول على النتيجة المرتقبة، بما فيه الكفاية.

وستبلغ نفقات هذه الغلايين الخمسة خمسة وثلاثين ألفاً من الفلورينات كل سنة، دون أن نحسب ثمن الغلايين وتجهيزها وتسليحها، وفي الحقيقة إذا كانت الغلايين مسلحة بشكل جيد، وإذا ما أنزلت الكنيسة أوامر حرمان كنسية أشد مما كان في الماضي، فمن الممكن بيسر الحيلولة دون نشوب خلافات ونزاعات بين رجالات الأمراء والجماعات البحرية وبين الكنيسة، وذلك حسبما توقع الكثير حدوثه، مثلما وقع ما بين فرسان الاستبارية وأهل جنوى في أيام الراهب فولكونيس دي فيلاريتو Fulconis de Vilarreto الذي كان يشغل آنذاك منصب المقدم الأعلى للفرسان الاستبارية، وبدون ذلك لن يكون تنفيذ مراقبة البحر أمراً ممكناً، وبناء عليه سيكون تطبيق هذه دون تلك ناقصاً، وهذا ما أوضحناه في القسم الرابع.

أما بخصوص الغلايين اللازمة في البلدان الأوربية:

إنه إذا ما رغبت قداستكم في تنفيذ المشروع على الأرض، ومن ثم إرسال بعض الغلايين التي جرى الحديث عنها من قبل، من أجل حراسة البحر، وأن يمتلك القبطان الذي يتسلم إمرة الأسطول، الصلاحيات المطلقة للعمل أين يرى وكيف يتدبر، من الممكن له بسهولة تأمين العدد الكافي والجيد من الغلايين، حيث يمكنه الحصول على غليون من جنوى من عند آل زكريا، الذين هم سادة جزيرة كايوس القريبة من تركيا، وعلى غليون آخر من البندقية من عند السيد وليم سانوتو، وآل غيزو Guise الذين هم في الجزر المجاورة، ويؤمن الغليون الثالث من بطريك القسطنطينية مع إكليروسه، وبعض سادة جزيرة نعروبونتي Negroponte ، إذا طلب منهم ذلك على أن لا تكون شروطهم أقسى من الشروط التي وضعوها في الماضي، أما الاستتارية فإنهم سيقدمون اثنين من الغلايين، وذلك من الجزر التي بحوزتهم، وسيتولى رئيس أساقفة كريت تسليح الغليون السادس بمعاونة إكليروسه والأعيان الذين في الجزر المحيطة بهم، ومعهم رجال الاقطاع وسواهم من أهل كريت، إذا ما طلب ذلك منهم خطياً، وإذا ما منحوا الغفران المعتاد منحه في الأحوال المماثلة، وفيما يتعلق بجلالة ملك قبرص وأساقفة الجزيرة وأعيانها، فيمكنهم منطقياً القيام متطوعين بتسليح أربعة غلايين، فهذا أمل معقود عليهم، ذلك أنهم سلحوا فيما مضى أكثر من أربعة غلايين، هذا ولا يمكن للذين يتولون تسليح هذه الغلايين الادعاء بأي حق عليهم، والمفهوم أنهم قد تخلوا عنها لصالح الجميع ولخدمتهم، وبفضلها يمكن تأمين سلامة أعظم ضد غارات الأتراك، وضد النشاط العدواني لغيرهم من المسلمين، كما يمكنهم التحصن ضد الحلف المعقود بين الكاتالانيين وغيرهم من الأشرار المجرمين.

وسوف يكون كل واحد من هذه الغلايين مجهزاً بطاقم يتكون من مائتين وخمسين رجلاً، وهي لن تكلف خزانة الكنيسة الرومانية أية نفقات، لأن صيانتها واقعة على عاتق من جهازها وقدمها، ويمارس القبطان المعين من قبل الكرسي الرسولي سلطانه على هذه الغلايين وعلى سواها، ويستطيع في المستقبل ملك قبرص والاستبارية وباقي سادة الجزر اليونانية — إذا دعت حاجة كبيرة وواضحة — تأمين غلايين أخرى وفرساناً ورجالة لبعض الوقت، يضاف إلى هذا من الممكن العثور في تلك المناطق على غلايين يتولى تسليحها التجار، وهذه يمكن في بعض الأحيان وبعض المناسبات استخدامها، لإسيما عندما تلتحق كلها بباقي الغلايين، وهكذا يمكن بعون من بيده تدبير كل شيء وإرادته تحقيق خير كبير، شرط أن تتولى قداستكم تشغيل هذه الغلايين، بقيادة قبطان جيد.

القسم الخامس

الأسباب المسوغة لتوجب يقظة الكنيسة في هذا المجال، وهو في
ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الحث على متابعة تنفيذ هذا المشروع بعد الإقلاع به
مباشرة.

إذا حسن في ناظري قداستكم الوصول إلى الغاية المتوخاة مما تقدم،
فإن ذلك سيكون مؤشراً واضحاً على أن الرب شاء الشروع بتحقيق
استرداد الأرض المقدسة، تلك التي رواها بدمه الثمين مولانا يسوع
المسيح، وأنه بالفعل قد بدأ بذلك بشكل ملموس، فبناء على طلب
صاحب أرمينية، ذلك المسيحي الصالح قامت دولة غربية، ووجهت
ضربة صاعقة إلى السلطان وإلى المسلمين، نعتقد أنها انتقام من عند
الرب، بسبب القسوة المتناهية التي ارتكبتها السلطان والمسلمون بحق
المؤمنين بالمسيح في كل من عكا وسورية، عندما اجتاحوهما، ودمروهما،
وخربوهما، وسبوا الكثيرين من أهلها، ويدل ما حدث على أن الرب
— كما قيل — قد شاء الشروع بتدمير قسم كبير من أرض السلطان
وبلاد المسلمين، فأنتم أيها الأب الأقدس، يا من تمثلون الرب، سوف
تبذلون كل جهد مستطاع بغبطة وسرور، ونحن واثقون من أن ذلك
لاسترداد الأرض المقدسة التي تثن وتنوح بمرارة، ذلك أنها ميراثكم
الحق، وميراث الدين المسيحي بأجمعه.

وهذا ما ينتظره أيضاً المتبقي من المناطق التي احتلها السلطان وما
يزال يحتلها مع المسلمين المجرمين، وإنني أعلن بكل احترام أيها الأب
الأقدس أن في التأخير خطر، ونحن نجد مثلاً ونقرأ: «إن تأجيل ما كان
جاهزاً ما كان قط جائزاً»، هذا ومن الضروري التمعن بأمر، وهو أن

المناطق التي يسكنها الكاثوليك تتقلص باستمرار.

ففي آسية لم يعد ممن يؤمن بالمسيح غير كليكية، التي يدعوها عامة الناس باسم أرمينيا، وهي على كل حال في وضع كئيب وتعيش في ظل خطر عظيم، وذلك حسبما سنوضح الوضع في الفصل الرابع، هذا ولا يزال في أماكن متفرقة هنا وهناك من آسية مسيحيون، أما في إفريقية فلم يعد في حوزة المسيحيين غير جزيرة جربة، ومع هذا ما يزال هناك بعض المسيحيين يسكنون في أفريقيا، وهم مكبوتون تحت نير المسلمين، ويحتل المسلمون في أوربا عينها مملكة غرناطة، ويوجد في أجزاء كبيرة من أسبانيا التي يسكنها المسيحيون الكثير من المسلمين واليهود، وإن كانوا يعيشون تحت سلطان المسيحيين وحكمهم، ويعيش في جزر اليونان الروم المنشقون، لكن زمام الأمور والحكم هناك في بعض المناطق هي بأيدي المؤمنين.

ويتبع البلغار وملك صربيا عقيدة الروم، لكن يعتقد بوجود بعض الكاثوليك في ألبانيا وبعض مناطق الشاطئ، إنما عددهم صغير مقارنة بعدد غيرهم من الطوائف الأخرى، والبوسنة هي وكر الهراطقة، وتابع الروتان Ruteni الانشقاق، ويعيشون مع غيرهم من الملل تحت نير تثار بلاد الخزر المتأخين لمسيحيي بولونيا والمجر، ويحكم الليتوان مع رئيس أساقفة ريجنسي Rigensi. والأسرة الألمانية المالكة أراضيهم بأنفسهم، وبهذا يتضح لنا كم تبقى من الأراضي التي يسكنها الكاثوليك، وألفت النظر بشكل خاص إلى أنه لم يبق ولا واحد من الكراسي البطريركية الهامة في حوزة المؤمنين بالمسيح.

الفصل الثاني: التوجه بشكل ملح بنداء نحو المسيحيين في البلدان الأوربية وطلب النجدة منهم ومن زعمائهم وملوكهم.

نلتمس من حنانكم وعطفكم التلطف بإلقاء النظر على مملكة المؤمنين

الأرمن الرازحين تحت نير أنياب أربعة وحوش ضارية:

فمن الجهة الأولى هناك الأسد — أي التتار — الذين يستوفون من ملك أرمينيا جزية كبيرة، ومن جهة ثانية هناك الفهد — أي السلطان — الذي يبدد في كل يوم المسيحيين والمملكة، وهناك من الجهة الثالثة الذئب — أي الأتراك — الذين يدمرون الممالك والممتلكات، وهناك من الجهة الرابعة الأفعى — أي قراصنة البحر المتوسط — الذين يهشمون يومياً عظام المسيحيين شروعاً من أرمينيا.

ولتتلف قداستكم أيضاً بإلقاء نظرة فيها شفقة، على المسيحيين الرازحين منذ زمن طويل، وهم يعانون من العبودية في أراضي السلطان، ومن الشقاء بعد سقوط عكا وسورية.

ولتتلفوا أيضاً بالنظر إلى المسيحيين الساكنين في النوبة وفي الحبشة، التي هي أبعد أراضي السلطان، والذين هم العبيد السود، الذين لا قوا وما زالوا يلاقون من السلطان الاضطهاد والويلات.

ولتتكرم تقواكم بإلقاء ناظريها على جزيرة قبرص، حيث يعيش أولادكم المؤمنون في خطر كبير من قبل الكفار، وأيضاً على جزر اليونان حيث يلاقى اللاتين الضيم على أيدي الأتراك، ويرغمون على دفع الجزية إليهم.

الفصل الثالث: خاتمة فيها خلاصة كل ما ورد في الكتاب الأول:

بناء على ما تقدم إنه إذا ما أعلن قداسة مولانا البابا ذلك الحظر المقدس حسبما بيناه أعلاه، وإذا ما أخذ بهذا الحظر في العالم كله، وإذا ما أرسلت الغلايين لمراقبة البحار من أجل هذه الأهداف الميينة، فإن قوة السلطان والأتراك — بعون النعمة الربانية — سوف تضعف، وسيكون بالإمكان منع السفارات والبعثات والاتفاقيات الثنائية بين امبراطور الروم والسلطان، وكذلك منع تبادل الهدايا الكبيرة التي تجحظ لرؤيتها

عيون العقلاء، وتجذب قلوب الأبرار، وتوهنها، ذلك أن الامبراطور والسلطان كثيراً ما يتبادلان الهدايا كالسلاح، وشقق الحرير والكتان، والسكر والعطور، والجواهر والذهب، والفضة، والحجارة الكريمة وغيرها من المجوهرات، ومن الممكن بسهولة مداهمة هذه الهدايا والاستيلاء عليها، فبوساطة هذه السفارات والبعثات المتبادلة والمراسلات توصل السلطان إلى استمالة خاقان التتار المدعو أربك، الذي يحكم بلاد الخزر وباقي البلدان الشمالية إلى درجة أن هذا الحاكم قد اتبع شريعة محمد (ﷺ) وأخذ قسم من شعبه يميل إلى الفساد نفسه، ومن ثم صارت الخشية كبيرة إذا ما استمرت هذه الحالة طويلاً بينهم على هذا الوضع، فإن تلك الشريعة المفسدة ستنتشر بشكل تصاعدي في تلك المناطق الشمالية، وفي هذا ضرر كبير وخطر بالنسبة للإيمان المسيحي، ذلك أن مصادر موثوقة تؤكد أن أربك هذا يمتلك أعداداً هائلة من الخيول، وجيشه مقسم إلى مجموعات، كل عشرة أفراد في مجموعة، وإذا ما أخذنا فقط ثلاثة أعشار ذلك الجيش يتكون عندنا جيش جرار، يمكن تعبئته بشكل يصعب تصديقه، فإذا قطعت جميع المواصلات البحرية بينهما وأغلقت كما تقدم وبيننا، نكون قد وجدنا الدواء الفعال والكافي، ذلك أنه أسهل على المرء المقاومة في البداية من أن يتمكن من تبديل ما ترسخ بعد بدايته على مرور الزمن، ووقتها سيكون البحر مع المؤمنين الذين على هذا الجانب من البحر أكثر أماناً، وسيجني المنافع من ذلك مسيحيو شواطئ البحر المتوسط، لا سيما الأقوى بينها والأنشط، وهي التي يسافر سكانها بحراً أكثر من غيرهم، وستكون هذه المنافع كثيرة، وبذلك سوف يدلون مواقفهم الخاطئة، وكذلك سيفعل العلمانيون والأكليروس والرهبان، فهؤلاء أيضاً سوف يجنون من وراء ذلك خيراً عظيماً.

ولسوف تكون حقيقة الأوضاع حسبما يلي: إذا ما تعذر الذهاب من

الأراضي المسيحية بحراً مع الذهب والفضة والمجاذيف والنحاس، والزعفران والصمغ وشقق الصوف والحرير والكتان وغير ذلك من البضائع، لإيصالها إلى الأراضي التابعة للسلطان، بسبب الحظر الذي أعلنه الكرسي الرسولي، وإذا أيضاً لم يعد بالإمكان الحصول من أراضي السلطان على الشرائق والسكر والكتان والتوابل، وباقي الأصناف النادرة والبضائع القادمة من الهند، وإذا ما عُرف في كل مكان أن الذين ينقلون تلك البضائع ويتداولون فيها، باتوا عرضة للملاحقة والمحاكمة وإصدار الحرمان الكنسي بحقهم من قبل قداستكم، فإن غالبية الساكنين في الأراضي الساحلية سيبقون في وضع خطير بسبب المشاحنات المتواصلة فيما بينهم وبين من تقدمهم من المخالفين الأوائل.

وفي جميع الأحوال ستزداد أرض أرمينيا ازدهاراً، لأنها تنتج بدورها كميات كبيرة من الشرائق، ولأن الأصناف النادرة والبضائع القادمة من الهند، ستمر من مدينة بغداد نحو شواطئ المتوسط، سوف يجني نصارى أرمينيا من وراء ذلك مرباح كبيرة، تساعدكم في الدفاع عن مملكتهم ضد المسلمين أعداء الكنيسة.

ونظراً لتدمير قسم كبير من أراضي السلطان على أيدي التتار، حسبما أوضحنا من قبل، فإن هذا مؤثر، أنه بعون الرب، وبرضى قداستكم من الممكن تدمير أرض مصر وغيرها من الأراضي في وقت قصير، وسيكون من السهل عبور الحملة الصليبية لتحويل السلطان والمسلمين [إلى الكاثوليكية] ولاسترجاع مدينة القدس التي هي مدينة الرب المقدسة، وإعادة عمارتها، وكذلك لمواساة أولادكم المسيحيين الذين يعيشون في تلك البلدان، ولنيلهم الحرية، وكذلك من أجل ازدياد الإيمان المسيحي في كل مكان.

ومن أجل هذه الأهداف جميعاً، إنني أصلي بتواضع وإخلاص، وأسأل الرب القدير على كل شيء، والعذراء مريم، والرسل القديسين:

بطرس، وبولس، وأندراوس، والقديس مرقس، وكل المجمع اللاهوتي
الساوي، أن يؤول كل ما تعملونه في هذا المجال وفي غيره من مجالات،
لحمد اسم ذلك الرب القدير ومجده، ولكرامتكم أنتم يا ساداتنا
القديسين، ومن أجل خلاص نفوس ذويكم كلهم، وجميع رفاقكم
أحياء وأمواتاً، آمين.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

ليرحمنا الرب وليباركنا، ولينير بوجهه ويتجلى علينا، حتى نعرف في
الأرض طريقك، وفي جميع الأمم خلاصك، ولتعترف لك الشعوب يا
رب، لتعترف لك جميعها، ولتفرح الأمم، ولتغني لأنك تدين الشعوب
بالاستقامة وتهدي الأمم في الأرض، لتعترف لك الشعوب يا رب،
لتعترف لك جميعها، الأرض أعطت ثمرتها، فليباركنا الرب إلهنا،
ليباركنا الرب، ولتعم خشيته أداني الأرض وأقاصيها.

المجد للأب، إلخ ارحمنا يارب، أبانا الذي في السموات.

مدخل إلى الكتاب الثاني

لتمجيد مولانا يسوع المسيح أصلي، وأسأل القديسة مريم البتول أمه والقديسين: بطرس وبولس، والقديسين يوحنا المعمدان، ويوحنا الانجيلي والقديس مرقس، والقديس جرجيوس ونيقولا، وكل الحشد السماوي، أن يصلوا إلى الرب ليمن عليّ بنعمته حتى أكتب وأقول في هذه الصفحات ما يفضي إلى تمجيد اسمه وتكريمه، وما يرضي مسامح قداستكم، ويؤدي إلى ازدهار الإيمان المسيحي وترسيخه.

وقد تبدو جرأة من عبد حقير مثلي واعتداد، أن يذكر مولاه السامي بأمور شاقة شديدة، لكن إيمانه وتقواه يدفعان عنه هذه الملامة، وقد تقدم لسلفكم القديسين المثابرة وهم يتطلعون إلى استرداد الأرض المقدسة، وذلك حسبما أعلن عن هذا رسمياً، ونحن أيضاً على ثقة ويقين أن قداستكم تواقه إلى ما يصبو إليه كل مسيحي ورع.

وبقيت أنا مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، ابن السيد ماركو سانوتو، من منطقة سينت سيفرو، ومن مدينة ريفوالتي، من أعمال البندقية، أفكر وأأمل حتى تمكنت من وضع كتاب ثان حول شؤون الأرض المقدسة، وكان ذلك خلال شهر كانون الأول لعام ١٣٠٨، وهو متمم للكتاب الأول، ومثبت له وداعم، موضحاً فيه الوسيلة والأسلوب لاسترداد الأرض المقدسة، من أجل تسبيح الرب، وفي سبيل مجد كنيسته المقدسة ومجد قداستكم .

وقد فرغت من تصنيف الكتاب، في شهر كانون الأول لعام ١٣١٢ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، في مدينة كلارنسيا Clarentiae .

بداية الكتاب الثاني من هذه الرسالة
ويحتوي على الطرق الواجب اتخاذها
والوسائل المتوجب استخدامها لاسترداد
الأرض المقدسة. وهو في أربعة أقسام

القسم الأول

تنظيم الجيش المسيحي الثاني وشكله. وهو في أربعة فصول:

الفصل الأول: وجوب وجود قبطان واحد، مع المؤهلات التي ينبغي توفرها فيه، وعدد معاونيه، والأماكن المتوجب عليه الرسو فيها.

عندما قررت وضع هذا الكتاب، وقمت بتنفيذ العمل فيه، كان السبب والمقصد والدافع: إضعاف قدرات سلطان مصر، والحيلولة بين كثيرين وبين فرصة التعاون مع أعداء الصليب مراغمة لأوامر الكنيسة، وأيضاً من أجل استرداد الأرض المقدسة، وذلك بمطاردة المخالفين على الأرض، وفي سبيل تسليح تلك الغلايين العشرة أو السبعة، كما تقدم وأوضحنا، وذلك بهدف منع أي تعامل تجاري بين هاهنا وهناك، ويمكن أن تتلطف قداستكم بإصدار الأوامر بهذا الشأن، في الوقت، وحسب الشكل الذي يراه تدبيركم البابوي، بتوجيه من الروح القدس، فإذا عزمت قداستكم على أن تدخل تلك الأوامر حيز التنفيذ، وراق ذلك للأب الأقدس، من أجل التدمير الكلي للسلطان، وبعد انقضاء السنة الثانية أو الثالثة من اتخاذ ذلك التدبير، الذي يحدد المواد التي جرت العادة بحملها إلى أرض السلطان مراغمة لأوامر الكنيسة المقدسة، من الضروري اختيار رجل نشيط، يخشى الرب، وحسن السمعة وعاقل كتوم، وكريم واسع الأفق، وقوي ثابت، وحاسم عادل وعامل لما فيه الصالح العام للمسيحية جميعاً، ومفضل لمصلحتها على مصلحته الذاتية، وأن يكون حائزاً على صداقة أهل البندقية ورضاهم، حتى يتمكن وإياهم من إجراء أعماله، ولكي يجد بالقرب منهم النصيحة والمساعدة.

ويحتاج هذا القبطان إلى ما مجموعه خمسة عشر ألفاً من الرجال،

وثلاثمائة من الفرسان، بشرط إذا غاب منهم واحد قام مقامه آخر، وينبغي أن يكونوا جميعاً مأجورين، يتقاضون أجورهم من الكنيسة، وكذلك ميرتهم، ولوازمهم في البحر، وكل ما هو ضروري لهم، وينبغي اسناد القيادة إلى قبطان واحد فقط، لأن العمل المنضبط يتطلب رأساً واحداً، ويتوجب أن يقود القبطان هؤلاء جميعاً إلى الشواطئ المصرية، حتى يستولي هناك على بقعة من الأرض، وفيها يتولى إقامة معسكر حسب النصيحة التي ينالها من قوم خبراء، حيث عليه أن يتولى هناك حشد أسطول بحري ونهري، كي يتمكن بوساطته من الانقضاض على أعداء الايمان في الزمان والمكان الذي يراه موثماً.

الفصل الثاني: الدولة البحرية الأكثر مواءمة لتنفيذ هذا المشروع.

أما ما يتعلق بقبطان ذلك الأسطول، أي قائده الوحيد، فينبغي اختياره من أي مكان نحصل عليه بسهولة، لأن عناصر الجيش والغلايين وسفن النقل إذا اجتمعوا وهم مسلحين من جهات متعددة، لا يمكن ضبطهم بسهولة، وانسجام بعضهم مع بعض يسر، وتحمل كل فريق منهم الفريق الآخر، وهكذا سرعان ما تقع بينهم الخلافات، وتكون نتيجة ذلك إحباط المهمة كلها.

والذي نراه أن ذلك الأسطول ينبغي أن يكون بشكل رئيسي من رجال البندقية لأسباب عديدة:

أولاً: لأن أهل البندقية رجال صدق، وليس لهم مثل في العالم في تنفيذ ما يعدون به بشكل جيد.

ثانياً: لأنه يوجد في البندقية وفي أحواضها عساكر وبحارة للملاحة البحرية وللملاحة النهرية سواء، وبأعداد أوفر من أي مكان آخر، وتعمل هذه الكثرة من البحارة لصالح البندقية، ليس فقط في أراضيها، وإنما أيضاً في أحواضها، حيث الكثير من الأنهار والبحيرات،

أراضيها، وإنما أيضاً في أحوازها، حيث الكثير من الأنهار والبحيرات، ولذلك هناك وفرة بالبحارة الماهرين في الملاحة النهرية.

ثالثاً: لأن ما يحتاجه الأسطول سواء للملاحة أم لغيرها من الحاجيات من الممكن توفرها في أي وقت من الأوقات في البندقية، وفي أراضيها وأحوازها بكميات كبيرة.

رابعاً : لأن أهل البندقية ولدوا على الماء وعلى الماء تربوا، وغالباً ما تعاملوا مع جيرانهم عبر الماء وبوساطة الماء، لذلك لهم في ذلك خبرة ومهارة، ويمكن لكم يا صاحب القداسة التأكد من ذلك من خلال ما صنعوه مع جيرانهم وما زالوا يصنعون، وعلى هذا إنهم إذا ما جرى تكليفهم بتنفيذ مشروعنا الحاضر بنجاح، لا شك أنهم سينجحون.

خامساً : أهل البندقية بين أهل البحر الموجودين في الغرب، وبين الذين يصلحون لمثل هذا العمل، هم أكثر من تعود على الملاحة نحو بلدان المشرق، إما لقلّة البحار عندهم، أو لقصر طريقهم إلى هناك، ولأن لهم مراسي موزعة هنا وهناك، حتى في جزر اليونان، وطرقهم البحرية قصيرة جداً، ولا سيما في الشتاء بوساطة غلايينهم.

سادساً: لأنه يوجد في مقاطعة البندقية، في مدينة كلوغيا Clugia (هي اليوم شيوغيا Chioggia) رجال ذوي بأس شديد، بأعداد كبيرة، لهم خبرة ودراية وأهلية للحفر سواء في اليابسة أو في المستنقعات، وبجرف الأتربة من الأماكن المائية، ويأصل المياه إلى الأماكن الجافة، وهؤلاء فوائدهم بالنسبة للاستعدادات ولتنفيذ المهمة المذكورة أعلاه، ذلك أنهم رجال ملاحة صالحون للعمل في الأنهار والبحيرات، وهم أيضاً عساكر مهرة في استخدام الأسلحة، ويمكن الاستعانة بجيرانهم، أي أهل بادوفا Padova وأهل فراريا Ferrara، وخاصة أهل ساروي Cerui وكذلك أهل كلوغيا Clugia ، من

أجل تنفيذ المهمة المذكورة.

سابعاً: بسبب أن الشواطىء البحرية، أي شواطىء البندقية من غرادو Grado، وبالتحديد من القلعة المسماة بلفورت مساييرة للشاطىء حتى مدينة فراريا، ومن الشواطىء المنطلقة من رافينا Ra-venna، وسيرفيا Cervia وصولاً إلى أريمينوم Ariminum، وطول جميعها مائتين وسبعين ميلاً، تشبه الشواطىء المصرية كثيراً، سواء أكان ذلك على ضفاف البحر أو في البحيرات والسبخ والخلجان.

وبناء عليه إنه لكثرة ما اعتاده أهل البندقية من الذهاب والإياب يومياً على تلك الشواطىء، فإنهم في المناطق المصرية أفضل من يمكن استخدامه، وهم جديرون ومؤهلون للاستيلاء على أرض مصر أكثر من أي شعب آخر، يمكن إرساله إلى هناك.

وعلى الرغم من هذا كله، ومع الاقرار حتى بحقيقة ما ذكرته هنا عن أهلية أهل البندقية، إذا رأى مقامكم الرسولي السامي أن هناك شعباً آخر مؤهلاً للإرسال، فلا مانع من ذلك، لأن المهم هو أن يتم بعون الرب نجاح المهمة المطلوبة، شرط أن لا يكون ذلك الشعب مكوناً من جنسيات متنوعة، لكل منها عاداته المختلفة، أو من سلوكه شائن في بلاده، لأنه إذا كثر التباين اشتدت الخلافات، ولأن الشيطان الحسود لكل عمل ناجح، لن يتوقف عن إثارة أسباب الخلاف في داخل الجيش.

الفصل الثالث : الإعدادات للإبحار، والتجهيزات الواجب تهيئتها من أجل عبور مجموعة من الجنود، وتحضير الإمدادات، وسبل اكتساب صداقة التتار.

بعد إعداد هذا كله، سوف يكون من المناسب أن يعمد القبطان المذكور وجماعته إلى تجهيز أكبر عدد من المراكب، وخاصة الزوارق النهرية، وذلك على نفقة الكنيسة وبرضاها، وأن يؤمنوا الميرة وجميع ما

يحتاجه الذين سيقدمون فيما بعد من الغرب، وقتذاك، إذا ارتأت قداستكم، يمكن الدعوة إلى الحملة الصليبية، في السنة الثانية أو الثالثة، وعندما يجري حشد عدد كبير من الرجال الأشداء الجاهزون للذهاب إلى هناك، فإنهم سيجدون أنه قد تم تحضير الميرة والمعسكر والمراكب للانقضاء على الأعداء، الذين تقدم إضعافهم في البر وفي البحر، وبهذه الطريقة يمكن الاستيلاء على أرض مصر، لاسيما أن المسيحيين السود الساكنين في النوبة، وفي غيرها من المناطق في صعيد مصر وما وراءها، عندما يشاهدون هذه النجدة القوية القادمة إليهم، لاشك أنهم سينقضون من جانبهم، وسيفعل مثلهم التتار، فيهجمون من مناطق سورية، ولهذا سوف يكون مفيداً جداً اكتساب صداقة التتار، والمحافظة عليها بكل عناية، بوساطة تبادل الهدايا والرسائل الطيبة والتحيات.

فإذا ما طبق هذا المنهج، لا بد - بعون الرب - أنه في خلال أربع سنوات أو خمس من الاقلاع بهذه المهمة المجدية، ستكون أرض مصر قد أخضعت لسلطانكم، ووقتذاك يمكن لقداستكم تسليم إدارتها إلى الذي - أو الذين - تريدون، وفي أغلب الظن أنه إذا ما أخضعت مصر، فإن أرض الميعاد المقدسة ستعجز بدورها عن الصمود، ومن ثم ستسقط بدورها تحت سلطتكم، وفضلاً عن هذا كله، سوف تستسلم لسلطتكم أيضاً باقي الأراضي التي اعتادت في الماضي أن تكون للفرنجة، وستتحرر من سلطة المسلمين، لأنه إذا اجتثت الجذور يئس الأغصان حتماً.

الفصل الرابع: كمية النفقات اللازمة لجيش قوامه خمسة عشر ألف من الرجالة، وثلاثمائة من الفرسان، والعطاء الواجب أن يؤمن لهم.

وإذا ما رغبت قداستكم أن تعرف كم ستبلغ سنوياً نفقات أولئك الخمسة عشر ألفاً من الرجالة، والثلاثمائة من الفرسان لإبحارهم ولؤونتهم ولباقي حاجياتهم، والكلف الموائم صرفها في هذا السبيل على

التتار، أجيب بدقة:

إنها ستبلغ إحدى وعشرين مرة ضعف مبلغ مائة ألف من الفلورينات، على أساس أن كل فلورين يساوي سولدين من نقود البندقية، أي ما يعادل ستائة ألف من الفلورينات الذهب، وذلك لتغطية نفقات الرجالة والفرسان والطعام المناسب مع المبالغ التي قد تتوفر الحاجة إليها للمحافظة على صداقة التتار، حسبما تقدم بنا الذكر، وعلى أساس أن النفقة ستكون هي ذاتها في كل سنة، وكذلك سوف تبلغ النفقات اللازمة للسفن، والحبال، والعدّة، وكل ما سوى ذلك مما هو ضروري لبناء المساكن وسواها، مما قد يستوجبه القتال وتعويض الخيول التي تعقر أو تنفق أثناء الخدمة، ستبلغ ثلاثمائة ألف من الفلورينات الذهب للمدة المذكورة، وبناء عليه سيبلغ مجموع النفقات إحدى وعشرين مرة ضعف مائة ألف من الفلورينات، وفي تلك السنوات الثلاث، أي سيكون لكل سنة سبعمائة ألف فلورين، وذلك شروعا من السنة الأولى وما بعد.

وبعد أن يكون المسيحيون قد استولوا في مصر البحرية على موقع يعسكرون فيه ويتخذونه مقراً لهم، يمكن لقداستكم الاستفادة من مداخيل يمكن تحصيلها من أرض مصر ومن مياهها.

أما بشأن باقي المؤن، ولوازم الملاحة اللازمة للحشد الذي سيأتي من الغرب حسبما بينا، لابد من العمل وفق ما تكون قداستكم قد اتخذته من إجراءات، وإذا رغبت قداستكم أن تعرف فيما إذا كان بالإمكان إنجاز هذه المهمة بمثل هذا العدد الصغير من الناس، وبهذا القدر الضئيل من النفقات، أجيب بتواضع واحترام، أنه ممكن، لكن إذا قدرنا أن شؤون الحرب تتطلب الضمانة الكلية الممكن توفيرها لها، وأنه لا يجوز التوفير في هذا المضمار حتى تتوفر الضمانات، وإذا ما قدرنا أن قداستكم ستكون قادرة على تأمين هذا القدر من النفقات، وإذا ما

تأكدنا من ضرورة كون الرجال المكلفون بتثبيت موقع السكن — أو مواقع — وتحصينه، أشداء وذوي خبرة في العمل في المياه المالحة، وفي المياه العذبة، فإنني أعلن بكل تأكيد أن الذي تكون له السيطرة في المياه العذبة، ويستطيع أن يذهب إلى هنا ويعود من هناك حسب هواه مع قلة من الرجال، الذين يمكنه بشاره منه أن ينزلهم إلى اليابسة، هذا بلا شك قادر بدون رادع أن يكون مسيطراً على الأرض أيضاً في وقت قصير.

وسبب إعلاننا هذا هو أن معظم أرض مصر موزعة حول نهر النيل، وهي أرض طويلة جداً وضيقة، بحيث لا يمكن حمايتها مهما بلغ تعداد الناس الموجودين فيها، وكذلك لا يمكن منع الدولة المهاجمة عن طريق الماء والحيلولة بينها وبين الاستيلاء عليها، والاحتفاظ بها، أو تدميرها.

القسم الثاني

تحديد الطرق التي يرى بعضهم أنها أكثر مواءمة ليركبتها الجيش تحت راية الكنيسة، وتسمية أفضل طريق بحرية للوصول إلى مصر. وهو في عشرة فصول:

الفصل الأول: في أنه لا يجوز أن تسلك راية الكنيسة طريق البر.

إنه لمن الواضح والجلي مما تقدم، ومما سيأتي تبيان به بشكل خاص، أنه ليس من الضروري لجيش الحملة أن يسلك طريق البر، كما صنع فيما مضى بعض القادة الأبطال، ولا مجال للذهاب برأ بسبب عقبات عدة وعوائق قد يتعرض لها الجيش، وبسبب طول الطريق ووعورته، وبسبب تعداد البلدان والحواجز والعقبات التي يمكن أن تنشأ على الطريق في وجه العابرين، وأيضاً بسبب الشح بالأغذية، وغيرها مما نعرفه ضرورياً للجيش، ورب قائل قد يقول: لقد تم بنجاح عبور الراهب بطرس الناسك، ومثله الأمير غودفري دي بولليون عن طريق البر، فأنا أجيب أن نجاحهما لم يكن بفضل التدابير أو القوة البشرية، بل

بفضل توجيه من عون الرب، ونجز ذلك بفضل نعمة من عليين .

الفصل الثاني: ردّ رأي القائلين بوجوب رفع هذه الراية على أرض أرمينيا، أو سورية، أو القدس في الأرض المقدسة، أولاً.

قد يرى بعض الناس نزول جيش الحملة المسافر بحراً، في أرمينيا، لأنه يوجد هناك مرفأً صالح، ومناخ معتدل، وإمكانية للاستراحة والاستجمام، ومن هناك يتم استئناف الزحف لخوض الحرب في منطقة أنطاكية وسورية، والدخول من هناك إلى الأرض المقدسة، وحول هذا أقول: إنه لا يجوز النزول في أرمينيا لأسباب كثيرة:

أولها: أرض أرمينيا أرض موبوءة، وسينجم خطر انتشار الوباء في الجيش وموت عدد كبير من المقاتلين، وهنا من الضروري التذكير بأن التتار قد تدفقوا مراراً عن طريق البر، واستولوا على معظم مناطق سورية، إنما لاستحالة عبورهم إلى مصر إلاّ عن طريق الصحراء التي تؤدي إلى هناك، ولتعدّز اقترابهم من المناطق المصرية، اضطروا إلى التخلي عن الأراضي التي استولوا عليها، وهكذا كان السلطان يستعيدها في كل مرة، وهو ما يزال مستولياً عليها ويتولى حكمها كما كان الوضع في الماضي، وإذا ما قيل بأن التتار أرغموا على التخلي عما استولوا عليه، بسبب أنهم لم يستطيعوا في أيام الصيف البقاء لشدة الحر، ولهبب المناخ، وبسبب نقصان المراعي وانعدامها حيث حرمت خيولهم وقطعانهم ومواشيهم الكلاً، في حين يستطيع المسيحيون إرسال إمدادات الطعام وغير ذلك من الحاجيات يومياً عن طريق البحر، كما أنهم قادرون على بناء القلاع والحصون.

أجيب متسائلاً أولاً: كيف يستطيع المسيحيون فعل ذلك، ومقابل أية مخاطر، وأية نفقات، لابل حتى لو أنهم توصلوا إلى ذلك، ما عساهم يفعلون؟

فبداية من الضرورة بمكان عدم الاستهانة بقدرات السلطان، فالكل يعلم أنها عظيمة، وخاصة في تعداد العساكر، وإذا رغبت قداستكم في معرفة كم عدد العساكر التي يُقدَّر أنها اليوم تحت إمرة السلطان، إنها حسبما يجمع العارفون تبلغ ستين ألفاً من الفرسان، وهؤلاء وإن كانت مهاراتهم متفاوتة فإن ما لا يقل عن عشرين ألفاً هم من النخبة، وعشرين ألفاً من مرتبة الوسط، والمتبقي من النوع الأدنى، كذلك لدى السلطان في مناطق سورية حشوداً عديدة من المسلمين المدربين والمهريين في فنون الرماية: منهم فرسان نبالة، ومنهم رجالة، وسيتقاطر هؤلاء على الحدود الرئيسية للتصدي لجيش المسيحيين.

لذلك من المنطقي أن يكون لدى المسيحيين الموجودين هناك قوة كبيرة من الفرسان ومن الرجالة، وعدداً كبيراً من المراكب تحمل المؤن والقمح اللازم إليهم، بحرّاً، بوفرة، بغية تمكينهم من مجابهة قوى السلطان، بدون أي عوز، حتى يحتلوا أرض سورية بكل شجاعة، وأن يبنوا فوقها الحصون والقلاع، وهذا كله لا يمكن إنجازه من دون نفقات كبيرة، وخسائر جسيمة بالأرواح، حتى وإن افترضنا أن التوفيق قد حالف المسيحيين في هذا كله، واستطاعوا إخضاع تلك المناطق كلها لسيطرتهم، وقتها ترتاح خواطريهم، وسيقبلون عن مطاردة أعدائهم، ومن المنتظر أن الشطر الأكبر منهم سيعود إلى بلاده، وستبقى أرض مصر تحت سلطة السلطان، فما عساه سيحل وقتها بالمسيحيين الذين تخلفوا في تلك المناطق؟ من المؤكد أنهم سيعيشون والمخاطر تحيق بهم، وستستبد بهم مشاعر الخشية من أن يطردهم السلطان والمسلمون مثلما طردوا غيرهم، وألقوا بهم خارج تلك المناطق ونفوسهم، ولهذا لا يصح أبداً أن يحدث الانزال في منطقة أرمينيا أو في سورية، بل يتوجب أن يكون ذلك في أراضي مصر البحرية، حسبما أوضحنا من قبل.

وهناك عامل آخر أيضاً: وهو أن احتلال مصر سيجعل المسيحيين

الموجودين في الشرق أكثر استعداداً للحرب، والشعوب الأوربية أعظم حماساً لتقديم المساعدة، عندما توضع أمامهم المرحلة الأساسية من المشروع، ألا وهي استرداد الأرض المقدسة، ويعرفون أن المهمة المقدسة سوف تنجز بوساطة رجال الحرب، ورجالة الجيش، مع عدد لا بأس به من الفرسان، وبقدرة الذي يتم هذا العمل لمجده، وسينجز ذلك بنفقات أقل، وبضمان أعظم، لأنه من غير الممكن تعرض المسيحيين لخوض معركة في ظل المخاطر، إلا على الماء في وقت خارج عن إرادتهم، فضلاً عن هذا إنه مثلما الرجال في سورية أشداء ومهرة في فن الرماية، ومدربون على القتال، في المقابل رجال مصر ضعفاء وخاملون، ومع هذا إذا حسن لقداستكم حراسة مملكة أرمينيا وحمايتها، بإرسال فرق من الفرسان والرجالة من أجل ذلك فليكن، ويبقى الخير الأعظم والمنفعة الأكبر التي يمكن جنيها تتمثل في إيقاف دفع الجزية إلى سلطان مصر وإلى قواده وموظفيه، ولسوف نحكي في الكتاب الثالث المقبل أخبار ما حدث في الماضي لمدينة عكا ولسورية بكاملها، عندما كان المسيحيون يقطنون تلك البقاع، فتاريخ الماضي أفضل معلم لصنع المستقبل، فعوضاً عن الناس المزمع إرسالهم لحراسة تلك المملكة وحمايتها، والذين سيتعرضون للوباء المنتشر في ذلك الإقليم، والذين سيتغير عليهم نمط الحياة، من الممكن اللجوء إلى الطريقة التي يأخذ بها الأمراء المقيمون محلياً، وهي قضاء فصل الشتاء في الساحل، وما أن يطل الصيف حتى ينتقلون إلى الجبال حيث الينابيع العذبة، والمياه الصافية والباردة على الرغم من شدة الحر، وحيث الأعشاب الوافرة والمراعي الخضراء والهواء المنعش، وإذا ما اضطر أولئك القوم إلى النزول إلى الساحل في أيام الصيف فليجنبوا ضربة الشمس، وعليهم الالتزام بالاعتدال في المأكول وفي شرب الخمرة، وفي المضاجعة في أوائل الخريف وقت تسميد الأرض وهذه النصائح مفيدة جداً سواء في آخيا Achaia أو في الجزء الأكبر من مناطق بلاد اليونان.

ولنعد الآن إلى مشروعنا، لنقول: إن مملكة أرمينيا، جديرة — على كل حال — أن تنال من سموكم الرسولي، عناية أكبر، ذلك أنها الأرض الوحيدة في آسيا كلها، أي في الجهة الشرقية من البحر، التي بقيت في هذه الأيام تابعة للإيمان الكاثوليكي.

الفصل الثالث: رفض رأي القائلين بوجوب الانزال البحري في قبرص، أولاً.

هناك من يرى وجوب أن يأخذ العبور الكبير طريق البحر، ويتجه أولاً إلى قبرص، للاستراحة هناك والاستجمام بعد كثير من المتاعب والمشاق التي يكون الجيش قد تكبدها أثناء الأبحار والعبور، ويباشرون بعد ذلك محاربة أعداء الإيمان، ويستندون في هذا إلى رأي الملك القديس لويس وتجربته في الأرض المصرية، لابل ربما في أراضي سورية التي لا تبعد كثيراً عن جزيرة قبرص، وعلى هذا أجيب بكل احترام: إنه لا يجوز سلوك ذلك الطريق، لأسباب هي:

أولاً: أرض مصر أسلم صحياً من أرض قبرص، ومياها أفضل، وفيها كميات وافرة من الأسماك لتغذية الشعب.

ثانياً: إذا انعطف الجيش نحو قبرص أولاً، ليستأنف من هناك سفره إلى الأراضي المصرية، وذلك قبل أن يتولى مهاجمة الأعداء، فالأفضل له الذهاب مباشرة إلى الأرض المنوي الاستيلاء عليها.

أما بشأن فكرة العبور من خلال إسبانيا، والانتقال منها عبر مضيق جبل طارق إلى مدينة سبتة، ومنها إلى تونس، أو عبر أي جزء من بلاد المغرب، فإني أؤثر عدم الوقوف عندها، فإنه انطلاقاً مما قلناه، ونقوله، وما يمكن أن يقال، إن هذه الطرق غير مناسبة، وغير صالحة للسفر نحو الأرض المقدسة، وبالتالي إلى احتلالها، خصوصاً بسبب الصحارى الواقعة في وسطها، ومن جانب آخر، حدث أنه عندما أبحر الملك النبيل

القديس لويس، ملك فرنسا، إلى تونس هو وابنه جين تريستان، مع نائب الكرسي الرسولي، ومعهم عدد كبير من الأمراء من مرتبة كونت وبارون، حدث أنهم وقعوا ضحية الوباء الذي أودى بهم، وبعدد كبير من الشعب المسيحي، حسبما سنذكر ذلك بالتفصيل، في الفصل العاشر من القسم الثاني عشر من الكتاب الثالث.

وكثيرة هي الطرق التي جرى الكلام حولها من أجل استخدامها لمهاجمة أعداء الإيمان الكاثوليكي، ولاسترداد الأرض المقدسة، والذي نراه هو: إن الطرق التي وصفناها من قبل هي الأفضل والأجدي، ولذلك قيدها وقارنت فيما بينها وبينت أن الطريق البحرية إلى مصر هي الأفضل، لكنني أدع دوماً لفطنة قداستكم تقرير اختيار الطريق.

الفصل الرابع: التحصينات وملحقاتها، وحديث حول التفكير الدأوب لدى البابا ولدى أخوانه بشأن حشد هذا الجيش من رعيته ومن المؤمنين بغية ضمان التحصينات، والذي تمّ في الماضي للاستيلاء على تلك التحصينات، وما ينبغي الآن القيام به للغاية نفسها، مع مثل رمزي يلزم تطبيقه حول موضوع قلعة من المتوجب احتلالها.

هناك قلعة كبيرة جداً، وجميلة محصنة بأسوار وأبراج، وحولها حفائر وخنادق كبيرة وسواتر رملية، والقلعة مشحونة بالرجال، ويدافع عنها وعن الخنادق والسواتر عناصر ممتازة من الرّجال، وأبراج القلعة محصنة وتشرف على جميع الخنادق والسواتر، وهذه القلعة مجهزة بممرات تربط ما بين الأبراج والخنادق، ومن الممكن سلوكها ذهاباً وإياباً، وهذه الممرات أبواب حديدية قوية، وإلى جانب ذلك لتلك القلعة باشورة كبيرة، يبقى الباب خلفها لوحده مفتوحاً بشكل دائم، ينقل عبره حراس القلعة كل ما يحتاجون إليه، ولا سيما الضرائب والجزية، والأتاوات التي

يدفعها الملوك والبارونات والفرسان، والأعيان الأثرياء يومياً، وكذلك البضائع التي يجلبونها.

وهناك أيضاً سيد قديس، يمتلك عدداً من الأخوان والأبناء والأتباع والمؤمنين، وهو كان وما برح يفكر مع إخوانه المذكورين، ويسهر ليله ويقضي نهاره وهو يفكر ويتأمل كيف سيتمكن من حشد جيشه، ومن ثم كيف يمكنه الذهاب إلى تلك القلعة للاستيلاء عليها، طالباً من المؤمنين ومن أتباعه المعونة والمشورة، ليعرف أي طريق يركب، وأية خطة يطبق، حتى يتمكن هو وشعبه من الاستيلاء على تلك القلعة.

فماذا نجيب، وما الذي نقوله، ومن أي منطقة يمكن أن نذهب للاستيلاء على تلك القلعة؟ وإذا قيل لنا علينا الذهاب من الجهات التي فيها الخنادق والسواتر الرملية والممرات، لن يكون من الصعب مطلقاً القول علناً بأن ذلك سوف يكلف مشقة كبيرة، لأن عبور الخنادق والسواتر بغية الوصول إلى الأسوار والأبراج خطير جداً، ويكلف المهاجمين كثيراً، وسيجد أولئك السادة القديسين أنفسهم متعبين ومرهقين في النهاية، بسبب المشاق التي تكبدوها أثناء عبور الخنادق والسواتر، للحملة على تلك الجماعات ببسالة، ولو أنهم كانوا في داخل القلعة لهانت عليهم العملية والمحاولة، ولكان أقل خطراً عليهم، وأدنى ضرراً مما لو أنهم خسروا كل ما كانوا قد ربحوه، فهذا ما تمت البرهنة عليه، وصار واضحاً من خلال هذا المثل.

وأوضح من هذا كله هو أن نزاهة الذين تقدموا وبسالتهم مكنتهم من دخول تلك القلعة المنيعة، إنما أرغموا على الانسحاب، بسبب النصح الفاسد، وبسبب انعدام النظام لاحقاً، وهكذا خسر ورثتهم كل ما كانوا قد ربحوه تقريباً، وأرسل السيد الأقدس مجدداً أفواجاً من النبلاء والسادة ليقدّموا النجدة إلى الذين تقدموهم، ولكي يساعدونهم

على اقتحام تلك القلعة، وقد توقف بعضهم عند الشروع بالمحاولة، ومضى آخرون لاسترداد القسم الأكبر مما كان متقدموهم قد فقدوه، ثم رجعوا إلى أهلهم وإلى ممتلكاتهم، ودخل بعضهم الآخر إلى القلعة من الباب، لكنهم لم يأبهوا بالنصيحة الحكيمة التي قدمت إليهم، ولم يسيروا حسب النظام المقرر، فألقوا بأنفسهم بين أيدي أعدائهم، وعجزوا عن الاستيلاء على القلعة، وأرسل بعد ذلك الأب الأقدس، إمدادات بشرية عديدة، على دفعات متوالية، لكن الجميع عجزوا في النهاية عن الدفاع، وهكذا خسروا كل ما كانوا قد اكتسبوه.

ولهذا توجب القول، أنه كان عليهم الدخول من باب الباشورة الذي كان وما برح مفتوحاً، لأنه الطريق المتوجب سلوكه طالما لا يوجد أي عائق يعترض السبيل، ووجب بعد ذلك حراسة ذلك الباب، بشكل يحول بين الضرائب والأتاوات والبضائع وجميع الحاجيات، وبين الوصول إلى تلك القلعة، وبذلك لن يستطيع حماتها وسكانها تجديد أسلحتهم.

وإذا ما أعطى الرب السيد الأقدس نعمة عظيمة تمكنه من حشد ما يريده من العساكر والجنود القادرين على المرور بانتظام وثقة من ذلك الباب، ومجابهة الأعداء، ومحاربتهم برجولة وبسالة شبراً شبراً، فإن ما كان يبدو مستحيلاً سيغدو ممكناً إذا ما تقرّر تنفيذه، ولهذا سيكون السيد الأقدس محموداً إذا ما استمع إلى نصيحة العقلاء وأخذ برأيهم، بإرسال من يقتحم القلعة من الباب المذكور، فذلك أفضل بكثير، وأضمن وأيسر بها لا يقاس من أن نذهب إلى تلك القلعة من الجوانب، التي فيها الخنادق والسواتر حيث ستكون المقاومة شديدة.

الفصل الخامس: مثل رمزي آخر يتعلق بشجرة يتوجب اقتلاعها، وما هو متعلق بها، وبالينابيع التي يرويها، وبالثمار التي تعطيها وتنتجها، وحول الذين يذهبون لشراء ثمارها، وكذلك حول الأمراء

الأتقياء الذين أرادوا وما زالوا يريدون اقتلاعها، وحول ما تم، ويمكن أن يتم بهذا الشأن.

كانت هناك شجرة عظيمة جداً، وارفة الأغصان، وكثيرة الأوراق، وكانت الأغصان وارفة ممتدة كثيراً، تغطي بأوراقها الأرض، وتروي تلك الشجرة ينابيع لا تنضب، ويغذيها بشكل خاص نهر، يعطيها باستمرار الغذاء الغزير، ولولا ذلك النهر لما كان بإمكان تلك الشجرة البقاء بسهولة على حالها، ولا تعطي تلك الشجرة أية ثمار، لكن تنبت تحتها وتنمو ثمار كثيرة طيبة، ومع ذلك من رغب بالذهاب إلى هناك لقطف بعض تلك الثمار، فإنه يسير أشبه بمغمض العينين، لأن تحت تلك الشجرة ظلمات كبيرة، غير أن جودة الثمار اجتذبت العديد من الناس للذهاب إليها، وبالفعل توجه كثيرون إلى هناك، وكثيرون هم الذين يرغبون بالذهاب إلى هناك، ومع أنهم لا تدفعهم أية ظروف شخصية أو مصلحة، مع ذلك يذهبون.

ولقد فكر السيد الأقدس مع أخوانه وأبنائه وأتباعه المؤمنين الخاضعين له باقتلاع تلك الشجرة واجتثاثها، حتى يكون ممكناً الذهاب على ضوء وبحرية لجمع الثمار الموجودة تحتها، وكان أبنائه أيضاً وأتباعه، والمؤمنون الخاضعون له يرغبون بالذهاب هم أيضاً، وامتلاك ثمار تلك الشجرة من دون معارضة، ولذلك التمس العون والمشورة لاجتثاثها من جذورها، وتبديدها، فأشير عليه بإرسال رجال ذوي خبرة كبرى إلى هناك مع فؤوس مشحودة ومناشير، وأدوات أخرى تمكنهم من التعامل ببأس مع تلك الشجرة، وهذا ما حصل.

وشرع الرجال يقطعون ما أمكنهم من أغصانها، وتجريدها من أوراقها، وأتوا على شطر كبير منها، واقتربوا كثيراً من جذعها، غير أن هؤلاء الرجال الذين تولوا العمل وباشروه تعبوا والتمسوا الاستراحة، وتوقفوا عن العمل، فكانت النتيجة أن عادت تلك الشجرة التي

تسقيها الينابيع المذكور، وخاصة ذلك النهر باستمرار وحيث هناك خيرات كثيرة، وحيث أن ساقها قائم في أرض طيبة وخصبة، عادت تلك الشجرة للنمو والامتداد، واستعادت وضعها كما كانت من قبل.

وعاود السيد الأقدس الكرة وأرسل مجدداً المساعدة والنجدة إلى الذين تقدم وأرسلهم لقطع تلك الشجرة، وعاودوا هم عملهم من جديد يقطعونها ويقطعون أغصانها ويبترون أوراقها، ويحفرون الأرض التي تغطيها تلك الشجرة، وحدث في النهاية أن هؤلاء أيضاً، الذين أرسلوا مؤخراً، وجدوا أنفسهم متعبين، وقد عادوا إلى البلاد التي ولدوا فيها، قبل إنجاز العمل، ناشدين للراحة من العمل.

وتكرر المسلك نفسه على مر الأيام مع غيرهم كثيرين، غير أن الشجرة التي قلنا بأنها مروية بدون انقطاع، وخاصة من ذلك النهر الكبير، وأن جذوعها غارقة في أرض خصبة وجيدة، عادت إلى حالتها الأولى، مثلما تقدم وعملت مراراً، والآن ماذا نقول؟ وأية نصيحة يمكن أن نسديها إلى السيد الأقدس، الذي يطلب تقديم العون له والنصيحة لاجتثاث تلك الشجرة من أصولها؟ والرأي الأفضل هو تغيير الطريقة المتبعة حتى الآن، بنسيان الأسلوب الذي جرى تطبيقه، وهذا واضح مما جرى، طالما أن رجالاً أشداء تقدم وذهبوا إلى تلك المنطقة بهدف اجتثاث تلك الشجرة وإزالتها كلياً، وأخفقوا في الوصول إلى مآربهم، علماً بأنه يصعب اليوم وجود رجال لهم مزاياهم، فأية نصيحة نعطي بعدما عجزت تلك القوة الباسلة عن القيام بإنجاز ما أسند إليها؟ ومن الضروري إرسال مساعدة إلى تلك القوة، وهذا يتطلب علماً وبراعة، وإذا توفر هذان العنصران، فالأمل بالرب ستجتث تلك الشجرة بكاملها.

وبالطريقة الجديدة، ووفق الشكل الجديد الذي نقترحه، ينبغي أولاً قطع ذلك النهر الكبير الذي روى تلك الشجرة، ولا يزال يرويها

باستمرار.

ويجب بعد هذا توفر رجل واسع الخبرة، يتدفق بالأصالة، غير ميال إلى الطمع بمكاسب مادية، يسانده رفاق صالحون، يقوم — بنعمة من الرب وبمهارته — فيحمل معه كميات كبيرة من الديدان، فيضعها على جذوع تلك الشجرة وفروعها، وأن تكون نوعية تلك الديدان، بحيث أنها وقت وصولها إلى هناك، تبدأ بقضم جذع تلك الشجرة وفروعها، والأمل بالرب كبير، بأن تفقد تلك الشجرة في وقت قصير جذعها وفروعها، وتسقط بسرعة مع أغصانها وأوراقها.

وبعد يمكن لقداسة البابا أن يأمر بأن يتولى كل واحد انتزاع ما يريده من جذع تلك الشجرة، ثم إفساح المجال للشعب الخاضع لقداسته لقطف الثمار التي كانت تنبت تحتها، دون أن يعترض سبيلهم معترض، وأن ينعموا بها بسلام، ويحتفظوا بها على الدوام، وليقدنا إلى ذلك من يحيى ويملك إلى أبد الآبدين، آمين.

إن ما قيل، وسرد، وعبر عنه برموز وأمثال دامغة وصادقة ومتشابهة تماماً، من شأنه حملنا على إظهار الحقيقة التالية: إن الطريق البحرية إلى مصر هي بكل تأكيد أفضل الطرق جميعاً، وهو الباب الصالح الذي ينبغي الدخول منه لإبادة ملة محمد (ﷺ)، بادئين ذي بدء بقطع الدرب والمنبع الذي تصل منه الموارد المالية باستمرار حسبما ذكرنا من قبل، وذلك عن طريق ملاحقة المخالفين، وتسليح الغلايين، وذلك حسبما سنوضح في الفصول التالية:

الفصل السادس: حديث حول التحصينات وما لف لفها.

ولتجنب إثارة أي شك، فإنني أوضح باحترام وخشوع واعتذار قصدي من كل ما أخبرت به قداستكم في الأمثلة المتقدمة، فقد عنيت بالقلعة المشار إليها أرض مصر، التي ظلت منذ زمن بعيد الحصن

الحصين في المشرق للذين يتبعون ملة محمد (ﷺ)، وقصدت بالدهاليز والستائر الرملية الصحراء الشرقية التي تحيط بأرض مصر من جهات مملكة القدس وسورية، ومثلها الصحراء الغربية من جانب أفريقيا، والتي لها تخوم مع مملكة تونس ومن ثم الصحراء الكبرى، أما الأسوار العالية والأبراج الكبيرة والستائر التي حولها، ففيها إشارة إلى تلك الصحراء الواسعة وإلى أن عبورها يوازي بمشقة تلك الأسوار والأبراج، وهو عبور مرهق، وصعب وشاق جداً، وهكذا الحال بالنسبة لعبور الصحراء الممتدة على مسافات طويلة، وكما ذكرنا من قبل أن سلوك تلك المعابر، مرهق وخطير جداً بالنسبة لأي جيش كان وعالي التكاليف، أما الخنادق ونقاط الدفاع في تلك الأرض، فمن الممكن تسميتها قلاع سورية وتركية المشحونة بعناصر جيدة من الرجالة هم أمهر من الذين في مصر، أما أسوار القلعة المذكورة، والمشرقة على الخنادق ونقاط الدفاع، فالمقصود بها صحراء مصر التي ضمنت دوماً في الماضي أمن القلعة وسلامة حاميتها، وقد سيطرت هذه الحامية في الماضي وما تزال تسيطر اليوم على خنادق ونقاط دفاع هي حصون مملكة القدس وسورية، فهذا ما اتضح من خلال حملات الفرنجة الذين قدموا في الماضي إلى مملكة القدس وسورية، ويتجلى هذا بشكل أبين مما جرى للتار.

والمقصود بالعبارات والجسور التي تربط بين الخنادق والأبراج، الطرق والمسالك التي تربط ما بين الصحراء وبين مملكة القدس وسورية، وعلى هذه الطرق اختزن المصريون ببراعة كميات كافية من الماء، اعتادوا على الاحتفاظ بها لحاجتهم، فقط عندما يضطرون إلى عبور تلك الصحراء.

أما الأبواب الموصدة بمغاليق حديدية فهاكم تفسيرها:

عندما يريد أولئك السكان إخفاء تلك المياه أو إتلافها حتى لا

يكتشفها الأجانب، يفعلون ذلك كلما أرادوا، ومن الواضح أنه يتعذر على أي إنسان عبور تلك الفياقي مع جيشه من دون ماء، وهذا هو الذي دفعني إلى تسمية تلك المعابر بالأبواب الحديدية.

وأما باب القلعة الكبير الذي يبقى دوماً مفتوحاً، فإنني أؤكد أنه مصر البحرية، الذي تصل عبره إلى المصريين جميع الحاجيات المناسبة وخاصة الضرائب والرسوم والبضائع التي يرسلها الأمراء والأعيان والعساكر من جميع بلدان العالم وشعوبه، ولا سيما أصحاب الثروات الذين يأتون بالشكل والأسلوب الذي سوف أتحدث بكل تواضع ومنطق عنه، ذلك أنه من المعروف، ومما لا شك فيه أن جميع السلع والمنتجات التي اعتاد التجار على إنزالها يومياً إلى الأسواق لعرضها على مستهلكيها، يدفع عنها التجار القادمون إلى الأراضي الخاضعة للسلطان رسوماً كبيرة في مصر، وينفقون أيضاً مبالغ كبيرة لحماية سفنهم ومراكبهم، ويتحمل هذا كله مستهلكي تلك الأصناف، حيث يضطر التجار إلى بيعها بأثمان مرتفعة جداً، وهكذا يمكن القول بأن الذين يقدمون من عند ملوك الأرض والأمراء والأعيان يحملون إلى السلطان ضرائب مالية كبيرة جمعت من الرسوم والمكوس التي يستوفونها منهم عن البضائع التي تخرج باستمرار من تلك القلعة، وتستهلك في أجزاء عديدة من العالم، لابل بالحري أن نقول: تستهلك من قبل المؤمنين الخاضعين للكنيسة الرومانية المقدسة ذلك أن مناطقهم هي بلا شك أكثر عدداً، وأعظم ثروة من المناطق الغربية، وهي تستهلك كميات أكبر من الأقمشة ومن الأصناف النادرة والبضائع الواردة من الأراضي التابعة للسلطان، وهي أكبر مما يستهلكه أي شعب من شعوب العالم الأخرى.

وإذا ما طلب مني أحد أن أوضح عن أي بضائع ومنتجات تدفع تلك الضرائب من قبل أتباع الكنيسة الرومانية المقدسة إلى السلطان،

أستطيع أن أبين بأنها تدفع في الوقت الحالي عن: الفضة، وألواح القصدير، والرصاص، والفضة الصافية، والزيت، والأعلاف، وشقق الصوف، والحرير، وأقمشة الكتان، والمرجان، وأثواب المنسوجات، والزعفران، وغير ذلك من البضائع التي لم نذكر هنا، لكن أسهبنا في ذكرها في الكتاب المتقدم.

ويستخدم المصريون هذه السلع، وهي عندهم بوفرة، أما الفائض من الفضة، والقصدير، والزعفران، والمرجان، وأثواب المنسوجات، فكلها تنقل إلى الهند، حيث يتاجر بها المصريون، ويشترون التوابل وأنواعاً من الأصناف النادرة، ويعودون بها إلى أرض مصر للمتاجرة بها، وهكذا يتضح بشكل جلي أن الفضة والمواد المتقدمة ذكرها تستبدل بغيرها، أي أن تلك المعادن وسواها تسمح للمصريين بالحصول على التوابل والأصناف الهندية الأخرى مقايضة، ومن ثم تشحن كلها إلى قلعة المصريين المذكورة، وللحصول عليها يسافر التجار إلى هناك حاملين معهم من بلدان الشمال — عبر البحر الكبير — الغلمان والجواري، الذين يسميهم المصريون المماليك، فضلاً عن هذا يحمل التجار معهم من البلدان المذكورة ولاسيا من جزر اليونان وبلاد الصقالبة [السلاف]: الخشب والحديد والقار، ويعبرون بهذه البضائع البحر، ويقايضون بها في القلعة المذكورة، أي أنهم يحصلون عوضاً عنها على السكر والكتان، وعلى التوابل بشكل خاص، وكذلك على أصناف نادرة من الهند، وهذا ما يصنعه التجار من كلايا وأضاليا، ذلك أنهم يحملون بشكل كبير أكثر من سواهم الغلمان والجواري إلى أرض مصر، وغالباً ما يأخذونهم من أرض اليونان، وبات الآن واضحاً أكثر من ذي قبل، أن الفضة والقسم الكبير من البضائع التي يصدرها المؤمنون الساكنون في الغرب تطلب يومياً في مصر، لأنها تتحول لصالح تجارة المماليك المرعبة، ذلك أن المماليك عبارة عن جواري وغلمان من أصل مسيحي أو وثني، ومثلها

تجارة الخشب والحديد والقار، وهي البضائع التي تصدر بشكل دائم إلى ذلك الحصن الذي هو أرض مصر، ولأجل ذلك تتضح صوابية رأي الذين أشاروا بحظر وصول الذهب والفضة والنحاس والقصدير والمرجان إلى أرض مصر، ذلك أنه من المؤكد أن هذه السلع سوف تنتقل إلى المقاطعات المصرية، دون الاكتراث بالحظر الصادر عن الكنيسة الرومانية المقدسة، وبرأيي أنه بسبب حاجة مصر للسلع التي تأتي من مصر، فإنها تنتظرها دوماً، ويقوم السلطان والخاضعون له باستمرار بأخذ قسم كبير منها، مما هو لازم لقوتهم ولحياتهم، وبدون الاتجار بها لا يمكنهم الحصول على التوابل، ولا على غير التوابل من الأصناف النادرة، وغير ذلك من بضائع الهند، وكذلك لن يمكنهم الحصول على المماليك والحديد والأخشاب والقار، وإذا ما حصلوا على ذلك، يكون ذلك دون الكميات المرغوبة، وبناء عليه إن الذي يتأمل بالطريقة الموائمة حتى يمنع ويحول دون نقل المماليك والحديد والأخشاب والقار إلى هناك، عليه أولاً أن يحظر شحن الذهب والفضة وصفائح القصدير والنحاس، والزعفران، والمرجان، وما شابه ذلك، إلى مصر، لأن أهل مصر يبادلون هذه البضائع، بالسلع، والأصناف، والمنتجات الهندية، وإذا قيل: ألم يتقدم وأصدرت الكنيسة الرومانية المقدسة أوامر حظر وعقوبات بحق من يخالفون إجراءاتها؟ أجيب بأنني موافق على هذا، فلقد صدرت قوانين وقرارات وأوامر ومراسيم وغير ذلك، وهي بالفعل كلها مقدسة وصالحة، وبدأت تعطي بعض النتائج المفيدة، والذين أصدروها آباء روحانيون صالحون وقديسون، وحكام وسادة علمانيون شرفاء، إنما هذه التشريعات لا تجدي نفعاً إذا لم يوجد من يكلف بتطبيقها وفرضها، ولذلك يمكن أن أقرر حولها الحكم التالي: إنه على الرغم من أوامر الآباء القديسين والمبجلين، وعلى الرغم من العقوبات الصادرة بحق من يخالفونها، فيسافرون بحراً مع سلعهم وبضائعهم، إلى الأراضي الخاضعة إلى السلطان، فإنه لم يوجد أبداً بين أولئك الزعماء

الروحيين أو العلمانيين ، من سعى إلى تطبيق تلك العقوبات أو أوامر الحرمان، وتنفيذها، ولذلك إنني أستطيع أن أقول بكل صراحة وتواضع إنه كان في ذلك ليس فقط احتقاراً للكنيسة المقدسة، بل أيضاً إهانة بحق الخالق، وضرراً عظيماً لشعبكم، وأذى للمؤمنين الذين يفترض على الأب الأقدس تدبر ما يراه أنسب لهم وأسلم، وإذا اعترض أحدهم متسائلاً:

هل جرى تعيين أحد وتكليفه بتطبيق تلك الاجراءات الرادعة وتنفيذها؟ أجيب بكل احترام وتواضع وتقوى: إنه لم يوجد أحد قط تولى مطاردة مخالفتي تلك التدابير مطلقاً، لا في البحر ولا في البر، وخاصة على الأرض، ولهذا بما أن العدل لم يأخذ مجراه أبداً في هذا السبيل، كثيرون — لا بل بالحري — ما أكثر الذين ذهبوا إلى هناك، لذلك من الموائم أن تعتمد قداستكم، أيها الأب الأقدس، إلى معاملة جمهورهم بشدة وبالطريقة الموائمة لخلاص أنفسهم، ولصالح استرداد الأرض المقدسة.

وفي الحقيقة، إذا أمرت قداستكم بتنفيذ ما جاء في كتابنا الأول، وأعلنت رسمياً أوامر الحظر والحرمان، وسلحت الغلايين، حسبما بينا أيضاً، وقتذاك الذي يكون قد سقط في تلك الخطيئة، بذهابه إلى الأراضي التابعة للسلطان، ويعودته منها أيضاً، أو تكون قد وجدت بحوزته بعض البضائع المستوردة من هناك، تتخذ بحقه الاجراءات المقررة دونها شفقة، وحسبما ترى قداستكم أنه محق ومنطقي، وبما أن «الطامع بخيرات هذه الدنيا يخشى من العقاب الآتي أكثر من العقاب المقبل»، لذلك إن من لا يردعهم خوف الرب ويمنعهم من مقاربة الشر، من الواجب والضروري ردعهم وصدّهم عن الخطيئة بوساطة العقوبة الدنيوية.

وإنه بالنسبة للأب الأقدس، السيد المبجل الذي له إخوة كثر وأبناء

عديدون، أعني قداسة أبينا ومولانا البابا، الذي مع إخوته الكرادلة المكرمين، ومع أساقفة كنيسة يسوع المسيح، يسهر ليلاً ويعمل نهاراً، ويصلي طالباً باستمرار العون والنجدة من المؤمنين ومن أتباعه من الملوك والأمراء والبارونات، وبشكل عام من الشعب المسيحي كله، حتى يتمكن من اقتحام تلك القلعة، لاسترداد أرض آبائه، أي الأرض المقدسة، التي وطئها السيد المسيح بقدمه، ورواها بدمه الثمين، ليغسل خطايانا ويمحوها، إنه بالنسبة إليه أية نصيحة أفضل نقدم إليه؟ لقد ضربنا في الماضي مثلاً حول نتيجة المرور من جهة الخنادق وأماكن الدفاع، أي عبر سورية وتركيا، لما عبر خلالها الراهب بطرس الناسك والدوق غودفري دي بولليون، مع غيرهما من الكونتات والبارونات، واحتلوها، وأخضعوها — بنعمة من الرب — أيضاً المدن والحصون حتى صحراء مصر، وبلغت بعد هذا قوة عموري الألماني الذي تولى عرش القدس بعد بلدوين، وبراعته وبسالته، أنه اقتحم تلك القلعة، ودخل القاهرة، وضرب الحصار الشديد على الجيزة، ولولا مشورة خاطئة لكان استولى عليها مع أرض مصر كلها، وذلك كما ورد في كتاب الاسترداد، وفي الحقيقة لقد أخذ بنصيحة خاطئة، فكان أن دحر وطرده خارج تلك القلعة، وفي النهاية خسر الذين خلفوه المدن والقلاع وكل ما كان بأيديهم في مملكة القدس وسورية.

فضلاً عن هذا، انطلق الامبراطور السامي والمعظم فردريك عبر طريق البر بقوة جبارة، وعلى رأس جيش عملاق من المقاتلين، فعبر تخوم ألمانيا إلى بلاد المجر ثم إلى بلغاريا واليونان، ونفذ خلال أراضي المسلمين بذراع قوية ممدودة، واستولى على قونية، وعلى فيلومليون، وعدد كبير آخر من المدن حتى وصل إلى أرمينيا، وهناك في حر الصيف ذهب ليستحم في نهر يسميه السكان «النهر الأسود»، فغرق واختنق في الماء، وكانت تلك خسارة هائلة للمسيحية جمعاء، وعقاباً للخطايا.

وبعد مرور بعض الوقت عبر عن طريق البحر سادة عظام شرفاء مثل فيليب ملك فرنسا، وكذلك السيد رتشارد دملك الانكليز، وكان معها عدداً كبيراً من الدوقات والكونتات والبارونات، وقد نفذوا كثيراً من البطولات حسبما قرأنا في كتاب الاسترداد، غير أنها عاداً إلى بلديهما تاركين المسألة معلقة غير منتهية.

ومثلها فعل عدد كبير آخر من كونتات وأمرأ وبارونات، فقد قدموا إلى هناك — كما تحدثنا كتب التاريخ وأخبار الأيام — وظلوا يتدفقون إلى أيام القديس لويس ملك فرنسا، الذي ألقى الحصار على مدينة دمياط، وشدد الخناق عليها ومعه عدد لا يحصى من المقاتلين، ومع هذا أنحني باحترام وأقول: هلكت غالبية ذلك الجيش، لأنه افتقر إلى المهارة والنظام، وكان آنذاك في أشد الحاجة إلى ذلك، وبالتالي لم يتمكن من الاستيلاء على تلك القلعة.

ووجه الأب الأقدس بعد ذلك، مراراً وتكراراً، النجيدات والاعانات، والعديد من المحاربين الأبطال والشرفاء، وجه هؤلاء نحو الأرض المقدسة للاستيلاء عليها، ولانتزاعها من أيدي الكفرة، لكن في النهاية ضاع كل شيء، وخسروا كل ما سلف واحتلوه.

وبناء عليه أعاد القول: إنه لمن الضروري مهاجمة تلك القلعة، لابل اقتحامها بجرأة وإقدام من الباب الكبير — أي من مصر البحرية — فهذا الباب هو الذي بقي دوماً مفتوحاً، وإنه لموائم كثيراً، أن يقتحم بشكل يحقق إيقاف وصول البضائع إلى سكان تلك الأرض، وتحصيل المكوس عليها، ومن ثم منع المصريين من مقايضة تلك البضائع بغيرها من الحاجيات اللازمة لهم، ومنعهم أيضاً من إعادة تسليح شعبهم.

ومن الممكن أن يتم هذا في وقت قصير، إذا ما جرى الأخذ بما جاء في الكتاب الأول حول ملاحقة المخالفين، وحول تسليح الغلايين، وإذا

طاب لخالق الجميع منح هذه النعمة إلى نائب يسوع المسيح، فيأمر بحشد ذلك العدد من العناصر، حسبما هو وارد في مطلع الكتاب الثاني هذا، ذلك أن الفرسان والرجالة سوف يتمكنون من عبور الباب الثاني — أي شاطئ مصر — بنظام جيد، وهم مزودين بإرشادات أفضل وبكل ما يلزم أو يناسب أولئك الفرسان والرجالة، وأيضاً متنبهين إلى ضرورة الالتزام — بـذلك الترتيب، وبذلك الأسلوب الذي وضعناه، ووصفناه في هذا الكتاب الثاني، ونحن على ثقة بالرب، ومتوكلون عليه حقاً، وواثقون بأنه سيمن بنجاح هذا المشروع السعيد والحميد.

الفصل السابع: حديث حول الشجرة وتوابعها:

ملة محمد (ﷺ) هي الشجرة المشار إليها أعلاه، وهي العقيدة التي نشرها في أيامه، ويُراد بها أيضاً شعبه والبلدان التابعة لهم، وهذه العقيدة هي الجذور والأساس الذي تغلغل في أرض مصر وترسخ فيها، وأما أغصان تلك الشجرة، فهي البلدان والقادة التي يحكمونها خاصة في تركيا وسورية، وأرض الميعاد، لابل في المغرب في مملكة تونس، وعلى طول شاطئ أفريقيا كلها، وفي سائر بلدان العالم التي تدين بعقيدة محمد (ﷺ) وتخضع لشريعته، أما أوراق تلك الشجرة، فهي شعوب تلك البلدان الساكنة فيها، وضخامة الشجرة وقدمها هي تجذر المصريين وقوتهم، فمصر ظلت دوماً هي الأقوى بين جميع أتباع تلك العقيدة، وخاصة في الشرق، أما الينابيع التي تروي الشجرة وتغذي جذورها وفروعها، فهي بدون شك المنتجات والثمار التي تستخرج من أرض مصر، أما النهر الذي يروي تلك الشجرة، ويجعلها موئلاً للجميع، فهو المعبر الذي تنقل الخيرات بكثرة خلاله إلى السكان وسواهم، مما يجعلهم اليوم يمتلكون جميع الأصناف النادرة، وبضائع الهند، التي لولاها لما كان بإمكان السكان المقيمون في مصر تأمين سبل عيشهم، أو تنظيم

شؤون حياتهم، واستهدفنا من قولنا بأن الشجرة لا تعطي أية ثمار، تبيان أنه لا يمكن أن يقطف من عقيدة محمد (ﷺ) أية ثمار صالحة، أو ينتج أي عمل صالح، أما الثمار الجيدة التي تنبت تحت الشجرة فهي الثمار التي تنتجها البلدان التابعة للسلطان والخاضعة لسيطرته، والبضائع التي تنزل في هذه البلاد يومياً، ذلك أن هذه البضائع بحد ذاتها صالحة، أما الذين ينتقلون وعيونهم مغمضة، ويقعون في الظلمات الدامسة، فهم بدون شك الذين يعطلون بصائرهم وأبصارهم عن رؤية أوامر الحرمان والعقوبات التي فرضتها كنيسة يسوع المسيح، ويختلف عنهم الذين لا يريدون الذهاب إلى هناك لكونهم صالحين، وقد وضعوا نصب أعينهم حب الرب ومخافته، وطاعة يسوع المسيح.

أما ذلك السيد القديس، فهو أبونا ومولانا قداسة البابا، وأخوانه هم السادة الكرادلة المجلون والأساقفة، والأبناء هم المؤمنون، والخاضعون لقداسته هم الملوك، والكونتات والبارونات، لابل جميع الشعب المسيحي من رجال دين وعلمانيين، ممن يلتزمون بسبل كنيسة الرب المقدسة بأمانة وتواضع، ويفكرون ليلاً ونهاراً حول كيفية إزالة تلك الشجرة، أي عقيدة محمد (ﷺ)، واسترداد مملكة القدس، وانتزاعها بشدة من أيدي أولئك الأشرار، وهم يلتمسون باستمرار ويتوسلون لإرسال النجدة والعون وفق الطريقة المبينة أعلاه، لزعزعة تلك الشجرة ومن ثم لاجتثاثها من جذورها مع أغصانها وفروعها كلياً، حتى يزول من على وجه الأرض ذكرها، وأما ساق تلك الشجرة فهي أرض مصر، وأما أغصانها فباقي البلدان التابعة لمن يعتنقون تلك العقيدة ويتبعونها، أي البلدان وشعوبها، وقد قدمت فيما مضى منذ زمن بعيد النصيحة إلى الأب الأقدس، لكي يرسل رجالاً مدربين، ومقاتلين أشداء، لاجتثاث تلك الشجرة، تمهيداً لاستنقاذ الأرض المقدسة من أيدي المنافقين، وإعادتها إلى ملكية المسيحيين بشكل سليم وآمن، وهكذا كان إرسال

الراهب بطرس الناسك، وغودفري دي بولليون وغيرهما ممن تبعوهما فيما بعد، ولقد ذهبوا مزودين بالفؤوس والمنشير — أي بالأسلحة — واقتطعوا بعضاً من الشجرة، واستولوا ببسالة على جذعها، وجاء من بعدهم عموري ملك القدس، الذي كان مستقيماً وشجاعاً وبطاشاً، ومحطماً للأعداء، وقد قيل بأنه زحف حتى يحتل القاهرة، أي القلعة — لكن بسبب سوء النصيحة التي أسديت له، أخفق هو أيضاً في إخضاع القاهرة — أي القلعة — وسائر مصر، وأن يجعلهم تحت سلطانه — حسبما سنرى في الكتاب الثالث — ولما عجز ذلك الملك العظيم الباسل، ومعه خاصته والقادة في جيشه وباقي المقاتلين الشرفاء، عن اجتثاث جذور تلك الشجرة، وانتزاعها من أيدي الكفرة، عادوا إلى القدس، وكانت النتيجة أن استرد السلطان ذلك الينبوع الكبير — أي البحر — حراً سالكاً، واستعاد قدراته إلى حد أنه تمكن بعد أمد وجيز من استرداد جميع الأرض التي خسرها، ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى حرب السيد العظيم غي لوزغان، ملك القدس، واقتاده معه أسيراً، وهذا مما نقرأ عنه أيضاً في كتاب الاسترداد المذكور.

ومجدداً عمد الأب الأقدس إلى إرسال النجيدات والمساعدات إلى هناك، أي أرسل صاحب الجلالة والسمو، فردريك امبراطور الرومان، وكذلك ملوكاً آخرين عظماء وشرفاء مثل جلالة فيليب، ملك فرنسا، ورتشارد ملك إنكلترا، وكان معهما شخصيات كبيرة، كما سلف بنا الذكر، وقد قطع هؤلاء أغصاناً عديدة من أغصان تلك الشجرة ومن فروعها، أي أنهم احتلوا ببسالة مدينة عكا وغيرها من مدن وقلاع في تركيا وسورية، وفي أرض الميعاد، حسبما بينا في الكتاب المذكور.

وإنما مات بعضهم في النهاية، وعاد بعضهم الآخر إلى وطنه واحداً تلو الآخر، وذهب بعد ذلك إلى هناك عدد كبير من الأمراء والبارونات والسادة، واستمر ذلك إلى أيام القديس لويس ملك فرنسا، الذي عبر

البحر للاستيلاء على دمياط وإخضاعها لسلطة المسيحيين، ومآثره مدونة أيضاً في المصدر نفسه، وتوجه بعده أيضاً كثيرون لكن دونها محصلة، فقد ظلت الشجرة التي ذكرناها ذاهب ساقها وجذورها في الأرض الطيبة، وظلت مروية بدون انقطاع بذلك الينبوع الكبير، أي البحر الذي ظل ينميها، لأنه بقي مفتوحاً بشكل دائم، وسالكاً تماماً، تعبر عليه ذهاباً وإياباً الخيرات الكثيرة، من ذهب وفضة وصفائح قصدير ونحاس، وغير ذلك من المعادن ومن المرجان والزعفران، والصمغ، وأثواب الأقمشة، وشقق الحرير وغيرهما مما يشبهها أو يختلف عنها، وإليها يحمل الممالك والحديد والقار، وكذلك الأخشاب، وسمح هذا كله للسلطان بتنمية قدراته التي ازدادت فأعطت إلى أغصانه وفروعه قدرة وعزة، حتى أنها عادت إلى متقدم أوضاعها، أي أن السلطان قد استرد مدن: طرابلس، وعكا، وصور، ودحر حكامها الأشراف، وأعاد كل ما تبقى من الأرض المقدسة، فوضعه تحت سلطانه.

وهكذا بعدما جرى إرسال ذلك العدد الكبير من الرجال الأشراف والمقاتلين الشجعان إلى هناك، ولم يتمكنوا من تحقيق الهدف الذي كان مطلوباً وضرورياً، كما ذكرنا من قبل، وبما أنه يصعب جداً إيجاد من يضاهي أولئك بأساً وجلداً، يتضح لنا اليوم أمر وهو وجوب اللجوء إلى أسلوب آخر، ومنهج جديد، لتحقيق مشروع لإسترداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، يكون من شأنه أن يقدم إلى قوة المسيحيين وبسالتهم عوناً ودعماً، باعتياده على كل من البراعة والفن، فإذا ما جمعا معاً — والأمل بالرب كبير، والاتكال على عونه — إن تلك الشجرة سوف تجث وتقتلع دون الخوف من أن تنبت مجدداً في المستقبل، شريطة أن يتم العمل على هذا النحو ووفق الطريقة التالية: ينبغي أولاً وعلى الفور قطع ذلك الينبوع الكبير المتقدم ذكره أعلاه، وهو الذي روى ومازال يروي تلك الشجرة بغزارة، ومن الممكن أن يتم هذا بسهولة،

بمنع الدخول والخروج البحري نحو الشجرة المذكورة، ويتحقق هذا كلياً عندما يتم تنفيذ ما جاء في الكتاب الأول حول الحظر والملاحقة، وكذلك حول الغلايين، ويلزم بعد هذا العثور على ذلك الرجل النزيه المتميز بالأخلاق الحسنة، وبالدمائة والحكمة والنزاهة، وذلك حسبها أوضحنا في مطلع كتابنا الثاني هذا، لأن الشعب كله يدار بشكل جيد حين يوجد حاكم نزيه وعادل، وإلا فإنه يصير إلى الدمار، ويتوجب على هذا القبطان المعين بنعمة من الخالق أن يحمل معه الديدان الكثيرة، أي المراكب والرجال البارعين في فن الملاحة في المياه المالحة، وفي المياه العذبة، والقادرين على أن يمدوا بعضهم بعضاً بجرأة وإقدام، في البحر وفي الأنهار، وأن يحمل معه غير ذلك من العتاد المناسب، حسبها جاء في الكتاب الثاني.

وعلى هؤلاء الرجال — فرساناً ورجالة سواء — التصرف بفطنة ومقدرة أثناء طوارئ الحرب، وغير ذلك من الظروف، بحيث يكون بإمكانهم — بعون الخالق وبمهارة القبطان — الإبحار نحو الشاطئ المصري، ومن ثم النزول هناك، كما يفعل المقاتلون البارعون وذوو الإقدام، وبعد هذا يذهبون لاجتثاث جذور وأصول تلك الشجرة — أي القاهرة والقلعة — فيلقون الحصار عليها، ويقتحمونها ويخضعون لسلطانهم بلاد مصر بكاملها.

وهكذا — مع الأمل بالرب والتوكل عليه — سوف تتساقط جميع أغصان الشجرة وأوراقها ستييس، وبعدما ينفذ هذا كله ليتلطف قداسة أبينا ومولانا البابا، نائب يسوع المسيح، وليصدر أوامره، وليوضح إرادته، وليبين ماذا يريد أن يعمل بجذع تلك الشجرة، أعني بغد إخضاع مصر، إلى الشعب الخاضع للحبر الأعظم، ذلك أنه مما لا شك فيه — بتوجيه من الرب القدير — سوف تنهار سورية ومملكة القدس وأفريقية، والأجزاء المحتلة من إسبانيا، وباقي مناطق العالم التي يحتلها

أتباع محمد (ﷺ) وستضمحل — بعون الرب وقدره نائبه — وسيواجه الروم المنشقون المصير نفسه.

وللوصول إلى الأهداف — التي ذكرناها — في مصر، ولقطف ثمارها بوفرة، وللتمتع بها بحرية، ولاحتلالها دوماً بسلام، يجب التفكير ملياً، والتقدير بوجوب إخضاع الأرض للمسيحيين، وبشكل خاص إلى أهلها الأصليين والموجودين فيها، وكذلك للغربيين، الذين يمكنهم التجول فيها لقطف ثمارها بكل حرية، وليوصلنا إلى ذلك، نحن وكل الذين يتمنون كرامة الكنيسة الرومانية، الرب الذي يملك ويحيى إلى أبد الآبدين.

الفصل الثامن: ضرب مثل فيه برهان على ضرورة محاربة المسلمين في مصر، إذا ما أردنا استرداد الأرض المقدسة، وهو برهان مقتبس مما جرى بين أهل البندقية، والسيد بطريك أكويلا، أثناء الخلاف حول النمسا.

ارتأى المجل بطريك أكويلا ومعه كونت غريسيا أن ينتزعا من أهل البندقية مدينة يوستنبولي، في بلاد النمسا، وقد جرى تنفيذ ذلك، حيث هاجم بعد أربع سنوات — أي سنة ١٢٨٢ — البطريك والكونت تلك المدينة بجيش كبير، مع أنها كانت تابعة في الماضي للبندقية، وهنا ازداد الاضطراب في بلاد النمسا، فعمد الزعيمان إلى حشد قوات عسكرية براً وبحراً، وجرت صدامات كثيرة ومتوالية، ومن منطقة فاروجولي Faro Julii — حيث المقر البطريكي — كان البطريك، ومثله كونت غريسيا يستقدمان التعزيزات والامدادات مرتين أو أكثر كل عام، وكانا يلحقان الشرور والأضرار الجسيمة بالمدن وبالقلاع التي كانت من قبل بحوزة البندقية، وهما تحملاً أيضاً مع شعبيهما الكثير الكثير، كما هي الحال في جميع الحروب، وقد حدث لهما أن منيا بالهزيمة أحياناً، وهكذا تابعت الحملات لمدة عشر سنوات وأكثر، ومع

الحملاات أعمال النهب والحرائق والتدمير، وما شاكل ذلك، ليس على الأرض فقط بل وفي البحر أيضاً، ولم يتمكن البنادقة طيلة تلك المدة من وضع حد للشروع، وفي الوقت الذي كانت الأمور تتأزم فيه هكذا في النمسا، حدث أن بعض أشرف كامينو Camino اضطروا إلى الدفاع عن موقع لهم، كان قائماً على نهر لكيونسيا Liquementia، واسمه لاموتا Lamota ضد خصومهم سادة ترويزيو Teruisio فاستنجدوا بالبندقية، وكان هذا الموقع في أول مقاطعة فاروجولي، وتدخل البنادقة وأجروا مصالحة بين أولئك الأشرف وخصومهم، وشرع أهل البندقية يمارسون نشاطهم، فبعثوا إلى لاموتا عساكر من الرجالة والفرسان، يعملون خلال فاروجولي لمهاجمة خصومهم، ولما رأى البطريك المذكور، ومعه كونت غريسيا وسادة فاروجولي، أن بلادهم تتعرض للحرائق، ومدنهم للنهب، وأرزاقهم ومواشيهم للسلب، لم يتحملوا السكوت على هذه التجاوزات في الداخل، المشابهة للأضرار التي كانت تقع في الخارج في النمسا، فاضطروا في ذلك العام إلى التفاوض مع أهل البندقية.

ومثل هذا إن أرض الميعاد مجاورة لمصر، مثلما أرض فارو جولي مجاورة للنمسا، ومثلما لدى بطريك النمسا رجالة صالحين، ويفتقر إلى الفرسان، هكذا لدى السلطان في سورية رجالة صالحين، وهو يفتقر إلى الفرسان، ولدى السلطان في مصر نخبة من الرجالة لكن فرسانه من النوع الرديء، لذلك إن مهاجمة السلطان في مصر مثل مهاجمة البطريك في فاروجولي، لأن مصر هي الدولة الأساسية للسلطان، إذا قهر فيها تحطم كلياً، وإذا لم يغلب كلياً، فإنه بسبب الضائقة القرية منه بهذا الشكل، والواقعة في داخل مملكته، سوف يطلب الصلح مرغماً، حسبما رأينا في المثل المعروض أعلاه، وكما سنرى في الفصل المقبل.

الفصل التاسع : سوق برهان آخر باهر، صدوراً مما حدث في مصر أيام القديس لويس ملك فرنسا، وفي أيام اثنين من ملوك القدس

اللاتين.

كان الشعب المسيحي قد هاجم مصر مراراً من جهة دمياط، وكاد أن ينجح ثلاث مرات لو أنه لقي النصائح السديدة، ولم يفتقر إلى المؤن وإلى غيرها من الحاجات الضرورية.

وكانت المرة الأولى أيام جين ملك القدس، الذي كان كونت بريين، وأيام بيلاغيو نائب البلاط الروماني، فبعد حصار دام سنة وسبعة أشهر جرى الاستيلاء على دمياط سنة ١٢١٩، وتقدم الصليبيون بحرية من هناك إلى فرع النيل الذي اسمه تنيس، والمنحدر من هناك إلى دمياط، لكن الشح في المؤن — وأكثر من ذلك خطاياهم وما استحقوه من عقاب، كما ورد في الفصل التاسع، من القسم الحادي عشر من الكتاب الثالث — جعلهم ينسحبون، وبعد ذلك في أيام القديس لويس، ملك فرنسا، جرى الاستيلاء على دمياط مجدداً عام [١٢٤٨]، وأراد السلطان كسب رضى الملك، فقدم له الهدايا الكثيرة، وعرض عليه معاهدة يتخلى له بموجبها عن دمياط وعن الأرض المجاورة لها ليعطيها للمسيحيين العديدين الساكنين في أرض مصر، والذين يعرفون باسم مسيحي الطوق، وتخلّى له أيضاً عن أماكن كثيرة في القدس وفي سورية، لكن الملك لويس رفض الاصغاء إلى مثل هذه الاقتراحات، ذلك أن هدفه كان الاستيلاء على مصر بكاملها، فتابع مسيرته المظفرة حتى المنصورة، كما هو مذكور في الفصلين الثاني والثالث من القسم الثاني عشر من الكتاب ذاته، وقد أعمى المحاربين المسيحيين من جانب الطمع بالمال، ومن جهة ثانية ضايقهم الشح في المؤن، وتوالت عليهم هجمات الأعداء، ولخوفهم من نفاد الطعام اضطروا إلى التراجع.

وبعد أن سقط الملك بالأسر، فكر المصريون بفداخة المخاطر المحيطة بهم إذا بقيت دمياط في أيدي المسيحيين، فعرضوا عليهم بأن يطلقوا سراح الملك والبارونات والقادة المسيحيين كافة، وأضافوا بعد هذا إلى

عروضهم شروطاً أخرى كثيرة لمنفعة المسيحيين — كما هو واضح في المصدر نفسه، وهذا أيضاً مشروح في كتاب «مرآة التاريخ» للمصنف فنسنتي Vincenty، في المكان الذي وصف فيه أسر القديس لويس السعيد الذكر مع إخوانه، ثم إطلاق سراحهم.

وحدث قبل هذا أن زحف عموري ملك القدس ضد مصر، لكن السلطان استغواه بالمال، فاستمع إلى النصيحة السيئة التي قدمها له ميلون دي بلانتي، فرفع الحصار وانسحب (الفصل الثاني والعشرون — القسم السادس — الكتاب الثالث)، ومثله فعل هنري ملك إنكلترا، فبعدهما درس الأوضاع على الأرض قرر أن يهاجم مصر أولاً (الفصل الأول — القسم الحادي عشر — الكتاب الثالث)، وكذلك كان البابا إنوسنت قد قرر توجيه جيش مسيحي إلى مصر.

الفصل العاشر: الذي ينتظره الذين يطبقون — بعون يسوع المسيح — تدابير هذه التوصية.

إنها حقيقة مقررة أن كل شيء هو في قدرة الخالق، لذلك ينبغي دوماً التماس العون والنصح من عنده لحمده ولشكره ومجده، وإننا نستطيع على ضوء الماضي أن نحكم على المستقبل، وأن نقرر ما هو ضروري للغد، وكل عمل نبدأ به ينبغي أن يقود إلى النتيجة الصالحة والحميدة، لذلك أقول — وأنا أستمح العذر من قداستكم — إذا تلطفتكم فقررتم الأخذ بما جاء في الكتاب الأول، ليعمل بموجبه بحزم فيما يتعلق بملاحقة المخالفين، وبتسليح الغلايين، فإن الكثيرين ممن خالفوا أوامر الكنيسة المقدسة ويخالفونها، سوف يتوبون — بعون الرب — أو يعودون إلى الطريق القويم، ويقرعون باب قداستكم طالبين منها تنفيذ قرار احتلال الأرض المقدسة، هذا وإنه لواجب وضروري إرشاد أولئك الناس في الوقت الحالي، حتى يعودوا هم أنفسهم فيما بعد ملتزمين من حلمكم، لابل متوسلين بتواضع كلي، الاسراع في تنفيذ

ذلك المشروع دونما إبطاء، وبذلك تكون النهاية مناسبة لإجراء مصالحة بين المؤمنين المختلفين مع بعضهم بعضاً، وهذا هو تقديرنا، بعون من يد العلي الأعلى.

وفي الحقيقة يمكن أن نقول بصدق بهذا الخصوص الكلمة التي قالها الرب في سفر رؤيا يوحنا: «من غضب إثمها — أي مصر — شربت جميع الأمم»، فلمعالجة هذا المرض العضال، والوباء الذي تفشى دون تمييز بين الجميع، حيث شارك الجميع بالمحرمات بدون ورع، وليس هناك من دواء يمكن مزجه في الطعام ليشفي من هذا الداء، لأنه إذا ما أعطي المريض دواء مضرأ، سيكون الوضع أسوأ، ومن النادر أن يتمكن المرضى من استعادة صحتهم، وعلى العكس من ذلك، إنهم إذا ما التزموا بحمية عن المأكولات، فغالبأ ما يتعافون، ولهذا إذا امتنع المؤمنون عن تناول ذلك الطعام المضر، كما سلف وبيننا، فإنني متيقن تماماً ومؤمن أن الرب سوف يهب المسيحيين بهذه النعمة، وسوف يزيل بشكل خاص الخلافات من بينهم، وبما أن السلطان وشعبه ينالون من جراء ذلك الطعام، العون والاستفادة، كما هو واضح في الكتاب الأول، وفي الكتاب الثاني هذا، ليكن معلوماً أن كل من يشتري البضائع المجلوبة من أرض السلطان، أو يستهلكها، يقدم للمخالفين سبباً للذهاب. وابتياح الحاجيات الضرورية، والأصناف النادرة، وشتى أنواع البضائع من أراضي الكفرة، والخاضعين للسلطان، لنقلها من هناك إلى البلدان الغربية.

وبناء عليه إذا ما امتنعنا عن شراء البضائع واستهلاكها، لن يعاود المخالفون الذهاب إلى هناك للتبضع، وإذا ما سقط المخالفون في الخطيئة، فإن كل واحد يقدم لهم فرصة للسقوط في الخطيئة، ينصب نفسه شريكاً في الخطيئة، لذلك أقول — بكل تواضع وتقوى — إنه لمن الضروري، إما منع هذا الاتصال كلياً — كما تقدم وبيننا — وأن لا

يكون هناك أي تأخير في ذلك مطلقاً، وإما أن نتغاضى عن الموضوع كلياً، أي أن يسمح لمن أراد بالذهاب والإياب بحرية، وأن يبتاع ما طاب له من بضائع من الأراضي التابعة للسلطان، وأن نتوقف كلياً عن ذكر استرداد الأرض المقدسة، والذي أراه أن هذا سوف يكون شراً أخف من أن يبقى المؤمنون على الوضع الحالي، لأن هذا الوضع خطير جداً، على جميع المسيحيين المؤمنين، فلتقرر قداستكم — بنعمة من الرب — الذي تراه مناسباً بهذا الشأن.

وعلى كل حال، إذا وافقت قداستكم على الشروع بتنفيذ ما جاء في الكتاب الثاني، فليتم تعيين — من قبل قداستكم — رجل صاحب بأس واستقامة يكون قائداً لحشدكم، ليذهب إلى مصر البحرية بغية الاستيلاء على قطعة من الأرض هناك، وليكن معه خمسة عشر ألفاً من الرجال، وثلاثمائة من الفرسان، حسبما ورد في القسم الأول من الكتاب الثاني، وليشرع هناك ببناء الحصون، وتشيد البيوت، وبذلك يُجرم المصريون آنذاك مما هو ضروري، ومن تصدير بضائعهم ويتعرضون لمضايقات ومناوشات من أعدائهم بحراً ونهراً وبراً، ووقتها سوف يشعرون بالضيق العظيم الذي حاق بهم، وكما علمتنا تجارب الماضي، أي لما أخضع المسيحيون دمياط لحكمهم، خاصة لما استولى القديس لويس ملك فرنسا عليها، وحسبما ورد في هذا القسم، من المؤكد أن سلطان مصر سوف يطلب خلال مدة لن تزيد عن السنة، عن طوعية عقد معاهدة ثابتة تتعلق بإعادة أرض الميعاد إلى قداستكم بكاملها نهائياً، وأن يلتمس من قداستكم عدم متابعة العمل على تحطيمه، وهذا التحطيم قد يجعل السلطان وشعبه معه يرتدون إلى الايمان.

وفي الختام، وكما يؤكد القدامى، عندما يداهم خطر الموت فجأة واحداً من الناس، فإن الطبيعة بحذاقتها تهب على الفور إلى مساعدة مصدر الحياة، أي القلب، فتسحب الدم من الأطراف، وتقدم له الدعم

والحماية، وهذا يوضح لنا لماذا عندما يعتري الناس الخوف تشحب وجوههم، وترتعد أطرافهم، لأنها فرغت من الدم، وهذا ما سيحصل للمسلمين، لأن مصر هي قلب المسلمين ومركز حياتهم، وإذا ما هوجمت ستلاقي الدعم على الفور، والمساندة من أطرافها، من غرناطة، مثلاً ومن مناطق أخرى، لكن تلك الأطراف لن تتلقى بعد الآن العون والمساعدة من القلب — أي عندما ينقطع عنها المال الذي تحصل عليه حالياً — وبالتالي سوف تبقى وكأنها خائرة ترتجف بلا قوى، وإذا تزامن ووجد واحد من ملوك إسبانيا المؤمنين، فاستغل هذه الظروف المواتمة، وهاجم إحدى تلك الأطراف، فإنه سوف يصل إلى الغاية المنشودة بكل سهولة، ويحقق المرغوب به، ولهذا السبب لن يستطيع المسلمون نجدة قلبهم، الذي هو مصر، كما سنبين في القسمين الثالث والرابع من كتابنا الثاني هذا.

وأملنا دائماً بالرب، واتكأنا على عونه، بأننا سنصل قريباً إلى النهاية الصالحة والحميدة والسعيدة، فهذا هو رأيي، ما لم يخالفه رأي أصحاب الخبرة، شرط أن لا نتأخر بالمباشرة به، فإن من لا يبدأ، لن ينتهي مطلقاً، وستخفق النهاية حيث لا توجد بداية.

القسم الثالث

بناء سور أمني في مصر البحرية، واختبار تطبيقي للقدرة على
محاربة المسلمين، وهو في أربعة فصول:

الفصل الأول: حول الوسيلة الأمنية التي يستطيع المسيحيون
بوساطتها حماية أنفسهم في مصر، ضد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل
البنادقة.

كنا قد تعرضنا فيما تقدم — الفصل الثاني من القسم الأول — إلى
الشبه الكبير القائم ما بين مصر البحرية، وشواطئ البندقية البحرية،
لذلك من المؤكد أننا نستطيع النظر — كما في مرآة صافية — إلى وضع
الناس الذين يبنون ويقطنون الجزر في مياه البندقية، وفي مستنقعاتها،
لنتعرف إلى كيفية يمكن للذين يبنون البيوت ويشيدون القلاع في أرض
مصر البحرية أن يصدوا هجمات المسلمين (انظر أيضاً الفصل الثالث من
القسم الأول من الكتاب نفسه).

وحسب عهدة رواة التاريخ، كان الاغريق أول من سكن جزر
البندقية وكانوا من أهل طروادة، ففي سنة ١٧٨٤ لخلق العالم، قدم
جمهورهم تحت قيادة بريام الثاني ابن لامدونتيس Lamedontis
أخت الملك بريام الأول، وقد قدموا بالسفن، وعند وصولهم إلى تخوم
البحر الأدرياتيكي، شاهدوا الجزر، ومن حولها اليابسة الثابتة، فقرروا
حفاظاً على حرية تعودوا عليها، بناء مساكنهم فوق الجزر، مقدرين أنه
لا يجوز أن تكون جماعتهم معرضة لأن يحكمها الآخرون، ولم يخفوا في
مسعاهم لذلك حق لهم القول:

«إننا ... لم نستعبد لأحد قط» [يوحنا : ٨ / ٣٣]، فاختاروا لأنفسهم
قائداً هو الرب وحده، ولم نقرأ قط أن أحداً سواه بسط سلطانه عليهم

يوماً، وقد مرت جماعات الغالين بذلك الجزء من البندقية البحرية، يتقدمهم قائدهم برينو Breno ، وكان ذلك سنة ٣٥٧٥ لخلق الدنيا، فتركوا القسم المسكون سالماً واحتلوا كل ما بقي من حولها، وبنو فينيسيا، وفيرونا، وتريدنت، وبريكسيا، وبرغاما، وكوماس، ومديولانا Mediolana ، وسيناس Senas وسنغاليا، وذلك بعدما قتلوا شعب روما، وأحرقوا المدينة، وذبحوا أعضاء مجلس الشيوخ وهم على مقاعدهم، ومن بعدهم جاء كذلك الأفارقة الذين قدموا من الجنوب والسيبرورو Cybroru ، الذين زحفوا من الشمال، ومن شواطئ ألمانيا، وقد انقضوا مثل العاصفة على المدن الإيطالية، لكنهم لم يتعرضوا للبندقية، وهكذا جرى مع أتيل الأوسدروبالى Osdrubalis ، ابن ملك المجر، وولي العهد فيها، فقد كانت شراسته صورة للزلال وللصاعقة، وبعد أن دمر بلاد الغالين التفت نحو إيطاليا، فوقع الرعب على المدينة وعلى العالم، ذلك أنه وصل على رأس خمس وتسعين ألف مقاتل، وعندما وصل إلى تخوم المستنقعات والجزر التابعة للبندقية، لم يترك هذا الوحش الضاري شيئاً إلا وافترسه، قبل العودة إلى حيث اعتزل، ومع هذا لم يستطع إلحاق الضرر بالأجزاء المبنية على المياه، لابل لم يتمكن أيضاً من إلحاق أي أذى لا بالسكان ولا بأرزاقهم ولا بقدرتهم، حتى أن أهل أكويلا مع البطريك والأمهات مع أطفالهن، بادروا مسرعين واحتموا في قلعة غرادو Grado ، ثم إنهم خرجوا من كونكورديا Concordia ، وبنوا كبرالاً Caprara على شاطئ البحر، ومن ألتينو Altino — التي كانت تدعى أنتيريورايدز Anterioraides ، لأن الذي بناها هو أنتيريورايدز — وبنى الذين هربوا إلى الجزر مدناً جديدة هي إسول تورسللو Esul torsello ، وبورانو Burano ، ومازوربو Mazorbo ، ومورانو Murano ، وتوزعت جماعتهم بين ثلاث أسقفيات ما تزال قائمة حتى اليوم، وبطريكية، وقد لجأ أيضاً إليها عدد كبير من بادوا،

ومن ريفوالتي، ومن ماتاموكو Mathamauco، وغدت هذه المدن الأربع المجاورة لمدينة البندقية وشواطئها، مدناً مشهورة، لكنها دمرت من أساساتها، أما الذين كان يسكنون في الجزر، فقد ازدادوا قدرة وعدداً، وشرعوا يتخذون لأنفسهم قادة، وذاع صيتهم، وقدرتهم، حسبما نرى ذلك اليوم، وبالحري ليس اليوم فقط بل على أيام ايزلينو Ezelino، عندما دمر منطقة ماركا Marcha، وترويزو Terui-so وقسماً من لومبارديا، فالذين تعرضوا للاضطهاد، نجوا إلى البندقية، ومكثوا فيها بأمان تام، ولم يتمكن الطاغية من أن يلحق بهم أدنى أذى حتى ضرب المثل بهم، وصار يقال: «أمن خصومه لأنفسهم حمى في الشاطئ»، ودمرت في أيامنا هذه منطقة بادوا على يد «الكلب الكبير الذي قدم من سكالا Scala»، وقد هرب شعبها إلى تلك المناطق سنة ١٣١٨، وبقي سالماً، وقد حل الأمر نفسه بشعب ترويزينا Teruisina في السنة ذاتها، وهرب هذا الشعب، ولجأ إلى المنطقة البحرية نفسها.

وكان اللومبارد — الذين عرفوا من قبل باسم غينولي Guinuli — قد قدموا من جزيرة اسكندنافيا إلى أقاصي شواطئ ألمانيا، ووصلوا إلى بانونيا Pannonia، ثم استولوا بعد ذلك على الجزء المتاخم لجزر البندقية، على أيام ملكها ألبينو Albuino وكان ذلك في سنة ٥٧٢ لتجسيد الرب، وعاثوا بإيطاليا كلها، ومع ذلك لم يتمكنوا من إلحاق الأذى مطلقاً بالبندقية، ولولا تدخل القوات الفرنسية في أيام بينونانو Pipino nano، لما كان بإمكان البابا ستيفن إطفاء مطامع ملكهم أستيلفو Astulfo الذي أراد فرض جزية على كل شخص فرداً فرداً.

واضطر البابا هديران، أثناء تضيق الخناق على إيطاليا من قبل دزידرو Desiderio ابن أستيلفو، إلى طلب العون من شارلمان،

لحماية ممتلكات الكنيسة ولدحر الطاغية، وأسفرت الأمور عن نفي دزيدرو مع زوجته وأولاده إلى داخل فرنسا، وبذلك سقطت مملكته في سنة ٧٧٤ لتجسّد الرب، ولما غضب شارلمان نفسه على البندقية، قاد قواته حتى شاطئ ماتاموكو، ولم يستطع قطع الامدادات عن البندقية.

الفصل الثاني: حول الاستعدادات التي يمكن للمسيحيين بوساطتها حماية أنفسهم في مصر، ضد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة.

ولم يبق سكان الجزر المذكورة آمنين فقط ضد الشعوب الهمجية التي اجتاحت إيطاليا، بل أيضاً ضد الشعوب التي كانت تتعامل دوماً معها، حاسدة لها منذ القدم، ما كسبته من مجد ورفعة، وكانت تبحث دوماً عن طرق ووسائل لإيذائها، ومع هذا تمكنت هذه من درء أذيتها، ورد هجماتها، ونكتفي بضرب مثل بأهل بادوا، فقد حشدوا جيشاً كبيراً وحاصروا برجاً قائماً في مكان اسمه باييا Byba، فقد كان يخيل إليهم أنهم سيتمكنون من القتال، لكنهم وجدوا أنفسهم في وسط مياه البحر، وكان مثل ذلك في سنة ١٢١٥، تماماً ما حدث للصليبيين في مياه النيل (انظر الفصل التاسع من القسم الحادي عشر، من الكتاب الثالث)، هذا وقد أرغم أهل بادوا على الاستسلام إلى أهل البندقية، ومثلهم فعل الصليبيون مع المسلمين في ظل شروط معينة، ومؤخراً أراد أهل بادوا أن يعملوا لأنفسهم ملاحات قرب كلوغيا Clugia على بعد قرابة أربعة أميال، وبناء حصن بالقرب من السباخ لحمايتها، لكن أهل البندقية أقاموا تلة في وسط المياه عند مصب أحد الأنهار، ولم يكتفوا بذلك بمنع وصول المياه المالحة إلى الملاحات، بل حولوا إليها المياه العذبة، وفي النهاية تفجر خلاف، واحتشد أهل بادوا لإزالة تلك التلة، فدحرهم قلة من أهل البندقية، واستنجد أهل بادوا بأهل فينيسيا، وفيرونا، ومانتوا، وبعيداً استنجدوا كذلك بأهل باليستاري لكن ألفاً وخمسمائة من أهل البندقية تمكنوا من مقاومة ثلاثين ألفاً من الجنود المهاجمين، وعندما

أشرفوا على احتلال الحصن فرضوا عليهم في قلب أراضيهم الشروط التي أرادوها، وكان ذلك سنة ١٣٠٥.

وقبل ذلك ببعض الوقت، أي في سنة ١٢٧٠، تجمع أهل بولونيا واحتشدوا ومعهم أعداد كبيرة من جميع مدن رومانديولا -Ro-mandiola تقريباً، وهاجموا قلعة للبنادقة قريبة من نهر البو (بادوم Padum)، وكانت تبعد عن البحر ثمانية أميال، فلم يفلحوا، وقرر أخيراً أهل بولونيا ومن معهم — أخذاً بنصيحة أحد الناس — بناء حصن مقابل مصب ذلك النهر، لمنع أهل البندقية من الذهاب والإياب إلى قلعتهم عبر النهر، لكنهم أخفقوا في منعهم، مع أنهم دفعوا بكل قواتهم، وقاموا بمحاولات عديدة خلال ثلاث سنوات وخمسة أشهر، وتركوا بعد ذلك الحصن الذي شيده شاغراً، وعادوا مرغمين إلى بلادهم، وكالعادة استولى أهل البندقية على الحصن الذي بناه سواهم.

وهناك أيضاً قلعة للبنادقة اسمها «رأس شقة Caput Aggeris» كانت قائمة على نهر أتيسنسيو Aticensito التي ينحدر من فيرونا إلى البحر، وقد تجمع لاحتلالها جماعات ورجالات لومبارديا، وماركيا Marchia، وترويزيو Teruisio، فلم يفلحوا في انتزاعها من أهل البندقية، وعلى الرغم من بعد تنسو Tento عن البحر حوالي أحد عشر ميلاً، فقد صمد أهلها في وجه خصومهم بعدد قليل من المقاتلين وبنفقات زهيدة، مقارنة بما أنفقه خصومهم، وهم ما برحوا صامدين حتى اليوم في وجه كل تحد، لابل إنهم لم يكونوا قادرين على حماية أنفسهم وممتلكاتهم فحسب، بل تمكنوا من إجبار القراصنة على الخضوع لسلطانهم، حسبما نرى في معظم أرجاء البحر الجنوبي، وخاصة في البحر الأدرياتيكي، حيث كان القراصنة يعيشون فساداً كما تذكر كتب التاريخ، وأكثر من هذا كان البنادقة قد مدوا سلطانهم بعيداً نحو أجزاء نائية وشرقية، وهم وحدهم اليوم لا يحمون أنفسهم فقط

مع أرزاقهم، بل ويحمون أيضاً ما هو لغيرهم.

مما تقدم نستطيع أن نرى على ضوء أوضح، أي أمان يمكن أن يحصل عليه الشعب المسيحي، إذا ما بنى قلاعاً في مصر البحرية، ومدى القوة التي سيضمنها لنفسه لدحر المسلمين، وأية نجاحات سيلقى في احتلال الأراضي.

الفصل الثالث: كيف يمكن للصليبيين أن يزعموا أركان مصر، ضرب مثل بما تمكن من صنعه البنادقة وأصحاب المدن، والأماكن القائمة على مستنقعات وعلى أنهار.

لقد ضربنا أمثلة مقنعة، تظهر مدى الأمان — بعون الرب — الذي سيكون به جنود الكنيسة، إذا ما بنوا قلاعهم في مصر البحرية، ويمكننا بالتالي أن نرى من خلال المرأة، أو من خلال المثل ذاته، كم سيكونوا مؤهلين لإلحاق الأذى بأعداء الصليب والإيمان المسيحي، فالبنادقة، إذا ما نشبت خصومة بينهم وبين مدينة من مدن لومبارديا، أو ترويزيو، أو ماركيا، فإنهم يلحقون الأذى بأعدائهم بطريقتين:

الأولى وهي الطريقة الأخف: لا يستولون على أسلحتهم، ولا يتعرضون للأشخاص، ولا ينهبون ممتلكاتهم، بل يمنعون كلياً وصول المؤن والبضائع إلى أية مدينة من مدن تلك المناطق، أو إلى أي مكان واقع تحت سيادتها، أو أن تنقل إليها من أي مدينة أو منطقة تابعة للبنادقة، ولا يتخيلن أحد أن هذا لن يجدي نفعاً، فكثيراً ما يحدث أن تصاب تلك المدن في لومبارديا وترويزيو وماركيا بالانهك، ومن ثم تقوم بإرسال مفاوضين إلى البندقية، وتضطر مرغمة على التعايش معها وفق شروط محددة.

وسيكون هذا الأسلوب للاضرار بالمسلمين في مصر فعّالاً، وسيضعف قوة السلطان، وقد شرحنا ذلك بإسهاب في الكتاب الأول

المتقدم أعلاه.

أما الطريقة الثانية: فهي أعظم خطورة، وستكون لدى مناصبتهم الحرب بالرجال وبالعتاد، وبما أنهم معتادون على القتال، ولديهم قدرة على صنع السفن المناسبة والآلات الحربية حسبما تقتضيه أوضاع الأماكن وأنواع المعارك، فإنهم سيقترحون بالطرق الموائمة، المواقع التي بنيت على الأنهار أو في السبخ، وهكذا وجدناهم في سنة ١٢٣٩، قد انتزعوا — بطلب من الكنيسة — مدينة فراريا من أيدي سالينغويرا Salinguerra ، وأعادوها إلى السيد غريغور، مندوب الكرسي الرسولي، مع أنه كان قد تقاطر على ذلك المكان مقاتلون من أماكن عديدة، ومع ذلك لم يتمكنوا من دون أسطول البنادق ومهارتهم من إنجاز شيء، وكانت المحصلة أن المعاهدات والامتيازات التي كانت للبنداقية في فراريا قد ترسخت وازدادت قوة.

ومثل هذا حدث في الماضي البعيد، عندما تمكنت الكونتيسة ماتيلدا من استرداد فراريا بمساعدة أسطول البندقية، واتضحت مؤخراً فعالية البنداقية في سنة ١٣٠٨، في حادثة فراريا، بالسيطرة على الأنهر، وكان من المذهل رؤية ذلك العدد الصغير من المقاتلين يسرح ويمرح في بادوم Padum ، وليس هناك من هو قادر على صددهم ومنعهم من تهديم المواقع المجاورة، وتحويل مجرى مياه النهر إلى أراضيهم وتخريب الممتلكات بالماء والنار.

ومثل هذا يمكن لجيش الرب أن يروح ويحيي فوق نهر مصر حتى القاهرة والقلعة، وأن يستولي على كل شيء حسبما يريد، وسوف يكون وضعه أفضل، كلما كان مجرى النهر أوسع، والذي يسيطر على النهر ويتصرف عليه بحرية، يمكنه أن يسيطر بسهولة على الأرض — كما بينا في الفصل الرابع من القسم الأول — فما هو دور أهل البندقية في هذا المشروع؟ ونجيب على ذلك: إنه لما وقع إثم ضد جمال العدالة، وتجاسر

واحد على أن يحصد ثمار غيره، أي لما احتل الكافر إزليينو Ezelino ، منطقة ماركيا وترويزيو وغير ذلك من مناطق لومبارديا، لبي البنادقة طلب موفد الحبر الأعظم، سماحة رئيس أساقفة رافينا، المطران فيليب، فانقضوا من سباخهم ومن موقع بايبا، الذي تقدمت الإشارة إليه، وقادوا عن طريق النهر الذي حشده ذلك الموفد، وأمدوه بالرماء والميرة بكثرة، وكان ذلك سنة ١٢٥٦، واستولوا على كل ما حول النهر، ولم يكتفوا بذلك بل تقدموا حتى مدينة بادوا، وبعد معارك طاحنة استردوها من يدي إزليينو.

ولقد سقنا هذا كله على سبيل المثال، لنبين المدى الذي سيكون فيه جيش الرب بأمان في مصر البحرية، ومقدار ما يمكن أن يحققه من إنجازات ضد أعداء الإيمان.

الفصل الرابع: جواب مقنع لما قد يثار من شكوك.

هناك من يشكك بإمكانية قيادة جيش الصليبيين عبر النيل، حتى القاهرة، بسبب طول المسافة، وأجيب هنا على هذا التشكيك، بأن أهل البندقية قد قطعوا طريقاً أطول، عندما دخلوا مجرى نهر أدوا Adua ، بسفن محصنة وبرمات، وقد حطموا بعنف ست سلاسل ضخمة جداً، ونسفوا الجسر الذي عبر عليه إزليينو لاحتلال ميديولانو Medio-lano ، واحتلوا كل شيء بشدة، مما جاء مقدمة لأسر ذلك الطاغية، وموته، فإنه حيل بينه وبين الوصول إلى مآربه، ولدى عودته، شرع بحصار الجسر المحصن بكل عناية، وقتذاك أصيب بسهم في رجله ففقد قدرته المعتادة على قيادة الجيش، وهزم بالحرب، ومات بالأسر سنة ١٢٦٠ لتجسيد المسيح.

أما القول بأننا ببناء قلاع وتحصينات نكتفي بمنع المواد الغذائية وغيرها من الوصول إلى المسلمين في مصر، فإنني أجيب : إن من

الممكن وصولها عبر طريق البر، وأضيف، إن القائلين لهذا الكلام يجهلون موقع الأرض المصرية، حيث يوجد من البحر المتوسط امتداد على طول الشاطئ نحو الجنوب، من الجهة الشرقية ومن الجهة الغربية على السواء صحارى واسعة شبه خالية، بنى فيها الآباء القديسون — خاصة في الجهة الغربية — أديرة، وعاش بعضهم في حياة نسك وانعزال، هذا ومن جهة الغرب، أي من مملكة تونس، لا يمكن حمل البضائع من هناك، بسبب سعة الصحراء ووحشتها ولا يمكن الحصول على شيء من جهة الشرق، باستثناء التوابل، وتفتقر المنطقة من جهة الجنوب إلى كل شيء تقريباً، ويقطن هناك مسيحيو النوبة، وهم أعداء لهم، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في الكتاب الأول، وأما من جهة الشمال، أي من جهة مملكة القدس وسورية، فيمكن الحصول — لكن بمشقة — على بعض الكميات من: الشرائق، والصابون، والتفاح، والإجاص، وعلى كمية من الزيت، وبناء عليه صحيح ما قلناه، إننا إذا أغلقنا أمامهم طريق المتوسط، نكون قد أوقفنا بوجوههم الأغذية ومختلف أنواع البضائع ما عدا التوابل، وقد يتساءل بعض الناس: كيف يمكن للمسيحيين الحصول على ما يكفيهم من المواد الغذائية، إذا احتشدوا في أطراف مصر البحرية، وذلك إذا تفشى الجوع بين الذين يسكنون أرض مصر؟ وأجيب على هذا بسهولة: سوف تتقاطر المواد الغذائية وباقي الحاجيات على المنطقة البحرية، إذا توفرت المداخل والأموال اللازمة للشراء، مثلما نرى في مدينة البندقية نفسها، فعندما ينتشر القحط في الأراضي اليابسة المجاورة، يحملون المؤن وجميع الحاجيات عن طريق البحر، ويوزعونها على كل من يحتاج إليها من جيرانهم.

القسم الرابع

ويدور حول الخطة والأسلوب والترتيب والاحتمالات الممكنة حدوثها في حال نشوب المعارك وما يتعلق بها، وذلك من أجل تحقيق مشروع الأرض المقدسة بنجاح، وفيه إيضاح على أن المسلمين والمنشقين لن يتمكنوا بشكل منطقي من الدفاع عن الأرض، وفيه تسع وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: ما يثار من اعتراضات حول قدرة الجيش المسيحي، وحول العوائق المفترضة، التي قد تحول بينه وبين الوصول إلى النتيجة المتوخاة، وجواب منطقي لتلك الاعتراضات.

ويمكن لأحدهم أن يعترض على ما عرض أعلاه فيقول: لقد شاهدنا من خلال الأمثلة التي ضربت عن البندقية، بأية أعداد يمكن احتلال أرض مصر البحرية والإقامة فيها، وأنه بإمكان هذه الأعداد البقاء هناك آمنة من شر القاطنين في أرض الكفرة، ومع ذلك لن يتمكن المسيحيون من إلحاق الأذى بالمسلمين، إلى درجة يمكنهم فيها إزلالهم وإخضاعهم بعد إلحاق الهزيمة بهم، للأسباب التالية:

أولاً: إذا أردت صعود نهر النيل مع أسطولك المسلح، فإن في ذلك النهر نقطة يضيق فيها كثيراً، بحيث يمكن رشق السفن بسهام حارقة من كلا الضفتين، مما يعرض سفنك وعساكرك لخطر عظيم.

ثانياً: قد يمدّ المسلمون السلاسل، أو قد يرمون بحسك الحديد أو بقطع حديد مدببة طويلة، أو قد يبنون الجسور فوق الممرات المائية، مثلما حدث في فرانكولينو Francolino في منطقة فراريا، وقد تدبرون هذا الأمر بيسر بأن يتحصنوا على إحدى ضفتي النهر، ويرفعون من الجهة المقابلة رأس جسر ينزلونه متى شاءوا، ويؤمنون

بالوقت نفسه حراسة شديدة على الضفتين معاً، وهكذا إذا ما اقتربت مجموعة مسيحية بسفنها من سلسلة أو من جسر عائد إلى المسلمين، فإنهم ينزلون رأس الجسر المعلق، وبذلك يصير جسر المسلمين على مستوى مجرى ماء النهر، وبذلك تتوقف سفن المسيحيين عنوة، وتجنح نحو الأرض، وهكذا يصبح بمقدور المتحكمين هناك بالأرض قتل رجال تلك السفن كما يشاؤون، وعلى هذا نردّ أيضاً:

ونقول بالنسبة للنقطة الأولى أولاً:

على شعبك التبصر والتنبه، وأخذ الحيلة، وأن يحمل معه كل ما يلزمه لإطفاء النيران، بحيث إذا ما أطلقت عليه سهام محرقة يتمكن من إطفائها، وينبغي إطفاءها، حيث لا يجوز لجيش المسيحيين التوقف لهذا السبب عن الذهاب والمجيء، وإنجاز مهامه.

ونجيب على النقطة الثانية فنقول:

إذا وضع المسلمون تلك السلاسل، أو قطع الحديد المدببة أو الجسور، فلا بد لهم من تجهيز حراسة مشددة حولها، ومركزة عدد غير قليل من العساكر لحراسة تلك الجسور والسلاسل وقطع الحديد المدببة من على الضفتين، وفي مناطق عديدة، وخاصة على ضفاف النهر العائدة لفرعي دمياط ورشيد، لكونها عريضة، وعلى كل حال، عندما يريد المسيحيون المضي نحو تلك العوائق الحديدية، أو السلاسل أو الجسور مع أسطولهم ومعداتهم، عليهم عدم الذهاب عندما يكون النهر فائضاً، وسريع الجري، بل على القبطان مثله مثل أي إنسان مدبر، أن ينتظر حتى تكون مياه النهر منخفضة وغير سريعة الجريان، وعندما تهب رياح قوية من جهة البحر، بحيث تعمل لصالحه، وتدفع بمياه البحر إلى الدخول إلى مصبات الأنهار، لأن جريان النهر يكون في تلك الآونة بطيئاً، تخف سرعته أو تنعدم كلياً إلى أبعد الحدود، ووقتذاك عليه أن

يستغل الريح المناسبة، فيرسل، بعض سفنه المجهزة والمشحونة، حتى تتمكن من الاقلاع بسرعة كبرى وهي منصوبة الأشرعة، وأن يكون مع هذه السفن جميع تجهيزاتها، فتتنقض وقتها على الجسور المذكورة وعلى السلاسل والعوائق الحديدية بكل عنف فتحطمها وتدمرها كلياً، وعندها من الممكن متابعة تحركهم إلى حيث أرادوا، فسيسيطرون على ذلك النهر، ويخضعوه لأرادتهم — بحراسة من الرب وعونه — وقد تقدم لغيرهم من الصليبيين أن فعلوا ذلك في دمياط، ولا بد لنا من أن نتذكر أن فرقة الكرسي الرسولي سوف تكون مشكلة من خمسة عشر ألفاً من الرجال، وثلاثمائة من الفرسان المأجورين، وبعدها يكون هؤلاء قد اتخذوا لأنفسهم موطئ قدم على الأرض، وقبل انتهاء السنة يكون قد لحق بهم خمسة آلاف غير مأجورين، ولسوف يبادر هؤلاء إلى هناك مسرعين مع المواد الغذائية، ومع كل ما يلزم ويفيد، وسيكون هؤلاء جميعاً متأهبين للعمل متى وحيثما يناسب، ومن الممكن القول بأن عددهم سوف يفوق العشرين ألفاً، ومما لا ريب فيه أن جماعتكم ستحقق الكثير بعون الرب.

الفصل الثاني : بعض الحجج حول إمكانية أن يهاجم السلطان من جهة النيل، والإجابة لهذه الحجج.

إضافة لما تقدم، إذا اعترض أحدهم وقال. لدى ذلك السلطان أعداد غفيرة من البشر، وعنده إمكانات كبيرة ليصنع الكثير، من ذلك مثلاً:

أولاً : قد يستطيع تحويل مجرى النيل، ومنعه من الصب في البحر المتوسط، وأن يجعله يصب في المحيط، وهكذا لن يعود هناك أي مجال للذهاب على رأس أسطول يسلك طريق المياه العذبة.

ثانياً: إنه إذا لم يشأ، أو لم يستطع تميم ذلك، فإن بإمكانه أن يصنع شيئاً آخر، وهو: بعدما يكون الجيش الصليبي قد بنى لنفسه أماكن

سكنى، وبعض الحصون قريباً من أطراف نهر النيل، يمكنه تحويل مجرى النهر، فيجعله يصب بعيداً عن معسكر الجيش الصليبي لأن الشواطئ البحرية المصرية منبسطة ومتسعة، وبناء عليه إن في تنفيذ هذه الخطة إنزال أضرار ليست بالقليلة.

ثالثاً : يستطيع السلطان أن يصنع ما هو أسوأ من ذلك بكثير، حسبما يلي: بعدما يتحرك قائد المعسكر المسيحي النازل في مصر البحرية، ويجهز أسطول غلايينه، ويصعد رجاله بالمجاذيف إلى سفنهم فوق مياه النهر، وقتها سيكون بإمكان السلطان ورجاله العمل على تحويل مجرى النهر، من حيث يكون الأسطول قد انطلق، وجعله يصب في نقطة أخرى، ويكون الحال أن أسطول الصليبيين، سيجد نفسه — بعد انعدام الماء — محجوزاً فوق الأرض اليابسة ولن يكون بإمكانه الصمود أمام الحشود والقوات التي سيدفع بها السلطان ولن يكون أمامه من منجاة من بين أيادي الكفرة إلا بالموت أوبالأسر.

وعلى الاعتراض الأول يمكن أن نجيب:

من المستحيل أن يستطيع السلطان تحويل مجرى نهر النيل، ويمنعه من أن يصب في البحر المتوسط، وجعله يصب في البحر المحيط، ولوافترضنا أن ذلك ممكناً، فقد تقدم لنا أن بينا بوضوح — في الكتاب الأول — أن أرض مصر سوف تتدمر كلياً، وتصير قفراً، ومن غير الممكن تصور أن الكفار سوف يرضون بتدمير أنفسهم، طالما بإمكانهم تجنب ذلك بسبيل آخر من السبل.

ويمكن على الاعتراض الثاني الوارد أعلاه أن نجيب:

ينبغي أن تكون الحصون والمساكن التي ستقام فوق أرض مصر البحرية بادية ذي بدء من الحبال والخيم فقط، بحيث تكون المستنقعات والمياه مصدر منعة تلك المساكن والحصون، وهكذا عندما

يشرع المصريون بتحويل فرع من فروع ذلك النهر، حيث نصب الصليبيون حصنهم، يمكنهم فوراً الانسحاب من هناك بسفنهم مع جميع أمتعتهم، والتوجه نحو نقطة يرونها تفيدهم، وتناسبهم أكثر، علماً أنه من باب المستحيل أن يتمكن الكفار من تحويل فرع النهر الذي هو في دمياط أو في رشيد كلياً، وبذلك لن يستطيع المسلمون — بعون الخالق — إلحاق ضرر يذكر بالصليبيين، لابل حتى وإن استطاعوا تحقيق شيء من هذا القبيل، سوف يتكبدون مضار وأذى أعظم بكثير من الصليبيين.

ومن الممكن الإجابة على الاعتراض الثالث بمايلي:

يتوجب على القبطان ويليق به أن يكون متنبهاً لكل شيء، وأن يكون حكيماً، وإلا تكبد المسيحيون ضرراً جسيماً لغفلته وقلة حكمته، والمراد بهذا أن لا يياشر بالابحار، ولا أن يدفع نحو الأمام جماعته بأعداد كبيرة، قبل التأكد من أوضاع أعدائه وأحوالهم، وقبل أن يتعرف على المستجدات، حتى يتصرف بحذر فيما سيتخذه من تدابير، فحيثما يكون الخطر أعظم، تلزم الحيلة أكثر، ومع هذا لو افترضنا أن القبطان اكتفى فقط بالبقاء متحصناً مع قواته في مصر البحرية، فإنه يكون قد حقق الجزء الكبير من مهمته، ولا حاجة إلى التسرع، فعلى من يطبق هذه الخطة، وهذا الأسلوب أن يبحث دوماً عن المعلومات الجديدة، والأكيدة والصادقة عن أعدائه، ولا بد له — بعون الرب القدير على كل شيء — من الوصول إلى النتيجة الصالحة والمفيدة.

الفصل الثالث: المثل الذي ضربه قورش ملك الفرس، ووثائق لجيش الصليبيين.

ينبغي أن نعيد إلى الذاكرة ما جاء في الكتاب المقدس، من أن قورش ملك الفرس والميديين، قرر بعدما مدّ سلطانه على الشرق بأكمله، أن

يحاصر بابل عاصمة تلك المملكة، ليستولي عليها، وبينما كان مرة مع واحد من جنوده يعبر نهر الغانج — الذي يقال بأنه واحد من أنهار الجنة الأربعة — جرفته قوة التيار، فغرق الجندي، وقد حزن قورش لهذا المصائب، وأراد أن ينتقم من النهر، فجفف أربعمئة وأربعين فرعاً من فروع ذلك النهر وروافده، حتى جعل المواشي نفسها تعبر قاع النهر مشياً.

وحول بالطريقة ذاتها مجرى نهر الفرات، الذي كان يمر في وسط مدينة بابل، وهكذا استولى على تلك المدينة، وكانت أقوى المدن جميعاً، وجاء استيلاء قورش عليها بعد مرور ألف وأربعمئة سنة على بنائها، وهنا لست أدري هل يمكن لسلطان مصر تقسيم نهر النيل إلى أنهار كما فعل قورش؟ وعلى افتراض أنه قرر وأراد صنع الشيء نفسه بنهر النيل، فإن ذلك لا يمنع من متابعة مشروع الذهاب إلى أرض مصر البحرية، والاستيلاء عليها كما قلنا، للسبب الذي سنعرضه، لأنه على افتراض أن السلطان كان بمقدوره تحويل مجاري فروع ذلك النهر، فإنه سيعجز عن إزالة البحيرات والسبخ التي في المنطقة، أو تجفيفها لأنها تمتلئ باستمرار من مياه البحر، فضلاً عن هذا سيكون بإمكان المسيحيين تكوين سبخ أو بحيرات اصطناعية حيثما شاءوا، وذلك بأن يقيموا سدوداً طويلة، مثلما فعل أهل البندقية في أثناء الحرب التي وقعت بينهم وبين أهل بادوا بخصوص الملاحات — حسبما ذكرنا في القسم الثالث من كتابنا الثاني هذا — وستكون هذه السدود مجهزة بأبواب صالحة، حتى عندما ترتفع مياه البحر وتجري بغزارة أكبر، يسهل عليها الدخول دون أن ترجع من جديد، وبذلك تتجمع هذه المياه البحرية مع المياه النهرية المتدفقة باستمرار من أرض مصر، وبذلك تبقى في المستنقعات وفي غيرها من الأماكن المذكورة، وبهذه الطريقة تزداد هذه المياه وتفيض في تلك الأماكن فتزيد تلك الأبواب منعة، وتحول دون أن يحطمها

أحد، وإلى داخل هذه السباح، وإلى داخل البحيرات أيضاً يمكن للسفن الدخول والتجول حسبما يرى قائد الجيش، وذلك بغية إلحاق الأذى والضرر بالكفار، وإذا لم يتمكن من تحقيق هذا الهدف بالشكل المذكور، ووفق الطريقة المقترحة، فإنه سوف يحتاج إلى عدد أكبر من الفرسان والرجالة، مما لو كان النهر سالكاً ومفتوحاً كما هو في الوقت الحاضر، ويمكن للقائد توزيع هذه الأعداد من الفرسان والرجالة على أماكن محدودة قرب المرسى مع السفن، ويبقون هكذا إلى أن يحين الوقت ويصير ممكناً لهؤلاء الفرسان والرجالة الصعود نحو القاهرة والقلعة من أي جهة من جهات النهر، يتبين لهم أنهم لن يلاقوا فيها أية عوائق أو مقاومة، ولدى توجه هؤلاء القوم بالاستعدادات اللازمة لتحقيق الهدف المرجو لدى وصولهم إلى القاهرة والقلعة لحصارهما، من المنطقي يلزمهم — بعون من يسوع المسيح — السيطرة على ذلك النهر، حتى يتصرفوا به كلياً حسبما يريدون، وإذا ما تم ذلك، وتحقق المشروع بنجاح — فأملئ بالرب الذي أضع فيه كامل ثقتي — بأن الكفرة لن يتمكنوا من الدفاع عن أرض مصر، ولن يحولوا دون سقوطها — بفضل قوتكم — بين أيدي الصليبيين.

الفصل الرابع : التساؤل عما إذا كان عدد المراكب التي عند المسلمين على النيل يمكنها مقاومة جيش الصليبيين، وإيجاد حل لهذه المشكلة.

إضافة إلى ما تقدم إذا أراد أحدهم أن يقول معترضاً: لدى المسلمين أعداد كبيرة من الناس والمراكب، ويمكنهم مجابهة جيش الصليبيين عسكرياً في النهر؟.

نجيب كما قلنا من قبل: لا يصلح الشعب المصري إلا قليلاً، أو بالحري لا يصلح بتاتاً، لحمل السلاح وممارسة الحرب، ولا مجال للتخوف منه إطلاقاً، وإذا ما جلبوا فرساناً لهم وحشوداً من سورية عبر الجهة الثانية من الصحراء، أجيب بأنهم غير صالحين لهذا، وأن هذا

الشعب غير معتاد لا على المياه ولا على المراكب، وإذا أراد أحد أن يقول: إنهم سوف يستدعون بعض المسلمين من أفريقيا أو من إسبانيا، أو من مناطق أخرى يكون فيها بحارة ومقاتلون مناسبون، أجيب: بأن هذا بعيد المنال، وإذا استقدموا بعضهم، فإن شعبكم — نظراً لاستعداداته وخبرته ونزاهته، وقد عبر عن ذلك في مناسبات عدة — سوف يقاتلهم بشدة ويوقفهم عند حدهم بعون الرب، وذلك إذا تعرض لمجابهتهم، علماً بأننا لا نعتقد أنهم سوف يفعلون.

وأضرب لكم مثلاً حول هذا في واقعة فراريا عندما احتشد الكثيرون ضد أهل البندقية، ولم يكونوا وقتها أكثر من ستة آلاف، وحققوا ما عرفته قداستكم وكان ذلك عقاباً من عند الرب ضد أولئك لأنهم تمردوا ضد الأوامر الرسولية، ومعروف أنه لا يمكن لأحد أن يسوغ أمام الرب، ولا قدرة لأحد ضد إرادة الرب، ذلك أن الذين يقفون ضد الكنيسة هم بلا شك يقفون في وجه الرب، وهكذا للتقديرات ذاتها، يتوفر الأمل، بأن شعبكم سوف يصل إلى غايته المقدسة ويتغلب عليهم في تلك المناطق.

الفصل الخامس: حول المؤن والدفاع وتجهيز سفن الجيش الصليبي.

من المفضل لأجل قوة الجيش الصليبي وسلامته، أن يتدبر القبطان أمره، فيشحن في الغلايين عدداً كافياً من الرجال، بقدر ما تستطيع أن تستوعب، وكلما انحصر مكان عسكرة ذلك الجيش زادت قوته، ومن الضروري التطلع إلى نوعية الغلايين، أكثر من النظر إلى عددها، فأنا أفضل أن يكون لدي غلايين قليلة وجيدة التسليح، مع عناصر مدربة، على أن يكون عددها أكبر، لكن بدون هذه الصفات، سيكون الرجال الموزعون في غلايين قليلة أقوى وأفضل سواء إن كان للدفاع أو للهجوم مما لو كانوا كثرة ومتفرقين، كذلك من المفيد أن يكون القبطان قادراً على استباق الأمور، فيكون اسطوله قادراً ومدرباً على الملاحاة

ومنظماً بكل دقة، وأن يكون سريع الحركة والتنقل، ذلك أن سرعة الغلايين ورشاققتها عندما تدفع بالمجاذيف تؤدي إلى نتيجة أضمن وإلى سلامة أكبر، كذلك ينبغي أن نبين أن الملاحة في النهر، عليها الانطلاق صعوداً على عكس التيار وبمواجهته بقوة، وبقدرة المجاذيف، لذلك يتوجب أن تكون الغلايين المسيرة بالمجاذيف مدربة على النموذج الثلاثي، أي أن يكون على كل مقعد ثلاثة مجذفين ينسقون حركاتهم بالتوازن.

ولاحاجة لأن نكرر هنا ماتقدم وذكرناه من أن يكون كل غليون مجهزةً ببجارة على المجاذيف، يكون كل ثلاثة منهم على مقعد واحد، ومع هذا من المناسب أن نذكر على سبيل الاعلام، أنه في سنة ١٣١٦، أجرى أهل البندقية اختباراً جعلوا بموجبه عدد المجذفين أربعة على نسق واحد، فوق كل مقعد، ونجح الاختبار وعد مفيداً سواء للسفينة أو لطاقمها، وثبت أن الملاحة مع أربعة مجذفين على نسق واحد، فوق كل مقعد، أسرع وأرشق من الملاحة التقليدية التي تعتمد الاسلوب الثلاثي للمجذفين، وقد عقدت شخصياً مشاورات بهذا الصدد مع الذين اختبروا هذه الطريقة، ومع بعض المهندسين والمعلمين والملاحين، وتأملت شخصياً أنا بذلك، فوجدناها صالحة تماماً ومفيدة شرط أن يرضى بها مستشاروا القبطان المذكور، أي أن تكون جميع الغلايين والسفن الكبرى المعدة للمياه العذبة — التي تستطيع حمل الشعب المذكور — مجهزة وفق هذه الطريقة، بأن يكون على كل مقعد أربعة بجارة يجذفون على نسق واحد، خاضعة وأن المراكب الكبيرة سوف تسير على الماء صعوداً، ضد مجرى التيار، وبذلك يلزمها ثلاثة صفوف من المجذفين، لابل أربعة.

وسبب ما تقدم وقلناه:

هو أن المطلوب من الغلايين المدفوعة بالمجاذيف أن تكون سريعة،

وأن يتحكم بها الذين عليها، وأن يكون بإمكانهم الشروع بمحاربة أعدائهم متى أرادوا، ويمكنهم تجنبهم فجأة متى أرادوا، وبذلك يتقون مخاطر كثيرة يمكن أن تحدث بهم في وقت قصير من الزمن بسبب هياج البحر وعواصفه، ولا سيما من أجل عبور البوارج الممرات التي فيها تيارات، والتي نادراً ما تخلو من الخطر، ولكي يصل من يسافر على متنها إلى المرسى بسلام، ولهذا كله لما رأيت المحاسن الكثيرة، وتأملت الضمانات التي يمكن أن يحصل عليها طاقم السفن، أكدت على جودتها، متمنياً أن يصادق عليها قبطان قداستكم، وبناء عليه محمود كثيراً، وإنه لأمر ينصح به بالحاح، أن يكون المجذفون على كل مقعد ليس فقط أربعة بل خمسة، إذا كان ذلك سهل التطبيق، وممكن، من أجل الإبحار على ظهر المراكب الكبيرة، ويفترض بالقبطان أن يطلب المشورة وأن يتبع ما يراه هو الأفضل، بخصوص الغلايين، وكذلك بخصوص الملاحة في المياه العذبة، ومن المعروف أنه في سنة ١٢٩٠ كانت تقريباً جميع الغلايين التي تعبر البحر، تستخدم مجذفين اثنين على كل مقعد، وأدرك بعد ذلك رجال أكثر حذاقة بأنه يمكن استخدام ثلاثة مجذفين، وهذا هو الأسلوب المتبع اليوم بشكل عام، وليس لأحد أن يرى أنه ضرر إذا وضعنا أربعة أو خمسة على نسق واحد فوق كل مقعد في السفن الكبرى، وذلك بعد ما جرى اختبار فعالية هذا الأسلوب وجودته، وبالفعل توجد في كتب الأقدمين أنه كان في أيام الرومان يجلس ثلاثة رجال للتجذيف على كل مقعد، وقد ورد في كتاب ريغتيو Regetio حول الشؤون العسكرية، والذي تناول المعارك الكبرى في البحر، أن ملاحاً اسمه ليبورناس Liburnas ، كان يصف المجذفين واحداً واحداً، وعلى المراكب الأكبر بقليل أجلسهم اثنين اثنين، أما على المراكب الأكبر — وكل حسب قياسها — فقد رتب المجذفين فيها ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة، أو حتى خمسة خمسة، والذي أراه أنه لا يجوز القول إن في هذا مبالغة كبيرة، عندما نقرأ أنه اشتركت في معارك الأيام الماضية

سفن أكبر بكثير من سفن هذه الأيام، وذلك وفق الطريقة التي رتبها فيها الشيوخ القدماء.

الفصل السادس: ما يفترض أن تكون عليه السفن حتى تكون صالحة لعبور البحر، وتحقيق مشروع مصر بنجاح.

وفيا يلي شكل السفن اللازمة واسلوها لتسهيل نجاح المهمة المذكورة.

أولاً: إن أفضل السفن لعبور البحر هي الغلايين، التي تعتمد على التجذيف، وهي مراكب خشبية مستديرة، تماثل تقريباً ما يستعمله البنادقة في هذه الأيام، أي هي غلايين ضخمة، تنقل أكبر حمولة ممكنة، وذلك بقدر ما تستطيع المجاذيف أن تلبّيها، ويضاف إليها أيضاً سفن أصغر حجماً، تسير أيضاً بالتجذيف، وعلى كل حال إن أية سفينة من حجم آخر تفيد أيضاً، إذا كانت من صنع جيد، وتسير أيضاً بالتجذيف، لكن ينبغي أن تكون رشيقة وسريعة، هذا ومن الممكن ادخال بعض التعديلات على تلك السفن من أجل تحسين وضعها، وأخص بالذكر السفن التي تسير بقوة دفع المجاذيف، ومن هذه التعديلات، نصب برج في وسط كل منها يبلغ طوله عشرون قدماً، ويكون عرضه بمقدار عرض السفينة التي تحمله، ويكون علوه بقدر يسمح بمرور الرجال من تحته مع المسلحين، وهم منتصبوا القامة، ومفيد أن يوضع في مؤخرة كل سفينة بعض المعدات الحربية، وليكن ذلك حسب نصيحة أناس حكماء وخبراء في هذا الحقل، مثل أنواع من الحسك المدببة الرؤوس، وتصف هذه من المؤخرة حتى الأمام وحول جوانب السفينة، هذا وجرت العادة بوضع بعض آلات الرماية على مقدمة المقاعد، بأي عدد يعد ضرورياً ومفيداً، ويتوجب ترتيب جميع آلات الرمي والبرج والحسك ومختلف المعدات الحربية بطريقة فنية، وبشكل يسهل معه ازاحتها وإعادة نصبها حسب المقتضى، ونرى أن يجري اختيار بعض هذه السفن من النوع

الكبير الحجم، لها مستودع في باطنها، ولها باب يفتح في مؤخرتها، لنقل المؤن، ولتسهيل إصعاد الخيول إليها، هذا ويحتاج اسطول الغلايين إلى بعض السفن الكبيرة جداً لنقل الميرة، والعتاد، والذخائر، والخيول اللازمة للجيش، وأفضل أنواع السفن لحمل المواد الغذائية والأخشاب هي السفن المربعة التي يستعملها الآن أهل جنوى في بيرا Pera لأن حمولتها كبيرة، وعدد بحارتها قليل، ويمكنها أن تنشر أشرعتها بكل سرعة ومن ثم تمخر عباب البحر، لكن من الواضح أن المراكب الطويلة التي اسمها أورسا orsa لها قدرة على الصمود أفضل وهي عندما تهب عليها الرياح المناسبة موائمة أكثر من السفن القصيرة.

الفصل السابع: حول السفن المؤهلة لنقل الامدادات وباقي الأشياء المناسبة للجيش سواء عن طريق البحار، أو عن طريق الأنهار، وحول كيفية الملاحة في المياه العذبة، وحول ما هو أكثر فائدة لانجاز المشروع المذكور.

أقترح تخصيص سفيتين يحتاجهما الجيش للملاحة عبر النهر، بشكل أنهما تنصبان أشرعتهما، وتندفعان بشدة، حتى تتمكنان من تحطيم الجسور المنصوبة على النهر والموانع الحديدية والسلاسل، أو أي هدف آخر مقام، ولاحظت أنه بين مختلف أنواع السفن المخصصة للمياه العذبة، أن النوع المستخدم على نهر البو Po، قد برهن أنه أفضل وأكثر نجاعة، وأحسن نتائج مما عداه، خاصة بينها النوع المسمى بلاكتارا Plactara وهو نوع يستخدم للشحن على نهر البو، لكن ينبغي أن لا يبلغ علو رؤوسها العلو المعهود، بل أن تكون هذه الرؤوس مبسطة أكثر للملاحة في المياه العذبة، ويجب على كل حال أن تكون أجسامها أطول، وبخصوص عددها ينبغي تأمين ما يكفي لحاجة نقل الخيول، ويتوجب دوماً مراعاة شرط أن تكون هذه السفن بحالة جيدة، وأن تكون صالحة للسير بوساطة المجاذيف، وأن يكون لها في المقدمة دقل

يعمل بمثابة دفعة، وأهم من هذا كله لا بد أن تكون هذه السفن مغطاة ما عدا من جهة المقدمة والمؤخرة، من أجل أن يكون الرجال المكلفون بالعمل بالمجازيف محميين كلياً من مخاطر نشاب العدو، وتوضع الخيول في أقبية تلك السفن، وتوضع فوق الظهر الأبراج بمهارة واحداً فوق الآخر، كما يتوجب تزويد بعض السفن بآلات، وأيضاً مركزة بعض المهرة من الرماة بالقرب منها.

وألح دوماً على أن تكون السفينة والأبراج والآلات بحالة جيدة، ومع هذا كله هناك حاجة مؤكدة تقضي بتأمين مراكب أصغر، وأيضاً مراكب أصغر بكثير، يمكنها دخول فروع النهر، على أساس أن الكمان إذا نصبت في مكان ما، تنصب حيث تكون مياه النهر قليلة العمق، ومن المعتقد أن المراكب الصغيرة سوف تكون مفيدة وعملية في مناسبات عديدة، خاصة لحراسة السفن العملاقة وحمايتها، حتى إذا ما صدف وحاول بعض رجال العدو الوصول إليها سباحة تحت الماء، يستحيل عليهم النزول إلى النهر، وقد حدث في الماضي أن تسللوا ليحدثوا خروقاتاً في سفن الصليبيين، هذا وهناك احتمال كبير أنهم لن يتجرأوا على النزول إلى النهر لسرعة جريانه وعنفه، وبسبب وجود التماسيح في النهر المذكور، وفضلاً عما تقدم يحتاج ذلك الجيش أيضاً إلى أن يكون مع اسطوله بعض المراكب المصفحة، أي أن تكون محاطة بنوع من السواتر الدفاعية، حتى يأمن رجالها من رميات الحجارة من مجانيق العدو وعراذاته، ويحسب عدد هذه السفن حسب حاجة الجيش، وفوق هذا يحتاج الجيش أيضاً إلى سفن موائمة تكون قوية جداً وكبيرة، تقتصر مهامها على نقل المعدات والآليات المناسبة واللازمة لتنفيذ بعض المهمات، وذلك حسبما يراه المشرفون على الجيش، وأيضاً ينبغي أن تكون هذه السفن مجهزة بكل ما يلزم لاتقاء النيران، أي أن تكون ملفومة بالجلود، وفي سبيل إلقاء الرعب في قلوب الأعداء ينبغي أن تكون سفن

البحر أو الأنهار ذات ألوان ساطعة، مزينة بالرسوم، ترفرف فوقها الأعلام والرايات في المقدمة وفي المؤخرة، وأن يوجد عليها رسوم مرعبة، توضع على الجوانب بشكل خاص.

ولكي لا ينقص المشروع أي شيء، ويكون كاملاً حتى يحقق الهدف المرجو، والغاية الحميدة، يلزم أن يكون مع كل جيش - وخاصة على الأنهار - أبواق، ونفر، وطبول وكوسات، وكل أنواع الآلات الموسيقية القوية الأصوات، وأن يكون عددها كبيراً بقدر الامكان، من أجل بعث الحماس، وشد عزائم الأصدقاء، حتى توزع الفرح في قلوبهم، ولكي يدب الرعب في قلوب الأعداء الماكرين.

الفصل الثامن: أصناف الأسلحة، وتعدد أشكالها من دفاعية وهجومية، وذلك مما يحتاجه الجيش الصليبي.

من الطبيعي هناك حاجة للتزود بالأسلحة الكافية لحاجات رجال الجيش حتى يدفعوا عن أنفسهم، ولمهاجمة أعدائهم، وفق مايلي:

أولاً: يحتاج كل رجل من ذلك الجيش إلى سيف صالح، وجاهز لسحبه سريعاً من غمده.

ثانياً: يجب أن يكون في كل سفينة عدد كبير من الدروع الواقية للصدر، وأغطية للرأس، وسواتر للرقبة، يزود بها جميع العناصر، أو على الأقل الثلثان منهم، وذلك على الرغم من أن المراكب المعدة للملاحة على النهر ستكون كما تقدم وأشرنا مدرعة، وذلك بغية إتقاء رمايات الأعداء.

ثالثاً: من الضروري أيضاً أن يكون كل عنصر من عناصر الجيش مزوداً بخوذة من الحديد أو غيره من المعادن الخفيفة، والمهم أن تكون له خوذة خاصة به تبقى معه.

رابعاً: من المتوجب أن يكون مع الجيش عدد كبير من الترسه، بحيث يكون لكل عنصر ترسه الخاص به في المكان والزمان المقرر، وأفضل أنواع الترسه تلك التي يستعملها أهل كاتالونيا، بسبب جودتها وخفة وزن كل منها، والحاجة إلى الترس دائمة، فقد يحدث أن يترجل المقاتلون، ولا يكون وقتها بمقدورهم حمل الدروع، متذكرين أن المسلمين مؤهلون للاقلاع بحملات متوالية، فإذا ما اضطر الجندي إلى ارتداء الدرع ثم بعد ذلك إلى خلعه، قد يتعرض لخطر داهم، وهو يلبس أو وهو يخلع، وهكذا عندما يكون مع كل رجل سابغته وخوذته وترسه وما يحمي به رقبته وصدره وجسمه، حسبما تتطلب الظروف، في ذلك كفاية لقمع جرأة الماكرين، وينبغي أن يكون معه علامة مميزة جميلة المنظر، وحذاء متين ومفيد، وكل ما هو لازم لإطفاء النار.

وإذا ما التفتنا نحو الأسلحة الهجومية نقول: يلزم لكل واحد سيف وغمدته، وبالإضافة إلى ذلك هناك حاجة إلى:

أولاً: أن يحمل كل عنصر قنا حديدية.

ثانياً: أن يزود كل واحد من الرماة بكمية من النشاب، وأن يحمل معه قوسين، قوس أشد من الآخر، يستخدم الشديدة عندما يتمركز في نقطة ثابتة على الأرض، ويستخدم الثانية أثناء التقدم والتراجع حسبما يقتضي الحال.

ثالثاً: ينبغي تزويد كل غليون بقناة طويلة من المعدن معقوفة الأطراف، وأيضاً برماح طويلة، وبحراب، وبسلاسل ضخمة تحمل في نهاياتها كلاليب، وأن توضع بشكل خاص في مؤخرة كل سفينة.

رابعاً: وينبغي أيضاً أن يكون في كل مركب رماح طويلة ورماح قصيرة، وكميات من الحجارة كبيرة بدون عدد.

خامساً: ويتوجب أن يكون في السفن كلاليب حديدية مربوطة إلى

سلاسل حديدية من أجل عندما يرى الملاحون أنفسهم أنهم تفوقوا على الأعداء يلتقطون مراكبهم بهذه الكلاب ولا يدعونها تفلت.

سادساً: من المفيد جداً أن تحمل كل سفينة معدة للملاحة فوق المياه العذبة منجنيقاً كبيراً بإمكانه الرماية بالتتابع نحو كل الجهات، وأن يكون هذا المنجنيق مجهزاً بكل ما يحتاجه، وأن تحمل عدة عرادات، يكون عددها وفقاً لما يحسنه قائد الجماعة، حتى وإن تطلب ذلك عدداً إضافياً من المحاربين، وسيكون ذلك مفيداً للغلايين أيضاً، ومن الموائم أيضاً توفر كميات كبيرة من النشاب، لاسيما من النوع الذي يدعووه العامة باسم العقار.

سابعاً: تحتاج تلك السفن إلى منصات للمجانيق الخشبية، ومنصات أيضاً إلى آلات للرماية أبعد مدى، أي مجانيق مدعمة، مع كل ما يقتضيه الأمر من رجال مدربين لتشغيلها.

ثامناً: من المفيد، والمستحسن أن يثبت من الطرفين في مؤخرة كل غليون دعامة خشبية طويلة، يستعملها الغليون والبحارة سواء كرأس كبش مثل الذي يستخدم لتحطيم أبواب المدن المحاصرة.

تاسعاً: تحتاج كل سفينة إلى جرار كبيرة تكون مملوءة بالكلس، ومثل ذلك إلى أواني كثيرة تكون مملوءة بالصابون الطري، وينبغي أن يوضع بين الجرار والأواني أدوات حديدية يدعوها العامة «الحراقات» ذلك مع غيرها من التجهيزات اللازمة لاشعال النيران، وأيضاً لرمي النشاب، وأشياء أخرى كثيرة حسب النصائح التي يقدمها خبراء الجيش، ويتوجب على القبطان الذي هو القائد العام لذلك الجيش أن يختزن أكبر كمية ممكنة من هذه الأسلحة، نظراً لأن كثيراً منها ينكسر، أو يتلف، أو يفقد أثناء استخدامه من قبل الرجال.

الفصل التاسع: كيف يقوم القبطان بتنظيم عناصر ذلك الجيش،

وكيفية توزيع المؤن عليها، حتى يسير كل شيء بنظام وبوئام.

وأتوسل أيضاً إلى قداستكم أن يعمد القبطان الذي — بنعمة من قداستكم — توليتم تعيينه قائداً على ذلك الجيش، إلى إيلاء تنظيم جميع الذين معه والعاملين في الجيش كامل العناية والاهتمام واليقظة، وأن يوزع عناصر الجيش المأجورة، وجميع الموجودين فيه لسبب أو لآخر، ويقسمهم إلى مجموعات بعضها مكون من ألف عنصر، وثانية من مائة عنصر، وثالثة من خمسين عنصر، ورابعة من عشرة عناصر، وأن يولي على كل مجموعة قائداً أو رئيساً مسؤولاً، وأن يعطي القبطان أولئك المسؤولين التعليمات الواجبة حسبما يراه مناسباً، كل حسب مقامه وخبرته، وعلى قائد الجيش المسيحي أن لا يولي هذه المسائل لوحدها العناية والاهتمام، بل عليه أكثر من ذلك أن يسهر ويحرص على وصول الطعام إلى جميع أفراد جيشه بانتظام، سواء منهم الذين يعملون لقاء راتب، أو الذين بدون راتب، وليكن ذلك حسب كرمه، وحسبما يحكم بفطنته أن ذلك لازم وضروري لهم، وذلك للحيلولة دون الاستيلاء على الأطعمة خلسة وخفية من قبل أتباعه، ويخيل لي أنه من المستحسن والمفيد للحفاظ على الجيش ولرفع معنوياته أن ينظر القائد ومستشاروه الذين على كل سفينة من السفن بمفردها هل يناسب بالاضافة إلى التوزيع العام لكل ما هو ضروري على الذين في الجيش، خاصة المأكول والملبس، أن تكون هناك أشياء يمكن بيعها، لكن بسعر عادل، شرط أن لا يتولى البيع إلا الذين كلفهم بذلك القبطان أو مستشاروه، ومن الممكن بيع بعض السلع بالدين، وذلك حسب أوضاع الأشخاص، على أن يجري التسديد بعد يوم دفع الرواتب، فيومذاك ينبغي تسديد جميع الديون تماماً، بشكل يصل فيه كل انسان إلى حقه دون غش أو خديعة، ودون أن تكون هناك أية شكوى من فرض علاوات أو ضرائب وترصد جميع أرباح المبيعات لما فيه المصلحة العامة للجيش، هذا ومن

الضروي تطبيق النظام العام جملة وتفصيلاً في جميع المجالات المتبقية،
والتقديم في النظام القويم هو دوماً للسلاح، وعلى السلاح لا يعلو شيء.

الفصل العاشر: كميات الميرة، والطرق المتبعة لدى أهل البندقية
لتوزيع الميرة على العاملين في غلايينهم، وعدد الأفراد المستخدمين،
والزمن والوزن، والعيارات، والمقاييس، وكل ما يناسب منطقياً إكماله.

من الضروري إعطاء كل رجل يومياً ليبرة واحدة (الليبرة تساوي
٦٠, ٤٥٣ غ) ونصف الليبرة من البقسماط، وعلى اعتبار أن عدد أيام
الشهر هي ثلاثين يوماً وأشهر السنة هي اثني عشر شهراً، وبما أن كل
شهر مكون من ثلاثين يوماً، ينقص من كل سنة خمسة أيام وربع اليوم،
وذلك بعد ضم السنة الكبيسة إلى تعداد باقي السنوات؛ وينبغي أخذ
العلم أن كل جوالق من البقسماط يزن تسعين ليبرة، وأن كل جوالق من
الدقيق الجيد يعطي مائة وخمس ليرات من البقسماط، وفي هذا زيادة
سدس على ما يفرضه أهل البندقية، وبناء عليه يحتاج كل فرد تسعين
ليبرة كل شهرين أي بمعدل جوالق واحد، وبالنسبة لسنة كاملة مؤلفة
من اثني عشر شهراً وخمسة أيام وربع اليوم ستكون هناك حاجة إلى ستة
جوالق من الدقيق، وسبع ليرات، وإحدى عشرة أونصة (الأونصة هي
٢٨, ٣٥ غرام) ونصف الأونصة، وتساوي هذه الجوالق ٥٤٧ ليبرة
بقياس أهل البندقية للجوالق الواحد، هذا ويساوي كل ألف ستة
قناطير بعيار أهل أبوليا و نابولي.

ويعطى أيضاً يومياً لكل واحد ممن يتقاضون رواتب كأساً من
الخمرة، بحجم ربع ليبرة، وإذا ضربنا كل ليبرة بسبعين نحصل على
المقياس المسمى عند العامة «برميل صغير»، وكل برميل صغير مضروب
بأربعة يساوي تماماً «برميل كبير» حسب قياس أهل البندقية، ويساوي
كل برميل كبير برميلاً واحداً Veges وثلاثاً من عيار نابولي، وبناء عليه
تكون حصة كل رجل في السنة الكاملة — كما قلنا — برميلاً واحداً،

واحدى وعشرين ليبرة، وربع وستة عشر جزئاً من الليبرة حسب قياس أهل البندقية.

ويعطى كل واحد ممن ورد ذكرهم أونصة واحدة من الجبن يومياً، أي يعطى على مدار السنة ما مجموعه ثلاثين ليبرة وخمس أونصات وربع أونصة تماماً، وكذلك يعطى لكل واحد ثلاث ليبرات وثلاث أونصات من لحم الخنزير المملح كل ثلاثين يوماً، أي ما مجموعه تسع وثلاثين ليبرة وست أونصات وأربع Sagys كل سنة، ويوزع أيضاً يومياً على كل واحد من المقاتلين المأجورين لقاء راتب: فول أو أية حبوب أو بقول بمقدار جزء من أربعين من ربيعة (كوارتا رولا Quartarola) حسب عيار أهل البندقية، ولكي يكون كل شيء واضحاً، تجدر الإشارة إلى أن كل أربع ربيعات تساوي ربعاً واحداً (Quarsta) وكل ربع مضروب بأربعة يساوي جوالق واحد من عيار أهل البندقية، وكل ثلاثة جوالق من عيار أهل البندقية، تساوي سالما Salma واحدة من عيار أبوليا، سواء أكان ذلك من الحبوب أو من الدقيق.

وبناء عليه تكون حصة كل رجل لكل سنة كاملة نصف جوالق من الحبوب، وربعية واحدة وخمسة وأربعين جزءاً من الربعية.

ما يجب تقديمه من طعام لعشرة رجال	
١٥ — ليبرة من البقساط	حصّة عشرة رجال لليوم الواحد
٥ — جوالق	حصّة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٦٠ جوالق	حصّة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
٧٨ ليبرة وتسع أونصات	حصّة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم
٢ ١/٢ ليبرة خمر	حصّة عشرة رجال لليوم الواحد
برميل صغير واحد وخمس ليرات	حصّة عشرة رجال لثلاثين يوماً
١٢ — برميل صغير و ٦٠ ليبرة	حصّة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
١٣ ١/٨ — ليبرة	حصّة عشرة رجال لخمسة أيام وربع
١٣ — أونصة لحم	حصّة عشرة رجال لليوم الواحد
٣٢ ١/٢ ليبرة	حصّة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٤٩٠ — ليبرة	حصّة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
٥ — ليرات و ٩ — أونصات	حصّة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم
١٠ — أونصات جبنة	حصّة عشرة رجال لليوم الواحد
٢٥ — ليبرة	حصّة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٣٠٠ — ليبرة	حصّة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
١ ١/٢ ٤ أونصات	حصّة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم
١/٤ ربعية حبوب	حصّة عشرة رجال لليوم الواحد
١ — ربع ٣ ١/٢ ربعية	حصّة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٥ جوالق و ١٠ ربعيات	حصّة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
١ ١/٤ ربعية ١٦ جزء من الربعية	حصّة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم

ما يجب تقديمه من طعام لمائة رجل	
في اليوم الواحد لسفينة تحمل مائة رجل على أن يحسب الجوالق تسعين ليبرة	١٢/٣ — جوالق بقسط
لثلاثين يوماً	٥٠ — جوالق
لاثني عشر شهراً	٦٠٠ — جوالق
لخمسة أيام وربع اليوم	٨ — جوالق و ١/٢ ٧٧ ليبرة
حصّة المائة رجل يومياً	٢٥ ليبرة خمرة
حصّة المائة رجل لثلاثين يوماً	١٠ — برميل صغير و ٥٠ ليبرة
حصّة المائة رجل لاثني عشر شهراً	٣٢ — برميل كبير و ٤٠ ليبرة
حصّة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم تعطى لهم كذلك بمثابة حصّة يومية.	١ — برميل صغير و ٦٠ ليبرة
حصّة المائة رجل يومياً	Fieta واحدة من النيذ
حصّة المائة رجل لثلاثين يوماً	٨ ليبرة و ١/٤ أونصة جبنة
حصّة المائة رجل لاثني عشر شهراً.	٢٥٠ ليبرة
حصّة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم.	٣٠٠٠ ليبرة
حصّة المائة رجل يومياً.	٤٣ ليبرة و ٩ أونصات
حصّة المائة رجل لثلاثين يوماً.	١٠ — ليبرة و ١٠ أونصات لحم
حصّة المائة رجل لاثني عشر شهراً.	٣٢٥ ليبرة
حصّة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم.	٣٩٠٠ ليبرة
حصّة المائة رجل يومياً.	٥٦ ليبرة و ١/٢ ١٠ أونصة
حصّة المائة رجل لثلاثين يوماً.	٣ ١/٢ ربعية فول أو حبوب
حصّة المائة رجل لاثني عشر شهراً.	٤ — جوالق و ١١ ربعية
حصّة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم	١/٢ ٥٦ جوالق
	٤ — ربع و ١ ١/٨ ربعية

ما يجب تقديمه من طعام لألف رجل	
حصة ألف رجل لليوم الواحد	١٦ جوالق و ٦٠ ليبرة بقسماط
حصة ألف رجل لثلاثين يوماً	٥٠٠ جوالق
حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً	٦٠٠ جوالق
حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم	٨٧ جوالق و ٤٥ ليبرة
حصة ألف رجل ليوم الواحد	٣ براميل صغار و ٤٠ ليبرة خمرة
حصة ألف رجل لثلاثين يوماً	٣١ برميل كبير و ٣ براميل صغار و ٤٠ ليبرة
حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً	٣٢١ برميل كبير و برميل واحد صغير و ٤٠ ليبرة
حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم	١٨ برميل صغير
حصة ألف رجل لليوم الواحد	٨٣ ليبرة وأربع أونصات جبنة
حصة ألف رجل لثلاثين يوماً	٢٥٠٠ ليبرة
حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً	٣٠ ألف ليبرة
حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم	٤٣٧ ١/٢ ليبرة
حصة ألف رجل لليوم الواحد	١٠٨ ليبرة وأربع أونصات لحم
حصة ألف رجل لثلاثين يوماً	٣٢٥٠ ليبرة
حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً	٣٩ — ألف ليبرة
حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم	٥٦٨ ليبرة وتسع أونصات
حصة ألف رجل لليوم الواحد	جوالق واحد فول و ٢ — ربع وربعية واحدة
حصة ألف رجل لثلاثين يوماً	٤٦ جوالق و ٣ — ربع و ٢ ربعية
حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً	٥٦٢ ١/٢ جوالق
حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم	٧ جوالق و ٣ ١/٤ ربعية

ما يجب تقديمه من طعام لعشرة آلاف رجل	
حصّة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد	١٦٦ جوالق و ٦٠ ليبرة بقسماط
حصّة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً	٥٠٠ جوالق
حصّة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً	٦٠٠٠ جوالق
حصّة عشرة آلاف رجل لخمسّة أيام وربع اليوم	٨٧٥ جوالق
حصّة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد	٨ برميل كبير، و ٣ — براميل صغار، و ٥٠ ليبرة خمر
حصّة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً	٢٦٧ برميل كبير، و ٣ — براميل صغار، و ٣٠ ليبرة
حصّة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً	٣٢١٤ برميل كبير، و برميل واحد صغير، و ١٠ ليبرة
حصّة عشرة آلاف رجل لخمسّة أيام وربع اليوم	٤٧ برميل كبير، و ٣ براميل صغار، و ٣٥ ليبرة
حصّة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد	٨٣٣ ليبرة جبنة و ٤ — أونصات
حصّة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً	٢٥ ألف ليبرة
حصّة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً	٣٠٠ ألف ليبرة
حصّة عشرة آلاف رجل لخمسّة أيام وربع اليوم	٤٣٦٥ ليبرة
حصّة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد	١٠٨٣ ليبرة لحم وأربع أونصات
حصّة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً	٣٢ — ألف ليبرة وخمسائة ليبرة
حصّة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً	٣٩٠ ألف ليبرة
حصّة عشرة آلاف رجل لخمسّة أيام وربع اليوم	١ ١/٢ ٥٨٠٧ ليبرة
حصّة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد	١٥ — جوالق فول (أو حبوب)
حصّة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً	٤٦٨ جوالق و ٣ — أرباع
حصّة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً	٥٦٢٥ جوالق
حصّة عشرة آلاف رجل لخمسّة أيام وربع اليوم	٨١ جوالق و ٣ — أرباع و ١ ١/٢ ربعية

ما يجب تقديمه من طعام لمائة ألف رجل	
حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد	١٦٦٦ جوالق بقسماط و٦٠ — ليبرة
حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً	٥٠ — ألف جوالق
حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً	٦٠٠ — ألف جوالق
حصة مائة ألف رجل لخمس أيام وربع اليوم	٨٧٥٠ جوالق
حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد	٨٩ برميل كبير، وبرميل واحد صغير، و١٠ ليرات من الخمرة
حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً	٢٦٨٧ برميل كبير، و٢ برميل صغير وليبرة
حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً	٣٢١٤٢ برميل كبير، و٣ براميل صغيرة و٣٠ ليبرة
حصة مائة ألف رجل لخمس أيام وربع اليوم	٤٧٤ برميل كبير
حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد	٨٣٣٣ ليبرة وأربع أونصات من الجبنة
حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً	٢٥٠ ليبرة
حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً	٣٠٠٠ — ألف ليبرة (ثلاثة ملايين)
حصة مائة ألف رجل لخمس أيام وربع اليوم	٤٣ ألف و٧٥٠ ليبرة
حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد	١٠٨٣٣ — ليبرة وأربع أونصات من اللحم
حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً	٣٢٥ ألف ليبرة
حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً	٣٠٠٠ — ألف ليبرة (ثلاثة ملايين)
حصة مائة ألف رجل لخمس أيام وربع اليوم	٥٦٨٧٥ ليبرة
حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد	١٥٦ جوالق وربع واحد من الفول (الحبوب)
حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً	٢ / ١ ٤٦٨٧ جوالق
حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً	٥٦٢٥٠ جوالق
حصة مائة ألف رجل لخمس أيام وربع اليوم	٨٢٠ جوالق وربع واحد، وربعية واحدة

طريقة توزيع الأغذية

يتولى كتاب الغلايين توزيع الأغذية على الرجال وفق الشكل التالي:

أولاً : يوزن راتب البقسماط وفق ما ذكرناه أعلاه لمدة يوم أو يومين أو ثلاثة أو أربعة أيام، ويوزع على الرجال بقدر ما يتبين أن العناصر قادرة على الحفاظ عليه بشكل جيد، علماً بأنه من الممكن توزيع أيضاً راتب يومين يومين.

ثانياً: يوزع الجبن على جميع الرجال راتب ثمانية أيام أو خمسة عشر يوماً.

ثالثاً: يوزع راتب اللحم المملح كل أسبوع، ويعطى لكل عنصر تسع أونصات كمايلي: يوزعها المكلفون بهذه المهمة على خمسة أيام بحيث يعطون ليوم الأحد لكل رجل ثلاث أونصات، و يعطونه في الأيام الأربعة المتبقية، أي : الاثنين والثلاثاء والأربعاء و الخميس، نصف ما كان أخذه يوم الأحد المتقدم، وتطبخ هذه اللحوم مع الحبوب، لكن لا يشارك في تقديم اللحوم للطبخ إلا نصف الموجودين على ظهر الغليون وإن كانوا جميعاً يحصلون على حصتهم من الطعام المطهي، ويقدمون النصف الثاني للطبخ لاحقاً، ومن جديد يتشارك الجميع في الطعام المطهي، ويحصلون بهذه الطريقة على اللحم ثلاث مرات في الأسبوع، ويستفيدون خمس مرات من طبخ اللحم، أما في باقي أيام الأسبوع أي في يومي الجمعة والسبت، فيكون الطبخ حبوباً، وتقدم مسلوقة لكل عنصر من الموجودين في الغليون، وإذا صدف ووافق يوم من أيام توزيع اللحم، وكان يوم صيام قبل يوم العيد لواحد من الأعياد الكبيرة، فتوزع الحبوب، وتحفظ اللحوم لتوزع على الرجال في أول يوم عيد يأتي، ويظل الأكل في يومي الجمعة والسبت من الحبوب حسبما جرت

العادة، ونذكر هنا أنه من الضروري أن يكون على ظهر كل سفينة مسؤول يتولى أعمال الطبخ مرة في اليوم لصالح رجال الغليون، وهو بالعادة يتسلم من الكتّاب الحبوب اللازمة للطبخ، وكذلك اللحوم التي تؤكل فيها اللحوم، وذلك قبل يوم حتى يتاح له الوقت لإعدادها ومن ثم إطعام من في الغليون، ويجري تكليف ثلاثة رجال لاستلام الأطعمة وتوزيعها، يقف أحدهم في مقدمة الغليون والثاني في وسطه، والثالث في مؤخرته، ويرافق هؤلاء الرجال الثلاثة رجل يتولى الإشراف والتأكد من حصول كل رجل على حصته، ويستحسن تبديل الموزعين بين آونة وأخرى، ويبقى هذا حسبما يراه المرافق الذي هو مدبر الغليون، وبالبحري يعود ذلك إلى رأي القبطان، أي القائد العام للجيش، فإليه أوكلت مسؤولية العدالة وتطبيقها، والمهم بالأمر عدم الإخلال بوصول حصة كل إنسان من الطعام إليه.

ورب سائل يقول: هل يكفي هذا الراتب من الطعام لهذه الجماعة؟ وأجيب نعم، بما أن القوم يتسلمون من الموزعين البقسماط بكفاية، علماً بأنه عند الاقتضاء يمكن لأحدهم الاحتفاظ بمقدار خمس عشرة أونصة أو اثنتي عشرة أونصة بقسماط يومياً، وأضيف أنني وجدت شخصياً في أحد الجيوش أنه لم يكن يوزع سوى تسع أونصات للشخص الواحد، لكن هذا هو الحد الأدنى في أوقات الضيق وفي العادة عندما تزول الضائقة — حسب ظروف الزمان والمكان — يجري التعويض على الناس ما نقصهم إما بدفع مبلغ من المال، أو بإعطائهم مواد أخرى، علماً بأن أولئك الناس يستطيعون أن يتاعوا بهم الخاوص متى وحيث يريدون الخمرة والطعام، حسبما يروق لهم ويطيب، وذلك عندما يصلون إلى مكان تتوفر فيه تلك المواد، هذا ويقدم للرجال في أيام الصوم الكبير بدلاً عن اللحم وعن الجبن طعام آخر يوازي بقيمته ثمن ذلك اللحم والجبن.

تخمين منطقي لأسعار المواد الغذائية المتوجب تأمينها:

في البداية من المفيد التعرف ولو قليلاً على النظام النقدي المتبع في البندقية:

تساوي كل قطعة فضية كبيرة Grossus من نقود البندقية اثنان وثلاثين ديناري صغير، وبناء عليه إن كل $7\frac{1}{2}$ ، قطعة فضية كبيرة تساوي عشرين سولدي صغار، وتساوي كل عشرين سولدي كبار من نقود البندقية اثنان وثلاثين ليبرة صغيرة، وهكذا دواليك.

ولنفترض أن البقسماط الذي يزن الجوالق الواحد منه تسعين ليبرة يساوي ثمنه $32\frac{1}{2}$ سولدي صغار، يكون ثمن ليبرة $4\frac{1}{2}$ ديناري، وطبعاً يلزم لكل رجل يومياً من ذلك البقسماط $1\frac{1}{2}$ ليبرة، وبذلك يكون ثمنها $6\frac{1}{2}$ ديناري، ويكون الثمن في ثلاثين يوماً ١٦ سولدي وثلاثة ديناري صغار، مقابل ٤٥ ليبرة من البقسماط، أما في اثني عشر شهراً فيكون ثمن ستة جوالق من البقسماط ٦ سولدي كبار، وقطعة فضية كبيرة، وأربع قطع صغار.

وثنم البرميل الكبير من الخمرة ١٥ — ليبرة و ١٥ سولدي، ويساوي ذلك بعملة البندقية ٩ سولدي كبار، و ١٠ قطع فضية كبيرة، و ٤ ديناري، وبناء عليه يكون ثمن البرميل الصغير ٣ ليبرة، و ١٨ سولدي، و ٩ ديناري صغيرة، ويكون ثمن ليبرة الخمرة $13\frac{1}{2}$ ديناري، ويعطى يومياً للفرد ربع ليبرة ثمنها $3\frac{3}{8}$ ديناري، مما يعادل في الشهر ثلاث قطع فضية كبيرة و $5\frac{1}{4}$ ديناري، ويساوي هذا في اثني عشر شهراً ٣٧ قطعة فضية كبيرة و ٣١ ديناري.

أما ثمن اللحم المملح فهو للألف ليبرة، ٥٠ ليبرة صغار أي ٣١ سولدي و ٣ قطعة فضية كبيرة، وحصة الرجل يومياً هي ١,٣٩ —

أونصة، ثمنها $1 \frac{1}{2}$ دينار، ويعادل هذا بالشهر الواحد ٣٩ — أونصة
ثمنها قطعة فضية كبيرة واحدة و٧ ديناري صغيرة، وبموجب ذلك
تكون حصة الفرد في اثني عشر شهراً ٣٩ ليبرة من اللحم ثمنها ١٤
قطعة فضية كبيرة و٢٠ ديناراً.

وتحسب الألف ليبرة من الجبن بخمسين ليبرة، ويلزم للفرد الواحد
يومياً أونصة جبن واحدة، ثمنها ديناري واحد، ويساوي هذا في ثلاثين
يوماً $2 \frac{1}{2}$ ليبرة و٣٠ ديناري، وفي ١٢ شهراً ٣٠ ليبرة و٣٠ سولدي،
تعادل ١١ قطعة فضية كبيرة وربع القطعة.

أما جوالق الفول فنفترض ثمنه $12 \frac{1}{2}$ قطعة فضية كبيرة، وهكذا
تكون قيمة $1 \frac{1}{16}$ منه واسمها ربعية ٢٥ ديناري، ويحتاج الفرد في اليوم
الواحد إلى $\frac{1}{8}$ ربعية ثمنها $\frac{1}{8}$ ديناري، ويعادل هذا في الشهر $3 \frac{3}{4}$
ديناري، وفي اثني عشر شهراً ١٨ سولدي و ٩ ديناري صغار، أي ٧
قطع فضية وديناري واحد.

وعلى هذا يكون ثمن الراتب اليومي للرجل الواحد عن البقسماط
واللحم المملح والفول والخمرة $12 \frac{1}{2}$ ديناري، وعن الشهر المكون من
ثلاثين يوماً ١٢ قطعة فضية كبيرة، وعن السنة المكونة من اثني عشر
شهراً ١٢ سولدي كبار.

وهكذا إذا أخذنا بعين التقدير سدس البقسماط الفائض، وإذا قدرنا
— بعون الرب — أن بالإمكان أن نحصل محلياً على أصناف رخيصة
بسهولة، أو بالأسعار المذكورة أعلاه، بعد التذكير أننا حسبنا الأسعار
بمقياسها الأعلى، لهذا كله لم نحسب الخمسة أيام وربع اليوم الزائدة
على اثني عشر شهراً.

الفصل الحادي عشر: عدد الغلايين التي يحتاجها الجيش الصليبي
وأشكالها، في أعماله البحرية، لكي يستولي على بلاد مصر، وكيف على

القبطان التصرف لإنجاح ذلك.

أيها الأب الأقدس: يحتاج القائد العام عند الانطلاق لتنفيذ هذا المشروع إلى خمسين غليون وفق الأحجام المشار إليها من قبل، أي: عشرين من الحجم الكبير، مما يسير بالمجاذيف، وعشرين من الحجم الوسط، وعشرة من حجم قادر على الخدمة، وطبعاً هي أيضاً مما يسير بالمجاذيف، وأتمنى الأخذ بالرأي الداعي إلى استخدام أربع مجذفين على نسق واحد فوق كل مقعد، حسبما بينت في الفصل الخامس، ووقتها لن نكون بحاجة إلا إلى أربعين غليوناً من النموذج المذكور في الفصل الحادي والعشرين من القسم الرابع، أما شكل الغلايين فهو كما يلي:

١ — الغلايين الكبيرة: الطول ٢٣ خطوة ٢ — قدم، والفتحة من الأمام (العرض) ١٥ ١/٢ قدم، والارتفاع من وسط أرضيتها ٧ أقدام و ٣ أصابع، وعمقها (الغاطس) ٩ ١/٢ قدم، وأخيراً علوها من المؤخرة ٩ ١/٢ قدم، ومن المقدمة ١٠ ١/٢ قدم.

٢ — الغلايين من الحجم الثاني: الطول المطلوب ٢٣ خطوة و ٢ — قدم، وفتحها من الأمام ٢٠ ١/٣ قدم، وعلوها ٧ — أقدام وإصبعين حتى ثلاثة أصابع، وعمقها ٩ ١/٢ قدم، وعلو مؤخرتها ٩ ١/٢ قدم، ومقدمتها ١٠ ١/٢ قدم.

٣ — الغلايين الصغيرة: وأخيراً إن قياسات هذا النوع هي: الطول ٢٣ خطوة و قدم، وفتحها من الأمام ١٤ ١/٢ قدماً، وعلوها من الوسط ٦ ١/٢ قدماً وعمقها ٩ ١/٣ من الأقدام، وعلوها عند المؤخرة ٩ من الأقدام، وعند المقدمة ١٠ — أقدام. وحتى يتمكن المجذفون الجالسون أربعة أربعة على نسق واحد فوق مقعد واحد من العمل بشكل أفضل، ولا سيما إذا جرى اعتماد أسلوب خمسة خمسة في الغلايين الأكبر حجماً، من المتوجب أن تكون المجاذيف من أفضل أنواع الخشب، ويستحسن

أن تكون من خشب بيرونادا Pironada ، وأن تكون مربوطة ببعضها، ومصنوعة بشكل خاص لتحمل عناء التجذيف وشدته وعنفه، ومن المحبذ وجود سفينتين لهما عشرة زوراق، مثل ما يستعمله أهل جنوى في القسطنطينية وبيرا — المسماة قديماً غلاطية — .

وبرأينا إنه من المفيد وجود — فضلاً عما تقدم — خمسة غلايين كبيرة لحمل المعدات ذهاباً وإياباً، وأن تكون غير مسلحة، وتسير بقوة دفع المجاذيف لحمل العناصر والخيول والمؤن، ولحمل الأخشاب وجميع الأسلحة اللازمة لأولئك القوم، ويمكن لهؤلاء أن يسيروا بسلام وفرح كبير نحو الشواطئ المصرية، ويستولون هناك — كما بينا من قبل — بكل بساطة وبطش على الأرض، وعليهم أن يكونوا حاملين معهم لتلك الحملة مراكب معدة للملاحة في المياه العذبة، الموجودة في تلك المناطق، ولغيرها من المياه العذبة التي قد تكون موجودة في بلدان الشرق، ولتكن تلك المراكب من النوع الثلاثي، وأن تكون هناك الخمسة غلايين الضخمة جاهزة باستمرار للذهاب والاياب لحمل جميع لوازم الجيش، وتبقى الغلايين الخمسون أو الأربعون مع الغلايين المذكورة مع الجيش المعد للابحار في المياه المالحة والمياه العذبة المذكورة حتى تنقض على أعداء الإيمان الكاثوليكي، وتنزل بهم الرعب وتلحق بهم الويلات، وبناء عليه يقومون في السنة التالية لاحتلالهم قطعة من أرض مصر البحرية فيتقدمون في المياه العذبة، ويكون هناك عشرون غليوناً جاهزين لنقل جميع الأشياء اللازمة ولتمكين الغلايين غير المسلحة من شحن كل ما يلزم.

الفصل الثاني عشر: الأسلوب الفني المتبع لصناعة الأدوات للملاحة، والزمن المحتاج، والترتيب المأخوذ به لحفظها، ولتكون أسرع، وخاصة المجاذيف.

ولكي لا يطرأ أي عطل، أو يقع نقصان في صناعة السفن، مما يسبب

للجيش بعض الضرر ويعيقه في حملته، تقصيت بإلحاح، وسألت رأي الذين يفترض أن يكونوا خبراء في هذا المضمار، لأنهم اعتادوا على قطع الأشجار من الغابات، وعلى صنع السفن، فإنهم أجمعوا على القول: إنه لا يصلح أبداً قطع الأشجار من الغابات في شهر آذار أو نيسان، وأن شهري تشرين الثاني وكانون الأول هما أفضل زمن خلال السنة لقطع الأشجار، شريطة أن لا يقع ذلك بين الخامس عشر والثاني والعشرين من القمر.

فإذا ما قطعت الأشجار في الوقت المذكور، يقولون إنه لا يجوز الشروع على الفور بصنع السفن، بل يتوجب أو لا لتقطيع الجذوع إلى ألواح، وأن تترك بعض الوقت لتجف، إنه إذا صنعت السفن من أخشاب أو ألواح خضراء، لم تجف بعد فإن الألواح لا تنطبق تماماً على بعضها، ولن تصلح لمنع تسرب الماء كلياً، وإذا هبت عاصفة في البحر فإنها تلتوي — كما يقول العامة — وبذلك تنسحب الدسر بسهولة من وسط الألواح، وإن في ذلك لخطر جسيم على من في السفينة، وتسير أيضاً ببطء كبير، ومع التسليم بصحة هذه المعلومات، يبقى المفيد أكثر أن تصنع السفن من ألواح وأخشاب لاتزال خضراء، أو نصف جافة، حيث تجمع قبل أن تجف تماماً، سووية وتعطي للسفينة الشكل الموائم، وبهذه الطريقة — كما يقول الخبراء — تكون الألواح أنسب وأصلح سواء للسفينة أم للملاحة، لأن الأخشاب الخضراء تطاوع أكثر عند العمل وتضبط أكثر، وعندما توضع على طبقتين تكون أقوى وأمتن مما لو كانت طبقة واحدة، لأن الطبقة الأولى هي أساس للثانية، وللحفاظ على السفن المسيرة بالمجاذيف والعناية بها، ولكي تكون أسرع هي بحاجة إلى «معجونة»، ولاسيما النوع المعد منها لخوض مياه البحر، ويلزمها من حيث المبدأ كل شهرين على الأكثر في أيام الصيف، عندما يكون الحر على أشده، وكل ثلاثة أشهر في أيام الشتاء، أن تحف بفرشاة،

وبمحرقة ومن ثم ترمم، لأن السفن تحتاج إلى الإصلاح في ذلك الموسم من السنة، وبعد هذا تنزل وتغطس في أعماق الماء حسبما يكون مناسباً لكل واحدة منها، وتحتاج كل سفينة، كل مرة لتتميم الصيانة إلى خمس وتسعين ليبرة من المعجونة».

وبعد مرور شهر — على كل حال — وفي أي أسبوع، وبعدما تكون السفينة قد طليت وتمعجنت تماماً، بحوالي مائة ليبرة من المعجونة، يجب تميلها لبعض الوقت على الجهة اليمنى وبعض الوقت الآخر على الجهة اليسرى، حتى تدلك بالأيدي من الخارج وتنظف تحت الماء بفرشاة مصنوعة من شعر الخنازير، لكن بشكل لا يزيل المعجونة عن الألواح.

وتجفف السفن غير المسلحة المعدة لركوب البحر، ولنقل الحمولات الثقيلة مرتان في السنة، وترمم قطعة قطعة، وتطبق الأعمال نفسها على السفن المعدة للميناء العذبة، ولكي تكون سريعة ومصانة، يجب — كما ذكرنا أعلاه — أن تطل وتنظف وترمم، ويجب أيضاً معجنتها بطبقة من المعجونة بقدر ما يحكم أنه ضروري ومفيد، ومفيد أن نعلم أن السفن يمكن حفظها بشكل أسهل في المياه العذبة مما في المياه المالحة، ولا يتمكن السوس من نخرها، علماً بأنها إذا ما أنزلت وهي مسوسة في المياه المالحة، فإن السوس يؤذيها أكثر، ويمكن أن يتغلغل فيها بسرعة أكبر، لاسيما إذا بقيت من دون حراك، في المكان نفسه، في المياه المالحة.

وإذا حدث وتقشرت المعجونة عن إحدى السفن، لا يجوز معجنتها كما ذكرنا من قبل، بل ينبغي أن تجفف أولاً ثم تحف بالفرشاة بشدة حتى يُزال من عليها جميع الأوساخ والأعشاب العالقة بها، ومن المناسب أن يتم ذلك شهرياً، وكلما تبين أنه ضروري، ويجب التنبيه إلى أن على كل سفينة أن تكون متأهبة وجاهزة في أيام الصيف أكثر منها في أيام الشتاء، لأن الأضرار التي تلحق بها في الصيف أعظم، هذا ولا يجوز التوقف عند الطريقة التي يرفع فيها الأذى عن السفينة، بل ينبغي

الاعتماد على الطريقة التي تضمن صيانتها حتى تقوم بالمهمة المكلفة بها، ولتكون سريعة الابحار، وإذا اتضح أنه غير مناسب لسفينة ما ألا تعمل لبعض الوقت، لأنها تحتاج إلى الصيانة، ينبغي جرها إلى مكان مغطى حتى تنظف ويزال عنها الأذى، وذلك بعد التشاور مع الأعيان والجماعات، هذا وإن المكان الذي تحفظ فيه السفن يعرف عند العامة باسم «دار الصناعة»، وقد تتوفر أسباب أخرى تدعو للمحافظة على بعض السفن، لكن إذا لم يكن بالامكان حفظها في دار الصناعة لوقت طويل، من الأفضل عدم تعريضها للشمس والمطر، والندى في مكان آخر.

الفصل الثالث عشر: حول أنواع باقي السفن التي يحتاجها الجيش الصليبي لنقل الميرة، وبقية أشكال المواد اللازمة للصليبيين الذي سيعبرون البحر فيما بعد، وحول الأماكن وأسمائها وعددها، والترتيب الواجب اتباعه لايصال الميرة، وحول الأماكن التي تتوفر وجودها، أو يمكن الحصول عليها، وفي هذا الفصل إيضاح أن السفن العائدة للكنيسة الرومانية المقدسة، لاتناسب ولا تفيد.

وإذا ما حظي الذي ذكرته أعلاه بما يستحق للمباشرة به ومن ثم إتمامه، فإنه ينبغي — أيها الأب الأقدس — من أجل إنجازه وإتمامه تجهيز أسطول آخر عدا عن الذي سلف وذكرناه في الفصل المتقدم، فالفضل كل الفضل ليس بالشروع والمتابعة إلى منتصف الطريق، بل إنه بإتمام تلك البداية ومتابعة المسيرة حتى يتم الوصول إلى الغاية، وعندئذ يكون المدح والثناء، ويكون هذا الأسطول لحمل المؤن والأخشاب، وباقي العتاد اللازم لذلك الجيش المذكور، وكذلك بكميات كبيرة للصليبيين الذين سوف يلحقون بهم، حسبما ذكرنا أعلاه، وأيضاً لمحاربة أهل الأندلس الذين يحاربون في المناطق الواقعة من هذا الجانب من البحر، أي في إسبانيا، فهؤلاء سيداسون بالأقدام بسرعة، وستجث

شرور أتباع محمد (ﷺ)، ونحن حين نتحدث عن أسطول آخر، غير الذي نحن بصدده، فهذا لا يعني أن ذلك الأسطول الثاني سوف يكون ذا عدد كبير، أو أنه سوف يجهز على نفقة الكرسي الرسولي، ومن الممكن إيضاح ذلك على الوجه التالي:

إذا ما استمرت جزيرة كريت — بنعمة من لدى العلي القدير — تحكم نفسها، كما هو حالها اليوم، من الممكن التفاوض مع أهل البندقية حتى يتولوا نقل القمح والحبوب والحاجيات الأخرى لصالح جيش قداستكم، عن طواعية، إلى الجزيرة المذكورة، ومن هناك يجري نقلها إلى شواطئ مصر، وإذا لم يتوفر عند أهل البندقية الكميات الكافية من القمح والحبوب، فإنه من الممكن الحصول عليها من أبوليا، لتنقل منها إلى تلك الجزيرة، بالكمية التي تقررها قداستكم، ويناسب هذا أهل البندقية كثيراً، لأنهم سينقلون تلك المواد من مكان مناسب وقريب، ولا شك أنهم سيلبون هذا المطلب إذا ما عرض عليهم الأمر، علماً بأن قمح أبوليا أفضل نوعية من النوع الذي في كريت، ومنه يستخرج دقيق يعطي خبزاً أفضل، وبكمية أكبر من ذلك الذي في كريت، ومن الممكن الحصول أيضاً على كمية كافية من الخمر من تلك الجزيرة، وعلى الكثير من الجبن، وعلى عدد كبير من المواشي الصغيرة، وعلى الأخشاب وخاصة أخشاب الوقود، أيضاً على المجاذيف، وعلى عدد كبير من قرون الغزلان لاستخدامها في صناعة القسي، ويمكن عدّ هذه المواد وكأنها موجودة في مصر نفسها، لقرب موقع كريت منها، ومن جزر بحر إيجه، شرط أن لا يكون الأتراك قد تقدموا من مواقعهم الحالية إليها وخربوها، فمن هذه الجزر يمكن الحصول على كمية كبيرة من الأخشاب والمجاذيف وعلى أعداد وافية من المواشي الكبيرة والصغيرة، لتحمل إلى ذلك الجيش على غرار الأخشاب والحاجيات الأخرى المطلوبة من جزيرة كريت.

وفضلاً عما تقدم يمكن الحصول من جزيرة ميلو Melo ، الواقعة أيضاً في بحر إيجه، على عدد كبير من أحجار الطواحين، فالطواحين لازمة ومفيدة جداً لخدمة ذلك الجيش، وإذا طاب لقداستكم، يمكن أن يعتمد قائد الجيش المعين إلى التعامل مع الأتراك القاطنين على الشاطئ التركي، وأن يسايرهم ويتصرف معهم بصدقة، وخاصة مع ذلك القسم منهم المسيطر على الأرض الممتدة من كاندلورو Candeloro حتى ماكروم Macrum ، فيعطيهم بعض المال حتى — كما أرجو من الخالق العلي — يتركوا رجال ذلك القائد يقطعون الأشجار، ويشترون القار، وكافة أنواع المواشي لحملها إلى مصر، وعليه أيضاً التعامل مع جزيرة قبرص الخضراء، حسبما جرت العادة، حيث تتدفق منها كميات الحبوب والخمرة، والمواشي والحيوانات كبيرة وصغيرة، وأيضاً الملح، وهذا كله يمكن شحنه بالشكل المناسب إلى الجيش في مصر.

وهذه الجزر وهذه الأراضي قريبة جداً من بلاد مصر، وفضلاً عن ذلك يمكن لجزيرة نغروبونتي، ومثلها دوقية أثينا، ومقاطعة المورة أيضاً، أن تؤمن الأخشاب مع أصناف وحاجيات عديدة مناسبة للجيش المذكور، هذا ومن الممكن شراء الدقيق من بلاخيا Blachia ، ومن غيرها بوفرة، ومن ميناء أميرو Amiro ومن ميناء ميثريد Mith-riade ، ومن ميناء لادي Lade ، كذلك بكميات كبيرة، إذا عاد إلى سالف عهده، لأن كونت دي بريمان قد دمره كلياً، أثناء تسلمه الحكم على الكتلان Catelani وكذلك يمكن الحصول على الأخشاب والحديد والحبوب وغير ذلك من المواد بكميات وافية، من الأراضي التي يحكمها الروم الذين في القسطنطينية حالياً، وليس من هناك فقط بل من مناطق البحر الكبير من جهة الشمال، فمن هذه المناطق يمكن أيضاً الحصول على القمح بكميات كبيرة، وعلى «المعجونة Sepo» ، وعلى جلود البقر، وحاجيات أخرى عديدة من هذا القبيل، وكذلك من

أرض ديسبوتي Despoti ، ومن منطقة فالوني Valonae ، ودوراتي Durati ، وكذلك من بلاد صربيا، فمنها يمكن استخراج الأخشاب بكميات كبيرة جداً، ولا سيما خشب السنديان، مع مواد أخرى كثيرة، وأعداد كبيرة من المواشي، ويمكن أيضاً الحصول على القمح بكثرة مع النيذ والزيت، واللحوم المملحة، والجبنه وثمار الأشجار، من مملكة صقلية، ومن دوقية أبوليا، ومن مقاطعة كابوا Capua ، وكل هذه الأراضي — ما عدا الواقع منها إلى شمال البحر المتوسط — ليست بعيدة كثيراً عن أراضي مصر البحرية، ومن المعقول كذلك القول إنه إذا ما اتبع الترتيب المذكور لن يحتاج الأسطول إلى عدد كبير من الغلايين، لأن الذين يسافرون على تلك السفن، ويزورون تلك الأقاليم يمكنهم الذهاب والإياب مراراً كثيرة، وأما الأراضي المسماة سيغنا Signa ، وغيرها من أراضي بلاد الصقلية فيمكن أن تجلب منها الأخشاب الكثيرة واللحوم المملحة، ويؤخذ من البندقية — بالطبع — الحديد والخشب، خصوصاً خشب الشربين، وخشب الصنوبر، وهما من أفضل أنواع الأخشاب بالعالم، وهذا كله مفيد جداً ومناسب للجيش المذكور، ويمكن أيضاً الحصول من ماركيا Marchia ، وأنكونا Anchona ، ودوماندويلا Domandiola على الكثير من الخمرة، التي هي من الصنف الجيد.

وإذا راق لقداستكم أن يعين في المراكز الأهم لهذه المناطق، التي هي محكومة من قبل واحد من أبنائكم المؤمنين، وكيلاً أو وكلاء يشتركون ما هو لازم ومناسب لذلك الجيش، ولتأمين حاجياته، فسيكون هذا مفيداً وعملياً، ولا يقتصر على تلك المناطق، بل إذا ارتأى قداستكم حبذا تعيين وكلاء آخرين في مناطق أخرى، إنما إذا لم تعتمد قداستكم إلى تعيين وكلاء في تلك البلدان والمناطق، يمكن إصدار الأوامر إلى التجار بالإبحار بأسرع ما يمكن إلى أرض مصر البحرية، من اليوم الذي تطلع

الحملة به إلى هناك، هذا وإذا قررت قداستكم تطبيق الإجراءان معاً، أي تعيين وكلاء، وتوجيه التجار نحو مصر، فإن المشروع سوف يلاقي خدمة كبيرة، ولا شك أنه سوف ينجز بوقت أسرع، أما طريقة إيجاد وكلاء مناسبين وصالحين لهذا النوع من العمل، فهي واضحة بما فيه الكفاية ولا لبس حولها، أي : أن يعمد الذين تكلفهم قداستكم بإنجاز هذه المهمة، إلى التفتيش في الأراضي التي يسكنها مؤمنون مسيحيون، والسؤال والتحقيق، والاستعانة بغيرهم للتفتيش عن رجال أمناء معروفين، وأغنياء وحكماء في آن واحد، ولديهم خبرة في هذه الشؤون، وذلك من أجل تأمين كل ما يتطلبه المشروع المذكور، أما بالنسبة للبلدان والمناطق التي يتم التعرف فيها إلى وجود رجال بالصفات المطلوبة، لا بأس وقتها بإرسال عدد من الأشخاص إلى هناك، بقدر ما يراه الذين كلفتهم قداستكم، بغية القيام بما هو لازم، آخذين بعين التقدير أنه إذا كان الوكلاء صالحين — وهؤلاء يمكن العثور عليهم بعون الرب — فإن المشروع سيصل إلى الغاية المرجوة، ويجري تأمين كل ما هو مناسب وموائم.

وبالإضافة إلى جميع ما تقدم ينبغي إبلاغ تلك المناطق ما مضمونه: إن كل من يريد حمل المواد الغذائية وسوى ذلك إلى جيش قداستكم، هو آمن لدى المؤمنين جميعاً للذهاب والإياب والإقامة.

وينبغي دراسة هذا الأمر، وإصدار قرار من قداستكم يقضي بالسماح لأي كان أن يحمل من أية بلد أو مكان الأخشاب والمواد الغذائية، وغير ذلك مما يحتاجه الجيش، وينقله إلى شواطئ مصر، دون أن تفرض عليه أية أتاوة أو ضريبة في تلك الأماكن والبلدان والتجمعات البشرية، وفوق ما تقدم يحتاج الجيش على سبيل الأمان والحيطه في البقعة المعسكر فيها من أرض مصر، أن يجمع كمية كبيرة من الذرة، وأن يخبزها، وأن تصل الكمية إلى مقدار مائتي ألف جوالق من مقياس أهل

البندقية، أي ما يساوي سبع وستين ألف «سالمًا» من مقياس أبوليا، لأن الذرة تبقى محفوظة لمدة طويلة، ويمكن إطعام الجيش منها إذا طرأت ظروف استثنائية، ومن الممكن الحصول عليها من بلدان البحر المتوسط، وهي في مناطق الشمال أفضل منها في مناطق أخرى، والذي أراه مفيداً ومنطقياً أنه إذا ما احتاج الجيش إلى عدد من السفن فوق العدد الذي ذكرته لقداستكم، وذلك من أجل نقل المؤن، يفضل استئجار مثل هذه السفن بدلاً من استخدام السفن العائدة لبلاطكم، وسبب هذا واضح تماماً، وهو أن أصحاب السفن التجارية هم دوماً ساهرون ومتأهبون للعمل في سبيل منافعهم الشخصية، وهم يهتمون بذلك كثيراً، أكثر من اهتمامهم بالأمانة وبما يعود للمصلحة العامة للكنيسة، لذلك لا خشية — بعون يسوع المسيح — من أن يحتاج ذلك الجيش إلى السفن الضرورية، لأنه حالما ينتشر خبر الحاجة ويصل إلى مسامع التجار، حتى تراهم ينظمون سفن النقل بكفاية وسرعة من أجل تحقيق الكسب والمنفعة.

الفصل الرابع عشر: إيضاح كيف أنه للابحار إلى مصر ينبغي توفر رؤية جيدة، ومناخ مناسب، وإيضاح لفوائد مناخ مصر، وكثرة المياه فيها.

ومن المفيد أن نعرف هنا أخيراً ما سوف أقوله وأشرحه عن جودة مناخ مصر: من حيث المبدأ، على الذي يريد الذهاب إلى الشواطئ المصرية سواء من الغرب أو من الجزر اليونانية، عليه أن يرسو في جزيرة كريت، طبعاً عند رأسها الشرقي، وهناك يُعطى شارة الصليب المميزة، لكي يقلع نحو مصر عندما تكون الرياح شمالية وشرقية.

وبسبب التيارات التي تتدافع نحو الغرب في تلك المناطق، يلزم هناك التوجه إلى وسط مجرى الرياح، والسير بوضع مقدمة السفينة باتجاه الشرق مقدار الربع من الرياح الشرقية، وبعد ذلك من وسط مجرى

الرياح حتى الاسكندرية مع الرياح بخط مستقيم، ويقدر هذا العبور مع مجرى الرياح بأربعمئة وخمسين ميلاً، وهناك من يؤكد أن هذا العبور مع مجرى الرياح يبلغ خمسمئة ميل، وبما أن جزيرة كريت تتمتع بمناخ جيد، لكن كثيراً ما يتفاجأ الذين يعبرون من هناك بحراً أنهم كلما اقتربوا من مصر أن المناخ يتحسن ويتبدل ويغدو صافياً ونقياً، وتبدو زرقة السماء، علماً بأن مصر البحرية تسقط فيها الأمطار باعتدال كبير، لكن بكفاية، إنما كلما مضيت في داخل مصر نحو القاهرة والقلعة وماوراءها نحو الصعيد، هناك لا تسقط الأمطار إلا بالنادر، وإذا سقطت لا تكاد تبلل الأرض، وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد بكل تأكيد، أن مناخ مصر، بسبب هذه المواصفات هو مناخ جيد، لا بل ممتاز، ويمكن البرهنة على هذا من خلال الأعلاف، فإنها إذا ما حملت إلى مصر، وقد أصيبت بالعفونة، أو بدأت تتلف، تصح وتستعيد جودتها، نتيجة لجودة ذلك الهواء، وجدير بالتنويه أن المياه غزيرة بمصر، وهي من أفضل مياه العالم، وخير ما فيها أنها خفيفة تساعد على الهضم.

ولذلك لا يجوز مطلقاً التراجع عن هذا المشروع، بل يلزم إنجاز كل ما يمكن عمله، حتى تتحقق آمال جميع من يسعون في سبيل مجد الرب وكنيسته، ولكي يتمتعوا بتلك الأرض بسلام وأمن.

الفصل الخامس عشر: المواصفات المطلوبة من الأشخاص الذين يمكن للكنيسة الرومانية المقدسة أن تتعاقد معهم حتى يتحقق هذا المشروع.

فيما يلي الشروط المطلوب توفرها بالرجال الذين ستتعاقد الكنيسة معهم لقاء عطاء ثابت:

أن يكون كل قبطان وكل مسؤول من الذين يتقنون قيادة السفن والابحار بها في المياه المالحة وفي المياه العذبة، وأن يكون قادراً على تأمين

العدد الكافي من المجذفين، لأنه كثيراً ما ينقص هذا النوع من العناصر في سفن الجيش، وتتعرض السفن للمخاطر بسبب ما يطرأ من حوادث تهدد أولئك الرجال، وتقود إلى النقص في تعداد المجذفين، ويلزم أيضاً وجود كتاب يتولون شؤون السجلات، وتوزيع المواد الغذائية، وتسليم الأسلحة، وباقي اللوازم يومياً، وهناك حاجة أيضاً إلى نجارين للأخشاب بعدد كبير، وأن يكون معهم عدد كبير من المعلمين الحرفيين، يحسنون الحرف المتعددة، وأن يكون هناك أيضاً أكبر عدد ممكن من المرممين والمنظفين والعاملين بالمعجونة والطلاء، لإعداد كل ما تحتاجه السفن في كل وقت.

وبعد هذا أعرض على قداستكم ثبثاً سريعاً بأنواع الباقي المحتاج إليهم:

يحتاج ذلك الجيش إلى نجارين وإلى حدادين يكونون قادرين على إنجاز جميع أعمال الحدادة والنجارة التي يتطلبها الجيش، وهناك أيضاً حاجة إلى معلمين لمختلف الحرف مما بإمكانه تقديم المساعدة للسفن ولطواقمها، أما الباقيون من القوم الذين هم رجالة، فيجب أن يؤخذ منهم رماة وحملة رماح قادرون على قتال الأعداء ببسالة سواء على وجه الماء أو على وجه الأرض، وأن يدحروا أعداء الأيمان المسيحي بكل رجولة، ولدعم هذا المشروع، وتوفير سبل النجاح كما ينبغي، من المناسب أن يرافق الأسطول أساقفة، ورهبان وعاظ من رهبنة النساك، ومن رهبنة الكرميل، وغيرهم من الأكليروس العلماني حتى يتولوا تعليم رجال ذلك الجيش الديانة والأخلاق القويمة، ولكي يقدموا لكل محتاج أسرار الكنيسة المقدسة، وذلك في سبيل مجد الرب، وفي سبيل العبادة الحقة في كنيسته.

الفصل السادس عشر: حول شكل تبديل عناصر الجيش وطريقة ذلك، وحول المشافي للمرضى، وكيف ينبغي تأمين كل شيء سلفاً،

وحول النساء المتزوجات المرافقات لرجالهن، وحول شؤون الأرمال والورثة، وغير ذلك من الأمور الواجب أخذها بعين التقدير.

فضلاً عما تقدم، يتوجب تأمين العطاء الشهري لجيش الكنيسة الذي سوف يغادر من مناطق الغرب وجهاته، دون أي نقصان، وذلك إلى جميع الرجال والمقاتلين، مهما كانت ظروفهم أو أوضاعهم، حسبما جاء في الفصل المتقدم، وكلما طلبوا أن يدفع لهم، وكذلك إلى الذين سوف يرسلون إلى ذلك الجيش مع الغلايين غير المسلحة، وذلك بأقصى ما يمكن من سرعة، ودونها إبطاء.

والسبب هو أنه في الجيوش البحرية، يهلك بالعادة قوم كثيرون، إما بسبب الحوادث المألوفة في الحرب، وإما بسبب حوادث الغرق التي كثيراً ما تحدث في المياه، وإما أيضاً بسبب تكبد مشاق لا تطاق، يتحملونها ليلاً ونهاراً، ولذلك تنهار قواهم ويقهرهم المرض، ولهذا إن التأخير في دفع المستحقات لا يرضي بعض هؤلاء القوم، كذلك إن ذلك قد يساعد على تعويض النقص في أعداد الجند المسيحي، وعلى تجديد الجيش، وهذه طريقة ناجعة، لا تحتاج إلى نفقات عالية.

ثم إن ما يعطى للمأجورين من أعطيات وأطعمة، هو وسيلة لهم لمتابعة حياتهم بأمان وكرامة، وليمكنوا بنفسية غير قلقة من الخضوع لأوامر الكنيسة الرومانية المقدسة، ولتعليمات قائد الجيش، ونخص هنا بالذكر قباطنة السفن والملاحين، والمكلفين بتوزيع الأغذية، حتى لا يتوفر أمامهم مجال — بسبب منفعة ما — لإلحاق الأذى، أو لإنزال أي ضرر بجمهور الجيش المذكور، لكن إذا ما تجرأ واحد من أولئك القباطنة، أو الملاحين، أو المسؤولين عن توزيع الأطعمة، وأقدم على اختلاس أو احتكار شيء من الأطعمة أو الأعطيات، فليعاقب بشدة، حتى يكون عبرة لغيره، لأن هؤلاء يتقاضون أجوراً عالية.

ويتلاشى بهذه الوسيلة شر الذين يختلسون أو يغشون، أو يطمعون بما هو لغيرهم، ويتم ضمان حق الضعفاء، وبذلك يبقى الجيش بدون أية مشاكل طيلة المدة التي تقررها قداستكم، هذا وينبغي أن لا تكون أعطيات رجال ذلك الجيش، والمبالغ التي تسلم إلى الموزعين، أدنى مما يتقاضاه الذين يتعاقدون لقاء أجر مع سفن أهل البندقية، حسبما أوردنا في الفصل العاشر من هذا القسم، وفضلاً عما تقدم إنه ضروري ومفيد تخصيص أول بيت يقيمه الجيش على الأرض، ليكون مشفى، أي أن يعد لاستقبال المرضى، حيث يقدم لهم كل ما يلزم لخلاص أرواحهم، ولشفاء أجسادهم.

وبالنسبة للنساء اللائي سوف يكن مع الجيش بحكم ارتباطهن بعقود زواج مع رجالهن. فإنهن يأخذن رواتب أطعمة مثل الرجال، وكل من يحدث ويموت زوجها، يغدو وضعها القانوني وضع المرمولات، وعليها أن تحافظ على العفة، وتستمر في أخذ راتبها من الطعام، ولا يجوز مطلقاً أن يقطع عنها الطعام والزاد.

وإذا حدث وانهارت قوى واحد من عناصر الجيش، بسبب مرض أو غير ذلك، فيتوجب إبقاء أجره كما هو حسب العطاء الذي كان يتقاضاه وهو معافى، مع الانتباه دوماً لعدم ارتكاب أي غش أو خديعة، لأن رجالاً كثيرين يتهربون من المخاطر، ويتجنبون الأعمال الشاقة، لذلك ينبغي التنبه لهذا حتى يسير كل شيء بشكل منطقي حسب ما يرام .

وبالنسبة إلى الذين فقدوا حياة الجسد، وعند أحدهم زوجة وأولاد، فإن كل متطلبات الحياة، وكل ما كان يقدم له أثناء خدمته، فيبقى ساري المفعول ويقدمه المكلفون بالتوزيع لتلك الزوجة وللأولاد حتى يتمكنوا من العيش، وذلك إلى أن يصل الأولاد إلى سن الرشد.

لكن في حال وفاة الأم، على المسؤولين عن تنظيم الجيش قبول

الأولاد ووضعهم في مكان يمكنهم فيه تلقي التربية الصالحة والتعليم والتدريب على الأخلاق القويمة، وذلك حسبما يقتضي النظام الطبيعي، أي إلى أن يصل الصغار إلى سن الفتوة، ويجتازوا سن المراهقة، وإلى أن يستحقوا بعلمهم وفضيلتهم وأعمالهم تدبر شؤون حياتهم بالشكل المرضي، وطبعاً يستمرون خلال ذلك كله بتسليم النفقات والمصاريف حسبما ورد أعلاه.

وهذا كله يجعلني أتكل على الرب، الذي بيده الخلاص الحقيقي للذين يؤمنون به ويتكلون عليه، وهو بحلمه، سيتكرم — بالنظر إلى فضائلكم — فينير قداسكم بنور الحقيقة يوماً فيوماً، من الآن وإلى اليوم الذي سوف تتحقق فيه أمور الأرض المقدسة بنجاح وغبطة.

الفصل السابع عشر: حول المناطق والأماكن التي يمكن أن يتوفر بها ملاحون مهرة للملاحة في المياه العذبة، مثلما في البحار.

لا شك أيها الأب الأقدس أن يسأل بعضهم، أو يتمنون السؤال: من أين يمكن العثور على مثل هذا العدد الكبير من البحارة للملاحة في المياه العذبة وكذلك في المياه المالحة، وأن يكونوا بالوقت نفسه صالحين لحمل السلاح، وجاهزين للقتال ببسالة على الأرض وعلى وجه الماء؟ وعلى هذا السؤال يمكن أن نجيب بإيجاز:

ليس مهماً من أي مكان أو من أية جهة قدم الذين يريدون الالتحاق بالجيش الذي تولت قداسكم حشده، المهم أن يكونوا صالحين، لديهم أهلية الملاحة فوق مياه البحار، وأن يكونوا قد جاءوا من مناطق مسيحية، وتمّ التعاقد معهم على أجر، ولقيادة السفن والاتجاه بها إلى حيث يناسب سوف نجد أعداداً وافرة من الرجال القادرين على الملاحة في البحار، أي في المياه المالحة.

وفيما يتعلق بالملاحين الذين برعوا بالملاحة في المياه العذبة، فيطيب لي

أن أعرض على قداستكم وأن أبين بتواضع: إنه من الممكن التجول فوق سطح المياه العذبة والمالحة بواسطة المراكب من البحر الأدرياتيكي، وخلال مناطق كثيرة من فاروجولي ومن ماركيا تروزينيا - Marchia Teruisina ومن مناطق كثيرة من لومبارديا، بل منها جميعاً تقريباً، ومن رومانديولا Romandiola، ومن جهة أخرى لتلطف قداستكم وتعيد إلى ذاكرتها أنه يوجد في المناطق والأماكن المذكورة، وفي أحواضها بحيرات كبيرة وصغيرة عديدة، نخص بالذكر منها: بحيرة بيناكوس Bi-nacus، التي ينحدر منها نهر مانزوم Manzum، ومن هذا النهر تتكون بحيرة مانتوا Mantuae، والبحيرة المدعوة بحيرة ليزوس Liseus، وهي في مقاطعة أسقف بركسيا Brixia، ثم بحيرة مرغوتي Mergoty، أو بحيرة ماريودكتوس Mariodictus، بسبب اتساع حجمها، وبحيرة كومي Comi وبحيرة لوغام Logam، وهناك أيضاً فيما وراء الألب بحيرة لوسيرا Lucera، وبحيرة كوستانتيا Costantiae، التي بسبب اتساعها سماها المحيطون بها البحر الألماني، وتوجد أيضاً في برغنديا بحيرة لوزان، وهناك أيضاً بحيرات أخرى كبيرة وصغيرة يعيش على ضفافها أناس هم بحارة صالحوون، ورجال حرب شجعان، بوسائل في القتال، والبحارة الذين يسكنون في هذه المناطق، أعدادهم كبيرة جداً، ومن المؤكد أنه يتوفر بينهم العدد المرغوب لا بل أكثر من المرغوب، ممن معدّ للملاحة في المياه العذبة وفي المياه المالحة، وهم أيضاً مدربون على السلاح، ووجدانهم المسلكي جيد، ومع توفر الأعداد المطلوبة في المناطق التي ذكرنا أنها تكثر فيها البحيرات، هناك مناطق مسيحية أخرى توجد بها أنهار ومستنقعات، وبحيرات كبيرة وصغيرة، ولا سيما في جهات الشمال حيث هناك أمم متعددة متنوعة، رجالها يتقنون الملاحة في المياه العذبة، من الممكن لقداستكم توجيههم إلى مصر، ليحققوا بعون يسوع المسيح ذلك المشروع الذي تتطلع إليه المسيحية جمعاء.

الفصل الثامن عشر: حول الملاحين القاطنين في الشطر الآخر من ألمانيا، وهم من حيث المبدأ صالحون لإعطاء إرشاداتهم، ومفيدون في الاسهام في إنجاح الحملة.

مع أنني سمحت لنفسي من قبل أن أذكر لقداستكم أشياء كثيرة عن الرجال الذين يصلحون لحمل السلاح، والذين هم شجعان ولديهم خبرة في الملاحة في المياه العذبة والمياه المالحة، تراني الآن أقدم على سبيل التذكرة بعض الاضافات لعلها تكون ذات فائدة ومنفعة للمشروع، أو أنها فاتتني ولم أذكرها فيما تقدم أعلاه، والذي أريد استدراكه وقوله هو: إنه يوجد في أقاليم ألمانيا أمم متعددة تسكن هناك، قد تكون نافعة جداً، لا بل ضرورية لتدعيم مشروع العبور إلى مصر، وأخص بالذكر سكان ترمارتي Tremarty، الذين يسكنون في الأطراف البحرية من أسقفية برمان Bremen ، ومثل هؤلاء الفريزيون الذين يسكنون الناحية السفلى من وستفاليا قرب البحر، وهناك أيضاً شعوب في مناطق دولاندا Dulanda وسيلاندا Sylanda ، يسكنون في الناحية السفلى من جهة البحر في إمارة غيلارا Gellera وغلوا Gleuae حيث من المفترض أن يكون هؤلاء القوم صالحين للمشروع ومفيدين كونهم لديهم مساكن في الجزر وعلى شواطئ البحر، وكذلك منهم من يقطن على ضفاف أنهار كبيرة، تمر عبر أقاليمهم وأراضيهم، ولذلك يفترض بهم إتقان الملاحة في المياه المالحة والعذبة على السواء، وهكذا نجد عندهم النصائح السديدة والعون الأفضل، وأيضاً هناك غيرهم في هولساتيا Holsatia ، وسكلويا Sclaiua ، إلى حيث ذهبت شخصياً، ومازال هناك مناطق كثيرة شهيرة، إليها يتوافد الكثير من الناس، حيث يبنون مساكن ممتازة على ضفاف الأنهر، وشواطئ البحيرات مثل: أمبورغ Amburg ولوبيك Lubek ، وفيزمار Visimar ، وروستوك Rostoc ، واكسوندس Xundis وغوسنبال Guspinal ،

وسكتن Sectin، ومن الممكن أخذ أعداد كبيرة من الناس الجديدين من هناك، وفي الحقيقة ليس من هناك فقط، لابل من داشيا، وسويتيا Suetia، ونورويا Norueia، حيث هناك الكثير من المساكن المقامة على شاطئ البحر، أو في الجزر، وفيها أعداد كبيرة من البحارة الأشداء البواسل، ولايساورني شك أنهم جميعاً يصلحون لمشروعنا العظيم، وفضلاً عن هذا كله هناك أيضاً في تلك المناطق أقاليم وبقاع أخرى كثيرة لم يتسع المجال هنا لذكرها بالتفصيل.

لذلك أغبط قداستكم وأنصحكم، بكل ما أمتلك من الاحترام، أن يجري التعاقد مع بعض هؤلاء القوم، لكن ليس معهم فقط وإنما مع غيرهم من أمثالهم من مختلف المناطق المسيحية، أي من حيث يتوفر وجودهم بعدد وافر، ويرسلون بعد التعاقد للعمل في سبيل إنجاز مشروع مصر مع ذلك الجيش، ويسهمون بتقديم النصائح الطيبة والصائبة، ولدي معلومات أكيدة تفيد بوجود أعداد كبيرة من الملاحين الكاثوليك يسكنون على الشواطئ من جهة البحر المحيط ومن جهة البحر المتوسط، ذلك أنني عندما كنت أكتب هذا الفصل، وصل عبر البحر من البندقية إلى ميناء كلوزا Clusa في فلاندرز غلايين، وقد عرفت منها عبر مصادر موثقة، كما أنني شاهدت بأم نفسي أن شواطئ ألمانيا حيث يقع الميناء المذكور شبيهة جداً بشواطئنا في البندقية، ووجدت أن سكان تلك الأرض يمكن عددهم أشداء جداً وشجعاناً في استخدام السلاح، وأكثرهم من البحارة، والباقون فلاحون ملتزمون بفلاحة الأرض وزراعتها، والبحارة مهرة ومؤهلون للعمل، ومن جهة أخرى أحوالهم المادية جيدة، وهذا مستحسن، ويمكنهم أن يتجاوبوا بدافع من التقوى كبير لدعم مشروع الأرض المقدسة، وأعتقد أنهم إذا اتفقوا مع أهالي البندقية على احتلال بلاد مصر، فإن ذلك سوف يكون رائعاً، مثلما حدث في حملة صليبية تقدمت، عندما جرى الاستيلاء على

القسطنطينية على يد كونت فلاندرز، وغيره من بارونات فرنسا وبيرغندي، مع عدد من النبلاء، والمركيز دي مونتفرات، وكان ذلك بمعونة البنادقة، وقد عقدت وقتذاك أواصر صداقة متينة بين كونت فلاندرز والبارونات والنبلاء من جهة وأهل البندقية من جهة أخرى، ولم يكن ذلك بلا فائدة، لأنه بعد الاستيلاء على القسطنطينية، وبعد وفاة ذلك الكونت، وعلى الرغم من توالي الحكام من بعده فإنه لما انتقل حكم القسطنطينية أخيراً إلى السيد بلدوين، الذي كان ما يزال يافعاً، عقدت معاهدة جرى توثيقها بالأيمان، بموجبها انتقلت السلطة إليه من ابنة الامبراطور إكزاغوراروس Exagoravus، وكان هذا الامبراطور في ذلك الحين رجلاً غنياً جداً وقوياً، فقد خطبت ابنته إلى ذلك الشاب، وبهذه الخطبة عظم شأن بلدوين وترسخت سلطته وتمتنت، وكان هذا الامبراطور قد قطع عهداً لبلدوين أنه سيستعيد له كل أراضي بيزنطة على حسابه وبوساطة رجاله، وهي الأراضي التي كان أسلافه قد خسروها في المناطق الغربية، ووقتها خشي البارونات من أن يقوم بلدوين، بعد أن يرسخ سلطانه فينقلب عليهم بسبب الإهانة الكبرى التي اقترفوها بحق سلفه، فتآمروا ضده، ونصحوه بأن يرفض الزواج من ابنة الامبراطور، وأن يتزوج من ابنة جين ملك القدس وقتذاك، ولم يتنبه بلدوين إلى هذه الخديعة الماكرة، فتعرف إلى تلك الابنة، وأخذ بتلك النصيحة دون أن يستشير أحداً، وبعد ذلك توجه البارونات وأجلسوه على عرش القسطنطينية، فانزعج الامبراطور إكزاغوراروس كثيراً مما حدث وغضب، فزوج ابنته إلى ملك الروم الذين هم في جهة الشرق، وبناء عليه تم التحالف بين الاثنين ضد بلدوين وضد البنادقة براً وبحراً، وتقدمت جيوشهما ضد بلدوين وضد أهل البندقية، واستولت هذه الجيوش على مدنها وعلى جميع حصونهم تقريباً، ولم يبق لهم سوى حصون القسطنطينية، ونكلوا به بمختلف الطرق لمدة طويلة بشتى السبل، حتى قام أعيان القسطنطينية ضده وأرغموه على تسليم

ابنه فيليب ورهنه مقابل مبلغ محدد من المال، ولكي يحفظ بضمانة أكبر أرسلوه فيما بعد إلى البندقية، واضطر بلدوين إلى تجريد بعض قصوره التي كانت مغطاة بالرصاص منذ زمن بعيد، كما أنه أرغم على القيام بأعمال غيرها لا تتناسب مع كرامته كإمبراطور، وذلك في سبيل أن يعيش.

أما أهل البندقية، فإنهم طيلة الوقت الذي رزح فيه الإمبراطور بلدوين تحت نير الفقر، وتعرض فيه أيضاً لهجمات الأعداء فقد دافعوا عن القسطنطينية على نفقتهم، وكان ذلك خدمة لمصالحهم من جهة، ومن جهة ثانية لصدائقة، واستمر ذلك حتى خسروا تلك المدينة، وعمل أهل البندقية بعد سقوط القسطنطينية. بإخلاص لمدة ثلاثين سنة وأكثر، في سبيل استرجاعها، واستنجدوا لتحقيق ذلك بجميع ملوك بلدان الغرب وحكامها تقريباً، وخاصة بألفونسو ملك قشتالة، لكنهم لم يحصلوا منه على أي تنفيذ، وتحالفوا أخيراً من أجل هذا الغرض وتعاقدوا مع شارل الأول ملك صقلية، الذي لم يتمكن من تلبية طلبهم بسبب خسارته لصقلية، ثم كان أن تحالفوا مع شارل دي فالويس، حيث كان مرشحاً لتولي الإمبراطورية بعد موت زوجته، إنما هنا كانت المحصلة أيضاً ضئيلة أو شبه منعدمة، ومع هذا استمر أهل البندقية لوحدهم أحياناً وأحياناً أخرى مع حلفائهم يحاولون استرداد الإمبراطورية من البيزنطيين ويشنون ضدهم الحملات المتوالية.

ويتضح من جميع ما تقدم مدى أواصر الحب الوثيق ما بين التوتون (الألمان) والفرنجة من جانب وبين أهل البندقية من جانب آخر، فهم شاركوا من قبل في تلك الحملة الصليبية، ولذلك من الموائم قدوم أهل المناطق الألمانية المشار إليها إلى البندقية، ومن هناك يعبروا مع البنادقة، وإذا أرادت شعوب أخرى أن تصنع صنيعاً طيباً، فما عليها سوى التفاهم مع الألمان وأهل البندقية، ومن ثم الانتقال بوساطة غلايين أهل

البندقية، وسيكون هذا مفيداً لرجال هذه الشعوب، علماً بأنهم يمكنهم أن يتركوا نساءهم وأولادهم في البندقية، لكن أجد من الضروري أن أبين إحدى سمات ذلك الشعب الألماني حتى يمكن التعامل معه بسلامة، فالألمان شديداً التضامن فيما بينهم، لأنهم ولدوا في مناطق باردة، لهذا يتوجب أخذ الحيلة واعتماد اليقظة، أنهم إذا ما انتقلوا إلى منطقة حارة، أن يقوموا بسبب عظيم تقواهم، وبسبب إرادتهم في أن يرتحلوا ويبحروا على شكل جماعات كبيرة، فيثور فيهم حب السيطرة والطمع، وقد ينجم عن هذا نتائج غير محمودة وتكون هناك بلبلة كبيرة، لاسيما أن أهل البندقية يريدون أن يكونوا معهم شركاء لا أسياد، ويستطيع القائد العام — بنعمة من الرب — لكونه مستقيماً وحكماً أن يتخذ ما يلزم من تدابير، وأن يوجد العلاج المناسب لهذه المسألة.

وكنت لا أريد في الوقت الحاضر ايضاح حكاية الإهانة التي حصلت، ولا سببها، إذ لا دخل لها بهذا الموضوع، لكن عدت ضرب هذا المثل يمكن أن يفيد في المستقبل، لذلك حكيت على حاشية هذا الكتاب وهامشه:

كان في امبراطورية القسطنطينية بارون كبير وشريف من سلالة أمراء بيرغندي، وكان قد خطب سيدة شريفة من أسرة كبيرة، وكانت على قسط كبير من الجمال، وقد وعدّها بالاقتران بها، وكان امبراطور القسطنطينية، المدعو هنري، وهو أخ كبير لبلدوين، لما رأى جمالها، ولأنها كانت جذابة في نظر الجميع، قد اتفق مع أمها على تزويجها إياها، وفضلت الأم — بدافع من عاطفة الأمومة — أن يكون صهرها امبراطوراً على أن يكون باروناً، وهكذا نفذت رغبة الامبراطور، وقد أثار هذا حفيظة البارون، فأقدم ليلاً مع أقربائه وأصدقائه على اقتحام القصر عنوة، وقبض على الامبراطور الصهر وأغرقه في البحر، وترك بذلك عرش الامبراطورية شاغراً، وهكذا أصبحت نار صغيرة ناراً

عظيمة، ولهذا عندما مات هنري لم يجر أي انتقام لهذا العمل الرهيب، وورث بلدوين عرش الامبراطورية، ولم ينل البارونات الذين شاركوا في العملية العقاب، مع أنهم استحقوا ذلك، وجرت فيما بعد مفاوضات، سوف نأتي على ذكرها في سياق هذا الكتاب.

الفصل التاسع عشر: حول التبشير من أجل حملة صليبية عامة، وأنواع العساكر اللازمين لاحتلال مصر.

بعد أن يكون الجيش الممول من قبل الكنيسة المقدسة، قد احتل أرضاً على شواطئ مصر، وبعد أن يكون شيد بعض المساكن، واتبع المنهاج والأسلوب الذي ذكرناه من قبل، يحتاج هذا الجيش إلى الدفاع عن وجوده، وأن يؤمن لنفسه المواد الغذائية والسفن وكل ما سوى ذلك مما يحتاجه المسلحون لأنفسهم، ولباقي الحشود التي ستلحق بهم لتمدهم بالدعم، وفي هذه الحقبة من الزمن يمكن لقداستكم الاعلان في أثناء احتفال رسمي كبير عن الدعوة إلى حملة صليبية، وأن ينادى بهذه الدعوة في جميع أنحاء العالم بين أتباع المسيح كافة وفي هذه الأثناء سيكون — إذا وافقت قداستكم — مفيداً أن تترافق الدعوة لحمل الصليب بأساليب صالحة وبطرائق عملية للاسراع بجباية الأموال دونها إبطاء، سواء من الأمراء أو من البارونات، أو من جماعات المدن، وأن يفرض الدفع أيضاً على الجميع بلا استثناء، وخاصة على الذين استثمروا أو ما زالوا يستثمرون أوقاف الكنيسة، سواء أكانوا من رجال الدين أو من العلمانيين، وذلك بهدف إنجاز هذا المشروع المقدس.

وسبب هذا واضح، فإذا كان على الصليبيين العبور — كما قلنا — إلى شاطئ مصر، فإن الذي قد صرف على العبور المتقدم لن يكون كافياً، ويلزم لهذا العبور عدداً كبيراً من أرباب السفن وملاحيها، يكونون قادرين على قيادة السفن والابحار بها، بعضهم في المياه العذبة، وبعضهم الآخر في المياه المالحة، ويحتاج هذا الأسطول أيضاً إلى عمال

تجذيف بعدد كبير، ذلك أن عمل التجذيف مهمة شاقة، يتحمل المجذفون من جرائها متاعب لا تطاق، ولذلك لا يؤخذ لمثل هذا العمل الذي لا يطاق، إلا من كان منتخباً ومختاراً، شريطة أن يؤمن له بالتزام ما يرضيه من أجرة.

ويفترض توفر رماة قسي عقارة صالحون وبعدهد كبير جداً، علماً بأن الفوارق بين القسي العقارة والرماة العاديين كبير جداً، فإن رماة القسي العقارة يشدون القوس بقوة، ويرمون نشابهم إلى مسافات بعيدة، ويسددون ضربات شديدة، تنقض كالعاصفة ويصيبون أهدافهم بجراحة أو يقتلونهم، ونادراً ما تذهب رماياتهم عبثاً، وتلقي رشقاتهم الرعب والهلوع في قلوب أعدائهم، وعلى عكسهم الرماة الخاملون وغير المدربين، تراههم غير قادرين على شد أوتار قسيهم القوية، ويضعفون السهام سدى، وإذا قدر لهم الرماية تأتي رماياتهم ضعيفة، مما يجعل خصومهم يزدادون جرأة، ويتشجعون وينقضون على مثل هؤلاء بإقدام كبير، ومن الممكن أن نقول القول نفسه عن حامي الرماح والحراب، وكما تقدم وقلنا يحتاج ذلك الجيش إلى عدد كبير ممن يصنعون القسي، ومن المعلمين المهنيين، ومثل هذه العناصر لا يمكن الحصول عليها من دون بذل للمال، كونهم أناس فقراء، وينبغي التنبيه إلى عدم التعاقد مع مثل هؤلاء، حتى وإن طلبوا ذلك، إذا ما انخرطوا في جيش الصليبيين بسبب الفقر والفاقة، وإذا جرى التعاقد مع هؤلاء فليكونوا الأقلية بين من يحتاجهم الجيش، هذا وهناك حاجة ماسة للتعاقد مع جماعات من الذين يعرفون جيداً أساليب حفر الأرض، أما بشأن الفرسان فأنا أعتقد — بعد التمعن — أن العدد الأكبر منهم سيكون من النبلاء والأشراف الجديرين بحمل راية الصليب، وبالالتحاق بالجيش المذكور، وبدعم مهمته، ومنطقياً لا يمكن بالطبع إصدار الأوامر إلى هؤلاء من قبل المسؤولين عن الجيش بالطريقة نفسها فيما لو كانوا يتقاضون أجورهم

من أموال الكنيسة، ولا ينطبق هذا على هؤلاء النبلاء فقط، بل على من هم من الطبقة الشعبية أيضاً، بما أنهم تطوعوا بمطلق إرادتهم للحاق براية الصليب، فهؤلاء يتمتعون بالحرية في ذهابهم وإيابهم، وأقول هنا بكل احترام، مذكراً قداستكم وتقواكم أن من أراد أن يحمل الصليب ويبحر على نفقته الخاصة، ثم أبحر مع جيش الكنيسة، عليه برأيي أن يعطي إلى الكنيسة المبلغ الذي كان عليه أن ينفقه، أو أن يعطيه لمن جرى تكليفه من قبل الكنيسة لجمع ما يلزم من مال للأجور وللأعطيات، وأن يمنح مقابل ذلك صك غفران حسبما ترتئي قداستكم منحه في مثل هذه الظروف.

وفي العادة يصغي العساكر إلى الأوامر الصادرة إليهم من القائد ويطيعونها، أكثر مما لو كانوا متطوعين صليبيين، وإذا كان القائد صاحب فطنة — وهذا هو المطلوب — وإذا كان حسن الإرادة، وكانت العناصر المعهود إليه بقيادتها مطيعة، فسيكون ضرباً من المستحيل أن تخفق نيته وتجب مقاصده، وإذا حدث أن من معه أو بعضاً منهم لم يؤدوا الطاعة له بسهولة، وقتها تتحول عدم الطاعة إلى كارثة كبيرة، ينجم عنها خطر جسيم، فلتدبر عنايتكم هذا الأمر حسبما ترونه مناسباً.

الفصل العشرون: حول عدد الرجال اللازمين لكل غليون، لتأمين الحماية الموائمة له، ووظائف هؤلاء الرجال وأعمالهم، والمرتبات، والوقت، ونفقات الأطعمة اللازمة لثلاثمائة فارس، وأجورهم.

يلزم لتجهيز مناسب لغليون واحد مائتين وخمسين عنصراً، يتقاضون الأعطيات، ويكونوا موزعين من أجل تنفيذ هذه المهمة كما سأذكر:

أولاً: يحتاج كل غليون إلى قبطان واحد، راتبه الشهري المعقول خمسة عشر سولدي كبار.

ثانياً: يحتاج إلى ثمانية ملاحين الراتب الشهري لكل منهم سبعة سولديات كبار أي ما يساوي ستين كروسي Grossi كبار (قطع فضية كبار).

ثالثاً : من المناسب تماماً أن يكون في كل غليون نجار واحد، وعامل طلاء ومعجنة، لكن لحسن سير الأوضاع في الغلايين يفضل أن يكون في كل منها نجارين وعاملي طلاء ومعجنة، ويكون راتب هؤلاء شهرياً ثلاثين كروسي كبار من عملة البندقية.

رابعاً: من المستحسن أن يكون في كل غليون اثنان من الكتاب، يتوليان توزيع الطعام على جميع من في الغليون وذلك في الزمان والمكان المحددان، واثنان غيرهما أيضاً من الكتاب يتوليان حراسة الأسلحة وتوزيعها على كل عنصر من العناصر، ويكون الراتب الشهري لكل واحد من هؤلاء سبعة سولدي ونصف السولدي كبار، أي ما مجموعه ثلاثون سولدي كبار شهرياً، ولا يجوز لجميع هؤلاء، أي القبطان، والبحارة، والكتاب والنجارون وعمال الطلاء والمعجنة، المطالبة بأية علاوة غير أجورهم، لا شخصياً ولا عن طريق غيرهم، أو بفرض أية أتاوة مهما كانت الطرائق أو المسوغات، والمفترض تطبيق شرط الاكتفاء بالراتب، وذلك تحت طائلة الاقتصاص من أموالهم ومنهم شخصياً.

خامساً : من الموائم أن يكون في كل غليون طباح واحد، براتب شهري مقداره أربعة سولديات كبار، ليعد الطعام إلى كل من على الغليون الذي يكون فيه.

سادساً: ينبغي أن يكون على كل غليون خمسون من رماة القسي العقارة، براتب شهري للواحد منهم خمسة سولديات كبار، أي ما مجموعه شهرياً مائتين وخمسين سولدي كبار، وأن يكون هناك أربعة ينفخون بالأبواق والنفر والمزامير، ويحسنون الضرب على النقارة والطلبل

والكوسات، وأن يكون هناك أيضاً رجل آخر يتكفل بضبط المجاذيف وإصلاحها.

سابعاً: من المستحسن أن يكون هناك أيضاً عشرة مجذفين سريعين عند مقدمة كل غليون، براتب شهري مقداره ستة سولديات كبار لكل واحد منهم، أي ما مجموعه ستين سولدي كبار.

ثامناً: من المناسب أن يكون هناك عشرين مجذفاً سريعاً للتجذيف وهم جالسون على المقاعد التي في مقدمة الغليون، إذا توفر المجال هناك، ولكل واحد منهم راتب شهري مقداره خمسة سولديات كبار، أي ما مجموعه مائة سولدي كبار.

تاسعاً: أن يكون هناك ثلاثين مجذفاً من الأشداء أيضاً، لكل منهم راتب شهري مقداره خمسة سولديات كبار، أي ما مجموعه مائة وخمسين سولدي كبار من عملة البندقية.

عاشراً: أن يكون هناك أيضاً مائة وعشرين مجذفاً، براتب شهري لكل واحد منهم قدره أربعة سولديات كبار أي ما مجموعه أربع مائة وثمانين سولدي كبار، وهكذا يغدو الجميع على العموم، ملزمون جميعاً بالتجذيف عندما تصدر الأوامر إليهم بذلك، ومن المناسب تجهيز واحد من بين الغلايين بنظام التجذيف الثلاثي.

حادي عشر: من المفيد اكتراء رجلين مقابل راتب شهري مقداره عشرة سولديات كبار ونصف السولدي، تكون مهمتها القيام بتنفيذ أية مهمة يرتئها القائد أو القبطان في الغليون، وما يراه مفيداً أو ضرورياً لصالح الجيش، وهكذا يكون مجموع الرجال اللازمين على متن كل غليون مائتين وخمسين رجلاً، وكما قلنا من قبل تبلغ رواتبهم الشهرية سبعين ليبرة كبار من عملة البندقية، ويكون بذلك مجموع الرواتب لاثني عشر شهراً لكل غليون حسبائلي:

يتقاضى القبطان تسع ليرات كبار، ويلزم للملاحين الثمانية ست وثلاثين ليبرة، وللكتاب الأربعة ثمان عشرة ليبرة، وللنجارين الاثنين تسع ليرات، ولعاملي الطلاء والمعجونة تسع ليرات، وللطباخ ثمانية وأربعين سولدي كبار، وللرماة الخمسين مائة وخمسين ليبرة، وللعشرة المجذفين السريعين ست وثلاثين ليبرة، وللعشرين من المجذفين السريعين ستين ليبرة كبار، وللثلاثين من المجذفين العاملين في المؤخرة تسعين ليبرة، وللمجذفين المائة والعشرين مائتين وثمانين ليبرة، وأيضاً للرجلين الموضوعين تحت تصرف القائد أو القبطان اثنتي عشرة ليبرة، وأحد عشر سولدي كبار.

وعلى هذا يكون المجموع العام للرواتب لمن على متن الغليون المذكور سبعمائة وعشرين ليبرة كبار لمدة اثني عشر شهراً، ما عدا نفقات الأكل، ويعادل هذا سبعة آلاف ومائتين من الفلورينات، إذا حسبنا أن كل فلورين يساوي سولدين كبار.

راتب طواقم عشرة غلايين في الشهر

١٠ — قبطان أجرهم في الشهر الواحد	سبع ليرات كبار ونصف الليبرة
٨٠ — ملاح أجرهم في الشهر الواحد	٣٠ ليبرة كبار
٤٠ — كاتب أجرهم في الشهر الواحد	١٥ ليبرة كبار
٢٠ — نجار أجرهم في الشهر الواحد	سبع ليرات كبار ونصف الليبرة
٢٠ — عامل طلاء ومعجونة أجرهم في الشهر الواحد	سبع ليرات كبار ونصف الليبرة
١٠ — طبّاخين أجرهم في الشهر الواحد	٤٠ سولدي كبار
٥٠٠ — رماة أجرهم في الشهر الواحد	١٢٥ ليبرة كبار
١٠٠ — مجذف سريع أجرهم في الشهر الواحد	٣٠ ليبرة كبار

٢٠٠ —	مجدف سريع أجرهم في الشهر الواحد	٥٠ ليبرة كبار
٣٠٠ —	مجدف في المؤخرة أجرهم في الشهر الواحد	٧٥ ليبرة كبار
١٢٠٠ —	مجدفون أجرهم في الشهر الواحد	٢٤٠ ليبرة كبار
٢٠ —	رجل تحت تصرف القائد أجرهم في الشهر الواحد	عشر ليبرات كبار ونصف الليبرة

مجموع النفقات التي ذكرت أعلاه يساوي ستمائة ليبرة، ما عدا الأكل، ويساوي هذا ستة آلاف من الفلورينات الذهب.

راتب طواقم عشرة غلايين في السنة الواحدة

يتبين مما ورد أعلاه أن جميع رجال الغلايين العشرة يلزمهم رواتب لمدة اثني عشر شهراً مبلغ قدره الإجمالي سبعة آلاف ومائتي ليبرة كبيرة، أي ما يعادل اثنان وسبعين ألف فلورين ذهب.

راتب طواقم ستين غليوناً في الشهر الواحد

٦٠ — ليبرة	سيكون الراتب المعطى إلى ستين قبطاناً
١٨٠ — ليبرة	سيكون الراتب المعطى إلى أربعمئة وثمانين ملاحاً
٩٠ — ليبرة	سيكون الراتب المعطى إلى مائتين وأربعين كاتباً
٩٠ — ليبرة	سيكون الراتب المعطى إلى مائتين وعشرين نجاراً
	وإلى مائتين وعشرين عامل طلاء ومعجونة
١٢ — ليبرة	سيكون الراتب المعطى إلى ستين طباحاً
٧٥٠ — ليبرة	سيكون الراتب المعطى إلى ثلاثة آلاف من الرماة
١٨٠ — ليبرة	سيكون الراتب المعطى إلى المجذفين السريعين الأوائل
٣٠٠ — ليبرة	سيكون الراتب المعطى إلى المجذفين السريعين الباقين

سيكون الراتب المعطى إلى ألف وثمانمائة مجذف في المؤخرة ٤٥٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى سبعة آلاف ومائتي مجذف ١٤٥ — ليبرة كبار

وتعطى هذه المبالغ في شهر واحد إلى جميع المذكورين حسبما تقدم
أعلاه، ويلزم إلى المائة والعشرين الذين تحت تصرف القائد ثلاث
وستون ليبرة، أي عشرة سولدي كبار ونصف سولدي، كل شهر
للواحد، وعلى كل واحد منهم مساعدة الآخر، فيكون العدد الاجمالي
للغلايين الستين خمسة عشر ألف مقاتل، يلزمهم شهرياً ثلاثة آلاف
وستمائة ليبرة كبار أي ما يعادل ستة وثلاثين ألف فلورين ذهب،
بمعادلة سولديان كبار لكل فلورين.

راتب طواقم الغلايين الستين سنوياً

ويتضح لنا كذلك أن راتب اثني عشر شهراً لطواقم ستين غليوناً
سيكون مجموعه ثلاث وأربعون ألفاً ومائتي ليبرة كبار، أي ما يعادل
أربعمائة ألف واثنان وثلاثين ألف فلورين، كما بينا أعلاه، أي أن التكلفة
اليومية مائة وعشرين ليبرة كبار أي ألف ومائتي فلورين ذهب.

راتب ثلاثمائة فارس وخدمهم

هناك حاجة إلى ثلاثمائة فارس لكل واحد منهم خادمان مدربين على
السلاح براتب مقداره أربعمائة سولدي كبار لكل واحد، وتعادل
الأربعمائة سولدي كبار مائتي فلورين ذهب، وذلك دون أن نحسب
نفقات العلف للخيول — إلا إذا نفقت أثناء الجري أو في البحر —
ويلزم للخيول عن اثني عشر شهراً ستة آلاف ليبرة كبار، أي ما يعادل
ستين ألف فلورين، وعليه يكون مجموع ما يدفع للفرسان مع خدمهم
خمسماية ليبرة كبار، وهي تساوي خمسة آلاف فلورين ذهب.

ويتضح مما تقدم أن نفقات الفرسان في اليوم الواحد سوف تبلغ ١٦

ليبرة و٢١٣ سولدي و٤ دينار كبار، وهي توازي ١٦٦ فلورين، و١٦ كروسي (قطعة فضية كبيرة)، وعليه يمكن القول إن كل فارس من الفرسان المتقدم ذكرهم سيتقاضى يومياً مع خادميه ٣١٣ كروسي من عملة البندقية، وبذلك تكون كلفة الخمسة عشر ألفاً من المقاتلين مع الفرسان الثلاثمائة وخدمهم ٤٨,٢٠٠ ليبرة كبار، أي ما يعادل ٤٨٢٠٠٠ فلورين، وكل فلورين يساوي ٢ — سولدي.

ويفيد كذلك كثيراً ذلك الجيش، أن يصطحب على سبيل الاحتياط عدداً من الأساقفة والكهنة العلمانيين، والرهبان الواعظين، والرهبان الدومنيكان، والرهبان الفرنسيسكان والرهبان الكرملين، ورهبان غيرهم من بقية الطوائف، وكما ترتئي قداستكم، على أن يصل مجموع عدد هؤلاء إلى المائة، ويحصلون على طعامهم من الغلايين، ومما يقدمه لهم الشعب من هبات أو تبرعات، يحسب بمثابة راتب لهم، ويكون ما يقدم لهم من الطعام ستة عشر ألف وجبة تكلف ثمانمائة ليبرة كبار، أي ما يعادل ثمانية وخمسين ألف فلورين ذهب، ويكون هذا المبلغ هو إجمالي النفقة للسنة كلها، حيث يكلفون كلهم تسعة آلاف وستمائة ليبرة كبار، أي ستة وتسعين ألف فلورين ذهب، فيكون هذا مجموع راتب أولئك الناس لمدة اثني عشر شهراً فقط، لأن ذلك المجموع يكلف ٥٨,٨٠٠ ليبرة كبار، أي ما بين ٩٥ ألف و ٩٤ ألف فلورين ذهب.

وينبغي التنبيه أيضاً إلى أن من الضروري أن يكون بين هذه المجموعة من يعرف ويلتزم بحفر الأرض، وليصير ممكناً اكتشاف الماهرين منهم، يعطى إلى هؤلاء علاوة على رواتبهم لكل واحد منهم ١٢ — كروسي شهرياً على الأقل، ويجب أن لا يقل عدد هؤلاء عن ألف حفار، يتقنون أعمال الحفر كما قلنا، ويكلف هؤلاء سنوياً ٦٠٠ ليبرة كبار، أي ٦٠٠٠ فلورين ذهب، وكذلك للأعلاف اللازمة للخيل، والبالغة أربعة جوالق من الشعير كل شهر، أي ما يعادل سالماً واحدة وثلاث من

عيارات أبوليا، أي ما مجموعه ١٨٠٠ سالما، تكلف حسب السعر المعقول ١٨٠٠ فلورين ذهب، أي أن الثمن لكل سالما فلورين واحد ذهب، وهي واصله إلى مصر مسلمة على شاطئها، وهناك القش الذي يحتاجه أولئك الرجال لنومهم ولخيولهم، وكذلك الحطب اللازم للجيش وللوقود، وذلك حسبما يقرر إرساله قائد الجيش، فإن قيمة ذلك تبلغ ٣٢٠٠ فلورين ذهب.

وهناك مسألة المؤن التي على القائد القيام بتخزينها احتياطياً، فهذه ستكلف ٢٠٠٠ فلورين ذهب سنوياً، وبعدما تولينا تبيان كل نفقة على حدة، سوف يكون الانفاق الإجمالي العام ٦٠٠,٠٠٠ فلورين ذهب، أي ما يعادل ٦٠,٠٠٠ ليبرة كبار، وذلك باستثناء عطاء القائد العام، فهذا يترك تقديره لقداستكم.

الفصل الحادي والعشرون: إيضاحات وتنبيهات، وأوامر، وإجراءات احتياطية متعلقة بذلك الجيش.

ونحن إن كنا قد ذكرنا في الفصل المتقدم أسطولا مكوناً من ستين غليوناً، فهذا لا يعني أن كل الرجال يجب أن يوضعوا داخل تلك الغلايين الستين، بل في داخل خمسين، إذا ما جرى اعتماد النمط الثلاثي للتجديف، ومن بقي سواء من الرجال أو من الفرسان، فينبغي عليه الانضمام إلى السفن العادية، التي أشرنا إليها في الفصل الثاني عشر، وإذا ما عمل بالرأي القائل، بأن يكون المجذفون أربعة أربعة على نسق واحد، على مقعد واحد، وهذا أسلوب قد امتحن — كما ذكرنا — ووجد ناجحاً، وينتج عن اعتماد هذا الأسلوب، لابل يلزم أن يوضع جميع الرجال المذكورين في أربعين غليون، ويجري تنظيم الأسطول العادي حسبما يناسب، أي أن تحمل عشرين من السفن الكبار، ذوات الحجم الكبير، وتدبر شؤون ثلاثمائة رجلاً، وتحمل وتدبر شؤون مائتين وخمسين رجلاً إلى مائتين وسبعين رجلاً في السفن الخمس الأصغر

بشكل معقول، ويكون لهذه السفن، أي للصغيرة مائتين وعشرين مجذف، يجلسون أربعة أربعة على نسق واحد، فوق مقعد واحد، وينصرف الباقيون إلى أعمال أخرى.

وقد يلاحظ أنه في الجزء المتقدم لم نأت إلا على ذكر اثني عشر شهراً في السنة، وأغفلنا ذكر الخمسة أيام وربع اليوم الإضافية فيما يتعلق بالأجر المالي والمعيشة، وسبب ذلك هو مايلي:

أولاً : حسبت أسعار نفقات المعيشة ليس على أساس السعر المتداول فقط بل على أساس السعر الأعلى، بحيث أن الأشهر الاثني عشر المذكورة، حسبها رتبناها على مدار السنة تكفي للسنة كلها، وتزيد بوفرة.

والسبب الثاني هو أن القطاع الرسمي في البندقية يحسب الشهر على أساس ثلاثين يوماً، أما في القطاعات غير الرسمية، فإن الناس الذين يتولون شحن السفن بالرجال يذكرون في العقود بشكل صريح أنهم يحسبون جميع الأشهر على أساس أن الشهر ثلاثة وثلاثين يوماً، وإذا زاد في نهاية العام يوماً أو ثلاثة، فإنهم لا يدفعون أجور تلك الأيام الزائدة، وهذا ما تصنعه كومونة البندقية أيضاً، فضلاً عن هذا ينبغي ألا يغرب عن البال، أن الذين يتقاضون أجورهم من الكنيسة الأم المقدسة، يرمون عقودهم ليس حسب الأشهر، بل حسب السنوات، وهنا إذا رأيت قد استكم أن بالإمكان حساب رواتب اثني عشر شهراً حساب سنة، فليكن.

هذا ويبقى دوماً من صلاحيات القائد صرف بعض الرجال من الخدمة، أو الاحتفاظ بهم، حسبما يرى ذلك مناسباً، وسبب ذلك هو — على سبيل المثال — أن عنصراً مشاعباً في الجيش يعد مذنباً مثل العنصر الخائن، فمشاعب واحد، قد يثير البلبله فجأة في أوساط الجيش كله، بدون حساب، فعلى القائد المتحلي بالحكمة أن يأخذ بأسباب

الحيطة الكبرى في هذا المجال.

وتجدر الإشارة إلى أنه بعدما يبحر الجيش من الغرب، ويأخذ طريقه، لا بد من تأمين المعاشات للأفراد لمدة أشهر عديدة، حتى يمكن اجتذابهم بسهولة من بيوتهم، ولتتمكنوا من الإفادة مما هو ضروري، وتأمين ما هو لازم لهم في الحاضر وفي المستقبل، وينبغي أن تتمتع الأموال التي يتقاضونها بالحماية والحيطة المطلوبة لكل من يتقاضى الرواتب، ومفيد إعطاء الرواتب في البداية شهراً شهراً إلى أن يتمكنوا من ترتيب أمورهم على شواطئ مصر، وبعد هذا لا بأس بدفع الرواتب كل ثلاثة أشهر.

ويتوجب اعتماد التفتيش اليومي العام، على مدى أيام الشهر، ولا سيما في الليل حسبما جرت العادة، وفي أثناء هذا التفتيش ينبغي إنزال العقوبة بحق من ثبت بحقهم المخالفة.

وينبغي توزيع المائة والعشرين رجلاً الموضوعين تحت تصرف القائد العام، حسبما يلي، إذا ما وافق هو على ذلك.

- ١ — أدميرال (أمير ماء) بحري: إثنان.
- ٢ — مستشارون يستعين برأيهم: ستة.
- ٣ — مفتشون يراقبون الطعام والكتاب: أربعة.
- ٤ — مشرفان رئيسان مسؤولان مباشرة عن الأسلحة.
- ٥ — ثلاثة أطباء صحة، وثلاثة جراحين.
- ٦ — حرفيون من الدرجة الأولى، ومعلمون في النجارة.
- ٧ — حرفيون اختصاصهم قطع الأخشاب: أربعة.
- ٨ — حرفيون في الأقمشة وصنع الأشرطة: ثمانية.

- ٩ — حرفيون بالجلود، ينبغي معرفتهم بصناعة أغطية للرأس.
- ١٠ — حرفيون يتقنون صناعة المجاذيف، وأن يعرفوا أيضاً صناعة أقنية الرماح والحراش وغير ذلك من الأدوات اللازمة للجيش: خمسة عشر.
- ١١ — حجارون يحسنون نقب الحجارة، وحفر الأنفاق تحت الأرض، ووضع قواعد حجرية للآلات وغير ذلك مما يحتاجه ذلك الجيش: عشرة.
- ١٢ — صانعوا نشاب: ويتوجب اختيار هؤلاء من أمهر المعلمين أينما وجدوا بحدود: عشرة.
- ١٣ — موسيقيون ينفخون بالأبواق والنفر، ويقرعون على الطبول، ويضربون على النقارات ويحسنون استخدام سائر الآلات الموسيقية الناعمة مثل الرباب والقيثارة، والكمنجة الكبيرة، بقدر ما يرى أن في ذلك فائدة للجيش: عشرون.
- ويجري توزيع العشرين المتبقين من المائة والعشرين إما على أعمال أخرى أو يجري تحويلهم إلى مساعدة هؤلاء المائة المذكورين أعلاه.
- وبما أنه جرت الإشارة في الفصل المتقدم إلى توزيع حوالي ستة عشر ألف حصة، ينبغي التنبه إلى أنه مع اقتراب نهاية السنة، أو لدى مرورها، وبعدما يكون القوم قد نزلوا على شواطئ مصر، واستولوا على الأرض، وتمركزوا فيها، سيتدافع الناس إلى هناك من مختلف المناطق، وستكون أعدادهم كبيرة، يريدون السكنى قريباً من تلك النقاط، خاصة وأنهم لن يشكوا أنه ستقدم إليهم حصة من الطعام تؤمن معيشتهم، مع تدبر ما يلزمهم من خدمات، ولا شك أن هؤلاء سوف يفيدون، وستكون الحاجة كبيرة إليهم سواء للقيام بحراسة الأماكن الدفاعية، أو بتقديم الخدمات لرجال ذلك الجيش، أو القيام بما يلزم من أعمال

محتاجة ومفيدة، وبموجب ذلك سوف يتقاضى هؤلاء الناس جميعاً، أو أكثرتهم الأجور، وسيكون بإمكانهم البقاء مع الأسطول، لإلحاق المزيد من الأضرار والأذى بالأعداء، ولحراسة البحر والأنهار والبحيرات، وأخيراً سوف تنظر قداستكم بفطنة إلى كل ما هو مناسب عمله، وإلى إعطاء القائد العام ما تراه قداستكم موثماً من تعليمات وتوجيهات.

الفصل الثاني والعشرون: حول صناعة الأعتدة، والأسلحة، وخاصة آلات الرمي، والمقذوفات، وكل ما من شأنه تطوير تلك الأسلحة.

كنا قد شرحنا أعلاه وقدمنا وصفاً مجملًا ومفصلاً لأي نوع من الناس هناك حاجة لإنجاز هذا المشروع المقدس، وكذلك بينا الذي يحتاجه الأسطول المرتقب، وبعدهما تكلمنا عن الأسلحة اللازمة لهذا الأسطول، رأيت أن الذي قدم أقل من المحتاج وأنه كان ينبغي التوسع بهذا المجال، ولهذا سوف أقوم بمايلي بالتطرق — ولوبيجاز — إلى أمور جديدة أخذت بشأنها، رأي بعض الخبراء، ومع هذا إن ما سأقوله سوف يكون موجزاً، ومن الممكن إجراء بعض التعديلات عليه، حسب رأي ذوي الاختصاص بهذا الموضوع.

أولاً — بخصوص الأسلحة الدفاعية:

يجب أن تكون خفيفة، حتى يتمكن الرجال من التنقل والتحرك بسهولة، وأن يكون عددها كافياً، كما تقدم وقلنا.

ثانياً — الأسلحة المعدة لإلحاق الأضرار بالعدو:

المطلوب أيضاً أن يستطيع المقاتلون استعمالها بطريقة جيدة وسريعة، وفي هذا المجال هناك نوعان من الأسلحة الهجومية هما: الضرب بوساطة سلاح قاطع، أو الرشق بسلاح ثاقب، كما ذكرنا من قبل.

ويلحق بالعادة بالعدو أضرار كبيرة، ويكون عرضة لمخاطر هائلة عن

طريق استخدام الآلات الثابتة، ويكون ذلك أعظم مما يلحقه عن طريق استخدام آلات التجريح فقط، ويبقى على ذوي الدراية في الجيش أن يأمرُوا باستخدام أنواع الآلات التي يقدرُون أنها الأفضل لجماعتهم.

وجدير بالتذكير أن الهجوم على الأعداء عن بعد أضمن للمهاجمين من استخدام الأسلحة ضدهم عن قرب، والبرهان على ذلك أن جميع الأدوات أو الآلات أو القسي العقارة فعالة بحسب مقدرتها على الإصابة عن بعد، ولتحقيق ذلك يتوجب على المهندسين وذوي الدربة في الجيش أن يشغلوا تفكيرهم، لأن المقذوفة سواء أكانت من الحجارة أو من السهام أو من أي نوع من الآلات، تفيد أكثر إذا كان مجال الرمي عندها أطول من مجال الرمي لدى مقذوفات الأعداء، وهي تحتفظ لمن يملكها بأولوية زمام المبادرة، فإذا كان بإمكان نشاب المسيحيين الوصول إلى جيش الكفار، ولا يستطيع نشاب أولئك الأعداء الوصول إلى جيش المسيحيين، فمن المؤكد أن النصر سيكون حليف المسيحيين، ولسوف يهزمون أعداءهم على الأرض وكذلك في البحر.

وإذا ما اعترض معترض وقال: إذا تراجع الكفرة إلى الوراء، وتدبروا أمرهم كي يطال نشابهم جيش المسيحيين، يمكنني الإجابة على هذه الحجج والرد قائلاً: إنه مع ذلك يبقى زمام المبادرة بيد المسيحيين، لأن الضربات التي تسدها آلات المؤمنين بيسوع المسيح سوف تبقى أقوى من التي تسدد إليهم من قبل الكفرة، حتى وإن لم يكونوا بعيدين جداً عنهم، ولهذا ينبغي — كما أوضحنا من قبل — السعي بكل جهد ممكن لاكتشاف مهندسين متفوقين، واستخدام أجود أنواع الأخشاب لصناعة القنطاريات، وصناديق للآلات، ولقسي النشاب للمحافظة دوماً على تفوق المبادرة.

ولكي يتوصل المهندسون إلى النتيجة الأفضل في أعمالهم، سوف أوطد بهذه المقدمة لأتكلّم عن آلة المنجنيق العادي، حتى يتم التمييز ما

بين المنجنيق العادي وبين المنجنيق البعيد المدى.

كيف يمكن صنع المنجنيق العادي

يجب أن يكون القسم الأسفل من هذه الآلة، أي قاعدتها من حيث الاتساع بقدر ما سيكون عليه ارتفاعها داخل حصن من الحصون، وينبغي أن تكون الآلة مفتوحة من الأسفل في قاعدتها بين الذراعين الاثنين، وأن يكون الجزء الثالث أصغر، بمعنى آخر: إنه إذا رفعت الآلة داخل حصن بارتفاع أربعة وعشرين قدماً، ينبغي أن يكون ارتفاع هذه الآلة عند القاعدة ستة عشر قدماً، ويقسم العارفون آلة الرمي هذه من قاعدتها إلى رأسها إلى خمسة أو ستة أقسام، ويوضع جسم الهيكل بين الجزء الخامس والسادس، أي إذا كانت الكفة يبلغ طولها ثلاثين قدماً من الأسفل إلى القمة، يكون الخمس ستة أقدام، والسادس خمسة أقدام، لذلك يوضع الهيكل على بعد خمسة أقدام ونصف القدم من هيكل الرأس المشار إليه أعلاه.

كيف يمكن صنع المنجنيق البعيد المدى

يجب أن يوضع مرتكز جسم الهيكل على بعد خمسة أقدام من الكفة، إذا كان طول الكفة ثلاثين قدماً، أي عند سدس الكفة، علماً بأن القياس يؤخذ من مرتكز جسم الهيكل صعوداً إلى رأس الكفة، وعليه ينبغي أن توضع هكذا: يؤخذ خط من عند وسط ذراع الكفة، ويمد ذلك الخط إلى زاوية قبضة مرتكز جسم الكفة، حتى يتلامس ذلك الخط نصفياً من الجهة الثانية مع الخط ذاته الذي هو في وسط مرتكز جسم الهيكل.

وينبغي شد جوانب جذع المنجنيق نحو مرتكز جسم هذه الآلة، ويمد فوقها غطاء يبلغ قياسه نحو قدمين أو أكثر، لا بل حتى أقل، وذلك حسب تلك الآلة، بحيث يأتي مرتكز الهيكل من الأسفل أوسع، لكي تأخذ الكفة توازناً وثباتاً أعظم، ويجب أن يكون الصندوق أكبر

وأطول بالقدر الذي يمكن للمعلمين صنعه، فبقدر ما يعظم وزن المنجنيق بقدر ما يكون ثباته أعظم، وبقدر ما يكون أكبر، بقدر ما يقذف أكثر، وأبعد، وأثقل.

ولأجل ذلك ينبغي أن يكون المنجنيق قوياً من كافة أجزائه، في: الصندوق، وفي الكفة، وفي مرتكز جسم الهيكل، ويجب أن تكون الكفة ممتلئة غير نحيفة الذراع لا سيما في وسطها وشبه منفرجة من جهتها الأمامية، ويتوجب أن يكون للصندوق نابض قوي يمكنه أن يدفع الصندوق إلى الجهة الخارجية.

ومن جديد: بقدر ما يكون المنجنيق أكبر، بقدر ما يمكنه قذف أوزان أثقل، وإيصال الرمايات إلى مسافات أعلى وأبعد، فبقدر ما يقذف الحجر إلى علو أكبر، وإلى مسافة أبعد، بقدر ما يكون وقع سقوطه أشد، وأكثر تدميراً.

وإذا أراد أحد أن يصنع المنجنيق البعيد المدى، يمكنه أن يضع الفوهة فوق الجانب وأن يصنع كفة طويلة الذراع إلى حد الوصول إلى قعر السفينة، وعليه أن يجعل هذا الذراع يرتكز فوق قعر السفينة، وأن يجعل الصندوق يصل إلى قريب حدود الذراع، وينبغي تصنيع جميع المجانيق التي تجهز بها السفن بقوة ومتانة بحيث يصل ما ترميه من حجارة من وزن ومدى إلى الشيء نفسه الذي كانت ستصل به لو كانت الكفة مركزة على سطح الأرض، فضلاً عن هذا، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار أنه حتى تقذف المجانيق بخط مستقيم وإلى مدى بعيد، ولتستوعب القذيفة كما يجب، فإن ذلك مرتبط بحجم المنجنيق، وبقدر وزن صندوق الهيكل، وكذلك بقدرة التمكن من صنع حجارة مستديرة، وهو أيضاً مرتبط بنوعية كفة ذراع الرمي، التي تمسكها مجموعة التهديف، ولا بد من أن تكون معقوفة حتى تتماشى مع ما يريده الرجال من الرمي صعوداً أو إلى مدى بعيد، ويتوجب على المهندسين ومعلمي الحرف

تشغيل عقولهم حول هذه الأسلحة حتى يمكن تشغيلها بالشكل الأفضل.

كيفية تصنيع القسي العقارة

لصنع القسي العقارة (الجروح — الزنبورك) سواء أكان ذلك من الخشب، أو من القرون، يفضل توفر معلمين ماهرين مع الخشب الجيد، ويظل أفضل نوعية من الأنواع الخشبية تلك التي تصنع من القرون العظمية، بحيث تلتصق القرون إلى بعضها بالغراء، وتلف بالجلود أو بمادة الأوتار، وفعالية هذه القسي أعظم في المناطق الجافة منها في المناطق الرطبة، وتطلق في أيام البرد إلى مسافة أبعد منها في أيام الحر، وكثيراً ما تم اختبار ذلك.

أما بالنسبة لقسي الشباب العادي فتصنع بالعادة من الخشب، ولا سيما الخشب الذي يسميه الناس ناسوس Nassus وأفضل مكان يتوفر فيه هو في جزيرة كورسيكا، علماً بأنه توجد منه أنواع هنا وهناك في أماكن وبلدان أخرى، وينبغي قطع ذلك الخشب من الاحراش في الوقت المناسب الذي ذكرناه، وهو الوقت الموائم لقطع سائر الأخشاب، وإذا شدت أقواس الشباب الخشبية بالطول وطويت قليلاً، فإنها تغدو قادرة على الرمي إلى ارتفاعات أكبر، وتقذف بسهامها إلى مسافات أبعد، ومن المقرر اعطاءها دوماً القياسات المفترضة، ومن المفيد أيضاً — بما أن المطلوب هو رمي السهام إلى مسافة أبعد — أن تكون أوتارها لدنة بقدر ما يمكن حتى تستطيع تحمل شد الضغط والتفويق، ولذلك ينبغي أن تكون مصنوعة من القنب الجيد، والمتقن الصنع، ويظل المطلوب اتصال السهام التي يرميها القوس المذكور إلى أبعد مسافة ممكنة، ويفضل وقتها أن تكون نصال السهام وقضبائها متناسبة مع القوس، لابل من الضروري أن تكون النبال مريشة، أو أن تأخذ نهاياتها مثل هذا الشكل.

أما عن مقبض القوس، وكبدها، وسيتها، ونعلها، وظفرها، فأكتفي بهذه الإشارة السريعة إليها، وكل ما قيل عن صنعها كامل وجيد بدون شك، وذلك سواء قوس الشباب أو ما يتعلق به شرط أن يصنع من خشب جيد، وبطىء الاحتراق، ومن المستحسن أيضاً إعطاء الذين يشدون الأقواس أوتاراً جيدة، وعريضة، وأن تكون الأجزاء الخلفية من تلك الأوتار واسعة، وقد اعتاد الرماة على استخدام الأوتار سواء وهم يفوقون أو وهم يرمون، فالعادة تعطي الرجال قوة كبيرة للشد، وتتحول العادة إلى طبيعة حسب المثل المأثور.

ويجب — على كل حال — على الرماة حفظ أقواسهم، سواء أكانت من خشب أو من قرون وحمايتها من الشمس والمطر والريح، ومن الندى أيضاً، وأن تبقى دوماً مغطاة إلا وقت تشغيلها، وعلى الرامي في كل سفينة أن يغطيها بجوالق مفتوح، وأن يبقها في مكان منخفض، أو أن يعين لها مكان يضعها فيه، وتحفظ معلقة كما جرت العادة، ويجب التذكر أن القسي الأصلح هي التي تشد بالأرجل، وبالتحديد برجلين وليس برجل واحدة، فهذا أضمن لفعالية القوس العقار (الزيار)، ولهذا ينبغي استخدام القوس العقار في المكان الذي يكمن فيه الرماة ثابتين لإنزال الأذى بالعدو، سواء على الأرض أو في السفن، وأن يأتي هذا الاستخدام من قبل رجلين، أما باقي الأنواع فتكون كما أوردنا في الفصل الثامن، وفضلاً عن هذا قد يحدث أن تكون بعض الأقواس قادرة على إطلاق ما يسميه العامة موسكيت *Muschette*، والأقواس المستقيمة التي تخصص لها هذه المقدوفات هي أقواس الزنبورك، وهذا النوع يتوجب على خبراء الجيش التوصية بصنعه، وأن يعلموا المكلفين بالرماية على طريقة استعمالها، خصوصاً العناصر التي يرون أنها ذات فائدة أكبر للجيش المسيحي، وليفعلوا ذلك بخصوص الأقواس العقارة، حسبما ذكرنا في الفصل الثامن.

لذلك يجب — أيها الأب الأقدس — على القائد المكلف من قبل الكنيسة الأم المقدسة أن يدرس طريقة صناعة تلك الآلات، سواء أكان المنجنيق أو الأقواس، مع كل ما يلزم للقيام بوظيفته، وخاصة لصناعة المجانيق البعيدة المدى، وكما بينا إنه عند الوصول إلى تلك المناطق والشروع ببناء المراكز المناسبة لتنفيذ المشروع، فإن الأعداء سوف يخافون منها كثيراً، وبسبب رعبهم وخوفهم سوف يضطرون إلى الانسحاب وإخلاء الساحة.

الفصل الثالث والعشرون: كيف يمكن للمأجورين من قبل الكنيسة الأم المقدسة، القيام، بعد نزولهم على شواطئ مصر البحرية، بإرباك المنشقين والمسلمين بوساطة غلايينهم، وتكبيدهم الأضرار الكبيرة والخسائر الفادحة، وذلك قبل وصول جحافل الصليبيين.

إنه — على كل حال — قبل وصول الصليبيين المتطوعين، أو الجماعات المأجورة والممولة من الصليبيين، كما بينا في الفصول المتقدمة، أتشوق بكل احترام وتواضع وتقوى أن أبين لقداستكم أن هؤلاء القوم، الذين يتقاضون أجورهم من الكنيسة، أعني الخمسة عشر ألفاً من الرجال والثلاثمائة من الفرسان، بعدما يكونوا قد وطئوا شواطئ مصر، يمكنهم أن يتابعوا محلياً صناعة تلك الأسلحة، كما أنهم يقدرون على الانضمام إلى الغلايين وغيرها من السفن، التي يمكن توجيهها لمراقبة الشواطئ الخاضعة للسلطان كي لا تقترب قواته من المنطقة التي يكون قد استولى عليها الاسطول، وبذلك يلحقون الأضرار والخراب بسكان تلك الشواطئ وبغيرهم من جيرانهم الكفرة، وبعد مرور سنة على اليوم الذي تمت فيه تعبئة القوات المذكورة، وبعد أن يكونوا قد بنوا لأنفسهم مساكن وحصون على تلك الشواطئ لضمان إقامة اسطولهم بأمان، يمكنهم أيضاً أن يرسلوا في كل سنة عشرين غليوناً خارج المعسكر في الوقت المناسب، أي منذ منتصف نيسان حتى منتصف

تشرين الأول.

ويجب ان يكون على ظهر هذه الغلايين ما لا يقل عن خمسة آلاف من الرجال المسلحين مع مائة وخمسين من الفرسان، يجوبون في نواحي الأراضي الخاضعة للسلطان للقيام بأعمال المراقبة والتفتيش، ويقومون بالشيء نفسه في نواحي ملك التونسيين والتركمان والروم البيزنطيين المنشقين، وفق الطريقة التي يرونها الأمثل، ويمكن القول بصدق إنه مثلما الحديد يسيطر على المعادن كلها — على الرغم من أنه يلوى وينكسر — هكذا سوف تكون وظيفة تلك الغلايين، وأولئك الرجال فيها، أي قهر، وتدمير، وقمع المنشقين في تلك المناطق، ومثلهم باقي الكفرة الممكن وجودهم خارج المدينة أو القلعة، وإلحكم برهان على امكانية تنفيذ ما ذكرناه: على تلك الغلايين أن تكون مثل الريح، أو أن تشبه البرق والعاصفة التي تهب فجأة، وأفضل بأن تكون مثل الزلزال، حيث تكون جاهزة ومتأهبة للسير بالمجازيف، وعليها طاقم سهران متيقظ، وأن لا يكون بإمكان أحد أن يسبقها ويباغتها، بسبب الطريق الطويل القادرة على سلوكه، ففي الوقت الذي يخيل فيه للكفار أنها ماتزال في سورية، إذا بها قد صارت في تركيا، ويمكن في الحقيقة القول إن البحر هو أكبر متاهة موجودة في العالم، وبينما يكون أولئك الرجال على ظهر غلايينهم، إذا بهم ينتقلون فجأة إلى الأرض التي يريدون غزوها أو عبورها، وبطرفة عين — إذا صح التعبير — يمكن العودة إلى عباب البحر، بشكل لا يتركون مجالاً فيه لأعداء الايمان المسيحي، ليكتشفونهم، طالما تكون الشمس غائبة، فعلى هؤلاء الرجال القيام بأعمال الاستطلاع في النهار، وانتظار الليل، ومن ثم السير بشكل يوصلهم إلى هدفهم قبل انقشاع ظلمات الليل بشكل كلي، فهناك ينزلون قسماً من الرجال ومن الفرسان إلى اليابسة ليروا ما الذي يمكن صنعه على الفور، ووقتها يكون الكفار المذكورين أو الروم المنشقون — إذا لم

تكن قد وصلتهم أية معلومات مؤكدة— في غفلة عما هو مبيت،
وعندها يمكن للجيش الصليبي أن ينفذ بالسلح ما يريد تنفيذه، وما
يكون الرب قد قدر له أن يصنع.

وقد يحدث أن تصل تلك الغلايين ليلاً إلى جانب رأس أو جزيرة،
إما لتؤمن حاجتها من مياه الشرب، أو لتبقي متخفية هناك، دون أن
يصل الخبر أو العلم إلى المسلمين، أو إلى المنشقين الروم، وبالتالي
يبحرون من هناك في الوقت المناسب كما يطيب لهم نحو أرض الكفار،
أو يتصرفون وفق طريقة أخرى، حسبما أشرنا أعلاه، وبهذه الطرق
وبغيرها من الأساليب الخفية— حسبما تتطلب شؤون الحرب— تكون
الغلبة لصالح أصحاب تلك الغلايين والسفن، وسيطرون على أعدائهم
الكفرة، وعلى المنشقين على السواء، وينكلون بهم في أيام الشتاء
والصيف، ومن ثم يرغمونهم على إخلاء القسم الكبير من الأراضي
الواقعة على الشواطئ البحرية والتخلي عنها، وتحقق بذلك قداستكم ما
يطيب لها، وذلك عدا ما قلناه أو يمكن أن يقال، أو يصير، مما هو
بمتناول المجموعة التي سترسلها إلى أنهار مصر، أو إلى غيرها من
المناطق البحرية، وهكذا سيحدث بنعمة من الرب، أن الذين عطشوا،
ومازالوا يتعطشون إلى الدم المسيحي، سوف يقتلون بسيف المسيحي،
وسيهوون من شاهر كبريائهم إلى حضيض الذل، أما الذين انشقوا عن
الكنيسة الرومانية المقدسة، سيتخلون— بقوة وبطش ذلك السيف الذي
يطاردهم— كلياً عن انشقاقهم، ويعودون بتواضع نحو سلوك الطريق
القويم الذي سار عليه أجدادهم.

الفصل الرابع والعشرون: إعدادات متقدمة، وتنظيمات واحتياطات
موائمة تماماً تتعلق بالأسطول البحري.

إن من بين الذي ينبغي معرفته هو أن الجيوش المحاربة التي تسير
بحراً تواجه مخاطر مثل التي اعتادت عليها الجيوش البرية، فقد يحدث

أن تتعرض لهجوم مفاجيء، أو أن تقوم بذلك فتهجم فجأة، وترعب الأعداء، وتتغلب عليهم بسهولة، وهكذا يكون الوضع في البحر، فبعد عبور الغلايين لعدد من الجزر، أو المحطات الصخرية البحرية، قد يحدث أن ينقض المقاتلون البحرىون فجأة على عدوهم ويهزمونه بسهولة، ولذلك يتوجب على القائد أن يرسل دوماً أمام الجيش سفيتي استطلاع، تكونا من أفضل الغلايين التي عنده وأسرعها، وتكون مسيرة بقوة التجذيف ذهاباً وإياباً، وتتقدم واحدة على الأخرى وتسبقها، وكلتاها تسيران للاستطلاع وكشف أحوال الجزر والصخور، ومراقبة الخلجان، فإذا تبين لهما ما يريب ووجود مكيدة ما، تنضم إلى بعضهما وتصدران اشارات محددة لانداز الجيش والاسطول حتى يتدبر ما يلزم صنعه، ويأخذ بأسباب الحيلة، وإذا حدث والتقت سفيتا الاستطلاع بسفن من غلايين العدو، ورأتا أن عددها عاجز عن الصمود في وجه حملة الجيش المسيحي، وقتها يأمر القائد العام بارسال اشارات متفق عليها تتلقاها غلايين الجيش المسيحي، وذلك حسب ما تلقاه هو من سفيتي الاستطلاع، حتى يعرف كل انسان ما الذي عليه القيام به، وما عليه تجنبه، إذ أن عليه أن يوجه إلى كل نقطة من هو مكلف بها، سواء إن كان من جهة اليمين أو جهة اليسار، وهكذا يسير كل واحد وفق الأوامر الصادرة إليه، وعلى القائد العام أن يجعل شكل الجبهة مستديرة مثل ترس، أو على شكل هلال، أو أي شكل حسبما يراه موائماً، وأن يأمر بتجهيز الدفاع والسلاح الحربي المناسب استعماله، وليفتش عن طريقة إنشابه المعركة، وعندما يتهيا كل شيء ويترتب حسب الأصول، وقتها يأمر القائد العام قواته بالاقتراب من العدو بهدوء وسكينة.

لكن إذا أراد القائد العام أن يترك تلك الجبهة في ظل مراقبة معينة، فليتدبر أمره بحيث يجعل ربع الغلايين أو خمسها، من التي بدأت بخوض المعركة تلتف فجأة، وتدور لتهاجم سفن العدو من الخلف أو

من الجوانب، أو أن تنتقض لتدعم الجهة التي تكون هي الأنسب، ولتنفيذ ذلك ببراعة وحيطة، ففي هذه الأمور بقدر ما تكون الحيلة بقدر ما يخف الخطر، وهناك أسلوب آخر للهجوم على الأعداء، وهو أن تمّد الغلايين أشرعتها، وتنتقض بجرأة وبسالة على سفن الأعداء، لكن غالباً ما يكون هذا الأسلوب خطيراً، وأنا لا أنصح به مطلقاً، إلا إذا كانت المبادرة واضحة والتفوق ظاهر بشكل مؤكد، حتى وإن حدث وتغلبت بعض الأساطيل، لأنها كما يظن أخذت بهذا الأسلوب واتبعته، مثلما حدث بين أهل جنوى وأهل البندقية، فحسبنا نقراً في مدونة أياشيوم Aiacium كانت معظم سفن البندقية كبيرة وقوية، ومعبأة لشن الهجوم، وكانت الرياح الآتية من البحر لصالحها، وكانت سفن أهل جنوى أصغر وأضعف من سفن خصومهم، وكانت واقفة على مقربة من الشاطئ، ومقدمتها مهيأة وكانت ناصبة لأشرعتها بعكس الريح، وكانت كلها تشكل جبهة واحدة متماسكة مع بعضها ومربوطة ببعضها، بشكل أنه كان بوسع الرجال التنقل على سطح السفن ذهاباً وإياباً من سفينة إلى أخرى، وكان لدى أهل البندقية طريقة أخرى لانهاك قدرة أهل جنوى، وبالنهاية اقتحامها، وهي أنه كان بإمكانهم — ما لم يلجأوا إلى الاستعجال، الذي قد يفيد أحياناً، لكنه قد يعيق مرات أكثر بكثير — إرسال بعض سفنهم، أو سفن غيرهم، واضرام النيران فيها، ومن ثم ارسالها وهي محترقة من خلف سفن العدو، فهذه الطريقة كان من الممكن إغراق اسطول أهل جنوى وتبديده كلياً، وكان من المنتظر — ما لم تكن إرادة الرب مغايرة — الحاق الهزيمة بأهل جنوى، لو أخذ البنادقة بهذه الحيلة، وكانوا سيتحكمون بساحة القتال، لكنهم لم يفعلوا ذلك، فقد كانوا قد حشدوا ثمانية وعشرين غليوناً، وعندما باتوا على مقربة من أعدائهم، أنزلوا الأشرعة ولفوها، ولم ينتظروا حتى تنتظم صفوفهم، بل حملوا نحو الجنوية بكل سرعة بواسطة قوة دفع المجاذيف، وقاموا أخيراً بالهجوم على أهل جنوى، ونتج عن ذلك أن بعض سفن

البنادقة هاجمت سفن الأعداء بخط مستقيم، وكان ذلك إما بسبب شدة الريح، أو بسبب هيجان البحر، أو للسبيين معاً، وحين فعلوا هذا تركوا جوانب سفنهم ومؤخراتها مكشوفة، وتلاحم البنادقة مع اثنتين وعشرين سفينة معدة ومهيأة وكانوا في أثناء حملتهم قد تركوا سفن الوسط مكشوفة وعاجزة عن تقديم أي دعم، أو الحاق أي أذى بالعدو، وهذا ما جعل القسم الأكبر من سفن أهل البندقية يقع بين أيدي أهل جنوى، الذين أحرزوا النصر، وكان ذلك في آذار عام ١٢٩٣، وبهذا الأسلوب، أو بما يشبهه لحقت الهزيمة بأهل البندقية قرب كورسولا Cursola في سلافونيا، والسبب هو أنهم استداروا بشكل صارت فيه أشعة الشمس أمام أعينهم، وكان تعداد اسطول جنوى هو ستين سفينة، وكان بالمقابل مع أهل البندقية نحو تسعين سفينة، لكن أحجام سفن الجنوية كانت أكبر من التي عند البنادقة، وعليها عدد أكبر من الرجال.

وفي عودة إلى موضوعنا ينبغي القول: إنه على قائد الاسطول المذكور، أن يتنبه — قبل الشروع بالقتال — فيدير ظهره هو وجماعته كلهم للشمس، فذلك يمنحه فرصة أفضل لحسن القتال.

فهذا ما وقع في مكان اسمه ميلورا Melora، فسرعة البنادقة بالهجوم، ولعزمهم الشديد، لم يتجنبوا مواجهة أشعة الشمس، التي كانت تجرح عيونهم وتؤذيهم باستمرار في أثناء القتال، ولهذا هزمهم أعداؤهم، وفي النهاية قهروا، وأحرز أهل جنوى الذين كانوا يديرون ظهورهم للشمس نصراً مؤزراً، وقد حدث ذلك في حوالي شهر آب سنة ١٢٨٢ للميلاد، ويؤكدون أن عدد سفن البنادقة كان حوالي التسعين، في حين بلغ عدد سفن الجنويين حوالي المائة.

فضلاً عن كل ما تقدم يلزم الاسطول ويفيده أن يوجه وفق الشكل التالي عندما يتقدم لمجابهة الأعداء: أن تبقى السفن منضمة إلى بعضها بعضاً، وأن تظل مجمعة على نسق واحد، بحيث تكون لوحات

المجاذيف مقابلة لبعضها بعضاً، كيلا يترك أدنى مجال لأي من سفن العدو، للتمكن من التغلغل بأي شكل من الأشكال بين صف مراكب المسيحيين، وينبغي على ربان كل سفينة إطاعة أوامر القائد العام تحت طائلة فقدانه لحياته، وأن لا يقدم على الانسحاب طالما المعركة لم تنته بعد، ويتوجب أيضاً على جميع المتدربين على الرماية من الموجودين في السفن، والمتدربين على القوس والنشاب، وكل المتبقين من أصحاب الوظائف كل بحسب مؤهلاته، أن يعملوا جميعاً بانتظام، حسبما يكون ذلك أفضل، وأعظم فائدة برأي المسؤولين.

ولا يجوز لهم الاقدام على الانسحاب من مراكزهم قبل انتهاء المعركة، وذلك تحت طائلة العقوبة نفسها، وليكن أيضاً مع الجيش المذكور، أي في الأسطول نحو أربعة مراكب إشراف ومراقبة صغيرة تكون مهمتها بتكليف من الكنيسة الرومانية المقدسة، بحيث تسهر على بقاء الأسطول مجموعاً حسبما يرتئي القائد، ولتكن لدى الجيش خططاً متعددة للمعارك، فذلك أضمن للجيش المسيحي، مما لو ذهب إلى الحرب، وهو مزود بخطة واحدة.

وإذا حدث وكان عدد جيش المسلمين أو المنشقين أكبر عدداً، بحيث لا يمكن للجيش المسيحي مجابهته، فإنه لن ينسب إليه العيب إذا ما تراجع ولاذ بالفرار من أمامهم، فإن مهارة الخبراء تقضي حسب الظروف إما بالحرب، أو بالفرار، أو بالمطاردة، وهذا ما يمارسه التتار بالفعل، وهم الذين استولوا بهذه الطريقة على جزء كبير من العالم، لذلك يلزم أن يعتمد القائد العام للجيش المسيحي، إلى إعطاء شارة معينة، يجري تعميمها على جبهة تقضي بالرد فقط على من يهاجمهم، وأن لا يفرقوا إطلاقاً، وتصدر الأوامر بشكل خاص إلى الرماة بالنشاب في كل الجيش المسيحي ليتدبروا ما يناسب عمله في مثل هذه الظروف، عندما يباغتهم العدو ويقرب منهم، ومن المعروف أن نبال المنسحبين

ونشأ بهم، وهم هارين تجرح الأعداء، بينما نبال العدو هي بدون جدوى في أثناء المطاردة.

لهذا، لن يتعرض الجيش المسيحي — بإذن الرب — للخطر إلا نادراً، ما دامت السفن موائمة كما ذكرنا، وإذا حدث وقامت سفننا بمطاردة سفن الأعداء، فيلزم وقتها التنبه وأخذ الحيطه، بأن تتقدم السفن التي هي أخف من على الجوانب، وأن تضغط على العدو وأن ترميه من أقرب مسافة ممكنة، وأن تتصرف بالشكل الذي تراه هو الأنسب، وإنه لمن الضروري والمفيد والحسن، أن يكون في كل سفينة من السفن — طوال مدة بقاء الأسطول في البحر ليلاً — وفي كل مركب من المراكب علامة متفوقة خاصة، يوزعها القائد عليهم، حتى إذا تغلغل بينهم أي غليون أو أية سفينة للعدو، يتعرف عليها الباكون، وإذا ما بقي الأسطول ليلاً في أحد المرافئ، ينبغي تخصيص بعض السفن — ما عدا أثناء المناخ العاصف — للحراسة باستمرار، ولا يجوز إهمال تلك الخفارة بدقة على الإطلاق، كذلك على القائد العام في النهار، أثناء توقف الأسطول في أحد المرافئ أو قرب أرض صخرية، أن يفرز من السفن المعدة للمراقبة خفراء ينزلهم إلى اليابسة، حتى يستطلعوا جميع الجهات، من البحر، وعلى اليابسة، ويؤمنوا السلامة الكاملة لأسطولهم، فإذا ما شاهدوا أحداً يحاول التقدم نحو الأسطول ليلحق به الأذى، ترسل فرقة المراقبة تلك إشارات معينة إلى الأسطول، ثم تهرع نحوه، وتعطي الإشارات مجدداً، كي لا يلحق أي أذى بسفن الأسطول، أو بالذين يجوبون تلك المنطقة، ولكي يتأهب الجميع لإلحاق الهزيمة بالعدو.

ولا يجوز مطلقاً إهمال أمر مهم جداً، وهو تأمين مياه الشرب لرجال الجيش، وينبغي إيلاء هذه المهمة كامل العناية، وتخصيص جماعة تتولى تأمين هذه المياه، وقد تقدم وهلك جيوش كثيرة وكبيرة بسبب فقدانها

للماء، ويتوجب أيضاً تأمين الحطب لطبخ الأطعمة لكل من في الأسطول، فبدون ذلك لن يتمكن الجيش من نيل أطعمته، وفي الحقيقة كثيرة هي الاحتياطات التي يتوجب على القائد التنبه إليها، من تنظيم وترتيبات واحترازات، يطول بنا المجال هنا لوصفها وشرحها، علماً بأن الكثير المهم بهذا الشأن قد تمّ تبيانها وشرحه هنا أو هناك، وسيكون مفيداً أيضاً ونافعاً أن يكون مع القائد العام رجال حكماء، ذوي نزاهة، ولديهم دربة ومراس على هذه المواضيع المتقدمة الذكر.

الفصل الخامس والعشرون: وصف المناطق البحرية الخاضعة للسلطان، وأسماء الشواطئ والمراسي البحرية، والجزر، والفوارق بين مكان وآخر، مع وصف للشواطئ التونسية التي هي امتداد بحري لها.

من مرعش إلى الاسكندرونة خمسة عشر ميلاً، إذا ما أبحرنا بريح شرقية، وتقع مرعش حالياً عند الحدود بين أراضي ملك أرمينية وأراضي السلطان، ومن الاسكندرونة إلى أرسوز، بريح غربية وباتجاه الجنوب، والمسافة عشرة أميال، ومن رأس الخنزير إلى مصب نهر العاصي، باتجاه جنوب شرق، عشرين ميلاً، ويصب العاصي في السويدية على ساحل جبل اللكام، ومن ميادون على بعد نصف ميل من مصب العاصي حتى الوادي المسمى تاندرا عشرة أميال باتجاه الغرب، وفي ذلك الوادي مرسى اسمه قرابجاك، ومن مصب العاصي حتى برج الإسلام عشرين ميلاً باتجاه الغرب، ومن برج الإسلام حتى رأس البسيط عشرين ميلاً باتجاه الجنوب الغربي، ومن رأس البسيط إلى اللاذقية عشرة أميال باتجاه الشرق، ولللاذقية ميناء جيد تغلقه سلسلة، ولهذا الميناء مدخل من جهة الجنوب، وعند مدخله باتجاه الجنوب يوجد أيضاً برج يدعى برج أوغاريت، وهو محصن من جهة الغرب، ومن مرفأ اللاذقية إلى مصب نهر السن باتجاه الجنوب عشرة أميال، ومن مصب هذا النهر إلى بانياس خمسة أميال باتجاه الجنوب، ومرسى بانياس

مرسى صالح، ويفتح من جهة الجنوب، ومن بانياس إلى حصن المرقب خمسة أميال، والمرقب قلعة حصينة، باتجاه الجنوب، وهذا هو ساحل سورية، أي شواطئها البحرية: من المرقب إلى طرطوس باتجاه الجنوب الغربي عشرين ميلاً، ومن أوغاريت المتقدمة الذكر إلى طرطوس باتجاه الجنوب أربعين ميلاً، ولمدينة طرطوس ميناء جيد، يفتح من جهة الشاطئ على جزيرة أرواد، ويمكن التوقف هناك نحو الرأس من جهة الجنوب، كما يمكن الدخول إلى ذلك المرفأ من كل الجهات، ويبعد هذا المرفأ عن اليابسة مقدار ميلين تقريباً.

ومن طرطوس، وكانت قديماً مدينة مشهورة إلى طرابلس، باتجاه الجنوب الغربي عشرين ميلاً، ولطرابلس ميناء جيد، ومقابل ذلك المرفأ، وعلى مسافة أربعة أميال توجد عدة جزر، اسمها جزيرة الأرناب، وإذا حدث ووصل إنسان إلى ذلك المرفأ، فليترك تلك الجزر باتجاه الجنوب، ويبعد عنها باستدارة واحدة ونصف، ثم ليتجه شرقاً على مسافة ميل واحد، ثم باتجاه الجنوب مسافة ميلين، فسيجد بقعة صخرية القعر، فليتخذها مرسى، وهذا المرسى بعمق ثلاثة قامات، ولينتقل من هناك نحو الجزيرة، بمقياس مقداره طول الحبل الذي يربط السفينة باليابسة، وفي داخل الأرض الواقعة خلف طرابلس، هناك جبال عالية جداً، توجد عليها الثلوج باستمرار.

ومن طرابلس حتى أنفة (نفين) خمسة أميال باتجاه الجنوب، ومن أنفة إلى بئر خليج الهري خمسة أميال باتجاه الجنوب، وهذا الخليج ملجأ صالح، وهو رأس متوضع في البحر، واسم هذا الرأس، رأس شقعة، ومن رأس شقعة إلى البترون ستة أميال باتجاه الجنوب، وفي جيب مرفأ للمراكب الصغيرة، وهو مقفل بسلسلة، ومن جيب إلى بيروت خمسة عشر ميلاً، باتجاه ربع دائرة جنوباً، وعند ذلك الرأس باتجاه الشرق توجد مدينة اسمها بيروت، وفيها قلعة...، وقريباً من هناك يوجد نحو

الشرق ميناء صالح، وعلى ميل باتجاه شمالي غربي هناك جزيرتان مع مرفأ، ويجب الابحار مروراً بميل واحد بعيداً عن رأس تلك الجزيرتين، وعند مدخلها نحو الشمال الغربي، يقابل مرفأ بيروت جزيرة الزيري، وهو يبعد عنها عشرين ميلاً باتجاه الجنوب، ومدخل مرفأ هذه الجزيرة نحو الغرب، ومن الممكن إلقاء المرساة هناك والتوقف.

أما المرفأ المقابل لليابسة، فمدخله من جهة الجنوب، وهو قليل العمق، وفوق الزيري توجد منطقة صيدا، وهناك جبل يسميه العامة مذراة صيدا.

ومن صيدا إلى الصرند جنوباً مع ربع استدارة عشرة أميال، ومن الصرند إلى صور خمسة أميال، ولصور مرفأ صالح، لكن هناك عدة صخور باتجاه الجنوب، ينبغي تجنبها من جهة الجنوب، حيث ينبغي على الجميع الدخول من جهة الشمال، أي من عند الصخرة المعروفة من جهة الغرب، مع الابتعاد عن تلك الصخور باستدارتين ونصف الاستدارة، ويجب أخذ الحيطه لأنه عند جميع هذه الممرات العمق قليل، ويمكن باستدارة واحدة البقاء هناك قرب أسوار تلك المدينة، التي تعرف باسم مدينة صور، ويرى القادم من البحر تلال صيدا من جهة الغرب، ثم جبلاً عالية، يسميها العامة لبنان، وهي تمتد نحو الجنوب.

ومن صور إلى البياضة (الرأس الأبيض) عشرة أميال باتجاه الجنوب، وهذا الرأس مرتفع، ويليه أيضاً جبال عالية جداً، يسميها سكان تلك المنطقة بلينا Bellina ، ومن رأس البياضة إلى عكا عشرة أميال باتجاه الجنوب حتى الوصول إلى صخور خلف قلعة لمبرتو (حمصين — قرب الناقورة)، ثم تنحرف إلى الجنوب الغربي من تلك الصخور، حتى مدينة عكا، حيث هناك خليج جاف طوله حوالي الثلاثة أميال، ولعكا مرفأ هو عند رأس، يمكن الوصول إليه باستدارة واحدة، وإلى الشرق منها برج الذبان، ومن أراد القدوم إلى هذا المرفأ، عليه القدوم بحراً من

بعيد، من عند بيعة القديس اندراوس، ويبقى بخط مستقيم حتى يرى البيت الذي كان يسكنه فرسان الاسبتارية في برج الذبان، وأنذاك يمكنه أن يأخذ طريقه إلى داخل ذلك الميناء، وإذا أراد اجتيازه حتى يصل إلى قلعة حيفا، فعليه أن يوجه نصف مقدمة السفينة نحو تلك القلعة، ونصف مؤخرتها نحو برج الذبان، وبهذه الطريقة يمكنه دخول الميناء بأمان، ومن أسوار تلك القلعة حتى موقع الكرمل عشرة أميال، والكرمل جبل مرتفع، وهو مستطيل الشكل في مقابل البحر، ويظهر وكأنه جزيرة طويلة، ورأسه فوق البحر، وهو يتجه نحو الجنوب، وعلى قمته كنيسة اسمها كنيسة القديسة مرغريت، ومن جهة الشمال بقعة تمتد على طول ميل واحد.

ومن جبل الكرمل حتى عثليت (قلعة الحجاج) خمسة أميال باتجاه الجنوب، ومن عثليت إلى قيسارية عشرين ميلاً باتجاه الجنوب، ومن قيسارية إلى أرسوف خمسة عشر ميلاً باتجاه الجنوب، ومن أرسوف إلى يافا، باتجاه الغرب، عشرة أميال.

ومن جبل الكرمل حتى دمياط، لا يوجد عند الشاطئ أي جبل، وكلها أرض منبسطة، فيها صخور رملية بيضاء.

وأما في داخل البلاد صعوداً من الشاطئ، فهناك جبال اسمها جبال القدس، ومن الممكن رؤية هذه الجبال حتى جبل الكرمل على سلسلتين.

الشواطئ البحرية الممتدة من يافا إلى دمياط

أولاً: من يافا إلى قلعة أشدود، باتجاه الجنوب عشرة أميال.

ومن أشدود حتى عسقلان عشرة أميال، باتجاه الجنوب الغربي.

ومن غزة إلى الدارون (دير البلح) خمسة عشر ميلاً باتجاه الجنوب

الغربي.

ومن دير البلح حتى رأس أشدود ثلاثين ميلاً، وذلك من عند خان يونس باتجاه الغرب.

رأس أشدود إلى آخر خليج خان يونس ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال، ومن ذلك الرأس باتجاه شمال غربي ثلاثين ميلاً، ومن ذلك الرأس إلى رأس رفح باتجاه الغرب ثلاثين ميلاً، وعند هذا الرأس خليج يستدير على مسافة عشرين ميلاً، ومن رأس رفح إلى العريش باتجاه الغرب خمسين ميلاً، ومن العريش إلى الفرما باتجاه الغرب ثلاثين ميلاً، ومن العريش إلى نهر تنيس خمسة وعشرين ميلاً، ومن نهر تنيس إلى دمياط خمسة وعشرين ميلاً وربع درجة شمالاً، ودمياط هي مدينة لها نهر كبير، لون قاعه أحمر، وعمق مصبه عندما تكون المياه شحيحة لا يقل عن ستة أذرع، لكن عندما تكون المياه قوية، وقتها يقدر العمق بنحو أحد عشر ذراعاً، ويقتضي الابحار من مدينة عكا إلى دمياط، باتجاه الغرب، قطع مسافة قدرها مائتين وخمسة وسبعين ميلاً.

الشواطئ البحرية من دمياط إلى الاسكندرية

أولاً: من دمياط حتى بحيرة نستراوة (البرلس) باتجاه الغرب سبعين ميلاً، ومن البرلس إلى مصب نهر نستراوة شاطئاً يمتد على طول ثلاثين ميلاً غرباً، وهذا الشاطئ مستدير، ويلتف على ثلاثين ميلاً، وله مصب عريض، وعلى بعد خمسة أميال باتجاه الشمال من مصب نهر نستراوة إلى مصب نهر رشيد أربعين ميلاً باتجاه الغرب، ونهر رشيد كبير، وعمق المياه فيه عشرة أذعة، وحوله أراضي جافة كثيرة، وعندما ترتفع مياه ذلك النهر فإن عمقه يبلغ خمسة عشر ذراعاً، ومن رشيد إلى جزيرة أبي قير خمسة وعشرين ميلاً غرباً، وعلى تلك الجزيرة برجان، بالقرب منهما مجال صالح للنزول.

ومن أبي قير إلى مدينة الاسكندرية ثمانية عشر ميلاً باتجاه الغرب، والاسكندرية مدينة كبيرة وجميلة، لها من الجهة الخارجية صخرة متقدمة، تضربها مياه البحر يومياً، وعلى ظهر تلك الصخرة برج يسميه الناس المنارة، وهي التي تسمح بمعرفة موقع المدينة.

فإذا قدم أحد بحراً من الشرق أو من الشمال، يمكنه أن يرى تلك المنارة، كذلك إذا قدم إنسان من الشمال الغربي، يمكنه أيضاً رؤية برج تلك المنارة، وأما المدينة فلها مرسيان، الأول شرقي، ويشرف عليه ذلك البرج، ومن يصل إلى المرسى يمر بجوار صخرة يسميها الناس ميمون Memon ، وهي مجاورة لبرج المنارة، ومن ثم يذهب باستدارة واحدة، ويلزم تلك الصخرة على طولها، وهناك في الجنوب أرض جافة، ومن الممكن البقاء باستدارة واحدة نحو صخرة ميمون، والمرسى الثاني للاسكندرية هو من الجهة الغربية ومدخله من الشاطئ الغربي، ومن أراد دخول ذلك المرسى من ذلك الشاطئ، عليه مسافة الشاطئ، لأن دخول ذلك المرسى يتم عبر أقنية.

والمسافة من عكا إلى الاسكندرية هي أربع مائة وأربعين ميلاً، باتجاه الشمال الشرقي من الريح الثالثة، وبالنسبة لنهر نستراوة، فإن لون قاعه أحمر، وعلى النهر بساتين نخيل تنتج البلح، ومن الاسكندرية حتى برج العرب، باتجاه الغرب، ثلاثين ميلاً، ومن برج العرب، إلى خليج العرب باتجاه الغرب خمسين ميلاً، ومن وسط خليج العرب إلى الخروببات بالاتجاه الشمالي الغربي أربعين ميلاً.

ومن الخروببات إلى التلال البيضاء عشرين ميلاً باتجاه الغرب، والعلامة المميزة للتلال البيضاء هي: ظهور أرض بيضاء مقسمة إلى تلال عدة، وهي تطل على الخروببات تلك من الشرق، حيث تشاهد قناطر كثيرة واسعة بين الأبنية المهتمة والصخور البيضاء، ويوجد على بعد ميلين من خليج رشيد جزيرة مسطحة، وهي إلى الشمال من

الصخور البيضاء ولها مرسى جيد، وله عمق مسطح يبلغ ست خطوات، ومن الممكن الدخول إلى الجزيرة وإلقاء المرساة على أرض ثابتة، ومن تلك الجزيرة إلى خليج رشيد عشرين ميلاً، لمن يبحر مع الريح الرابعة غرباً باتجاه الموقع المسمى Beleze .

ومن خليج رشيد إلى مرفأ السلطان مائة ميل وعشرة أميال من الشرق أيضاً، ولهذا المرفأ مدخل ضيق، يتولى حراسته جنود مسلمون، وهو في داخله عريض جداً، يمكن أن تصطف فيه سفن وغلايين كثيرة، وما بين ذلك الخليج وذلك المرفأ، لا يوجد أي مكان يصلح للرسو، والعمق سيء ومملوء بالتتوءات، وتمتد هناك شواطئ مسطحة ومساحات جافة كثيرة.

ومن مرفأ السلطان إلى جزيرة الحمام عشرة أميال، باتجاه شمالي غربي، وهي في داخل البحر على مسافة ميل من الشاطئ، ومدخلها شرقي شمالي والفتحة التي يمكن الدخول عبرها من الغرب، ولها شواطئ كثيرة جافة، وتمتد هذه الشواطئ الجافة من الساحل حتى تلك الجزيرة، والفتحة التي يمكن الدخول عبرها من الشرق نظيفة، ويلزم السير منها إلى الجزيرة قطع مسافة ميل ونصف الميل، ومن الزاوية الشرقية يصل العمق إلى عشر خطوات، وينبغي الانتظار بعيداً عن الجزيرة، مع إعطاء استدارتين للغلايين، وهذه الصخور محمية ضد كل الرياح، باستثناء الريح الشرقية التي تهب من الشاطئ، وتلك الجزيرة مسطحة ولا تظهر إلا عن بعد عشرة أميال في البحر، ولا يمكن معرفتها إلا من خلال قصر موجود على الشاطئ من جهة الشرق، وإذا قدم أحد من البحر إلى الشاطئ، فإنه يجد المياه العذبة في تلك الجزيرة.

ولا يوجد من جزيرة الحمام حتى رأس رمدا Rameda أي مكان يصلح للرسو فيه، لأنه تنتصب هناك مرتفعات جبلية من جهة البحر، ومن جانب الجزيرة على طول شاطئ البربر، ومن رمدة حتى مرفأ

السلوم عشرين ميلاً، باتجاه جنوبي غربي، وهو مرفأ جيد، وله مدخل صالح، ومن مرفأ السلوم إلى مرسى مات Mat عشرين ميلاً، باتجاه غربي جنوبي، ومن مرسى مات إلى رأس لوقيا Luchia خمسة عشر ميلاً، باتجاه جنوبي غربي، ورأس لوقيا جاف ممتد نحو الخارج مسافة نصف ميل، ومن رأس لوقيا إلى مرفأ طبرق ستين ميلاً، مع ربع استدارة نحو الغرب، ولهذا المرفأ أرض جافة عند رأس سن، والذي يصل إلى المرفأ عليه أن يسلك جهة الشاطئ الشرقي، ومن ميناء طبرق إلى جزيرة البطريك أربعين ميلاً، مع ربع استدارة نحو الشمال، ومن جزيرة البطريك حتى رأس تيني ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال الشرقي، ولهذا الرأس امتداد من الأرض اليابسة مقداره نصف ميل.

ومن رأس تيني إلى الفوارة Faura عشرة أميال، مع ربع استدارة نحو الغرب، ومن الفوارة إلى فورسيللو Forcello عشرة أميال، مع ربع استدارة نحو الغرب، ومن فورسيللو إلى كارسي Carse عشرين ميلاً، باتجاه شمالي شرقي، ومن كارسي إلى بونندريا Bonandrea خمسين ميلاً باتجاه الشمال الشرقي ولبونندريا مرسى محمي من جميع الرياح باستثناء الرياح الشرقية، ومن بونندريا إلى جزيرة سوسة عشرين ميلاً، من جهة الشمال الشرقي، وهذه الجزيرة مكان صالح للرسو.

ومن جزيرة سوسة إلى رأس هاينة عشرين ميلاً من جهة الشمال الشرقي، وتنصب من رأس تلك الجزيرة في البحر أربعة أنهار مياه عذبة، ومن رأس هاينة إلى طلميثة مائة ميل من جهة الشمال الشرقي، وعند رأس طلميثة صخرتان صغيرتان، ومن طلميثة إلى برنيق (بنغازي) سبعين ميلاً مع ربع استدارة نحو الجنوب، وفي برنيق ميناء جيد، ويوجد على مسافة نصف يوم من الميناء بقعة يابسة، ومن يريد دخول ميناء برنيق هذا عليه أن يسير الشاطئ الشرقي.

الفصل السادس والعشرون: وصف للمناطق البحرية الواقعة تحت

سيطرة ملك أرمينيا وصولاً إلى المناطق الخاضعة للسلطان، وكذلك المناطق التابعة لتركيا من جهة الشمال.

من مرعش إلى جبل كايبو Caybo عشرين ميلاً باتجاه الشمال، ومن جبل كايبو إلى لاكيوم Laiacium خمسة عشر ميلاً غرباً، ومن لاكيوم إلى مرفأ المجاذيف عشرة أميال غرباً، وأمام لاكيوم قطعة أرض يابسة يمكن تسميتها رأس، ومن الممكن الاستدارة حوله ورمي المرساة والتوقف، ومن مرفأ المجاذيف إلى مصب نهر جيحان عشرة أميال غرباً، وجدير بالذكر ينبغي أن يكون الاقتراب من رأس مرفأ المجاذيف على مسافة نصف ميل، ومن أراد الدخول إلى ذلك المرفأ سيجد هناك انفراجاً يبقى دوماً مفتوحاً، وليحذر من التقدم كثيراً من رصيف ذلك المرفأ.

ومن مصب نهر جيحان إلى مالو عشرة أميال باتجاه الشمال — الغربي، ولما لو ميناء أمامه جزيرتان صغيرتان تبعدان ربع ميل عن اليابسة، ويجب الاستدارة عندها، وإلقاء المرساة حتى قعر الأرض الصلبة، حيث عمق المياه هناك خطوتين أو ثلاث خطوات.

ومن مالو، وهي نوع من أنواع القلاع إلى مصب نهر أذنة عشرين ميلاً باتجاه شمالي غربي، ومن مصب نهر أذنة إلى مصب نهر طرسوس عشرين ميلاً باتجاه الشمال الغربي، ومن مصب نهر طرسوس (البردان) إلى كركوم Curcum إلى الصخرة عند مصب نهر سيحان عشرة أميال باتجاه الغرب، ومن نهر سيحان إلى لينا دي لا باغاكسا Lena de Labagaxa عشرة أميال بالاتجاه الشمالي الغربي، وتلك البقعة منبسطة جداً، وفي قعرها رمال، ومياهها في البحر قليلة على مسافة ميل.

ومن لينا دي لا باغاكسا إلى مرسى بينو Pino خمسة عشر ميلاً باتجاه جنوبي شرقي، والمرسى واسع، وله قعر جيد، ومن مرسى بينو إلى

ميناء الفرسان عشرة أميال مع ربع استدارة نحو الغرب، وفيه مكان للرسو، وله قعر جيد، ومن مرفأ الفرسان إلى مرفأ رأس برودنساليوم، Prodensalium خمسة عشر ميلاً، وهذا الرأس بالاتجاه الشمالي الشرقي، ولهذا الرأس مكان داخلي للرسو، قعره عميق جداً، وعند ذلك الرأس أسوار مما يجعله مناسباً للرسو.

ومن رأس برودنساليوم حتى سقوين Sequin عشرين ميلاً، مع ربع استدارة غرباً، ويلزم تثبيت المراسي، وأن تكون محمية من الرياح، وفيها نهر يصب هناك في البحر، ومن سقوين إلى ستالليموري Stal-limuri عشرين ميلاً باتجاه الشمال الشرقي، وهناك يمكن إلقاء المراسي، حيث تكون محمية من الرياح.

ومن ستالليموري إلى كالاندرو Calandro ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال الغربي، وفيها ميناء جيد، ومن كالاندرو إلى سلمودا Salmoda خمسة وعشرين ميلاً باتجاه الشمال، ومن سلمودا إلى أنطاكية عشرين ميلاً باتجاه الشمال، ومن أنطاكية إلى قلعة اللومباردين خمسة عشر ميلاً باتجاه الشمال، ومن قلعة اللومباردين إلى كانديلورو Candeloro عشرة أميال باتجاه الجنوب الشرقي، ولمدينة كانديلورو مرسى جيد محمي من الرياح الغربية، ومن كانديلورو إلى رأس القديس فوكاس ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال الغربي.

ومن رأس القديس فوكاس إلى أضايا القديمة أربعين ميلاً باتجاه الغرب، ومن أضايا القديمة إلى أضايا الجديدة أربعين ميلاً مع الرياح الشرقية، وأضايا الجديدة مدينة كبيرة، ولها في مقابلها بقعة صخرية على مسافة ثمانية أميال، واسمها أغوباندي Agopandi ، وفيها موضع للرسو.

ومن أضايا الجديدة إلى ريناثيا Renathia خمسة عشر ميلاً،

ولأضاليا الجديدة مرسى جيد في داخل البحر، وهو محمي، ويصب عنده نهر، ومن ريناثيا إلى كبيرمايوت (البند البحري) عشرة أميال، وهناك مرسى جيد في جزيرة، وهو مأمون من جهة البحر واليابسة، وفيه مياه نهر غزيرة، ومن كبيرمايوت إلى مرسى الجنوبية عشرة أميال، وهو مرسى أمين يتجنبه الأتراك من جهة البحر واليابسة، وعلى شواطئه مياه نهريّة وافرة.

ومن مرسى الجنوبية إلى شيباسكو Chipasco ثمانية أميال، وهناك مرفأ جيد ونهر، لكن ينبغي أخذ الحذر مما يمكن أن يحدث من جهة اليابسة، ومن شيباسكو إلى كامبروكسا Cambruxa ستة أميال، وهناك مكان للرسو، ومياه بكثرة، وتقابله جزيرة في البحر على بعد ثلاثة أميال.

ومن كامبروسكا إلى رأس الخيلدونيين Childoniis عشرة أميال، لكن مكان الرسو صغير، ولا مكان لإلقاء المراسي، والذي نراه إن التوقف من جهة البحر خطر، مع أنه آمن من جهة اليابسة، ومن رأس الخيلدونيين إلى ميناء مار اسطفان ثلاثة أميال، وهناك مرسى صالح، ومياه غزيرة، لكن تبقى هناك ريبة من جهة الناس الذين على اليابسة.

ومن ميناء مار اسطفان إلى رأس فينيغيا Finighae خمسة عشر ميلاً، وهناك مرفأ جيد بين صخور الرأس، وهو قريب إلى أرض فيها مياه عذبة نهريّة، وهناك خشية من جهة المنطقة الداخلية، وعلى بعد ستة أميال من المرفأ قلعة كبيرة، ويسكن في الجبال المجاورة يونانيون وأتراك.

ومن فينيغيا إلى القديس نيقولا دي ستاميريس Stamiris خمسة عشر ميلاً، وهناك مرفأ جيد ومأمون من جهة البحر، وأما من جهة البر فيلزم الحذر، ومدخل ذلك المرفأ جيد، وتصب هناك في البحر مياه غزيرة وعذبة.

ومن القديس نيقولا دي ستاميريس إلى ككابوم Caccabum خمسة أميال، ولها مرفأ صالح، وبين الصخور مياه آبار، ومقابل المرفأ شاطئ رملي، ومن الضروري التزام الحذر، بسبب شراسة السكان من جهة البر، ومن ككابوم إلى جزيرة المهرولين Correntibus عشرين ميلاً، ولها مرفأ جيد للرسو، وأمين من جهة سكان البر، وفيها مياه آبار بوفرة، ومن جزيرة المهرولين حتى غيام Ghyam أربعة أميال، ولهذا الموقع ميناء صالح وأمين من جهة البحر، وحذر من جهة البر، وتوجد مياه على ضفاف النهر، ومن غيام إلى قلعة روزي Rozi خمسة عشر ميلاً، ولها مرفأ صالح، ومياه وفيرة، ولا خوف من جهة اليابسة، والمرفأ قريب من شاطئ رملي، وحوله أقسام كثيرة جافة، ومن قلعة روزي إلى جزيرة بولسلي خمسة عشر ميلاً، وفيها ميناء جيد وآمن من جهة اليابسة، وإنما ليس هناك مياه عذبة، وبين تلك الجزيرة والأرض اليابسة هناك أقسام صلبة بعمق ثلاث قامات تحت الماء.

ومن جزيرة بولسلي إلى ميغراديكو Megradico تحت بتر Patra خمسة عشر ميلاً، ولها مرفأ صالح من جهة الشرق، لكن الماء معدوم فيها، وينبغي أخذ الحذر من جهة اليابسة، ومن ميغراديكو إلى برديكياس Perdichias ثلاثين ميلاً، وفيها ميناء صالح ومياه غزيرة، ولا خوف من جهة الأرض، ومن برديكياس إلى القديس نيقولا دي ليوكسو أربعة أميال، وهناك ميناء صالح، ومياه وفيرة، ولا حذر من أية جهة من الجهات، ومن سان نيقولا دي ليوكسو إلى رأس تراكيلو Trachilo خمسة أميال، ولا خوف من جهة اليابسة.

ومن تراكيلو إلى ميناء منطقة ماكري Macre خمسة عشر ميلاً، وهذا الميناء ميناء جيد، والأرض صلبة عند مدخل المرفأ على عمق قامتين أو ثلاث، ومياه الشرب هناك غزيرة، ولا خوف على الإطلاق من جهة البر، ومن ماكري إلى جزيرة كوبي Copi عشرة أميال، ولها ميناء صالح

وآمن سواء من جهة البحر أو من جهة البر، وفي الجزيرة مياه آبار وفيرة، ومن كوبي إلى جزيرة غويا Guia عشرين ميلاً، ومن غويا إلى برييا Prepia عشرين ميلاً، ولها في الصيف مرفأ صالح، وآمن من جهة اليابسة، وبعد ذلك يصير الدخول إلى نهر عمق مياهه سبعة قامات، وهذه الطريقة يصير الضغط شديداً على السفن التي تحمل الأخشاب إلى مصر.

الفصل السابع والعشرون: حول دور الصليبيين المأجورين من قبل الكنيسة الرومانية المقدسة، لدى نزول الجيش المسيحي على الشاطئ المصري، وحول ضرورة الاستيلاء على نهر النيل، وتبيان لكيفية الاستيلاء على جزيرة رشيد، وكم ينبغي أن يبلغ تعداد أولئك الصليبيين، وفيه إيضاح على أن من المتوقع منطقياً اضطراب المسلمين إلى التخلي عن أرض مصر للمسيحيين.

وينبغي الآن الشروع بالتفكير بعمق، والتأكد مما سوف ينجزه جيش المتطوعون الصليبيون وكذلك الذين جندتهم الكنيسة المقدسة من الأموال التي تبرع بها المؤمنون لأجل الحملة الصليبية، حسبما ذكرنا من قبل، فبعد أن تكون الدعوة إليها قد بدأت في جميع أقطار العالم المسيحي، وعندما سيجد الجيش نفسه مستعداً ومجهزاً بالسفن، وبكل ما يلزم أو يفيد المقاتلين، وبعد أن يكون قد تزود بالمياه العذبة سينطلق وقوامه بدون تمييز خمسون ألفاً من الرجالة، وألفان من الفرسان الملتزمين مقابل أجر، وخمسة عشر ألفاً من الرجالة مع ثلاثمائة من الفرسان الذين أتينا على ذكرهم في القسم الأول من الكتاب الثاني هذا، والأمل بالرب، والاتكال دون أي شك عليه، أنهم بعونه، وهو الذي يقوم باسمه المشروع، لا بد من أن يسيطروا على مصب نهر النيل، وبعد سقوط مصب نهر النيل والاستيلاء عليه، سيتمكنون على الفور، وبدون جهد، من الاستيلاء على جزيرة رشيد، وهي ذات أهمية عظيمة، وبدون

تأخير سيكون بإمكانهم بناء قلعة حصينة، ومن ثم يقيمون فيها كما يطيب لهم، وينفذون ما يرونه مناسباً، خصوصاً بالنسبة للمنطقة العليا القريبة من القاهرة ومن قلعتها، وبناء عليه يتوجب النظر أنه بسبب التنظيم الجيد، والتخطيط الموفق، والقوة الضاربة عند جيش الصليبيين وأسطولهم، سوف يتم في وقت قصير الاستيلاء على ما تبقى من الأقاليم المصرية، وتصير مصر خاضعة لقداستكم، وإذا لم تتمكن قداستكم من حشد العدد المذكور أعلاه، فإنه بالإمكان اتمام مشروع مصر بوساطة أربعين ألفاً من الرجالة، وألف من الفرسان، تكون أجورهم، كما بينا من قبل، هذا إذا بقي الوضع على النيل مثلما هو اليوم، وقد يعترض معترض فيجادل قائلاً: بعملك هذا أنت تفكر أنك تؤمن مصالح التتر وبالتالي ستستميلهم إليك، لكنهم قد يأخذون منك موقفاً معادياً لأن قسماً كبيراً منهم قد انقلب إلى عقيدة محمد (ﷺ)، وقد يقدم هؤلاء التتار إلى مصر لنجدة أهل هذه العقيدة، ومساعدة تلك الملة، وهم أيضاً منتشرون في مناطق عدة من المشرق، وهؤلاء سوف يهبون أيضاً للمساعدة وتقديم العون، ومثلهم سيفعل العرب، وبعض المسلمين في أفريقيا، فهؤلاء جميعاً سوف يقدمون بالذات، أو سوف يرسلون الامدادات إلى المصريين.

وعلى مثل هذا الاعتراض يمكن أن نجيب:

إنه بعون من الرب، ينبغي منطقياً احتلال نهر النيل بهذا العدد من المقاتلين، بفضل تنظيمهم ومعداتهم، حسبما تمت الإشارة إلى ذلك من قبل.

وإذا ما امتلكوا السيطرة على ذلك النهر، فإنهم سوف يحتلون جلّ أرض مصر، ولسوف يدمرونها برمتها تقريباً، وعلى الرغم من وجود هذا العدد الكبير من المسلمين في مصر، فإن العملية الحميدة سوف يتم إنجازها بسرعة خاطفة، وبعد هذا لن يتمكن المصريون من حراسة

مصر ولا الدفاع عنها. لأن المسيحيين سوف يحطمونهم ويبددون شملهم، خاصة وأنه لن يعود لدى المسلمين إمكانية التمويل، والحصول على ما يلزمهم للعيش، ولن يكون بالإمكان نقل المواد الغذائية إلى مصر عن أي طريق من الطرق بسبب ما حولها من صحارى، كما لا يمكن لمصر أن تستنجد عن طريق البحر، لأن مفاتيح البحر بيد جماعتكم، فهي التي تؤمن الحراسة والحماية، ولن تصل الإمدادات إلى المصريين من أعالي النيل، ولا من النوبة، ولا من أي مكان آخر بالكميات التي يحتاجها سكان مصر، ووقتها لن يبقى أمام المصريين من مجال سوى الانسحاب وإخلاء تلك البلاد بسبب الجوع، ويتضح من كل ما تقدم أن الكفرة عاجزون عن المدافعة عن الأرض المصرية، أو مجابهة قوة حشودكم القادمة بالأعداد المذكورة، وإذا تفضل الرب القدير على شعبكم أن يتم بإخلاص الأعمال التي رجاله بصدها، أي أن يحتلوا مصر باسمكم ولحسابكم، فإنهم سوف يتمكنون من استغلال كنوز تلك البلاد، بشكل لا يمكن تصوره أو التعبير عنه، ذلك أن أرض مصر بالذات فيها منتوجات جمة، وتمر عبرها من مختلف المناطق بضائع ضخمة قادمة من الهند، حيث تصل إلى مصر، ومن هناك تصدر بسهولة إلى البلدان الغربية، وبفضل رضاكم سوف يبقى في مصر العدد الذي تريدونه لتولي الحفاظ على الأرض المكتسبة، بحيث يصير الحال أنه ليست أرض الميعاد المقدسة فقط، التي رزحت طويلاً مستبعدة من قبل الكلاب، ودفعت الجزية للمسلمين، سوف يحررها جيشكم — بعون الرب — بالقدرة والعنف، بل إن باقي الكفرة والمنشقين سوف يخضعون بدون شك للسلطة المسيحية، وسيعودون — بعد تركهم كلياً لمفاسدهم وتخليهم عن انشغالهم، شاءوا أم أبوا إلى عبادة اسم يسوع المسيح، بينما يطاردتهم سيف الصليبيين.

وإذا ما تفضل أحدهم وسأل مستوضحاً بدقة: كم ستكون كلفة

هؤلاء الفرسان والرجالة، بما في ذلك الأجور والمؤن وغير ذلك، في كل شهر، وكم ستكون كلفة السنة الأولى؟ أجيب بكل احترام: يكلف كل واحد من ثلاثين ألفاً من المسلحين ثلاثة فلورينات ذهب شهرياً، أي ما مجموعه تسعين ألف فلورين ذهب لهم جميعاً كل شهر، ويضاف إلى هؤلاء عشرة آلاف رجل، كل واحد منهم يساعد الآخر، وكلفة الواحد منهم خمسة فلورينات، أي أن مجموعهم تبلغ نفقاته خمسين ألف فلورين، وسوف تكون نفقات إطعام أربعين ألف مقاتل بالشهر الواحد عشرين ألف فلورين، أما الفرسان فمن الممكن حساب تكاليفهم مع الأجور والإطعام والأعلاف للخيول بثلاثين ألف فلورين ذهب كل شهر، أما بالنسبة للرسل الذين سوف يعيشون إلى التار، مع ما سيحملونه من هدايا، فيمكن تقدير كلفة ذلك بخمسة آلاف فلورين شهرياً، وهكذا يكون المجموع العام شهرياً مائة وتسعين ألف فلورين أي في السنة اثنتين وعشرين مرة ضعف هذا المبلغ، ويبلغ ذلك كله ١٨٠,٠٠٠ فلورين، شرط — كما قلنا من قبل — أن يكون الناس من الصنف الجيد، أما نفقات السفن والأخشاب لصنع المساكن، والأسلحة، والتجهيزات كلها، للمحافظة على الجيش الموسوم بشارات الصليب، فإن ذلك قد يرتفع إلى مبلغ قدره ٢٠٠,٠٠٠ فلورين ذهب، وإذا ما أضفنا إلى هذا ما يصرف للأساقفة والرهبان، والكهنة العلمانيين، وللمرضى وللنساء وللغرباء، وغير ذلك من النفقات الواجب صرفها بكرم وسخاء، عندما يكون ذلك مناسباً، فلربما تصل النفقات في السنة الأولى إلى ٣٢٠,٠٠٠ فلورين، ولدى حديثي عن إطعام أربعين ألف رجل، فإن من المنطقي والطبيعي أن يكفي ذلك الإطعام خمسين ألف رجل، فيكون المبلغ الإجمالي العام ثمانية وعشرين مرة مائة ألف فلورين في السنة الأولى، إنها في السنة التالية، فالأمل بالرب، أن يكون مشروع مصر قد انتهى، ولن يكلف هؤلاء الرجال وسفنهم أكثر من اثنتين وعشرين مرة مائة ألف فلورين ذهب، وذلك لأسباب عدة، يمكن

الإشارة إليها في الوقت والمكان المناسبين، وبذلك تكون الكلفة الكاملة للستين خمسين مرة مائة ألف فلورين ذهب، على أساس أن قيمة كل فلورين — كما أوضحنا في القسم الأول من كتابنا الثاني هذا — تساوي سولديان فضة كبار من نقود البندقية، وهذا يكفي منطقياً، ويزيد عما هو مطلوب لإنجاز المهام المذكورة.

الفصل الثامن والعشرون: أسئلة وأجوبة حول الاعتراضات المثارة ضد قدرة المسيحيين: أي هل يستطيعون، بعد إخضاع أرض مصر، مجابهة قوات السلطان، لأبل وقوات المسلمين جميعاً، ومن ثم متابعة العمل للاستيلاء على أرض القدس وسورية، وإيجاد حلول للمشاكل الناجمة عن مجاورة القدس وسورية، ووسائل اكتساب صداقة التتار.

ولعل هناك من يرتاب ويرغب في أن يسأل تائلاً: لقد عرضت وجهة نظرك حول طريقة الاستيلاء على مصر، وبينت كيفية ذلك، لكن، كيف يمكن احتلال الأرض المقدسة وسورية، وهذا هو الهدف الذي يجب أن يوجه إليه كل الانتباه، لا سيما وأنت لم تأت حتى الآن، إلا بشكل عام وعابر على ذكر هذا الهدف؟

هذا وإنه لأمر معروف لدى الجميع أنه لا في القدس ولا في سورية كلها أنهار وبحيرات وسباخ تجعلنا نعقد الأمل على إمكانية تنفيذ المشروع كما نرغب، وفق الطريقة الموصلة إلى نتيجة صالحة، كما قلت إنه سوف يحدث في مصر؟

وعلى هذا أجيب قائلاً: على كل مسيحي مخلص أن تكون لديه نية صافية ومجردة، وهدف رئيسي يتغيه من هذا المشروع، وهو استرداد الأرض المقدسة كلياً، وإمكانية الحفاظ عليها بحالة آمنة ومزدهرة، ولهذا كله قلنا إنه ينبغي أن يبدأ المشروع من شواطئ مصر، فبدون ذلك لا مجال على الإطلاق لاحتلال الأرض المقدسة، ولا للحفاظ عليها بسلام

من قبل المؤمنين، أما بشأن ما قيل بأنه لا يوجد في القدس ولا في سورية أنهار ولا سباح يمكن لجيشنا أن يتغلغل من خلالها حتى ينزل ضربات المدمرة من أجل احتلالها في النهاية، فنقرّ أن ذلك لا يخلو من الصحة، لكن يوجد هناك أيضاً البحر، فتلك المناطق قريبة جداً منه، ومدنها إما موجودة أيضاً، على شاطئ البحر، أو بأماكن قريبة منه، وعبر ذلك البحر من الممكن القيام بأعمال كثيرة تجر الولايات الجسيمة على الأعداء، هذا ولئن تمت الأعمال المذكورة ونجرت، سوف يتحتم على قداستكم الاحتفاظ بعدد لا يستهان به من الفرسان ومن الرجالة البواسل من أجل الاستيلاء بقوة على القدس وعلى سورية، كما ينبغي الاحتفاظ كذلك بأسطول بحري من أجل نقل الخيول بوساطة السفن المسيرة بالمجاديف، وكذلك لحمل بقية العتاد اللازم إلى تلك القوات ومجدداً يمكن الاعتراض والقول:

كم هو عدد الرجالة، والفرسان الذين ينبغي نقلهم إلى القدس وإلى سورية، حتى يمكن التغلب برجولة على الذين قد يكونون هربوا من مصر، وعلى الذين في القدس وفي سورية، وعلى جميع الذين يكونون قد احتشدوا من جميع بلدان الكفرة، وانضموا إلى من هم أصلاً سكان تلك البلاد، مع العلم أن قوة التتار عظيمة، وكذلك باقي الأتراك المسلمين القاطنين في الشرق، وفي أفريقيا، ولا سيما إذا شعرت أن قواتكم بدأت تتناقص؟

وعلى هذا يمكنني أن أجيب وأن أقول بكل صدق، مثلما قلت وأجبت مفصلاً في القسم الثاني من هذا الكتاب، أي الكتاب الثاني: إذا قصد التتار أرض الميعاد وأرض سورية في أيام الشتاء، فإنهم في الصيف لن يكون ممكناً لديهم الاستمرار هناك بسبب شدة الحر، الذي يسود في تلك البقاع، وبسبب انعدام المراعي، التي لن تكون متوفرة لإطعام مواشيهم، ومن الممكن إعطاء الحكم ذاته بخصوص الأتراك وسواهم

من الشعوب والأمم التي قد تأتي من الشمال لنجدة تلك الأرض، خاصة أولئك الذين يتكلمون في معيشتهم على الثروة الحيوانية، كما ذكرنا.

فضلاً عما تقدم، إنه إذا ما قدم إلى أرض الميعاد التتار أو غيرهم من الشعوب الغربية عن تلك الأرض، لتقديم النجدة والمساندة للمسلمين، فإن قدومهم بالذات سينقلب إلى هلاك لهم، أكثر من أن يكون ذا فائدة، إذ أنهم لن يستطيعوا أكل غلات تلك الأرض، وإفراغها من المواد الغذائية.

وعلى العموم يتوجب على قائد الجيش الصليبي التصرف بفطنة، وأن يرى ما ينبغي عمله بالمكان والزمان المناسبين، فيجوب المدن في فصل الصيف، ويتولى إقامة الأماكن الدفاعية وبكل خاص ورئسي في المواقع القائمة على شاطئ البحر، وأن يضع لحمايتها عدداً من الفرسان والرجالة، بأفضل حال، بحيث تكون مهمتهم الذهاب والإياب والتجول حسب الزمان والمكان، وكما يطيب لرغباتهم، فيتلفوا المحاصيل والمواد الغذائية، وينزلوا الدمار في تلك الأقاليم بقدر ما يستطيعون.

وإذا ما سأل سائل: كيف يمكن اقتحام الأماكن الحصينة والكبيرة التي هي بحوذة السلطان وجماعته في القدس وفي سورية والاستيلاء عليها؟

أجيبه باختصار: إذا ما أتلقت المواد الغذائية في تلك المناطق، فإن الحاجة القصوى سوف تستبد بهم وتقهرهم، وفي النهاية بعد أمد قصير تراهم وقد تحتم عليهم التخلي عن الأرض وعن الحصون، والجلاء عن البلاد بسبب الجوع، ذلك أنه من غير الممكن أن يصل إليهم أي دعم من أي مكان، بعدما يكون المسيحيون قد سيطروا على البحر، وعلى

أرض مصر، لأن أرض الميعاد المقدسة وسورية واقعتان هذه الأيام تحت سيطرة السلطان، وهذه البلاد مجاورة لمصر، كما أنها نتيجة لموقعها موجهة نحو الغرب، أي أنها واقعة تحت حكم البحر، لأنها محاطة من جانبيين: من الجنوب ومن الشرق، بصحراء كبرى.

وإذا أضف أحدهم ملحاً: أو ليس بالإمكان الإقامة في تلك الصحارى؟ فأجيب قائلاً: نعم وخاصة في البادية، فإن أرض حلب تنتهي حيث يسكن العرب الذين يدعون بالبدو، فقد سكن هؤلاء باستمرار منطقة البرية، وجميع مناطق البادية، وقد اتخذوا أماكن إقامتهم تحت الخيم، ويعيشون في معظم الأوقات اعتماداً على المواشي التي يربونها ويرعونها، ولدى هؤلاء خيولاً جيدة، وسريعة الجري، وهم تراهم تارة يؤيدون المسلمين الذين هم في مصر، ويؤيدون تارة أخرى التتار، الذين يتأخونهم، خاصة في منطقة بغداد، حيث يسيطر أولئك التتار.

أما الأرض التي يحكمها السلطان من جهة الشمال، فإنها متاخمة للمناطق التي يسيطر عليها ملك أرمينيا، وفوقها المياه الباردة، المتاخمة لمنطقة التتار، حسبما تقدم بنا الذكر، وتمتد تلك المناطق من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، وجميع الأنهار الموجودة في تلك المناطق، واقعة في هذه الأيام تحت حكم السلطان، لذلك فإنه لا التتار، ولا أي شعب من تلك الشعوب، يمكنه أن يؤمن لهم الدعم، إلا بعد عناء شديد، وتكبد لنفقات هائلة.

وإذا ما اعترض معترض وقال: كيف يمكنك أن تدمر أرض الميعاد وسورية والسلطان مسيطر عليهما بعدد كبير من الناس، ولا شك أنك لن تتمكن من مجابهته في البسائط، وكيف سيكون بإمكانك إعادة بناء تلك المدن وتحصينها، وإنشاء الحصون حتى تتمكن من مجابهة طاقات السلطان وقواته؟.

وعلى هذا يمكن الإجابة والقول: بعد أن يكون البحر قد صار بأيدي رجالنا، وبعد أن يكونوا قد تمكنوا من التجول فيه بأمان، بأسطول يحمل أعداد كبيرة من الناس، ناقلين معهم ما يشاءون من أعداد كبيرة من الفرسان والرجالة، وأن ينزلوا إلى الأرض التي يريدون الوصول إليها، ولاشك أنهم — بعون الرب — سيتمكنون من التنقل بأمان، والنزول إلى الأرض، وانتزاعها من الأعداء ببساطة، ومن ثم التمرکز هناك بقوة، وبشكل لن يعود بإمكان أحد مقاومتهم فيه، أو إلحاق الأذى بهم.

ويمكنهم بالطريقة نفسها مركزة فرسان ورجالة على الأرض كما يرون ذلك مناسباً، وأن يشنوا الغارات على الأعداء، وبهذه الطريقة سيكون بإمكانهم تدمير المنطقة وإتلافها بشكل لن يعودوا قادرين فيه على إيجاد طعام، لأن شواطئ سورية يقدر طولها بأربعة آلاف ميل، وهذا يعني أن المسلمين لن يستطيعوا، بما لديهم من عناصر بشرية، حراسة السواحل ضد المؤمنين، الذين يستطيعون تدميرها متى أرادوا.

ولما تقدم من أسباب، ولأسباب غيرها يمكن إضافتها في المكان والزمان المناسبين، أقول بكل تواضع واحترام: إنه قد اتضح بجلاء تام أنه بعد الاستيلاء التام على أرض مصر لن يتمكن الكفار من الدفاع عن القدس وعن الأرض المقدسة وسورية ضد الصليبيين إذا ما اتبعوا الأسلوب والمخطط الذي ذكرناه، وأيضاً كما بينا عن المناطق المذكورة، وكذلك يندرج القول نفسه على كثير غيرها من الأراضي والمناطق حيث يسيطر الكفار والمنشقون، والسبب هو أنه عندما تصدر قداستكم الأوامر بتجهيز ذلك الأسطول الكبير، وبإعداد السفن المطلوبة لنقل الخيول، وأسطول آخر لنقل باقي العتاد اللازم للجيش، ولنقل الفرسان والرجالة، كي ينزلوا على الأرض كما يرغبون، طالما أن السلاح مؤمن، والحماس مرتفع، وذلك حسب قرارات قداستكم، وبعدما تكون سلطتكم الأبوية قد وفرت ما يمكن من عون، وما يمكن استغلاله

أيضاً من أرض مصر، وكذلك ما يمكن لقداستكم أن تأخذه من المؤمنين، ومن الخاضعين لسلطانكم، وإنه لا شك أن جميع المناطق الواقعة تحت سلطة بيزنطة، وهي هامة، وكذلك التي يحتلها الأتراك، أو تلك التي يحامي عنها اليونانيون المنشقون وغيرهم من الشعوب الذين يحكمون بعض المناطق ويخضعونها لسلطانهم، هذه كلها سيتمكن — بعون الرب — جيشكم المنظم — كما ذكرنا أعلاه — مع الأسطول، من إخضاعها، ومن ثم تدميرها، وبناء عليه سوف يسقط سكان تلك البلدان نهائياً تحت سلطانكم، وكما قلنا عن مملكة بيزنطة، مثل ذلك يندرج القول عن بلاد المغرب مع سائر الأقطار الأفريقية، وبعدما تكون قد استكم قد استولت على أرض مصر، من الممكن إدخال أسطول إلى بحر الهند، ليسيطر على ذلك البحر، وليخضع لسلطانه الأجزاء والأراضي الواقعة على شواطئه، وعلى مقربة منها.

وكذلك الأمر نفسه في أفريقيا، في ذلك الإقليم الذي كان موطناً للقديس أوغسطين ذلك الأسقف والأب المبجل، والعلامة النابغة.

وسيصير كذلك بالإمكان الحج إلى أماكن عديدة مكرمة ومقدسة، سكنها قديسون وأقاموا فيها، ولا سيما تلك التي تكرم يسوع المسيح فوطئها بقدميه المقدستين من أجل خلاصنا، هذا ومع مرور الأيام سوف يمكن لقداستكم تحقيق رغباتكم فيها، وبشأنها.

وكما سلف وبيننا لن يستطيع التتار مجابهة المؤمنين إلا بمقاومة هزيلة، ومع هذا إنني أحبذ، وبالتالي أنصح باكتساب صداقة هؤلاء القوم، إذا كان ذلك ممكناً، حسبما جاء في القسم الأول من هذا الكتاب، حتى وإن تطلب ذلك عدم التقدير بالإنفاق، ولا يكفي أن نلتمس مودة التتار وصداقتهم، بل يحسن تحريضهم هم وسائر غيرهم من الشعوب لما يكون ضرورياً أو مفيداً لهذا المشروع، فإنه في مجال الحروب وعمل الجيوش جميع الضمانات مطلوبة وكذلك كل الاحتياطات والمبادرات

التي يشير بها الحكماء، وأهل الخبرة.

ولإنجاز كل هذه الأمور الصعبة، لكن المثمرة، لا يجوز مطلقاً التقتير في الإنفاق في سبيل هذه الغاية السامية، كما أنه لا يجوز إرهاق الكنيسة المقدسة بأعباء هذه النفقات، فالأمل معقود على كل مسيحي مؤمن، مع الثقة المتوجبة، حتى نستحق الوصول بسرور إلى تحقيق تلك الغاية المتوخاة والسعيدة.

الفصل التاسع والعشرون: مذكرة خاصة بالأمرء والأعيان الذين يفكرون بهدوء وعقلانية حول شؤون السلاح والحرب.

تأتي النعم كلها والهبات من عند الرب، وبدونه لا يوجد أي خير، ولهذا إن الإنسان لا قيمة له، ولا يعرف إلا بقدر ما يوهب، ولا يقدر إلا بمدى ما يعطى من قبل الرب، وبالتأكيد إن قائد الجيش ومنظمه بحاجة ماسة إلى نعمة الرب، ويلزمه أيضاً:

أولاً: سرعة البديهة، والاهتمام الحثيث والأخذ بما يحقق النتيجة الحسنة.

ثانياً: كرم وسخاء مع الانضباط اللازم.

ثالثاً: عدم الاستهانة بأعدائه، مما يتحتم عليه التنبه والتجسس والإصغاء بعناية كبرى لأخبار كل ما قد يكون مضاداً له أو مؤذياً.

رابعاً: المحافظة على أتباعه وعدم تعريضهم للخطر مهما كان قليلاً، وعدم خوض معركة إلا إذا كانت المبادرة وجميع المعطيات لصالحه.

خامساً: أخذ الحيلة سلفاً لكل ما يكون ضرورياً، وخاصة فيما يتعلق بالقمح، فإن مشاريع كبيرة ممتازة قد أخفقت بسبب انعدام الخبز.

سادساً: تقدير الرجال ومحبتهم والاهتمام بهم أكثر من الاهتمام بالأشياء.

سابعاً: تسيير الأمور وفق الطريقة التي تراها قداستكم نافعة، وأن لا يجيد عن الهدف المرسوم له.

ثامناً : إبداء الشفقة نحو الجميع، وعدم الاقدام على عمل لا يرتضيه لنفسه، وأخذ الحيطة والانتباه إلى شحن السفن في أرضكم بجميع ما يلزمها نوعاً وكماً.

تاسعاً: عدم إهمال الأمور الكبيرة بالانشغال بالأمور الصغيرة.

عاشراً: النظر بعناية إلى أوضاع شعبكم، أي إلى نوعية وأحوال الذين هم من سكان أرضكم، والاهتمام بالمحتاجين أكثر من الاهتمام بالمترفين.

حادي عشر: الالتزام بمبدأ أن البداية الصالحة، والطرق الثابتة، تنتج النهاية الحسنة.

ثاني عشر: إثارة المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، فهذا ما حقق إزدهار روما، وتنفيذ أكبر قدر ممكن حسب المنطق، وليس حسب واقع الحال فقط.

ثالث عشر: الإصغاء إلى الجميع، والتقرير بعد ذلك مع القليلين.

رابع عشر: مكافأة الصالحين، و معاقبة الأشرار، فهذا ما سبب اتساع الامبراطورية الرومانية، ذلك أن الاسم الطيب خير من الثروات الكبرى.

خامس عشر: إكرام رجال الكنيسة المقدسة، ومعاملتهم باحترام، واستقبال التجار، والتعامل معهم بكياسة ولطف.

وحمداً للرب وشكراً له، وبركته على كل ما يتكرم به ويمن من نعم، آمين.

بسم يسوع المسيح الحي والحق آمين

بعض أمور تتوجب معرفتها

التكتم رأس الفضائل، والبوح بالأسرار أس الرذائل، نكران الجميل ربح حارقة، تجفف ينبوع التقوى، وندى الرحمة، ونبع الحنان، ومن لا محبة لديه، لا يملك شيئاً.

يقول القديس [يوحنا] فم الذهب: «لا تنبني الحكمة على معرفة أقوال الرب، بل على العيش حسبها»، والطمع مصدر جميع الشرور، وما من فضيلة أعلى من الصبر، وأي شيء أفضل من الذهب: اللازورد، وأي لازورد؟ المشاعر، وأية مشاعر؟ العقل وأي عقل؟ إنه الأسلوب.

وعندما يقدم الوثنيون إلى الكنيسة، ليصيروا مسيحيين، ينبغي ختم ما يتلونه من وصايا الرب بالحكم التالية:

الذي لا تريد أن يصنع لك، لا تصنعه لغيرك.

ينبغي النظر قبل كل شيء إلى الأمور حسب العقل، والتأكد بعد ذلك منها بالاختبار، حتى يتأكد العقل بالاختبار، أو بمثل حقيقي.

الإقدام بدون عقل، مثل سيف بيد مجنون.

يحكى عن أرسطو أنه بينما كان يسير اقتراب من جبل، فسأله تلاميذه إعطاءهم إحدى الحكم، فقال: دخلت إلى هذا العالم باكياً، وعشت فيه قلقاً، وأغادره مضطرباً جاهلاً بلا معرفة.

يطلب مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، من أعمال البندقية، لنفسه ولذويه بخشوع وتواضع رضا قداسكم الممنوحة لكم من الرب إلهنا.

بداية الكتاب الثالث من هذه الرسالة

ومنه يمكن أن نعرف كيف ينبغي العمل للحفاظ على
أرض الميعاد المقدسة في حالة جيدة وسليمة مطمئنة، وذلك بعد
إخضاعها للسلطة المسيحية، في سبيل مجد الرب، وشرف
الكنيسة الكاثوليكية.

ويتألف هذا الكتاب من مقدمة، ومقسم إلى أقسام وفصول.

عندما يتم بنعمة من الخالق احتلال أرض مصر، وأرض الميعاد
المقدسة، وسورية بكاملها حتى «المياه الباردة» — حسبنا ذكرنا في القسم
الرابع من الكتاب الثاني، من هذه الرسالة — وبعد إخضاع الجميع
للسلطة المسيحية، ذلك أنها الآن بأكملها تحت سيطرة سلطان مصر،
ينبغي الانتباه، وتدبير الأمور أيضاً، بحيث تستمر المحافظة على تلك
الأرض التي انتزعت من قوة الكفار، وذلك في سبيل مجد الرب،
وازدهار الكنيسة الرومانية، ولكي ينعم جميع المؤمنين المسيحيين
القاطنين هناك بحياة سليمة مستقرة، ومزدهرة مثمرة لشؤونهم الجسدية،
وبالتالي لخلاص نفوسهم، هذا وقد قررت الحديث في هذا الكتاب
أحياناً روحانياً، وأحياناً أخرى دنيوياً، وسأمزج أحياناً بين الأمرين
حسبما تقتضي المادة ويستلزم الموضوع.

وبما أن ذلك لا يمكن أن يتم، أو أن ينفذ من دون عون القدير،
المتوجب طلبه، ليس فقط للأمور الهامة والكبرى، بل أيضاً لأصغر
الأمور، ومن يريد الحصول على تلك الحكمة، عليه أن يلتزمها بكل
قواه مع عون المولى، أي أن يحب الرب فوق حب كل شيء، وأن يقدم
الطاعة له والاحترام، وذلك حسبما نقرأ بحق في إنجيل القديس يوحنا
الانجيلي الرسول قوله: «إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي

وعنده نصنع منزلاً. الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي» [يوحنا : ١٤ / ٢٣ — ٢٤]، وكما تكلم في المزامير قائلًا: «إن لم يبن الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون، إن لم يحفظ الرب المدينة فباطلاً يسهر الحراس» [المزامير: ١٢٧ / ١ — ٢].

ولهذا حتى تتحقق المطلوبات بكاملها، وتستمر بثبات كما قلنا، ينبغي أن نخاف الرب في كل شيء، وأن نقدم له الاجلال، حتى يتمكن كل من هو مخلص للرب، أن يسير بموجب هذه الطريقة وهذا الترتيب.

هذا وينبغي الاعتراف، والتأكد من أن الضربات التي نزلت بالناس منذ بداية الخليقة حتى اليوم، إنما نزلت بإذن من الرب، وقد قدرت إما لزيادة أجرنا في الحياة الدنيا، كما يقول بولص الرسول المجيد: «وإنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الرب» [أعمال : ١٤ / ٢٢]، أو أنها نزلت بسبب الخطايا الجسيمة، والآثام القبيحة التي تقترف فعلاً في هذا العالم.

وعندما نقول: إن المحن والمصائب قد أنزلت من قبل الرب، حتى نكسب أجراً أكبر في الحياة الدنيا، فإن هذا ينطبق على أفراد معينين، لا على مجموع الناس، وبناء عليه إن النوازل والمحن التي تنزل عادة بسكان مملكة ما، أو بإقليم، أو بمدينة، فإن نزولها هو عقاب للآثام والذنوب القبيحة المقترفة هناك، كما نقرأ في الكتابات المقدسة.

فقد حل في أيام نوح الطوفان بالمسكونة كلها، بأمر من الذي يحكم من عليائه، وكذلك احترقت في أيام لوط خمس مدن فجأة، وخسفت إلى أسفل الأرض، وكان ذلك بسبب الخطايا، التي كانت وما برحت سبب جميع النوازل والمصائب والضربات.

وبناء عليه ينبغي تجنب الخطايا الجسدية والروحية، طالما أننا لا يمكن أن نحصل منها على منفعة مفيدة، أو على أية ثمرة صالحة، وبما أن

الأرض المقدسة تفوق بمكانتها كل ما سواها من الأراضي، ولأجل خلاص الجنس البشري الذي أراد فادينا أن يحققه فيها، ولأنها سرّة الأرض، يتوجب إجلالها أكثر من أية أرض غيرها في الدنيا، وهي أيضاً التي اختارها الرب، ولذلك بقدر ما نتجنب الخطايا فيها بعزم شديد — حتى لا نغضب الرب — بقدر ما يحبها بغيرة شديدة.

ولكي أستطيع الوصول إلى هدفي، وتحقيق مشروعي، خصصت جزءاً من هذه الرسالة لذكر ما دونه بعض العلماء وسواهم — وهم كثيرون — من معلومات عن التواريخ الشرقية، وخاصة تاريخ الأرض المقدسة، ولسوف أدخلها في كتابي هذا بإيجاز، وسأضيفها لإظهار الحقيقة بجلاء أعظم.

بداية الكتاب الثالث من هذه الرسالة
ومنه يمكن أن نعرف كيف ينبغي العمل للحفاظ على
أرض الميعاد المقدسة في حالة جيدة وسليمة
مطمئنة، بعد إخضاعها للسلطة المسيحية،
في سبيل مجد الرب، وشرف الكنيسة الكاثوليكية.
ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر قسماً.
وسنكتفي بذكر عناوين الأقسام، باستثناء القسمين
الرابع عشر والخامس عشر، حيث سنوردهما كامليين.

الكتاب الثالث

في التعليم الأكيد والصادق لأجل امتلاك

أرض الميعاد المقدسة، وتنميتها وحفظها

عناوين الأقسام

القسم الأول: حول الأمم المتعددة، التي توالى على الحكم في الأرض المقدسة، ويتألف من أربعة عشر فصلاً.

القسم الثاني: بداية قيام الكنيسة الشرقية، وهو في أربعة فصول.

القسم الثالث: الاضطهاد الاسلامي للكنيسة الشرقية، وتبيان أوضاعها المقلقة حتى قدوم الحملة الصليبية الأولى بقيادة غودفري دي بولليون، وبطرس الناسك، وهو في ثمانية فصول.

القسم الرابع: حول النهضة الرائعة لشعوب الغرب من أجل تحرير الأرض المقدسة، أيام بطرس الناسك، وهو في أربعة عشر فصلاً.

القسم الخامس: حول انتصارات الحجاج في مملكة القدس، والشقاكات بينهم حتى أيام الملوك، وهو في ثمانية فصول.

القسم السادس: تحرير كامل الأرض المقدسة، وتطور مملكة القدس في أيام ملوكها اللاتين، وهو في أربعة وعشرين فصلاً.

القسم السابع: صورة الأوضاع المزدهرة في الأرض المقدسة، أيام الملوك اللاتين، وهو يقع في ثلاثة فصول.

القسم الثامن: أسباب دمار أرض الميعاد المقدسة، وفقدانها في أيام صلاح الدين، وفيه ستة فصول.

القسم التاسع: ضياع أرض الميعاد المقدسة في أيام صلاح الدين، وفيه

ثمانية فصول.

القسم العاشر: النجدات التي قدمت من البلدان الغربية إلى الأرض المقدسة، أيام صلاح الدين، وفيه تسعة فصول.

القسم الحادي عشر: حملات جديدة إلى الأرض المقدسة، شرح لأوضاعها، وتقلب الأوضاع وتداول الحكم فيها، منذ وفاة صلاح الدين حتى صليبية القديس لويس، وفيه ستة عشر فصلاً.

القسم الثاني عشر: القديس لويس وحملته، مشاكل متواصلة ومتنوعة في الأرض المقدسة حتى طُرد الصليبيون منها، وفيه اثنين وعشرين فصلاً.

القسم الثالث عشر: بعض الأحداث والنتائج التي أعقبت فقدان الكامل للأرض المقدسة، وهو في أحد عشر فصلاً.

القسم الرابع عشر: وصف أوضاع الأماكن، وبشكل رئيسي في الأرض المقدسة، وهو في اثني عشر فصلاً.

القسم الخامس عشر: الإجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرة التي ورد ذكرها، وهو في خمسة وعشرين فصلاً.

(القسم الرابع عشر)

الفصل الأول

وضع الأقاليم التي تحد الأرض المقدسة.

أرض الميعاد المقدسة موجودة في سورية التي تحتوي جميع البلاد من الدجلة حتى مصر، ويمجدها من الشرق نهر الدجلة، ومن الجنوب الخليج العربي، ومن الغرب البحر المتوسط ومن الشمال أرمينيا وكبدوكيا، وهذه

البلاد، التي اسمها العام، هو سورية، مقسمة إلى عدة أجزاء أصغر، أولاهها، سورية الأولى، وهي قائمة ما بين الدجلة والفرات، وهي تمتد طويلاً نحو الشمال ونحو الجنوب، أي أن نقول: من جبال طوروس حتى الخليج العربي، وهي تعرف أيضاً باسم سورية الجزرية، ومن أجل عرض حولها انظر القسم الخامس — الفصل الأول، وفيها تقع الرها، التي دعي فيها توييت باسم راغس Rages ، وتعرف بشكل عام باسم «الرسا» Resse ، وهي واقعة على مسافة أربع عشرة فرسخاً فيما وراء الفرات، بين جبال طوروس وجبال القوقاز Caucasus ، ومن أجل عرض حولها انظر القسم الخامس — الفصل الثاني، وقد اتخذ هذا القسم الشمالي لنفسه اسم المنطقة كلها، وصار يعرف بشكل دقيق باسم سورية الجزرية، وفي هذه المنطقة أيضاً نينوى وبابل، وزيادة على هذا، سورية هذه مقسمة إلى مقاطعات هي، ميديا، وأكاد، وفارس، كما هو موضح على المصور.

أما سورية الثانية، فتعرف باسم سورية المجوفة (البقاع)، وهي ممتدة من جبال طوروس حتى نهر أبانا، الذي يدخل البحر عند مدينة بانياس، أمام قلعة المرقب، وأنطاكية هي المدينة الرئيسية في سورية هذه.

وتدعى سورية الثالثة باسم «فينيقية» وهي تبدأ عند نهر بانياس المتقدم الذكر، وتمتد جنوباً حتى خربة دستري، التي تعرف باسم دستركتوم Districtum ، تحت جبل الكرمل، وهي تعرف الآن باسم قلعة الحجاج (عثليت)، وتمتد نحو الشرق حتى مدخل حماه، وبناء عليه إنها تحتوي على كفر نعوم (كفر لام)، والمرقب، وطرطوس، ومدن أخرى، والمدينة الرئيسية فيها هي صور.

وتدعى سورية الرابعة باسم سورية دمشق، لأن المدينة الرئيسية فيها هي دمشق، وتدعى أيضاً باسم سورية لبنان، لأنه يوجد فيها جبل لبنان المشهور، كما أنها تدعى بالغالب ببساطة باسم سورية، كما يقول

إشعيا: «رأس سورية (آرام) دمشق» [إشعيا: ٧ / ٨]، فضلاً عن هذا تدعى ثلاثة أجزاء من فلسطين بالسورية، وبناء عليه إن الجزء الخامس من سورية هو فلسطين، وهو يدعى بشكل صحيح باسم الفلسطيني، والمدينة الرئيسية في هذا القسم قيسارية، وهو يبدأ عند قلعة الحجاج [عثليت]، ويمتد نحو الجنوب، مماسياً لساحل البحر المتوسط حتى غزة.

وسورية السادسة، هي فلسطين الثانية، التي المدينة الرئيسية فيها هي القدس، وهي تحتوي جميع المنطقة الهضبية حتى البحر الميت، وإلى قفار قادش — بارينا Barnea ، وبشكل دقيق تعرف هذه المنطقة باسم اليهودية، وهو اسم جزء أطلق على الجميع.

وسورية السابعة هي الجزء الآخر من فلسطين، والمدينة الرئيسية فيه هي مدينة بيسان، عند سفح جبل جلبوع، قرب الأردن، ويضم هذا الجزء الخليل، وسهل جزريل الكبير، ومثل هذا تدعى الأجزاء الثلاثة من العربية باسم السورية، وبناء عليه هناك سورية الثامنة، التي المدينة الرئيسية فيها هي بصرى، وهي تعرف الآن باسم بصريث، وفي قديم العصور باسم برسا، ويحدها منطقة الطرخونية بوساطة الايطورية في الغرب، وتمتد حدودها في الشمال تقريباً إلى دمشق، ونظراً لقرب هذا الجزء من العربية من دمشق، فقد دعي في بعض الأحيان باسم سورية الدمشقية، ولهذا السبب عرف أرتاس [أرتاس الأول — المكابيون ٢ / ٥ / ٨] باسم ملك العربية، في حين أنه كان في الواقع ملك دمشق.

وسورية التاسعة، هي منطقة العربية، التي المدينة الرئيسية فيها هي البتراء، وهي قد عرفت بالقديم باسم النبطية، وأر، وأريوبولس، وهي قائمة عند بركة أرنون ، وعند حدود المكابية والعمورية، وهي قد احتوت مملكة صهيون ملك هشبون، ومملكة عوج ملك باسان، وجبل جلعاد، وتتصل في الجنوب بالعربية الأولى.

وسورية العاشرة، هي التي في العربية، ومدينتها الرئيسية هي مدينة (مونريال) التي تعرف الآن باسم الكرك، وقد عرفت هذه في الأيام الخوالي باسم البتراء في القفار، وهي قائمة فيما وراء البحر الميت، ولها السلطان فوق أراضي مآب، التي قد تعرف أحياناً باسم سورية سوبال Sobal، وتحتوي في داخلها على جميع منطقة أدوم، التي هي جبل سكير مع جميع الأراضي حول البحر الميت، حتى قادش — بارينا، وإلى عزيون — جابر، ومياه الصراع، على الطريق الذهاب إلى البحر الأحمر، وعبر القفار الشاسعة، حتى إلى الفرات، وهذه هي العربية الكبيرة، والأولى، وتعرف أيضاً بالعربية الأدومية، أي المقدسة، ففيها توجد مدينة مكة، وهي المدينة التي يُعبد فيها محمد (ﷺ) (كذا).

الفصل الثاني

المنطقة الساحلية لسورية كلها

لدى خروج الانسان من آسيا الصغرى، يجد درباً ضيقاً بين الجبال وبين البحر، وهو الذي يدعى باسم بوابة سورية [عمود يوحنا، أو محر ييلان]، وبعد سفر نصف يوم من هذا المكان باتجاه الجنوب، يصل الانسان إلى اسكندرونة، وخلف هذا يعبر الجبل الأسود (اللكام أو الأمانوس)، وبعد سفر نصف يوم آخر يصل الانسان إلى قلعتي بغراس ودريساك عند سفح الجبل (اللكام)، ويقوم البحر على مسافة عشرة أميال من أنطاكية، وهناك ميناء اسمه السويدية، أو ميناء القديس سمعان، ومن أجل عرض حوله، انظر القسم الخامس — الفصل الرابع، والقسم السابع — الفصل الأول، ومن ميناء القديس سمعان إلى رأس البسيط عشرين ميلاً، ومن البسيط إلى أوغاريت عشرين ميلاً، ومن أوغاريت إلى اللاذقية عشرة أميال، ومن اللاذقية إلى جبلة عشرة أميال، ومن جبلة إلى بانياس خمسة أميال، وعلى بعد خمسة أميال وراء بانياس، وعلى فرسخ واحد عن البحر، تقوم قلعة المرقب الحصينة جداً،

التي امتلكها فيما مضى الاستبارية، وعند النهر الذي يمر عبر بانياس (انظر الفصل الأول) تنتهي إمارة أنطاكية، وتبدأ كونتية طرابلس، والمسافة من المرقب إلى طرطوس عشرين ميلاً، وتعرف طرطوس باسم أنطروس، لأنها قائمة أمام أشعة الشمس، [كذا والصحيح لأنها مقابل أرواد]، وأرواد جزيرة قائمة في عمق البحر، على مسافة نصف فرسخ من اليايسة، وهناك عليها مدينة بنيت من قبل أراديوس ابن كنعان، وفيها وجد القديس بطرس أم القديس كليمنت، وكان القديس بطرس في طريقه إلى أنطاكية، وقد بنى هناك [في طرطوس] كنيسة صغيرة كرسها على اسم العذراء المباركة، وقد قيل بأن هذه أول كنيسة بنيت على شرفها، ولهذا قامت أم الرب المباركة بكثير من المعجزات هناك، ولهذا فإن هذه الكنيسة مبهجة حتى من قبل الكفار، وإلى جانب طرطوس، وعلى بعد نصف فرسخ إلى الشرق هناك جبال، يسكن فيها بعض المسلمين، وتدعى هذه المنطقة باسم بلاد الحشيشية، وفيها حكم من قبل شيخ الجبل، وهو الذي سوف نتحدث عنه فيما بعد، وعلى مسافة ثمانية فراسخ من طرطوس تقوم قلعة عرقة، التي بناها عرقة ابن كنعان، (القسم الخامس - الفصل السابع)، وهنا تنتهي سلسلة لبنان [الغربية] وكذلك سلسلة لبنان [الشرقية]، وعلى بعد نصف فرسخ من قلعة عرقة تقع بلدة سين [موقع غير معروف - التكوين: ١٠ / ١٧] التي بنيت من قبل سينوس بن كنعان، ويدعو بعض الناس هذه القلعة سينوكيم Sinochim، ويمتد من هذه البلدة والقلعة سهل جميل وخصب ليصل حتى قلعة الكرك، التي كانت فيما مضى بيد الاستبارية، ويمتد هذا السهل لمسافة عشرة فراسخ حتى طرطوس، ويحتوي على عدد كبير من القرى، والحدائق الجميلة التي فيها أشجار التين، والزيتون، وما شابه ذلك، وفيها أعداد كبيرة من الجداول والمراعي الخصبة، ولها السبب يسكن هناك في الخيام التركمان، والمدينين والبدو، مع أزواجهم وأولادهم وقطعانهم، والجانب الشرقي من السهل محدود

بجبال ليست كبيرة الحجم، وتبدأ من هناك من مقابل عرقة، وتمتد بعيداً حتى بعلبك، ويسكن هناك مسلمون يدعون الباطنية، وهم جماعة شجعان بواسل يكرهون الصليبيين، وعلى بعد مسافة عشرين ميلاً من طرطوس تقوم مدينة طرابلس، التي يمكن أن نقرأ حولها في الفصل السادس الفصل الثامن عشر، وعلى مسافة خمسة أميال من طرابلس تقوم أنفة (رأس شقعة جنوب طرابلس — نفين)، وعلى خمسة أميال من نفين تقوم البتروم التي تعرف بشكل عام باسم البترون، وعلى بعد أحد عشر ميلاً من البترون تقوم بيلوس، التي تعرف بشكل عام باسم جبيل، وهي إيفيا Evea القديمة التي أسسها إيفيوس بن كنعان، ومن أجلها انظر الفصل السادس — القسم الثامن عشر، وعلى بعد خمسة أميال من جبيل تقوم مدينة بيروت، التي من أجلها انظر القسم السادس — الفصل السادس، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ من هناك، باتجاه البترون، وبواسطة النهر (الذي يعرف باسم نهر الكلب)، هناك مكان يعرف باسم ممر الكلب، وهنا تقوم الحدود بين بطريكية أنطاكية، وبطريكية القدس، وليس بإمكان إنسان اجتياز ذلك الممر أبداً، إلا برضا المسلمين، لأن بإمكان عدد صغير منهم الدفاع عن ذلك الممر والتحصن به ضد أي عدد كان، لأن الممر هناك قائم بين جرف جبلي حاد والبحر، وعرضه ليس أكثر قامة واحدة، وطوله حوالي ثلاثة أرباع الفرسخ، ومن أجل الحصول على عرض حول هذه الأماكن انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وتقوم صيدا على مسافة عشرة أميال من بيروت، التي تدعي بشكل عام باسم ساغيتا Sageta ومن أجلها انظر القسم السادس — الفصل السادس، وعلى بعد فرسخين من صيدا تقوم الصرند، التي تقدم وصفها، وعلى فرسخين من الصرند يقوم نهر الليطاني، الذي ينبع من إيطورة، عند لحف حاصور، وهو يجري أولاً باتجاه الشرق، ثم باتجاه الغرب، ويجري مجتازاً قلعة كوكب، قرب جبل الشيخ، الذي إلى حده طارد يشوع الأربعة والعشرين ملكاً [يشوع :

[١١]، وإلى هذا المكان نفسه طارد يونانثان ديمتريوس (المكابيون: ١ / ١٢)، وهو الذي يركز البحر بين الصرند وصور، وعلى بعد ثلاثة فراسخ من نهر الليطاني تقوم صور، التي دفن فيها أورجين، وفي صور كثير من آثار القديسين، لأنه في أيام ديوكليتيان، الرب وحده يعرف عدد الذين تسلموا تاج الشهادة هناك، وقد تحدثنا الكثير عن صور في القسم السادس — الفصلين: الحادي عشر والثاني عشر، وفي القسم السابع — الفصل الأول، وعلى بعد فرسخ واحد وراء صور يقوم «بئر ماء الحياة» المشهور، ويقوم على مسافة قرابة رمية سهم الطريق الذي يؤدي إلى الأماكن التالية. والتي تأتي مياهه (Cant, 4 - 15) على شكل جدول من لبنان، ومع أنه يدعى بئر، بالمفرد، هناك أربعة آبار بالشكل نفسه، لكن تختلف بالحجم، وواحد منها مربع وطول جوانبه أربعين ذراعاً، بينما مقياس الثلاثة الأخريات حوالي خمسة وعشرين، وكلها مسيجة بأربعة جدران من حجارة كبيرة جداً، وقد بنيت بشكل من المتعذر تهديمه، وهي بارتفاع رمح، لابل أعلى، وهكذا تتجمع المياه فيهم، وتجري من هناك بكل اتجاه خارج الجدران، ومثل هذا هناك مجاري مياه عميقة وعريضة بقدر خطوة إنسان، ومياه هذه المجاري تروي سهل صور، وتبعد هذه الينابيع مقدار رمية سهم عن البحر، ومع ذلك تحرك دواليب ستة طواحين، وعلى هذا النبع ينطبق قول الإلهي تماماً (الالهيات : ٢٤ / ٣١): «إنني سوف أروي أفضل حدائق، وسوف أسقي بكميات وافرة أرض حديقتي، وانظروا لقد أصبح جدولي نهراً، وغدا نهري بحراً»، وقد تقدم وصف هذا أعلاه في القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وعلى مسافة تزيد قليلاً عن فرسخ واحد عن البئر تقوم قلعة اسكندرون، التي تقدم ذكرها في القسم السادس — الفصل الثامن، وعلى بعد ثلاثة فراسخ من اسكندرون، وبعد عبورك لرأس الناقورة، وعند لحف الجبل هناك تقوم قلعة حمصين (المبرتي — امبرتي) وذلك على شاطئ البحر، والمكان هناك مكان مليء بالحدائق، والكروم

والمياه الجارية، وعلى بعد أربعة فراسخ خلف قلعة حمصين تقوم عكا، التي تدعى أيضاً بتولماس وأبيرون، ولم يملك بنو إسرائيل هذه المدينة قط، ومن أجل عرض حولها انظر القسم السادس — الفصل الرابع، وعلى بعد ثلاثة أميال من عكا تقوم مدينة حيفا، الواقعة عند سفح جبل الكرمل، وفي جانب الشمال، وعلى فرسخ من حيفا هناك الطريق الذي يقود إلى قلعة الحجاج [عثليت]، وبعد حوالي نصف فرسخ، وعلى جبل الكرمل نفسه يوجد كهف إيليا، ومسكن الإشع، والبئر حيث قطن أبناء هذا النبي، وفيما بعد سكن الرهبان الكرمليون فوق جبل الكرمل، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ من حيفا تقوم قلعة عثليت، التي امتلكها فيما مضى فرسان الداوية، وهي قلعة على درجة عظيمة من الحصانة، كما أنها قائمة في أعماق البحر، وبعد ثلاثة أميال من قلعة عثليت تقوم قيسارية فلسطين، ويقدر إطار هذه المنطقة بعشرين ميلاً، ومن أجل عرض حولها، انظر القسم السادس — الفصل الرابع، وعلى مسافة فرسخين من قيسارية يقوم حصن أرسوف أودورا [الدورة هي الطنطورة إلى الشمال من قيسارية]، ومحيط هذه المنطقة خمسة عشر ميلاً، وكانت بالعادة ملكاً للداوية، الذين اعتادوا — حتى بعد فقدانهم لها — على دفع ثمانية وعشرين ألف دينار سنوياً إلى صاحب أرسوف، ومن أجل عرض حولها، انظر القسم الثالث — الفصل الرابع، وعلى بعد ثمانية فراسخ من أرسوف، تقوم يافا، الواقعة على شاطئ البحر، ومن أجل عرض حولها، انظر القسم السادس — الفصل الثالث، وعلى بعد عشرة أميال من يافا (?) تقوم قلعة بيروالد Beroald (خرائب إلى الجنوب من بينى اسمها مينة القلعة) وعلى مسافة عشرة أميال من قلعة بيروالد تقوم عسقلان، ومن أجل عرض حولها انظر القسم السادس — الفصل الثامن، وعلى مسافة خمسة عشر ميلاً من عسقلان تقوم غزة، ومن أجل عرض حولها. انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، ومن غزة إلى الدارون (دير البلح) خمسة عشر ميلاً، ومن أجل عرض عن

الدارون، انظر الكتاب الثاني — القسم الرابع — الفصل الثامن عشر، وهنا نهاية أرض الميعاد، وقد تقدمت بعض الاشارات إلى الأماكن السالفة الذكر في الكتاب الثاني — القسم الرابع — الفصل الخامس والعشرون.

الفصل الثالث

وضع الأماكن الرئيسية في أرض الميعاد المقدسة

تمتد أرض الميعاد طويلاً من دان، القائمة عند سفح جبل لبنان، في الشمال، إلى بئر السبع، القائمة قرب قفار مصر، ومقدار ذلك ثلاثة وثمانين فرسخاً، أما عرضياً فتمتد من البحر المتوسط في الغرب، مسافة ثمانية وعشرين فرسخاً نحو الشرق، ودعونا نتصور أن أرض الميعاد مقسمة بوساطة خطوط مستقيمة إلى ثمانية وعشرين قسماً، تمتد من جبل لبنان إلى القفار، التي من خلالها تذهب إلى مصر، وتقسم مثل هذا إلى ثلاثة وثمانين قسماً بوساطة خطوط مستقيمة ممتدة عبر الخطوط المتقدمة من الغرب إلى الشرق، وبذلك يحصل لدينا عدد كبير من المربعات، مساحة كل واحد منها فرسخ واحد أو ميلين، وفي الفراغ الأول، أو الفراغ الأخير، الذي هو باتجاه الشرق، ويبدأ في الشمال ويمضي نزولاً نحو الجنوب توجد «أر» التي هي الآن ايروبولس أو بتر، ويوجد في المربع السادس والسبعين بتراء القفار، أو الكرك، ومن أجل عرض حولها انظر القسم السادس - الفصل الثامن والفصل الثامن عشر، وفي الفراغ الثاني، والمربع الثاني عشر، توجد بصرى التي هي الآن آدوم، وفي الفراغ الثالث، والمربع الخمسين توجد حسيبان، وفي المربع الحادي والستين توجد القرىات، وفي الفراغ الرابع والمربع السادس والثلاثين توجد الماخور، أو محانيم التي هي الآن حيلون (كذا وحيلون واقعة إلى غربي البحر الميت)، وهذا هو المكان الذي اختبأ به داود، وسجن به يوحنا المعمدان، وفي الرابع عشر عير AYR أو أنوث سير Anothseyr

[تيروس — عراق الأمير — في جنوب جلعاد]، وفي السادس سيزين Sethyn ، وفي الفراغ الخامس والمربع الثامن بعلجاء، وفي الحادي والعشرين جدر [أم قيس] وهي مدينة مسورة مشهورة على جبل سنير، ومنها يمر الطريق الذي يمضي من آخون Achon ممشياً الشاطئ لبحيرة طبرية، ويعبر جدر إلى آرام، ولهذا دعاه اشعيا — ٩ — «طريق البحر» لأنه يمضي مسيراً شاطئاً بحيرة طبرية، ويعبر الوادي في أرض عاشر، الذي يدعى الآن وادي القديس جرجس، الذي تقع مدينة السلط على جانبه الأيسر [البعنة شرقي عكا — مزار الخضر]، ويدعى هذا القسم باسم «جليل الأمم»، ويدعى أيضاً: ما وراء الأردن، لأنه يقود إلى ما وراء الأردن أي إلى البلاد التي اسمها آرام، ويقال أيضاً بأن هذه المنطقة واقعة في جليل الأمم، لأن الجليل نفسها تنتهي هناك عند الأردن، وفي الفراغ السادس والمربع الثالث عشر، منطقة السواد (الجولان)، التي جاء منها بلداد السواد، وقرب أسوار هذه المدينة، وفي الناحية المتجهة نحو جدر، اعتاد المسلمون من دمشق، وبلاد الرافدين، وحران وسورية، ومآب، وعمان، ومن جميع أجزاء الشرق على الاجتماع معاً، حول نبع مزيريب Phiale ، ولأن المكان جميل هناك كانوا يقيمون سوقاً يدوم خلال الصيف، وينصبون الخيام من مختلف الألوان، التي تعطي منظراً جميلاً جداً للناظر من مدينة جدر، وعرفت هذه الخيام في مزامير سليمان باسم خيام جدر، وفي المربع التاسع والثلاثين تقوم بيسان، وفي المربع الثالث والخمسين جازر، والفراغ السابع والمربع الحادي عشر يوجد ضريح يعقوب (الشيخ سعد في حوران — سورية) وعلى فرسخ واحد من هناك يبدأ الصعود إلى جبل سنير، وفي المربع الرابع والعشرين تقوم جدر، وفي الثالث والثلاثين عفريم Ephraim (عفرون)، وفي السادس والعشرين فانويل Pha-nuel (بنويل) وفي الثامن والثلاثين يابس labes (جبش جلعاد)، وفي الخامس والأربعين العال، وفي الخمسين سرتان Sartan (زرتان شرقي

الأردن)، وفي الثامن والخمسين كنيسة القديس يوحنا المعمدان، عند المكان الذي جرى تعميد المسيح فيه (قصر اليهود)، وفي الثاني والستين عين غليم (عين حجلة) عبر البحر الميت، وفي الفراغ الثامن، والمربع الثلاثين تقوم فحل، وفي الحادي والأربعين أرنون، وفي الزابع والأربعين بيت جشموت (السويمية)، وفي الحادي والستين بيت حجلة (قصر حجلة) فهناك بكى بنو إسرائيل على أبيهم يعقوب، عندما جلبوه من مصر، وهو بعيد عن الأردن مقدار فرسخ واحد، وفي الفراغ التاسع، والمربع الثاني والعشرين كورزيم Chorazim (خرسا) وذلك عند بداية بحيرة طبريا، وفي السابع والعشرين خرسا (جرش) التي منها أخذت منطقة جرش اسمها، وفي الثامن والثلاثين اسكوت (تل درعلة)، وفي الثامن والخمسين أريحا، التي تقدم وصفها في القسم الأول — الفصل الثالث، وفي الثالث والثمانين طلعة الدم [Afasantomar ?] ، وفي الفراغ العاشر والمربع الثامن والثلاثين توجد سليم، وقد بنى في الحادي والأربعين مذبح بحجم مدهش، وفي التاسع والأربعين توجد عين دوك، ويوجد خلفها في الجانب الشمالي بلاد تمبني Tampne] هضبة إلى الشرق من جبال السمرة شروعا من تمون جنوبا]، وفي عين دوك أسر بطليموس بن أبوبوس سمعان المكابي [المكابيون : ١ / ١٦ ١٥ — ١٦] بعمل خياني، وهناك من عين دوك منظر بهي نحو الشرق باتجاه بسغا Pisgah وإلى الجنوب حتى إلى أريحا، وفي السادس والخمسين تقوم جلجل، وهو المكان الذي خُتن فيه بنو إسرائيل، وأقاموا لمدة طويلة، وعلى مقربة من جلجل يأتي وادي عكور Achor (في وادي القلط)، وفي الفراغ الحادي عشر تنفصل لبنان عن جبل الشيخ، حيث تقوم دمشق بعيداً عن سفحه في الجهة الشمالية، وقد تقدم وصف دمشق في القسم السادس — الفصل التاسع عشر، وفي هذا الجزء من الجبل هناك الطريق الذي يقود إلى حماه، وفي المربع العشرين هناك جبل يعرف باسم «جبل المائدة»، حيث أطعم الرب هناك وأشبع خمسمائة رجل،

وهناك وعظ بقداس فوق الجبل، وأمضى الليل في الصلاة، ويستطيع الإنسان أن يرى من هذا الجبل جميع المنطقة من حوله لمسافة عشرة فراسخ وأكثر، وهذا الجبل طوله رميتي سهم وعرضه رمية حجر، وعند سفحه هناك نبع، قرب بحيرة طبرية [منية، أو عين تبغه] وعلى بعد ثلاثين خطوة منها، المكان الذي يدعونه باسم عرق النيل، لأنه ينتج سمك Corconus الذي هو غير موجود في أي مكان آخر سوى في النيل، وعلى بعد عشرين خطوة من ذلك النبع، وعلى طول ساحل بحيرة طبرية، ظهر المسيح لسبعة من حواريه، عندما كانوا يصطادون السمك، وعلى مسافة عشر خطوات بعد ذلك هناك المكان، الذي أشعل فيه الحواريون النار، بعد خروجهم من السفينة، ووضعوا سمكة فوقها، وفي المربع الحادي والعشرين توجد كفرناحوم [تل - حوم]، وهي على مقربة من الشواطئ الشمالية لبحيرة طبرية، على بعد فرسخين، ففيه اعتاد الناس على رؤية البيت والمكان الذي اعتاد معشرو الملك على الجلوس فيه (بيت صيدا)، ومنه استدعي متى من قبل المسيح، وفي الحادي والخمسين تقوم فصيل (عين فصيل)، وذلك على بعد ثلاثة فراسخ من الأردن في منطقة منبسطة، حيث يجري جدول كيرث Che-rith نازلاً من الجبل، فهناك سكن إيليا عندما جلبت الصقور اللحم له (الملوك ١ - اصحاح ٢١) وفي السابع والخمسين جبل القرنطل، حيث صام المسيح، غير أنهم أعلنوا أنه أغوي فوق جبل آخر، على بعد فرسخين، نحو بيت إيل وعاي في الجنوب، ودون جبل القرنطل على بعد رميتي سهم منه هناك نبع الإشع، الذي جعل مياهه حلوة، وهو يتدفق حول جلعجل على الجانب الجنوبي من هناك، ويدير هناك ثلاثة طواحين، وينقسم بعد هذا إلى مجريين للماء، يسقيان كثيراً من الحدائق، ويصبان أخيراً في الأردن، وفي الفراغ العشرين، والمربع الثاني والعشرين تقوم بيت صيدا، التي هي مدينة بطرس، وأندرو، وفيليب، وهي قائمة إلى جانب طريق يقود من سورية إلى مصر، إلى حيث يبدأ البحر ينعطف

نحو الجنوب، وفي الثامن والعشرين طبريا، التي منها نالت البحيرة اسمها فصارت تعرف باسم بحيرة طبريا، التي كانت تعرف بالقديم باسم جنسارث، وهي تمتد بعيداً على طول شاطئ البحر، ويوجد على الجانب الجنوبي حمامات دوائية، وعند طبرية تنتهي المنطقة المعروفة باسم منطقة المدن العشرة، التي حدودها: من الشرق بحيرة طبريا، ومن الغرب صيدا، وهذا هو عرضها، أو طولها فيمتد مسيراً شاطئاً البحيرة من الشمال، انطلاقاً من طبرية نفسها حتى دمشق، وقد عرفت باسم منطقة «المدن العشرة» بسبب مدنها العشرة الرئيسية، التي هي: طبرية، صفد، قادش، نفتالي، حاصور، قيسارية، كفر ناحوم، جتابة، بيت صيدا، جرزيم وبيسان التي تعرف أيضاً باسم سكيروبولس، ويطلق على هذه المنطقة عدة أسماء مختلفة، ذلك أنها تعرف أيضاً باسم «منطقة المدن العشرة» ويطورية، والراحوب، وكابول، وجيليل الأمم، ومهما يكن الحال تصل ايطورية حتى بيروت، التي هي قائمة على بعد عشرين فرسخاً إلى الشمال من صيدا، وفي المربع التاسع والخمسين تقوم قلعة ادوم (طلعة الدم)، التي تقوم على الجانب الأيمن، على الطريق من القدس حتى أريحا، وفي المربع الثاني والسبعين توجد هيروديوم (جبل الفريديس) حيث كان هيرود قد دفن، وفي السابع والستين تقوم مسعدة، التي هي قلعة حصينة لا ترام، بنيت من قبل هيرود فوق تلة حقيلة Hachilah، وفي الفراغ الثالث عشر، والمربع الرابع والعشرين، تقوم المجدل، التي هي قلعة مريم المجدلية، وهي تمتلك سهلاً واسعاً موائماً للرعي، وذلك على طرفيها الغربي والشمالي، وفي السابع والأربعين توجد عمان، القائمة في مكان بديع، مليء بجميع أنواع الأشياء الجيدة، — وفي السادس والخمسين تقوم عاي، التي تقدم ذكرها في القسم الأول — الفصل الثالث، وفي التاسع والستين تقوم مدينة الزيب، وعلى مقربة من القفار، وهي تعرف باسم الزيف، فهناك أخفى داود نفسه، ويقع إلى الجنوب منها مباشرة قفار معين، التي يوجد فيها جبل الكرمل،

حيث سكن نابال Nabal ، وفي الفراغ الرابع عشر، والمربع الثاني توجد صوباً، التي دعيت في مزموور سليمان باسم برج لبنان، وفي الخامس عشر قادش — نفتالي (قدس) التي جاء منها برق بن أبي نعوم، الذي قاتل ضد سيسرا فوق جبل الطور، وكانت هذه إحدى مدن اللجوء، وكانت خصبة جداً، وفي الثالث والأربعين بيت أوليا، وفي الحادي والثلاثين قلعة كوكب الهوا Belvoir وفي الرابع والثلاثين بيسان التي تعرف أيضاً باسم سكيزوبولس، وهي قائمة فيما بين جلبوع والأردن، وعلى أسوارها كانوا قد علقوا رؤوس شأوول وأولاده، وفي الثالث والأربعين تل أوزه (أوتياسير — شمال شرق شكيم) حيث حكم ملوك إسرائيل أولاً، وفي الرابع والخمسين تقوم بهوريم Bahurim وصخرة بوهان Bohan ، وفي الثالث والستين تقوم تقوع، حيث ولد عاموس، وهناك دفن بعدما طعنه الملك آحازيا بمدينة في جبهته، وتقع هذه المدينة على مقربة من قفار تقوع، وبين تقوع وعين الجدي يقوم وادي التبريك، حيث هزم يهوشافاط (شعفاط) الأدوميين وبني عمون، وفي الفراغ الخامس عشر والمربع الثلاثين (يوجد المكان حيث) قاتل برق ضد سيسرا، وفي الثالث والثلاثين (مكان) آخر معارك شأوول، وفي الرابع والخمسين توجد شجرة نخيل دبورة التي نقرأ عنها في سفر القضاة: ٤ / ٥ (نخلة دبورة في عطارة شمالي البيرة) وفي الخامس والخمسين بيت إيل أو لوز، حيث رأى يعقوب السلم، وفي السابع والخمسين عفريم (عفرة — الطيبة)، وفي التاسع والخمسين بيت حاني، وفي الثاني والستين مجدل عدر، وفي السابع والستين بيت صور، وفي الفراغ السادس عشر والمربع التاسع عشر، توجد صفد، وفي الثاني والعشرين نفتالي — توبيت، وفي الخامس والعشرين دوثان [خان جب يوسف]، عند سفح جبل بيت أوليا، وهو مكان غني بأشجاره ومروجه، وفي هذا المكان يمكن رؤية الجب الذي ألقي فيه يوسف، وهو على مقربة من الطريق الذي يقود إلى جلعاد، وهو الذي يتصل في بيت صيدا بالطريق

الذاهب من سورية إلى مصر، ويصعد هذا الطريق من دوثنان قرب جبل بيت أوليا، ومن هناك يستمر عبر سهل أسدرايلون (مرج ابن عامر) وذلك على طول سفح جبل الطور، وعلى الجانب الأيسر عبر سهل مجيدو، حيث يصعد جبل عفرة، ويمر عبر غزة إلى داخل مصر، وتطلق كلمة دوثنان على كل من البلدة والوادي، وحدث في وادي دوثنان أن قام السوريون بالإحاطة باليشع (الملوك ٢ — اصحاح ٦)، وقد قادهم إلى وسط السامرة، وفي السابع والثلاثين البيرة، وفي الخامس والأربعين دان، حيث كان العجل الذهبي، وفي السادس والخمسين رامه، وهم يعتقدون بأن هذا المكان قد ذكر من قبل إرميا: «في الرامة سمع صوت»، وهناك رامه أخرى قرب تقوع، على الطريق الذي يقود إلى الخليل، وأخرى في منطقة سبط نفتالي، ليس بعيداً عن قلعة صفد، وأخرى قرب Sepploni، وكذلك أخرى قرب شيلوه، وهؤلاء جميعاً يقعون فوق تلال، وهناك أيضاً رامة أخرى قرب اللد، حيث تقدم ذكرها في القسم السادس — الفصل الرابع، وفي التاسع والخمسين القدس — المدينة المقدسة، التي تقدم وصفها في القسم السابع — الفصل الثاني، وفيما سيأتي في الفصل السابع، وفي الحادي والستين قبر راحيل، وفي السبعين الخليل، وذلك إلى اليمين من ممرا، وتقوم الخليل القديمة حيث حكم داوود لمدة سبع سنوات، فوق رابية على اليمين، وهي مهدامة، وعلى بعد ثلاث رميات سهم إلى الجنوب من هناك تقع الخليل الجديدة، حيث يوجد الكهف المزدوج، وعلى بعد رمية سهم طويلة إلى الغرب من الكهف يوجد حقل دمشق، الذي تقدم ذكره أعلاه (القسم السابع — الفصل الثاني)، وعلى رمية سهم نحو الجنوب، حيث يحفرون في الحقل، يوجد المكان الذي قتل فيه قابيل هابيل، وعلى بعد رميتي سهم من هذا الحفير نفسه، وذلك إلى الغرب، على تلة إلى الجانب الجنوبي من الخليل القديمة، هناك وسط الصخور كهف قياسه ثلاثين قدماً بالعرض، والقياس نفسه بالطول، حيث ناح آدم وحواء على هابيل، ومن الممكن

رؤية مكان فراشهما هناك، مع نبع ماء يتدفق هناك، وفي الثالث والسبعين دبير أو قريات — سفير (الظاهرية)، وفي الفراغ السابع عشر، والمربع السادس توجد لكش التي استولى عليها أبناء دان، وسموها ليسدان Lesedan ، اشتقاقاً من اسم أبيهم، وهي تعرف أيضاً ببساطة باسم دان فقط، وقيسارية فيليب، وتعرف الآن باسم بانياس، وأمام باب هذه المدينة يلتقي (نهر) «أر» و«دان» ويشكلان نهر الأردن، وفي الثالث عشر خيمة حابر القيني، وفي السابع عشر كابول (النبي سبلان)، ويطلق المسلمون على هذا المكان اسم قلعة زبلون، واسمها هذا لا يتوافق مع ما جاء في الملوك الأول — الاصحاح التاسع، وفي الرابع والعشرين إربد، وفي الحادي والثلاثين المكان الذي قاتل فيه جدعون ضد أمالك Amalek ، وفي الثالث والأربعين سبسطية أو السامرة، وكان منظر هذه المدينة في غاية الجمال ويشرف على منظر بهي فوق البحر، وهي الآن نابلس، على بعد رميتي سهم من بئر يعقوب، حيث نقرأ عنه في يشوع — الاصحاح الرابع (؟)، وعلى الطرف اليمين تقوم جرزيم، التي من المعتقد أنها المكان الذي أشارت إليه المرأة السامرية عندما قالت: «تعبد أبائنا في هذا الجبل»، وعلى الجانب الأيسر البلدة التي يعتقد أنها شكيم القديمة، أما شكيم الثانية فمن المعتقد أنها قرية طوباس، وهما تبعدان عن بعضهما بعضاً مقدار رميتي سهم، فضلاً عن هذا فإن الأرض التي منحها يعقوب إلى يوسف ملاصقة لهذا البئر، وهي واد طويل، وخصب، وفائق الجمال، وقد دفنت عظام يوسف في شكيم، وفي الخامس والخمسين جبعه شاول حيث قتلت الزوجة اللاوية (القضاة : ١٩ / ١٤)، وحيث كان شاول قد ولد (صموئيل الأول : ١٠ / ٢٩)، وفي السابع والخمسين Astaroth (Anathotl ?) [عند عطارة قرب جبعة]، وفي الحادي والستين بيت ساحور العتيقة، وفي الثالث والستين بزت (غربي بيت لحم)، وفي السادس والستين بيت هكاريم (جبل الفريديس)، وهي مدينة قائمة فوق رابية مرتفعة، حيث

يمكن منها رؤية العريية كلها حتى جبل سكير، وأماكن اختباء داود، وجميع المناطق المحيطة بالبحر الميت حتى جبل عبريم، وإلى الغرب جميع شاطئ البحر من رامة الخليل حتى بئر السبع وقفار شور، وفي التاسع والستين ممرا حيث سكن إبراهيم، وكانت هناك البلوطة التي حدثنا إرميا بأنها بقيت حية حتى أيام الامبراطور ثيودوريوس، وقد تابعت باستمرار نموها، وغدوها أكبر، ومنها نمت البلوطة التي يمكن رؤيتها في هذه الأيام هناك، والتي هي محل تبجيل، وهذه الشجرة، وإن كانت جافة، لقد تبرهن أنها دوائية، لأنه إذا ما حمل فارس قطعة منها معه، فإن فرسه لن يصاب بالعرج، وفي الفراغ الثامن عشر، والمربع الحادي عشر، توجد حاصور، وهي مدينة حصينة جداً (يشوع ١١ / ١)، وفي الحادي والعشرين تقوم NAASON في الوادي، وتقوم في الثلاثين عين دور، وفي الخامس والثلاثين جرزيل، على الجانب الغربي من جبل جلبوع، وذلك فوق مكان مرتفع بعض الشيء، وهي تعرف الآن باسم زرعين، وأمام أبوابها يمكن رؤية كفر نابوت، وينبع إلى جانب المدينة نبع، وعلى بعد رمية سهم عن جرزيل هناك مشهد فائق الجمال، إنه مشهد الجليل كله حتى جبال فينيقية وجبال الطور والكرمل، وجبل عفريم، وفي الثامن والثلاثين توجد زمين أو زليم (سيا) حيث شفا المسيح المصابين بالجذام (لوقا: ١٧ / ١٢)، وفي السادس والأربعين هناك الهيكل فوق جبل جرزيم، الذي تقدم ذكره أعلاه (القسم الأول — الفصل العاشر) وهناك يوجد أمامها عيال حيث بنى يشوع مذبحاً وقدم ضحايا إلى الرب، وكتب أيضاً سفر التثنية، وتبعاً لبعض الروايات الوصايا من واحد من الاثنين، وقد وضع قسماً من الشعب مع كاهن ولاويين فوق عيال، وقسماً آخر مع كهنة ولاويين فوق جرزيم، وقد طلبوا التبريكات واستنزلوا اللعنات بالتناوب حسبما أمرهم موسى، وفي التاسع والأربعين لبنة (في خان لبنة)، وهي قرية جميلة، وهناك لبنة أخرى في منطقة سبط يهودا، وفي الثامن والخمسين تقوم بيت عور التحتا،

الحادي والعشرين، والمربع التاسع عشر القديس جرجس (اللد)، حيث من المعتقد أن ذلك القديس قد ولد، وهي قرية قائمة في منطقة تلية، في وادي جميل وخصب يمتد حتى بحيرة طبريا في منطقة سبط أشير، التي قيل عنها في سفر التكوين: «أشير خبزه سمين» [تكوين: ٤٩ / ٢٠]، وفي السابع والعشرين توجد الناصرة، وفي الثلاثين المزرعة، وفي الحادي والثلاثين قلعة الفولة، ورامة الفولة، وراء الطريق الذي يقود إلى جرزيل، وفي سهل جرزيل الكبير أو سهل مجيدو، وهو أيضاً يدعى باسم سهل الفولة، أو الجليل الأدنى، أو سهل منطقة الجليل، ويمتد هذا السهل من طبريا مروراً ببیت لحم إلى مجيدو وجبل عفریم ثم يعود عبر جبل الطور وبیت أولیا إلى طبريا، وفي الثالث والخمسين عين عريك (إلى الغرب من النبي صموئيل)، وفي السابع والخمسين قريات — جريم، وفي الحادي والستين المكان الذي جرى تعميد الخصي فيه (عين — حنينا)، وفي الثاني والعشرين، والمربع الرابع عشر توجد تيرون (تبين)، وهي قلعة حصينة جداً بنيت من قبل صاحب طبرية من أجل الدفاع ضد صور، وهي على سبعة فراسخ من صور، ومن أجل صور انظر القسم السادس — الفصل الخامس، وفي الثاني والعشرين قانا الجليل، وفي الخامس والعشرين الصفورية، التي من أجلها أنظر القسم السابع المقبل، وفي الخامس والخمسين مسيدا Maceda [أو مكيدا Makkedah شرقي اللد، وربما قرب وادي عجلون]، وفي السابع والسبعين تل الصافي [قرب بيت جبرين]، التي من أجلها أنظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وفي الفراغ الثالث والعشرين، والمربع الثامن والعشرين القلعة الملكية (معليا في التلال شرقي عكا)، وكانت ملكاً لطائفة فرسان التيوتون، وهي مليئة بالفواكه وجميع الأشياء الجيدة، والفواكه قليلة من حولها، وفي الخامس والثلاثين مجيدو أو الزوبا (في مرج ابن عامر)، وفي السابع والخمسين لكش Lachish (شرقي الرملة)، وفي الثاني والستين قبر المكابيين (المعروف أنه قرب

اللطرون)، وهذا يمكن رؤيته من البحر، لأن المكان يقف مرتفعاً، وفي الثاني والسبعين تمته (تبته)، وفي الفراغ الرابع والعشرين، والمربع الثامن عشر تقع قلعة مونت فورت (القرين)، وفي المربع التاسع عشر هناك قلعة كانت ملكاً لفرسان طائفة التيوتون، فوق جبال سهل ابن عامر، وفي التاسع والعشرين تل القيمون، حيث قتل لامخ قايل بوساطة سهم، وفي السادس والثلاثين قاقون، أو منحتة (كذا ولا علاقة بينهما)، وفي الخمسين شارون (سهل يافا)، فوق جبل شارون، وفي التاسع والخمسين بيت شمس، وفي السادس والسبعين بئر السبع أو جبلين (بيت جبرين)، وقد تقدم وصف هذا المكان في القسم السادس — الفصلان الخامس عشر، والثامن عشر، وفي الفراغ الخامس والعشرين والمربع الحادي والخمسين تقوم اللد أو ديوسيولس، وفي الفراغ السادس والعشرين، والمربع الخامس والخمسين رامتايم صوفيم (صموئيل الأول: ١)، التي هي الرملة الآن (كذا) وقد تقدم وصفها في القسم السادس — الفصل الرابع، وفي الفراغ السابع والعشرين، والمربع السابع صرند الصيداويين، وأمام الباب الجنوبي يمكن رؤية بيعة قائمة في المكان الذي جاء فيه النبي إيليا إلى المرأة الصرندية، وسكن هناك، وأقام ابنها من الموت، زيادة على هذا، من الممكن رؤية الغرفة الصغيرة التي سكن فيها، وفي الخامس عشر اسكندرون، التي تقدم وصفها أعلاه في القسم السادس — الفصل الثامن، وفي السادس والعشرين المكان الذي قتل فيه إيليا أنبياء بعل (الملوك الأول: ١٨)، وفي الحادي والستين عقرون، وفي الخامس والستين أشدود، التي من أجلها انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وفي الفراغ السابع والعشرين، والمربع الثالث صيدا، التي هي مدينة عظيمة، كانت قائمة في سهل طويل، يمتد من الجنوب إلى الشمال، عند سفح جبال لبنان الغربية، وقد بني بين خرائبها مدينة أخرى صغيرة، لكنها حصينة، وهي قائمة من أحد الجوانب في البحر، ولها من

جانبيها قلعتين حصينتين، تقوم إحداهما في الشمال فوق صخرة في البحر، وقد بنيت هناك من قبل حجاج ألمان، أما الثانية ففي الطرف الجنوبي، فوق تلة، وامتلك فيما مضى هاتين القلعتين مع البلدة فرسان الداوية، والأرض هناك خصبة جداً، والهواء لطيف جداً، وفي الثالث عشر، صور، وفي الثامن عشر عكا، وفي السابع والعشرين حيفا، التي من أجلها انظر القسم السادس — الفصل الثالث، وفي الثلاثين قلعة الحجاج [عثليت]، وفي الأربعين قيسارية، وفي السابع والأربعين أرسوف أو الطنطورة أو Antipatris، وفي الثالث والخمسين يافا، وفي الخامس والخمسين ميناء اليهود (مينة روبين — شمالي يينا)، وفي السابع والسبعين غزة، ومن أجل هؤلاء جميعاً انظر الفصل المتقدم.

الفصل الرابع

أوضاع الجبال في المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن، نحو الشرق

يمتد جبل الشيخ فيما وراء الطريق الذي يقود إلى حماة، الذي تقدم وصفه في الفصل السالف، وانتبه إلى أن في لبنان وجبل الشيخ وسعير أو سنير (كذا وسنير هو جبل الشيخ) وجلعاد، والمنطقة التلية حول نبع أرنون، والهضاب بين عمان ومآب والعمورية، كلها جبل واحد متصل، مع أن أجزاء متعددة منه تحمل أسماء مختلفة بسبب ارتفاع قممها، وأعلى هؤلاء جميعاً هو جبل جلعاد، وبناء عليه يمكننا الاستماع إلى إرميا وهو يقول: «جلعاد أنت لي، رأس من لبنان» [إرميا : ٢٢ / ٦]، ونقبل صحة ذلك حرفياً، ويمتد جبل الشيخ المتقدم الذكر حوالي عشرة فراسخ، ومن بعد ذلك تنعطف سلسلة الجبال وتستدير نحو الجنوب، ويدعى أول هذه الجبال باسم جبل سعير أو سنير، وهو ينتهي عند سفوح جبل جلعاد عند مكان يطل مواجهاً مدينة بيسان وجبل جلبوع، وآخرهم ويدعى أيضاً سعير، وهو ينتهي قرب القفار، عند النهاية الجنوبية لأرض الميعاد، وهناك حسبما جاءنا الخبر في سفر التكوين [١٤ / ٦]

ضرب كدر لعومر والملوك الآخرين الذين معه الحوريين في جبلهم سكير، لكنه لم يكن آنذاك يعرف باسم سكير، ذلك أنه حمل اسم سكير لأن عيسو الذي حمل الجبل اسمه منه لم يكن قد ولد بعد، ولهذا من المعتقد أنه دعي بهذا الاسم عن طريق التوقع واستباقاً للحدث، ونقرأ في سفر التثنية — الاصحاح الثالث (كذا): «أنتم مارون بتخم أخوتكم بني عيسو الساكنين في سكير» [التثنية: ٢ / ٤]، وقد قيل هذا في قادش — بارينا، عندما كانوا على وشك القدوم إلى جبل سكير هذا، لأننا لم نقرأ أن بني إسرائيل قد جاءوا في ذلك الوقت إلى جبل سكير هذا، الذي هو قريب من دمشق، وقد سكن عيسو في هذا الجبل عندما رجع يعقوب من بلاد الرافدين، حسبما قرأنا في «التكوين: ٣١»، وذلك عندما أمسك لابان بيعقوب عندما أستلب على جبل جلعاد، وكذلك ما جاء في الاصحاح التالي من أن يعقوب عندما كان على طريقه التقى ملاك الرب وقال له: «هذا معسكر الرب»، فالمكان موجود على ذلك الجبل نفسه، ومن هناك أرسل رسلاً إلى عيسو، وعاد الرسل إليه وأخبروه بأن عيسو كان قادماً لمقابلته، ومعه أربعمئة رجل، وبناء عليه أمضى يعقوب في المعسكر — أي مخنايم — تلك الليلة، وأرسل هدايا إلى أخيه، ونهض باكراً، وأخذ زوجته وأولاده، واجتاز مخاضة ييوق، التي تبعد حوالي ثلاثة فراسخ عن مخنايم، وفي الاصحاح الثاني والثلاثين، رأى عيسو قادماً، إلخ، وجاء بعد هذا: «فرجع عيسو ذلك اليوم في طريقه إلى سكير» (تكوين: ٣٣ / ١٦)، وهذا لا يمكن فهمه حسبما أشير إلى سكير، الذي هو قرب القفار، إلى الجنوب، لأنه بعده يزيد على مائة ميل، وذلك بسبب مختلف الزوجات اللائي تزوج منهن، فقد كانت عنده زوجته هي أهوليامة بنت عنى بنت صبعون الحوي، الذي سكن في سكيروبولس أو بيسان قرب بحيرة طبرية وغير بعيد عن جبل سكير، وزوجة أخرى هي بسمة ابنة إسماعيل، وأخت نايوت، وقد سكن أبناء حوز في جبل آخر اسمه سكير ليس بعيداً عن قفار فاران، على مقربة من

مكان إسماعيل، جدهم لأهمهم، الذي أخبرنا عنه في «التكوين ٢١» بأنه سكن في القفار، وصار رامياً بالقوس، وهناك أيضاً جبل ثالث اسمه سكير على حدود أشدود وعسقلان، في حصّة ميراث سبط يهوذا، والذين سكنوا هناك عرفوا باسم الأدوميين، وإليهم ينتسب أنتباس Antipas، وابنه هيرود، وكل من ينتمي إلى عسقلان يدعى أدومي، ويمكننا أيضاً أن نقسم جميع الأرض فيما وراء الأردن هكذا: وأول منطقة إلى الشمال هي الطرخونية، وقد عرفت بهذا الاسم بسبب قلة ماء المطر، غير أنهم يجمعون ماء المطر في صهاريج وبرك وينقلونه من مكان إلى آخر بوساطة طرخونات (أنابيب مثل الأفاعي)، وعرفت هذه المنطقة في «يشوع ١١» باسم سهل لبنان، وهو يمتد حتى جمالا (الحصن شرقي بحيرة طبريا) وإلى بحيرة طبريا، وهناك في المقام الأول أرض عوص، وفي القسم التالي إلى الجنوب نصف سبط منشا، ثم يلي ذلك سبط جاد عند سفح جبل جلعاد، ثم سبط راويين، بما في ذلك مملكة سيحون ملك هشبون، ويلي هذا منطقة مآب السهلية دون جبل عبريم، في شطيم، حيث نزل بنو إسرائيل هناك لمدة طويلة أمام أريحا، وتمتد أرض مآب حتى البتراء في القفار، مسافة عشرين فرسخاً تقريباً، ويأتي أخيراً جزء من أرض عمون التي تمتد طولياً لتغطي طول البحر الميت، ويصل طرفها الجنوبي حتى ما حول جبل سكير، بقفار فاران قرب قادش — بارينا، وهناك على هذا الطرف قفار سيناء والبحر الميت، غير أن منطقة مآب ومنطقة عمون لم تكونا جزءاً من أرض الميعاد.

الفصل الخامس

وضع الجبال الرئيسية على هذا الجانب من الأردن

يبدأ لبنان بعد جبل الشيخ (انظر الفصل الثالث) وجبال لبنان الشرقية حيث حاصور على نهر الليطاني (القسم السادس — الفصل السادس)، وتمتد هذه لمسافة سفر خمسة أيام، وخمسة فراسخ دون طرابلس، ودون

هذا إلى الجنوب، يأتي جبل شارون (جبل يافا) (انظر الفصل الثاني المتقدم) وعلى مسافة فرسخ طويل واحد من عبلين Abilene يقوم جبل بيت أوليا حيث قتلت يهوديت هولوفرنس، ومن الممكن رؤية هذا الجبل من جميع أجزاء الجليل تقريباً، ويمتد باتجاه الغرب ليصل إلى قانا الجليل، وعلى مقربة منه في الجهة الجنوبية الوادي في سهل دوثنان، حيث غسلت يهوديت نفسها، وهو الذي اجتازته عندما عادت إلى بيت أوليا، ودون هذا الجبل نفسه، في جهة الجنوب، يوجد سهل يمتد من قانا الجليل حتى صفورية، وهو سهل خصب وجميل، ويأتي بعده جبل آخر نحو الجنوب، وهو الذي يمتد من الناصرة في الغرب حوالي الثانية فراسخ إلى الشرق، حيث دوثنان (خان جب يوسف)، وعلى بعد فرسخين من الناصرة يقوم جبل الطور، الذي سيأتي وصفه فيما يلي في الفصل السابع، وفيما وراء جبل الطور، نحو الشرق يقوم وادي شوى، الذي هو وادي الملك، وعلى بعد فرسخ واحد من جبل الطور يقوم جبل النبي ضاحي (حرمون الصغير)، وهو هضبة صغيرة، روابطها حرمونية، وهي أرض مرتفعة وليست جبلاً، وهي متصلة بجبل الطور وفوقها عين دور، حيث سكنت المرأة التي كانت فيها روح عادية (صموئيل الأول: ١٨)، ويمتد حرمون، الذي على طرفه الشمالي نعيم Naim، حوالي أربعة فراسخ حتى نهاية بحيرة طبرية، وعند سفح جبال الناصرة، والطور، وحرمون، وإلى جانب البحر، يقوم جبل الكرمل، الذي في نهايته القصوى، وذلك نحو الجنوب الشرقي قتل لامخ قابيل بسهم، ومن أجل وصف للكرمل انظر ما تقدم، وإلى الجنوب خلف حرمون هناك جبال جلبوع، وهي تمتد من بيسان إلى جرزيل نحو الشرق لمسافة ثلاثة فراسخ، وعلى بعد قرابة رمية سهم من هذا المكان، ينبع نبع جرزيل، حيث نصب الفلسطينيون معسكرهم عندما كان شاول في جلبوع، وهناك مجرى ماء آخر يسيل من حرمون بين هذا النبع وبيسان، ويجتمع بهذا النبع، ويتدفقان معاً عبر وسط

الوادي إلى الأردن، ومقياس هذا الوادي حوالي الفرسخين بالعرض، وفيه قاتل جدعون ضد مدين Midian [القضاة: ١٢]، وقاتل أهاب ضد السوريين [الملوك الأول: ٩] وكان ذلك في هذا السهل أيضاً، على الجانب المتجه نحو الأردن، لأنه الوادي المشهور، الذي يمتد بعيداً حتى البحر الميت، وبعد جلبوع ونحو الجنوب، تأتي البيرة، حيث تبدأ جبال السامرة، وبين هذه الجبال والأردن حوالي الثلاثة فراسخ، وتقع فيها أرض تمنة (تمون)، التي تحتوي على جبال عالية جداً، وهي تمتد نزولاً إلى المنطقة السهلية للأردن، وأما الجبل الذي تقوم عليه البيرة، فيبعد مقدار فرسخين، وهو ينشطر إلى جبلين باتجاه الجنوب، وعلى أحدهما، وهو الذي قائم في الغرب، والذي هو جبل مرتفع، وضع فيه يربعام واحداً من العجلين الذهبيين، ووضع العجل الآخر على بعد نصف فرسخ، على جبل أعلى قائم باتجاه الشرق، ومهما يكن من أمر، فإن بعضهم يعتقد بأن ذلك قد كان في دان، التي تدعى ليش Laish ، وتقوم في الوادي بين هذين الجبلين شكيم التي هي نابلس الآن، وهي مكان فائق الجمال، لكن لا يمكن تحصينها لأن الحجارة من الممكن رميها من الجبلين هناك، ومن أجل عرض عن هذين الجبلين، انظر الفصل الثالث، ويأتي بعد هذا إلى الجنوب المنطقة التلية لليهودية والقدس، ومن أجل عرض عن القدس، وصهيون، والجوار، انظر الفصل السادس، والفصل السابع، ومن أجل القرنطل، انظر الفصل الثالث، وتقع عين الجدي وراء القرنطل باتجاه الجنوب، وعين الجدي جبل مرتفع كثيراً على الشاطئ الغربي للبحر الميت، ولهذا الجبل شكل غريب حيث فيه شعاب صخرية منزلقة ووديان، وفي عين الجدي اعتادت نباتات البلسم على النمو، لكن في أيام هيرود صاحب عسقلان، أخذت الملكة كليوباترا هذه النباتات إلى مصر، بفضل مساعدة مارك أنطوني، وفي مصر يستطيع المسيحيون فقط العناية بها، وعند نهاية عين الجدي يقوم جبل الكرمل، حيث سكن نابال، ووراء ذلك تقوم عمالق Am-

alek، وبعد ذلك باتجاه البحر الأحمر تقوم قادش — بارينا، التي منها أرسل موسى الجواسيس، وقد أقام بنو إسرائيل هناك لمدة طويلة، ومن هناك أمروا بالارتحال حول جبل سدير الموجود في أدوم قرب قفار تل معين، نحو الجنوب — الشرقي، ومن هناك رجعوا بوساطة طريق البحر الأحمر، وجرى وصف قفار تل معين في الفصل الثالث، وجبل بيت لحم في الفصل العاشر، وجبل رامة في الفصل الثالث، وليكن في هذا كفاية فيما يتعلق بالجبال.

الفصل السادس

مجري المياه والأنهار في الأرض المقدسة

ينبع الأردن من سفح جبل لبنان (الفصل الثالث)، ويقولون بأن نهر دان ينبع من نبع اسمه بركة الرام (Phiale) التي تراها دوماً مليئة لكنها لم تفيض قط، وهي قائمة في الفراغ السادس والمربع الثامن عشر، ويقولون بأن سبب هذا، لأنهم وضعوا قشاً في ذلك النبع فوجدوه ثانية في دان، ولهذا السبب قالوا بأن ذلك هو النبع الحقيقي للأردن، ولهذا السبب أطلق المسلمون على ذلك النبع اسم «ميدان»، وهذا ترجمة لكلمة معناها «ماء دان»، وقد دعاه القديس مرقس دلمانوته (مرقص: ٨ / ١٠)، وسماه القديس متى مجدل (متى: ١٥ / ٣٩)، وحين بدأ نهر الأردن على هذه الشاكلة فقد فصل الايطورية عن الطراخونية، وهو يتدفق في البداية ويسير باتجاه الشرق، لكن بعد ذلك باتجاه الجنوب، وفي منتصف الطريق بين منبعه وبحيرة طبرية يدخل وادياً حيث ينتشر هناك فيتحول إلى مستنقعات، وخاصة عندما يذوب الثلج من على جبل لبنان، ويعبر هذا المكان باسم بحيرة ميرون (الحولة)، وهو المكان الذي تحارب فيه يشوع مع يبين ملك حاصور وأربعة وعشرين ملكاً آخرين، ويجف هذا الماء كله تقريباً في الصيف، وتنمو النباتات، حيث الأسود والدبية، وأمثالهما من المخلوقات

تمتلك بيوتها، ومن ثم يمكن إقامة صيد ملكي هناك، ويجري نهر الأردن من هناك ليدخل بحر الجليل فيما بين كفرناحوم وكورزين، وعرف هذا البحر بهذا الاسم لأنه مجاور للجليل، وهو أيضاً يعرف باسم بحر طبرية، اشتقاقاً من أقرب مدينة منه، ويعرف أيضاً باسم بحر جنسارث، وذلك حسب رواية بيد Bede وتتولد أمواجه الملتوية من الريح، أو من قطعة الأرض الصغيرة التي اسمها جنسارث، التي يجري عبرها متدفقاً، وتبعاً لبيد فإن طوله مائة وأربعين ستاديا، وأربعين ستاديا هو عرضه، ويتدفق الأردن بعد هذا ويجري باتجاه الجنوب، ويدخل إلى البحر الميت، الذي يفصل العربية عن اليهودية، وهو يمتد نحو الجنوب قرابة خمسة وثلاثين فرسخاً، أي أنه يمتد حتى قادش — بارينا وقفار فاران، ويعتقد بعضهم بأنه يمتد حتى البحر الأحمر، هذا والمسافة بين هذين البحرين تقدر بسفر خمسة أيام، ويعتقد الناس أن المياه على الطريق، التي ورد ذكرها في الخروج ١٥، والتي اسمها مياه مارة تأتي من هذين البحرين، وأعلن بعضهم أن مياه الأردن لا تدخل إلى البحر الميت، لكنها عندما تصل إلى هناك تبتلعها الأرض، لكن الذين يعرفون يقولون بأن هذه المياه تدخل إليه وتخرج منه، وأن مياه الأردن بالآخر تبتلع من قبل الأرض على مسافة ليست بعيدة من هناك، ولهذا ترتفع مياه البحر عندما ترتفع مياه الأردن، وذلك عندما يذوب الثلج من على جبل لبنان والجبال الأخرى، وعندما تكون هناك أمطار غزيرة، ولون هذا البحر دخاني بشكل دائم، وهو مظلم كأنه مدخنة الجحيم، ويصب نهر يبقو Jabbok في الأردن من الجهة الشرقية، وهو ينبع في الفراغ الثاني، والمربع الخامس والأربعين، ويجري أحياناً إلى الغرب وأحياناً إلى الشمال، وهو يدخل إلى الأردن على بعد ثلاثة فراسخ من بحيرة طبرية، وهو يشبه نهر أرنون الذي ينبع من جبل بسغا، ويدخل إلى الأردن تحت جازر، ومثل هذا يدخل نهران صغيران آخران إلى البحر الميت، أحدهما عند بدايته وثانيهما بعد ذلك بقليل على مسافة

تسعة فراسخ إلى الجنوب، وفي الغرب النهر الصغير الذي دعاه يوسفوس الأردن الصغير، من هناك يدخل إلى البحر الميت، وهو ينبع عند القلعة الملكية (معليا)، وهو متصل بنهر صغير آخر يأتي من قرب كابول [الملوك الأول: ١٣/٩]، وهو يدخل إلى بحيرة طبرية عند بيت صيدا، وقريب من المكان نفسه، ولكن أكثر نحو الجنوب، هناك نهر صغير آخر يدخل فيها، ويأتي هذا النهر من ينابيع موجودة على أطراف دوثنان، وإلى جانب مجدله هناك نهر صغير آخر يأتي من جبل بيت أوليا، ويدخل إلى البحر، وينبع نهر قيشون الصغير أيضا عند سفح الطور، على الجانب الشرقي حيث قاتل برق ضد سيسرا، ويتشكل هذا النهر من مياه الأمطار التي تتساقط على جبل الطور، وجبل الشيخ، والتلال الصغيرة لجبل الشيخ، ويجري جزء منه وينزل حتى نهاية بحيرة طبرية، بينما يجري الشطر الآخر ليصب في البحر المتوسط على بعد ميل واحد من حيفا، وثلاثة أميال من عكا، وهو يدخل إلى البحر قرب المكان الذي قتل فيه ايليا كهنة بعل (الملوك الأول: ١٨)، ويتلقى هذا النهر كثيراً من الماء من جبل عفريم، ومن الأماكن التي هي حول السامرة، ومن جميع سهل جزر يل العظيم، وجبل قابيل (تل قيمون)، ومجدو، وهناك نهر صغير آخر يتدفق من الجانب الشمالي لجبل الشيخ، وهو يصب بالنهر الذي يجري متدفقاً من نبع جزريل، ويصب في الأردن دون بيت لحم، ويصب نهر ييوق أيضاً، وهو الذي تقدم ذكره أعلاه—

الفصل الثالث— في الأردن مقابل العال، ويجري نهر كيرث نزولاً من الجبل الذي أطعم فيه ايليا من قبل الصقور، ويعبر إلى الشرق قرب الفصيل، وقد تقدم وصف جب الإشع في الفصل الثالث، فضلاً عن هذا تجتمع المياه الموجودة حول القدس بالمياه التي تسيل نازلة من جبل عين الجدي، وتدخل إلى البحر الميت عند بدايته، دون المكان الذي يصب نهر الأردن فيه.

وأول الأنهار التي تصب في البحر المتوسط، وهو موجود بالشمال: نهر الليطاني، الذي من أجله انظر أعلاه الفصل الثاني، ويأتي بعده باتجاه الجنوب «بئر مياه الحياة»، الذي تقدم وصفه أعلاه في القسم السادس — الفصل الثامن عشر، يلي ذلك النهر الذي يجري قريباً من القلعة الملكية (معليا)، الذي يتدفق فيما بين القرين ويودين Iudyn ، ويدخل إلى البحر ويصب فيه قرب لمبرتي (حمصين)، ثم يلي ذلك — قرب عكا نهر يصب في البحر وهو ينبع على بعد خمسة أميال، ثم يأتي بعد ذلك نهر قيشون، الذي تقدم للتو وصفه أعلاه، ثم يجري بعد ذلك نهر من قرب سيسلك Syceleع ، وهو الذي يصب في البحر فيما بين قيسارية وأرسوف، ويأتي بعد ذلك نهر يجري من موضع بين بيت زكريا وعمواس خلال وادي ريفائيم Rephaim ، ويمر قرب الرملة، ويصب في البحر قرب يافا، وبعد هذا هناك نهر يجري نزولاً من قرب بيت صور، ويسير أولاً باتجاه الغرب، ثم ينعطف جنوباً، ويجتمع مع النهر القادم من عين حقور في لحي، والذي يجري من الشمال، وقرب هذا المكان كان قد جرى تعميد الخصي (عين حنينا)، وهو يجري من هناك نزولاً إلى ستاؤل Staal قرب عسقلان، من جهة الغرب، ومن ثم يصب في البحر، ويأتي أخيراً نهر بيصور Besor ، الذي ينحدر من جبل الكرمل، فيما وراء بير السبع، وينعطف باتجاه غزه، ومن ثم إلى البحر.

الفصل السابع

الحج من عكا خلال الناصرة حتى القدس

كل من يود زيارة الأماكن المقدسة في أرض الميعاد المختارة، عليه أن يبدأ من الناصرة، حيث بدأ مخلصنا، ويبعد هذا المكان سبعة فراسخ عن عكا، وعلى الطريق إلى صفورية يجد الانسان قلعة، قيل ولد فيها جيمس ويوحنا ابنا زبدي [قلعة شفا عمرو]، ويرى الانسان في الناصرة المكان

الذي أعلن فيه ملاك الرب جبريل، إلى العذراء مريم المباركة بأن القدر الذي رسم منذ البداية من أجل مخلص العالم قرب موعد تنفيذه، وحول هذا وللمزيد من المعلومات انظر القسم السابع - الفصل الثاني، ويوجد في البيعة التي بنيت هناك ثلاثة مذابح، وقد نحتت هذه البيعة من الصخر، وذلك مثل بيعتا المهدي والقيامة، وفي الحقيقة جزء كبير من المدينة القديمة قد نحت في الصخر، وهذا ما يمكن رؤيته في هذا اليوم، وهناك من الممكن رؤية الكنيس، الذي جعل منه الآن كنيسة، حيث تسلم المسيح سفر إشعيا، وقرأ منه «روح المولى الرب علي» [إشعيا: ٦١ / ١]، وعلى بعد رمية أربعة أسهم إلى جنوب المدينة يقوم المكان الذي يدعى «قفزة الرب»، وهو حيث أراد اليهود أن يرموه إلى مكان سحيق، لكنه نجا من بين أيديهم، ورؤي فجأة على طرف الجبل المقابل، وعلى بعد رمية سهم المكان الذي يمكن أن يرى فيه طبعة جسده على الصخرة، ومن ذلك الجبل يمكن للإنسان أن يرى جبل الطور، وجبل الشيخ (حرمون) الأصغر، وحرمونيم، وقرى: عين دور، ونين، وجرزيل، وعرض جميع سهل مرج ابن عامر الكبير وعمقه، وعلى بعد فرسخين من الناصرة تقوم الصفورية، وهي مكان ولادة القديسة حنة، وهناك قلعة جميلة جداً فوق البلدة، ويقال بأن يواكيم قد ولد هناك، وهذا المكان موجود في ديار سبط أشير قرب وادي الكرمل (وادي الملك)، وعلى مسافة فرسخين ونصف الفرسخ من صفورية تقوم قانا الجليل، التي جاء منها سمعان القاني ونائائل، وفيها من الممكن رؤية المكان الذي وقفت عليه جرار الماء الست، حيث حوّل المسيح الماء إلى خمر، وغرفة الطعام حيث كانت المائدة قائمة، وهذه الأماكن مثلها مثل الأماكن الأخرى التي عمل فيها المسيح معجزات، كلها تحت الأرض، وينزل الناس درجات كثيرة إليها، ويدخلون إلى كهف، مثلما يدخلون إلى موضع البشارة، والمهد، وأماكن أخرى كثيرة، ويبدو أن سبب هذا هو الهدم المتوالي للكنائس، حيث علت خرائبها فوق الأرض، وبعد

تسوية هذه الخرائب أقيمت فوقها أبنية أخرى، وبناء عليه بنى المؤمنون أدراجاً تقود إلى الأماكن الأصيلة، ومن ثم قاموا بزيارة الكهوف، وعلى مقربة من هذه المدينة، وفي جانب اليمين هناك رابية طويلة ومستديرة، تقوم على سفوحها وجوانبها المدينة، ودونها، نحو الجنوب، يوجد سهل جميل، وخصب، وممتع، وهو يمتد نحو الصفورية، والنظام الذي على الحجاج اتباعه في زيارة هذه الأماكن هو الذهاب من عكا، والسير خمسة فراسخ نحو الشرق حيث تقوم قانا الجليل، ومنها إلى الجنوب عبر الصفورية والناصرية، وعلى فرسخين من الناصرة يقوم جبل الطور، حيث تبدلت هيئة الرب، وهناك من الممكن رؤية خرائب ثلاثة هياكل، بنيت بناء على رغبة بطرس، وهناك أيضاً خرائب أبنية كثيرة، حيث هي الآن بيوت للأسود وللحيوانات المفترسة الأخرى، وعلى هذا يوجد هنا أيضاً مكان مناسب للصيد الملكي، والجبل صعب الارتقاء، وهو مرتفع جداً، وموائم للتحصين، وعند سفحه، في الجانب الجنوبي، وعلى الطريق الذي يقود من سورية إلى مصر، يوجد المكان الذي قابل فيه مليكصادق إبراهيم، وهو عائد من قتل الملوك الأربعة في المنطقة المجاورة لدمشق، وعند سفحه في الجهة الغربية، في مقابل الناصرة، تقوم البيعة التي بنيت فوق المكان حيث قال المسيح لحوارييه: «لا تخبروا أحداً بالذي رأيتموه»، إلخ، في حين يسيل من سفحه، على الجانب الأيسر، نهر قيسون، وعلى فرسخين من الطور، نحو الجنوب الشرقي، توجد نين، حيث أقام المسيح ابن الأرملة من الموت، وعلى مسافة خمسة عشر فرسخاً من هناك توجد الناصرة، ومن هناك إلى القدس طول الطريق مائة وثلاثة (؟).

الفصل الثامن

الحج خلال مدينة القدس المقدسة وجبل صهيون

عندما تزور هذه الأماكن الأعظم قداسة، التي لا يكاد يكفيها يوم واحد، عليك أن تدخل من باب بنيامين، أي من باب القديس ستيفن، ثم عليك قبل كل شيء أن تزور كنيسة الضريح المقدس، الذي هو المكان الأكثر قداسة في العالم، وهذه الكنيسة دائرية، وقطر الدائرة، ثلاثة وسبعين قدماً بين الأعمدة، من دون احتساب الأجزاء نصف الدائرية التي مقياسها ثلاثين قدماً، وهي قائمة حول دائرة الأعمدة، وحول ضريح الرب القائم في وسط هذه الكنيسة نفسها، هناك استدارة مفتوحة، وبذلك جميع القسم الداخلي من كنيسة الضريح المقدس مفتوح نحو السماء، وكنيسة الجلجلة مجاورة لهذه الكنيسة وهي ذات شكل مستطيل، وهي بمثابة شرفة لكنيسة الضريح المقدس، ولها سقف منخفض بعض الشيء، غير أن الكنيستين تحت سقف واحد، وقبل أن يتسلم المسيحيون الحكم في هذه الأجزاء، بنيت كنيسة بحجم بيعة فوق المكان الذي صلب فيه المسيح، وحيث وجد الصليب، لكن عندما تملك المؤمنون هذه الأجزاء لقد اعتقدوا أن هذا كان صغيراً، وضيّقاً، ولذلك قاموا بتشيد بناء جديد، وعالي النفقات، وجميل، وقوي متين، ضم في إطاره جميع الأماكن المقدسة، وباب الضريح المقدس منخفض كثيراً وصغيراً، وقد جرى وصف شكل الضريح المقدس في القسم السابع — الفصل الثاني، وهو كهف من دون أية فتحات، ولهذا لا يوجد فيه مكان يمكن للضوء أن يدخل منه إليه، وهناك تسعة مصابيح تؤمن الاضاءة الدائمة، وهناك أيضاً كهف آخر أمام هذا الكهف الذي فيه الضريح المقدس، وله الطول نفسه، والعرض والشكل، وهذان الكهفان يبدوان وكأنهما كهف واحد، حيث يدخل الانسان من أحدهما إلى الآخر، وإلى داخل هذا الكهف الخارجي دخلت النساء عندما قلن: «من الذي سيزيح الحجرة من باب الضريح»؟ وقد انزاحت هذه الحجرة حتى باب الكهف الداخلي، وفي هذا اليوم هناك جزء كبير موجود أمام هذا الباب المتقدم الذكر، وقد نقل الجزء الباقي منها إلى جبل صهيون، حيث يستند

عليها أحد المذابح، وإلى جانب خلوة الضريح المقدس هناك عمود يحمل صورة تمثل القديس بانتاليون Pantaleon ، وكان عندما قام واحد من المسلمين باقتلاع عيني هذا التمثال، سقطت عيناه فوراً على الأرض، ويقوم جبل أكر (الجمجمة) حيث صلب الرب على بعد مائة قدم وثمانية أقدام عن موضع الضريح المقدس، وعلى الانسان أن يصعد تسعة عشر قدماً فوق رصيف الكنيسة، إلى المكان الذي نصب فيه الصليب، والصدع الموجود في الصخرة حيث جرى تثبيت الصليب، يبلغ من الحجم مقدار ما يتسع لاستيعاب رأس إنسان، وهو عميق مفتوح من المكان الذي وضع فيه الصليب حتى رصيف الكنيسة، أي مقدار تسعة عشر قدماً، وما يزال لون دم مولانا يسوع المسيح ظاهراً حتى هذا اليوم في الصدع في الصخرة، وكان هذا الصدع موجوداً تحت يده اليسرى، وجرى بناء مذبح فائق الجمال قرب هذا المكان، حيث كانت يده اليسرى، وقد زين بالرخام، وقد عملت أرضية هذه البيعة ورصفت أيضاً بالرخام، أما الجدران فقد غطيت بالرخام، وزينت بأعمال الفسيفساء، والمكان الذي جرى تثبيت الصليب فيه عبارة عن فتحة عمقها كفان، وهي واسعة بما فيه الكفاية لاستيعاب رأس إنسان، وعلى بعد عشرة أقدام من الجمجمة، وعلى الجانب الأيسر، هناك مذبح يوجد تحته عمود، عنده جرى جلد الرب، وقد جلب إلى هذا المكان من بيت بيليطس، وجرت تغطيته بحجر المذبح بطريقة يمكن بوساطتها لمسه، ورؤيته، وتقيله من قبل المؤمنين، وهو حجري من نوع الرخام السماقي الداكن، مع بعض البقع الحمراء الطبيعية، وهي التي يدعوها العامة بقع دم المسيح، وقد جرى نقل جزء آخر من هذا العمود إلى القسطنطينية، وهناك مثل هذا مكان آخر، على الجانب الأيسر من الكنيسة، فيه عمود اسطواني صغير، يقال بأن يسوعاً قد ربط إليه وجلد، وعلى بعد اثني عشر قدماً إلى الشرق من المذبح، يذهب الانسان من أمام العمود، وينزل ثمان وأربعين درجة إلى المكان الذي وجدت فيه هيلانة (حنة)

الصليب، ويوجد هناك بيعة مع مذبحين، تحت الأرض، ففي هذا المكان تم العثور على الصليب، ومن المعتقد أنه كان واحداً من خنادق المدينة القديمة، التي كانت تطاح إليها الصلبان بعد إنزال الأجساد من عليها، والمكان الذي وقفت فيه العذراء المباركة قرب الصليب مع النساء الأخريات لم يكن تحت الذراع الشمالي للصليب، حسبما يعتقد كثيرون، بل أمام وجه الابن، تقريباً في مواجهة الغرب، ومن الممكن رؤية هذا المكان عند سفح الصخرة المتقدمة الذكر، وعلى مقربة منها يمكن رؤية المكان الذي غسل فيه يوسف الرامي ونيقوديموس يسوعاً بعدما أنزلاه من على الصليب، ويقال بأن الرب يسوع قد أشار إلى هذا المكان، وأعلن أنه كان وسط العالم، وهو يقوم في وسط شرفة جوقة المنشدين، وعلى الجانب الأيسر من شرفة جوقة المنشدين هناك موضع سجن المسيح، وقرب هذا المكان الذي قابل فيه مولانا مريم المجدلية، وذلك عندما قام من الموت، وقد افترضت أنه الحدائقي فقالت له: «سيدي، إذا كنت أنت قد حملته من هناك، أخبرني أين مددته، فأنا سوف أنقله»، وقد أقاموا في هذا المكان مذبحاً، ذكرى لهذا الظهور، وذلك فوق في مقابل الضريح المقدس، ويذهب الانسان من هناك إلى الباب الغربي، حيث تحولت القديسة مريم المصرية إلى الإيمان، بسبب أنها لم تستطع أن تدخلها مع بقية المسيحيين الآخرين، ويوجد أيضاً في هذه الكنيسة عدد كبير من المذابح المبنية بشكل جيد، والحسنة التزيين.

ويتوجب بعد هذا على الحاج أن يذهب إلى جبل صهيون، وعلى الطريق هناك — عبر مايقابل برج داود — يجد الانسان المكان الذي قتل فيه هيرود أغريبا جيمس أخو يوحنا بالسيف، ويقترب خطأ من يقول بأن رأسه قد جلب إلى هناك بأيدي الملائكة من يافا، ودفن هناك، وأول ما يجد الانسان على جبل صهيون كنيسة القديس المخلص، التي كانت في يوم من الأيام بيت كييفاس، ففيه سكن المسيح وأقام حتى

الصباح، بعدما اعتقل، وحدث هناك أيضاً أن قام رؤساء الكهنة مع جميع أعضاء المجلس بالبحث عن شهود زور ضد يسوع، في سبيل قتله، وفي هذا المكان حدث أن قام الكاهن الأعلى، وقال له: «أستحلفك بالرب الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الرب» وقد أجابه يسوع قائلاً: «من الآن تبصرون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحب السماء» [متى: ٢٦ / ٦٤ — ٦٥]، ثم قام الكاهن الأعلى بتمزيق ثيابه، لكن ما يشبه مئزر المسيح لم يمزق، الأمر الذي يرمز إلى نمط تهديم الكنيس وقوة الكنيسة، ثم أعلنوه مجرمًا يستحق الاعدام، وبصقوا في وجهه، وضربوه ولكموه، وسخر آخرون منه واستهزأوا به وهم يضربونه، ولطموه على وجهه وضربوه وغطوا عينيه قائلين: «تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك؟» وشتمه آخرون كثر منهم، وتفوهوا بالتجديف وهم يخاطبونه وفي العادة من الممكن رؤية جزء من العمود الذي ربط إليه حتى الصباح وجلد، وهناك أيضاً في هذا المكان من الممكن رؤية السجن، الذي سجن المسيح فيه بعد ارفضاض مجلس التعذيب، وبقي فيه حتى الصباح، حيث سمع ما لا يحصى من الشتائم وتحمل كثيراً من الالهانات من عبيد لا يساؤون شيئاً، وهناك أيضاً حجر كبير فوق المذبح، وقد قيل بأنه الحجر الذي كان موضوعاً فوق ضريح المولى يسوع وعلى رمية حجر نحو الجنوب من هذا المكان، هناك المكان الذي سكنت فيه العذراء مريم الرائعة، بعد صعود ابنها إلى السماء، وهناك أيضاً العلية التي فارقت فيها هذه الحياة، وهناك أيضاً كنيسة القديس يوحنا الانجيلي، التي قيل بأنها أول كنيسة بنيت في العالم، وفي هذه الكنيسة اعتاد هذا الرسول على إقامة القداس لتلك الملكة الأكثر قداسة مادامت حية، واعتاد الناس أن يروا في هذا المكان صخرة حمراء، كانت تستخدم بمثابة مذبح، وقد أعلنوا بأنها جلبت من جبل سيناء على أيدي الملائكة، وذلك استجابة لدعاء القديس توما، وهو عائد من الهند، وعلى مقربة من المكان المتقدم الذكر قاعة العشاء الأخير، وهي بناء كبير

مبلط، فيه تعشى المسيح مع حواريينه، وغسل أقدامهم، وأعطاهم جسده ودمه، وظهر إليهم عدة مرات بعد قيامته، وقد جرى بناء بيعة تحتها، وهنا جرى اختيار متى حوارياً، وقد أنزلت الروح القدس على الحواريين، وجرى اختيار القساوسة السبعة، كما جرى رسم القديس جيمس الأصغر أسقفاً للقدس، ومن الممكن رؤية هذه الأماكن جميعها كل واحد منها على حدة، وهنا من الممكن رؤية الجرن الذي صب فيه المسيح الماء، لغسل أقدام حواريينه، وعلى مقربة قريبة من هناك قبور سليمان، وداوود، وملوك اليهودية الآخرين، جزئياً داخل كنيسة جبل صهيون، وجزئياً خارجها، في الطرف الشمالي، وليس بعيداً عن هناك ضريح القديس ستيفن، الشهيد الأول، الذي دفن فيه بعد العثور على جسده.

الفصل التاسع

الحج من عكا خلال الناصرة حتى القدس

عندما ينحدر الانسان قادماً من جبل صهيون، يجد المكان الذي عندما كان الحواريون يحملون العذراء الرائعة إلى قبرها في وادي شعفاط، أراد الكاهن الأعظم لليهود أن يختطف جسدها، لكن يده تيبست مباشرة، وهناك أيضاً كنيسة تعرف باسم كنيسة صياح الذئك، حيث توجد حفرة عميقة فيها بكى بطرس بمرارة، ويمضي الانسان من هناك إلى الجنوب إلى الحقل الذي شري مقابل الثلاثين قطعة من الفضة، وهو المبلغ الذي باع فيه يهوذا المسيح، ثم يذهب الانسان إلى نبع سلوان، عند سفح جبل صهيون، على مقربة من قصر سليمان، ويتدفق منها الماء إلى البركة التحتا، وإلى بركة استحمام سليمان، ولا تتدفق هذه المياه بشكل دائم لكن بين آونة وأخرى، وتتلقى البركتان كلتاها الماء من نبع جيحون، الذي ينبع في حقل القصار حيث حمل ربشاقة Reb-shakeh ضد الرب لدى سماعه بالناس على السور، وإلى الشرق وعلى

مقربة من هاتين البركتين يجري نهر قدرون، الذي يتغذى من المياه المتجمعة من الأراضي المرتفعة، من ذلك: من رامة، ومن عين توت Anathoth ، ومن ضريح ملكة عديابين Adiabene ، ويمكن للانسان أن يسمع خرير اندفاع الماء وهو يتدفق من مكان بعيد من تحت ضريح العذراء، وهكذا تجتمع هذه المياه مع بعضها وتجري منحدره إلى وادي جهنم Gehinnon ، الذي يدعى أيضاً باسم محلة توفت Toph-et ، وفي هذا الوادي أيضاً صخرة زحلت Zoheleth ، وجب روجل Rogel ، حيث صام أدونيا Adonijah عندما حاول أن يجعل نفسه ملكاً، فالحدائق والبساتين تسقى بمياه نهر سيحون، وعندما يمضي الانسان قاطعاً شعفاط وذلك انطلاقاً من نبع سلوان، في مقابلة الهيكل، يمكنه أن يرى عند سفح جبل الزيتون ضريح يهوشافاط (قبر زكريا حالياً) ملك اليهودية، حيث يوجد فوقه أهرام جميل جداً، وعلى بعد أكثر من رمية حجر إلى الشمال من هذا الضريح يوجد المكان الذي صلي المسيح فيه، وبعد ذلك على مسافة رمية حجر، توجد كنيسة جيسماني، حيث الحديقة التي دخل المسيح إليها مع حواريه، وذلك على جانب جبل الزيتون، وهي مرتبطة بالصخرة المجوفة التي تطل من الجبل، فتحت هذه الصخرة جلس الحواريون، عندما قال المسيح لهم: «اجلسوا هنا وصلوا حتى لا تتعرضوا للإغواء»، ومن الممكن رؤية المكان الذي جلسوا فيه في هذا اليوم، ومن الممكن أيضاً رؤية المكان الذي أخذته فيه الحشود، وحيث جرت خيافته من قبل يهوذا بوساطة قبلة، ومن الممكن رؤية علامة رأسه الأجرد على الصخرة المنزقة، وكذلك آثار شعره، ومن الممكن رؤية علامات أصابعه على الجانب الآخر من الصخرة، وكأنهم قد طبعوا فوق عجين، ويقال بأن هذه العلامات قد حدثت لدى محاولته تسلق الصخرة عندما اعتقل من قبل الحشود، وهذه حكاية مدهشة، حيث تحدث الناس الذين عانوها، وحكوا أنهم لم يتمكنوا بالأدوات المعدنية ليس فقط من قطع أية قطعة من هذه الصخرة لا بل

لم يتمكنوا من خدشها وإثارة الغبار منها، ومثل هذا، نجد في المكان الذي صلى فيه، وبما أنه كان متألماً صلى لوقت طويل، وأخذ عرقه يتساقط مثل الدم فوق الأرض، كما أن علامات ركبتيه ويديه قد انطبعت فوق الصخرة، علماً أنه لا يمكن قطع شظية من هذه الصخرة ولا من الصخرة الأخرى، ويمر الطريق الصاعد إلى جبل الزيتون بين هذا المكان وجيسماني، مقابل كنيسة العذراء المباركة، والمسافة من باب الكنيسة المتقدمة الذكر، أي كنيسة جيسماني إلى باب البيعة الذي يقود إلى الكنيسة التي فيها ضريح العذراء الرائعة، خمسين خطوة، وذلك باتجاه الغرب، لكن في قلب الوادي، لأبل على طول سفح جبل الزيتون، وكانت هذه الكنيسة قبل خراب القدس فوق سطح الأرض، غير أنها الآن دون سطح الأرض بشكل سحيق، لأن الرومان — كما أخبرنا يوسفوس — حاصروا المدينة من هذا الجانب، وقطعوا أشجار جبل الزيتون، والأشجار الأخرى، وملأوها (أو ملأوه — أي الوادي؟) بالركام الذي نتج هناك، وبعد ذلك، أي بعد الاستيلاء على المدينة، تمت تسوية جبل موريا نفسه، وذلك خشية ترك هذا المكان الحصين قائماً، وأمر هديران برمي أنقاض الهيكل وساحاته في نهر قدرون، وبذلك سبب إغراق المدينة بالملح، ونتيجة لامتلاء الكنيسة، ولأنها كانت عالية، ومقبة وذات أقواس، فقد تمت تغطيتها بالكامل، وصار ما فوقها أرضاً مسطحة، مع طريق عام فوقها، ومع هذا فقد بقي فوق سطح الأرض بناء مثل البيعة، الذي يمكنك الدخول منه، ومن ثم النزول حوالي الستين درجة تحت الأرض إلى الكنيسة نفسها، وهو من الرخام، مزين بشكل بديع، غير أن الكنيسة رطبة جداً، لأن نهر قدرون يمر من تحتها، وهو مليء بالماء من الأماكن المتقدم ذكرها، وهو أيضاً محتفظ بمجره القديم، وعندما تكون هناك أمطار غزيرة، يفيض النهر المتقدم الذكر، ويملاً الكنيسة، إلى حد أنه غالباً ما تغطي المياه جميع الأدراج، وتتدفق المياه من باب البيعة القائمة عند رأسهم، والكنيسة منارة بنوافذ موجودة

في الطرف الشرقي، وإذا ما قدرنا شكل الأرض، نراها قد وضعت بشكل جيد، من أجل تلقي النور من جهة جبل الزيتون، وإلى جانب ضريح العذراء هناك ضريح القديس جيمس الأصغر، لأن المسيحيين قد دفنوه هناك، بعدما ألقى اليهود به من الهيكل، ولقد تقدم وصف ضريح الملكة حنة (هيلانة)، ولم تكن حنة هذه أم قسطنطين، بل ملكة عديابين، التي أطعمت أخوانها في القدس، عندما كانت هناك مجاعة في القدس في السنتين الرابعة والحادية عشرة من حكم القيصر كلوديوس، وبعدهما ينهي الحاج زيارة هذه الأماكن عليه المضي عبر الطريق الذي قلنا بأنه يمر قرب ضريح العذراء، وبذلك يتبع المسيح، ويجذو جذوه، عندما جاء إلى القدس على ظهر أتان، في يوم أحد السعف، ويتوجب عليه أن يصرخ بصوت مرتفع مع حشود المؤمنين: «المجد لابن داود، مبارك الذي يأتي باسم الرب، سلام في السماء (كذا)، ومجد في الأعالي»، وقد دخل المسيح إلى القدس من خلال الباب الذهبي، ويقوم على مسافة رمية قوس من ها هنا، هيكل الرب، فوق جبل موريا، وفي هذا الهيكل كان يسوع موجوداً، عندما كان طفلاً عمره أربعين يوماً، فغنى سمعان له قائلاً: «الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام» [لوقا: ٢ / ٢٦]، وجاءت النبوة حنة [لوقا: ٢ / ٣٦] وتحدثت إليه، وإلى جميع الذين كانوا يتطلعون نحو فداء في إسرائيل، وكان وقتها طفلاً في الثانية عشرة من عمره وقد وقف في وسط رؤساء الكهنة والكتبة وأخذ يعلمهم بواسطة أسئلته الحكيمة بدلاً من التعلم منهم، وهناك — عندما بلغ إلى حد الرجولة — تولى طرد الذين كانوا يبيعون ويشترون إلى خارج الهيكل، وقلب موائد الصيارفة، ومقاعد باعة الحمام قائلاً لهم: «لا تجعلوا بيتي مغارة لصوص»، [متى: ٢١ / ١٢]، وهناك غفر للمرأة التي أخذت وهي تزني، وشملت مغفرته العقوبة والذنب، وهناك قذفه اليهود بالحجارة عندما قال: «أنا وأبي واحد»، وهنا فضل فلسي الأرملة على المنح الكبيرة للآخرين، وقد سوغ العطاء الشعبي

المتواضع، وأدان الفريسيين المتكبرين، وقام بعدة أعمال أخرى تساعد على خلاصنا، والشكل الداخلي للهيكل شكل مربع، ومسور من الداخل، ومقاسه أكثر من رمية سهم في الطول وكذلك بالعرض، وله من الجهة الغربية بابان، يدعى أحدهما باسم الباب الجميل، ومن أجل عرض حوله، انظر ما تقدم: القسم الأول، الفصل الثامن، وعند هذا الباب تولى بطرس شفاء الرجل الأعرج (أعمال: ٣)، وليس للباب الآخر اسم يعرف به، ويوجد على الطرف الشمالي باب، وهناك باب آخر على الجانب الشرقي يدعى باسم الباب الذهبي، ويقوم فوق كل واحد من هذه الأبواب برج مرتفع، اعتاد كهنة المسلمين على ارتقائه والاعلان عن شريعة محمد (ﷺ) وما من إنسان يتجرأ على الدخول إلى هذا المكان المغلق، إلا وهو نظيف القدمين، ومن أجل هذا الأمر جرى تعيين حافضي الأبواب أو البوابين، ويوجد في وسط هذا المكان المغلق مكان مغلق آخر، وهو مربع وأعلى من المكان الخارجي، وإليه تصعد من جهتي الغرب والجنوب بوساطة عدد متواصل من درجات السلم، وفي وسط هذا المكان المغلق جرى بناء الهيكل، وذلك على المكان الذي شُري من قبل داود، وهو أرض بيدر أرونا اليوسفي، وذلك من أجل أن يبنى مذبحاً للرب، وهو المكان الذي أقام فيه الوباء الذي هاجم الناس، ومن أجل هذا انظر سفر صموئيل الثاني، وللهيكل ثمان زوايا وثمانية جوانب، وجدرانه مغلفة بالرخام ومزينة بأعمال الفسيفساء، ويقال إنه على مقربة من هيكل الرب يوجد هيكل سليمان الذي فيه هيكلان، وما من مسيحي يمكنه الدخول إليه ما لم يُسمع دعاؤه وفقاً لكلمات سليمان، وإذا لم يرد الحاج أن يدخل من خلال الباب الذي دخل المسيح منه إلى الهيكل، دعه يدخل من خلال باب الوادي، الموجود على مسافة قرابة رمية حجر من الساحة المغلقة الكبيرة في الهيكل، وذلك من جهة الجنوب، وقبل أن يدخل الباب سوف يرى على جهة يمينه المكان الذي ربط فيه القديس ستيفن، عندما رجم بالحجارة، وفي هذا المكان صلى

وهو راكع على ركبتيه من أجل قتلته قائلاً: «يا رب لا تجعل هذا الذنب في حسابهم».

الفصل العاشر

الحج إلى الأماكن المنسية في القدس

عندما تكون قد دخلت إلى باب الوادي المتقدم الذكر، ستمر أولاً على جهة يمينك على كنيسة القديسة حنة، حيث سترى فيها القبو الذي ولدت فيه العذراء مريم الرائعة، وذلك في المكان الذي قام فيه بيت يواكيم والقديسة حنة، وعلى مقربة من البركة الكبيرة التي تعرف باسم البركة الداخلية، والتي صنعت من قبل حزقيا، وفق الطريقة التالية: فقد أوقف المجرى الأعلى لجيحون، وجلبه مباشرة إلى الجانب الغربي من مدينة داود، حيث حفربصعوبة بالحديد في الصخر، وذلك حسبما نقرأ في الإلهيات: ٤٨ / ١٧، وقاد المياه في وسط المدينة إلى البركة، وذلك من أجل أن يتمكن الناس وقت الحصار من الحصول على ماء الشرب، وأن لا يكون بمقدرة الآشوريون إعاقته، لكنه قاد نبع مياه جيحون إلى البركة العليا، التي هي فوق بركة استحمام سليمان، وكان هذا العمل قد بدأه آحاز، لكنه لم يكمله، وأتى إشعيا (٧ / ٣) على ذكر هذه البركة والنبع، وذلك لدى قوله: «إخرج وتقدم الآن... إلى طرف قناة البركة العليا، إلى سكة حقل القصار»، ودُعيت هذه باسم البركة العليا، تقديراً لسليمان، ومن أجل ذلك أنظر الاصحاح الثامن، وهناك بركة رابعة في المدينة على جهة اليسار من باب الوادي المتقدم الذكر، حتى وإن كانت القديسة حنة على اليمين، وتعرف هذه باسم بركة الضأن، على مقربة من مذبح الهيكل، ففيها اعتاد النثينيمين Nethinims على غسل الضحايا، ومن ثم إحضارها إلى الكهنة، من أجل تقديمها في الهيكل، ويرى هذا حتى هذا اليوم، مع قناطرها الخمسة، التي اعتاد المرضى على الانتظار تحتها حتى تتحرك المياه، لأن كل من خطا أولاً إلى داخلها بعد تحرك

المياه يصبح معافى، (يوحنا: ٥ / ٤) وهنا شفى المسيح الرجل الذي كان يعاني من العجز منذ ثمان وثلاثين سنة، ويقول بعضهم بأن البركة الأولى التي هي قرب القديسة حنة هي بركة الضأن، لكنني لا أرى ذلك، ولم نقرأ عن مزيد من البرك في القدس، أو من حولها القريب، وبعد رؤيتك لهذه الأشياء من على جهتي اليمين واليسار، امض بشكل مستقيم على طول الطريق إلى الباب الذي أمامك، الذي يدعى باب القضاء، وهناك سوف تجد بيت بيلايطس، حيث جرى جلد حمل الرب البريء وسخر منه من قبل الجنود، وحيث لكم، وبصق عليه، وتوّج بتاج من شوك، وأدين أخيراً وحكم عليه بالإعدام، وهنا يوجد الطريق الذي يقود إلى الهيكل، وهو الذي من تحته قدم اليهود من الهيكل وهم يصرخون: «اصلبوه، اصلبوه»، وعلى مقربة من بيت بيلايطس يوجد بيت حنة، الذي اقتيد المسيح إليه أولاً، بعدما جرى اعتقاله من قبل الحشود في جيسماني، وهنا جرى استجوابه حول عقيدته، وكأنه معلم هرطقة، وقد لطم بكف يد عبد شرير، ومن هناك أرسل وهو في الأغلال إلى كيفياس على جبل صهيون، ومن أجل وصف لهذا البيت، انظر الفصل الثامن، وعلى مقربة من بيت حنة هناك كنيسة القديسة مريم صاحبة البجعة، وذلك في المكان الذي أغمي فيه على العذراء المباركة لحزنها، لدى رؤيتها ولدها البريء، وهو يحمل صليبه، وقد اعتراه الأعياء بسبب وزنه، وإلى هذا اليوم هناك صخرتان بيضاويتان عظيمتان، قد بنيتا في داخل القنطرة في مكان مرتفع، فعلى هاتين الصخرتين ارتاح الرب عندما كان يحمل الصليب، ولدى متابعة السير على طول الشارع المتقدم الذكر، يجد الانسان على جهة اليمين الطريق الذي يقود إلى باب القديس ستيفن، الذي عندما كان اليهود يقودون يسوعاً عبره، صدفوا رجلاً اسمه سمعان القيرواني قادماً من الريف، فأرغموه على حمل الصليب، وقد حمله حتى جبل أكر (الجمجمة) حيث تولوا صلبه (كذا)، ومن أجل عرض حول هذا المكان، انظر الفصل الثامن، ولقد قيل بأن

قصر الملك هيرود قد كان قائماً قرب كنيسة القديسة مريم صاحبة البجعة، وليس بعيداً عن قصر هيرود، من الممكن رؤية بيت يهوذا الخائن، حيث سكن مع زوجته وأولاده.

الفصل الحادي عشر

الحج إلى بيت لحم وإلى الخليل

بعد الحج إلى القدس، وجبل صهيون، والأماكن من حولهما، عليك الذهاب عبر باب داود إلى بيت لحم، التي تبعد نحواً من فرسخين، باتجاه الجنوب، على جهة اليد اليسرى للطريق إلى الخليل، غير أنها تقوم على بعد رمية سهم عن الطريق، وفي منتصف الطريق هناك توجد كنيسة حيث قام إيليا ببعض أعمال التوبة، وعلى مسافة ميل من بيت لحم يوجد ضريح راحيل، وهو موجود على جهة اليمين، قرب الطريق، وهو مغطى بقبة جميلة، قد بنيت من قبل يعقوب، الذي وضع تحتها، فوق قبرها اثني عشر صخرة عظيمة، وذلك تبعاً لعدد أسباط بني إسرائيل، وهذه الحجارة باقية حتى هذا اليوم، وعلى مقربة من ضريح راحيل يوجد حقل البازلاء الحجرية، حيث يقال بأن المولى يسوع، كان يجتاز مرة من هناك، فسأل رجلاً رآه يحصد البازلاء، عن الذي كان يحصده، فأجابه «حجارة»، وبناء عليه قال له الرب: «ليكونوا حجارة»، وهكذا تحولت البازلاء إلى حجارة، وإلى هذا اليوم من الممكن العثور على بازلاء متحجرة هناك، وقد اعتاد الحجاج على جمعها، ويصل الإنسان أخيراً إلى بيت لحم، التي تقوم فوق جبل لا بأس بارتفاعه، غير أنه جبل ضيق، وهو يمتد شرقاً وغرباً، والمدخل موجود من جهة الغرب، ويوجد إلى جانب الباب الجب الذي اشتاق داود أن يشرب منه، عندما كان معوقاً هناك، ويوجد على الباب الشرقي هناك، كهف في الصخر قرب سور المدينة، وهو يبدو حسب أساليب تلك المنطقة، أنه اسطبل مع معلق منحوت بالصخر، حسبما هي العادة في تلك الأجزاء، ولا

أدري كيف يمكنني أن أمدح هذا الاسطبل، فهو المكان الذي ولد المسيح فيه، ولد من العذراء، فكان شمساً من نجمة، وهناك نبع الصديق من الأرض، وأعطت أرضنا المزيد؟ وبأي كلمات سوف أصف مجد ذلك المعلق الذي بكى فيه الطفل الرضيع، وقد لفّ بقطع قماش رثة، أو لم يكن هو الذي صنع السموات، وكذلك المعجزة الرائعة، فصرخت الملائكة، وركض الرعاة ليروا، ولعت النجوم من عليين، وارتعب هيرود، وارتجت القدس؟ يا بيت لحم، مدينة داود، تمجدي بميلاد داود الحقيقي، صاحب يد جبّارة، ومظهر وسيم، وكانت المدينة مدينة صغيرة، غير أنها غدت عظيمة بالرب، والذي كان من قبل عظيماً، جعلها هناك عظيمة، فأى مدينة موجودة لن تحسدها، عندما تسمع بإسطنبول الثمين، وبمجد معلقها؟ ولقد قلت حولك أشياء مجيدة في كل مكان، فأنت مدينة الرب، وفي كل مكان يغني الناس: «ولسوف يحكى بأنه ولد فيها، والعلي الأعلى سوف يثبتها» [المزامير: ٨٧ / ٥]، وانتبه إلى أنه على مقربة من الصخرة المتقدمة الذكر، وتحتة قام المعلق، الذي تمدد فيه ذلك الطفل الجميل المولود حديثاً، والملفوف بثياب رثة، تمدد إلى جانب الثور والأتان، ويبدو أنهما كانا كهفاً واحداً، وفقط قسم إلى قسمين بوساطة باب أقيم فيه، وبين الأدراج هناك واحد يصعد من البيعة إلى شرفة المرتلين، وقد حمل القش من المعلق إلى روما من قبل الامبراطورة هيلانة، وهو محل تقديس وعناية في كنيسة القديسة مريم [المجدلية] الكبيرة، وقد دفن القديس جيروم على مقربة من المعلق، وينزل الانسان من الكنيسة إلى مكان المهدي الأعظم جمالاً، بوساطة عشرة درجات، تقود إلى البيعة، وداخل هذه البيعة معمول كله من الفسيفساء، وهي مبلطة بالرخام، وقد بنيت بشكل عالي النفقات إلى أبعد الحدود، ومن الممكن إقامة قداس فوق المكان الذي ولدت فيه العذراء المباركة، وذلك فوق ألواح من الرخام وضعت هناك، هذا ومن الممكن رؤية بعض الصخور الجرداء التي ولد عليها المسيح، وكذلك

جزء من المعلق الذي مدد فيه، حيث ترك دونها تغطية، وتزار هذه الأماكن بتقوى عظيمة واحترام، ومن الصعب أن يجد الإنسان كنيسة أجمل منها في العالم، أو واحدة تعادلها بالقداسة، هذا ويوجد فيها أجمل الأعمدة الرخامية، موضوعة على شكل أربعة صفوف، وهي جميلة متميزة ليس لعددتها فقط، بل أيضاً لحجمها، فضلاً عن هذا إن القناطر الموجودة فوق الأعمدة معمولة بأكثر الفسيفساء جمالاً وأروعاً، حيث يمثل برسومه التاريخ كله منذ خلق العالم حتى قدوم المسيح للحكم في العالم، زيادة على ذلك جميع رخام الكنيسة معمول من الرخام المختلف الألوان، وقد زين بوساطة تصاميم متنوعة رائعة، وجرت العادة على أن يحتفظ في كنيسة القديسة مريم في بيت لحم، وعلى الجهة اليسرى من الجدار، في مكان مخصص، بحبل الصرة العائد للرب وبغرلته، وعلى الجانب اليمين من السدة، أي في الجانب الجنوبي، هناك الموضع الذي دفن فيه الأبرياء المقدسين، ومن الممكن رؤية مذبح مقام هناك، غير أن الشطر الأعظم منهم كانوا قد دفنوا في مكان يبعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من الكنيسة، وكان واحداً من السلاطين قد أمر بحمل الألواح الرخامية الثمينة لهذه الكنيسة المبجلة مع أعمدتها، إلى القاهرة، لينى بها قصرًا، لكن عندما مثل العمال مع أدواتهم في حضرة السلطان، لتنفيذ أوامره، خرج من الجدار السليم غير المهدم، الذي لا يمكن إدخال إبره فيه، ثعبان له حجم مدهش، فقام بعض أول لوح وصل إليه، فما كان من اللوح إلا أن تفتت، وفعل الشيء نفسه باللوح الذي يليه، وتابع ذلك حتى وصل إلى اللوح الأربعين، ووقف الجميع مندهشين، وإثر ذلك صرف السلطان نيته وألغى قصده، وبناء عليه اختفى الثعبان، وبقيت الكنيسة منذ ذلك الحين، وهي باقية حتى هذا اليوم، مثلما كانت في البداية، ويحترم المسلمون جميع الكنائس المكرسة للعدراء الرائعة، وهم يجلسون هذه فوق جميع المتبقي، ومن الممكن حتى هذا اليوم رؤية أثر الثعبان على كل واحد من الألواح، وكأنها قد حُرقت بالنار،

وبالإضافة إلى جميع ما تقدم إنه لمدesh حقاً، كيف تمكن الشعبان من المرور فوق الألواح، وذلك لدى رؤية الجدار كم هوناعم ومصقول كأنه زجاج، وعند الباب الشمالي لهذه الكنيسة، يوجد دير للرهبان، يصعد إليه الانسان بوساطة عدة درجات، ومن الممكن أن يرى في الكهف الزنزانة التي تاب فيها القديس جيروم، وقام بكثير من أعمال الترجمة والشروح المتعلقة بالكتابات المقدسة، وكذلك يمكن رؤية فراشه، وغرف العمل في الدير الذي كان رئيساً له، وعلى رمية حجر باتجاه الشرق بالنسبة للكنيسة المتقدمة الذكر تقوم كنيسة القديسة باولا وابنتها يوستوخيوم Eustochium، وقد بنيت فوق المكان الذي تابتا عليه، وفيها يمكن رؤية ضريحيهما، ويوجد تحت الكنيسة المتقدمة الذكر كهف عظيم، يوجد فيه بيعة، قد قيل لنا بأن العذراء قد جلست هناك مرة مع ابنها، وذلك من أجل أن تمتلك منفردة المزيد من المتعة بالنظر إليه، وهو الذي رغب الملائكة بحمله، ربُّ ربِّ، جالس فوق البراءة بجلالته، جالس فوق عرش مرتفع، مساو بالمظهر للأب، وذلك وسط مجد القديسين، وقد ولد قبل ظهور نجم الصباح، ويقال بأنها عصرت في هذا المكان فوق الأرض ما كان في صدرها بشكل كامل، ولذلك فإن الأرض هناك بيضاء، وتبدو وكأنها حليب متخثر، ولقد قيل إنه إذا ما فقدت امرأة حليها، يمكن أن تستعيده مباشرة، إذا ما وضعت قليلاً من تراب هذه الأرض في كأس ماء، وشربت ذلك، وعلى بعد ميل من بيت لحم، كان الرعاة — حسبما جاء الخبر في الانجيل — يقيمون في الحقل، يراعون قطعانهم طوال الليل، ولقد كان بإمكان رعاة آخرون الحفاظ على القطعان التي عهد إليهم بالعناية بها في تلك الأرض نفسها، لولا أن خرج أسد من الغابة، والمعني بهذا قوى صلاح الدين، فذبحهم وكذلك لولا ما فعل البندقداري، وهو ذئب المساء، حيث بدد شمل ما أبقاه الأسد، ثم كذلك لولا ما فعله الملك المنصور، وهو فهد سريع، متشوق لصنع الشر، مثلما الفهد متشوق لسفك الدماء، فاستولى على

المدن التي كانت قد تركت لوحدها، وعلى بعد ثمانية أميال إلى الجنوب من بيت لحم، يقدم الانسان إلى الخليل، التي تقدم وصفها أعلاه في الفصل الثاني، ووصف وضعها ومكانها في القسم السابع، الفصل الثاني، وفيما يتعلق بأوضاع وأحوال الأماكن الأخرى في الأرض المقدسة، يمكن العودة إليه فيما تقدم في الفصل الثالث، وكذلك في الفصل الرابع.

الفصل الثاني عشر

أوضاع مملكة مصر

بما أنه قد قيل ما فيه الكفاية حول سورية وأرض الميعاد، حان الوقت لتحويل قلمي نحو مصر، ولقد رسمنا حدود أرض الميعاد عند الدارون في الفصل الثاني، ومع أننا مررنا مسافرين لساحل مصر في الكتاب الأول، القسم الأول — الفصل الخامس عشر، وباتساع أكبر في الكتاب الثاني، القسم الرابع — الفصل الخامس والعشرين، ومع أن الإشارة قد كانت حول هذه البلاد نفسها، يمكننا أن نقول إن المسافة من الدارون إلى قفط الـ Berouldi هي ثلاثين ميلاً، ومن هناك إلى السبخة المعروفة باسم سبخة بردويل ثلاثين ميلاً، ثم من هناك إلى نهاية خليج هذه السبخة ثلاثين ميلاً، ومن هناك إلى رأس القصورون خمسين ميلاً، ومن هناك حتى الفرما ثلاثين ميلاً، وكانت هذه المدينة فيما مضى حسنة التحصين بالأسوار، غير أنها فيما بعد لحقها الخراب، وصارت مسكناً للأفاعي، ومن الفرما إلى نهر تنيس خمسين ميلاً، لكن مدينة تنيس وراء النهر، وتبعد عنه حوالي خمسة وعشرين ميلاً، وهي قائمة فوق البحيرة، وقد وردت الإشارة إليها في المزمور ٧٨ / ١٢ قوله: «صنع أعجوبة في أرض مصر في بلاد صوعن»، فهناك كان موسى وهارون قد سكنا مع بني إسرائيل، وفي بلاد جوشن Goshen، وحوّلها أخبر يوسف أخوته وأبيه بقوله: «سوف تقولون لفرعون: إن عبيدك هم رعاة، نحن،

وكذلك آباءنا، قولوا هذا، حتى يمكنكم أن تسكنوا في أرض جوشن»،
ومن أجلها انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وكانت تنيس
مدينة قديمة، ومحصنة بشكل جيد، وقد بنيت فوق أرض حصينة، لكنها
في هذه الأيام مدمرة كلياً، ويعيش في خرائبها فقط البداءة، بسبب
مراعيها، وثراء ريفها، فضلاً عن هذا هي مليئة بالطيور الكثيرة
وبالأسماك، ومن أجل عرض عنها انظر القسم السادس — الفصل
السابع عشر، ومن نهر تنيس إلى دمياط مسافة أربعين ميلاً بوساطة
البحر، وكانت هذه المدينة تدعى قديماً باسم ممفيس، ومن أجلها انظر ما
تقدم: القسم السادس — الفصل الثاني والعشرين، وعلى بعد فرسخين
من البحر بنى المسلمون قرية طويلة بدون تحصينات، وذلك من أجل
ركوب السفن فيها، ومن أجل خزن بعض التجارات، وهذا المكان مليء
بالفواكه، والحبوب، والأشياء الأخرى الجيدة، وذلك حتى مثل تنيس،
ويجري واحد من فرعي النيل بين هذه المدينة ومدينة دمياط، ويتابع
جريانه نحو تنيس، ويجري من هناك من خلال قناة اسمها البحرية،
إلى الفرما، ويدخل البحر هناك، وهذا هو الميناء المصري الأول باتجاه
أرض الميعاد، ومن دمياط إلى البرلس مسافة سبعين ميلاً، ومن هناك إلى
مصب النهر في رأس البر Sturio، وعرض هذا المصب خمسة أميال،
وطوله ثلاثين ميلاً، وهو كله حوالي الثلاثين ميلاً مساحة، ومن مصب
رأس البر إلى مصب رشيد وفرع النيل هناك أربعين ميلاً، ومن مصب
رشيد إلى برج أبي قير خمسة وعشرين ميلاً، ومن هناك إلى الاسكندرية
ثمانية عشر ميلاً.

وواضح مما تقدم أعلاه وقيل، بأن المسافة من الفرما إلى الاسكندرية
هي مائتين وثمانية وستين ميلاً، وهذا هو عرض المنطقة الساحلية من
مصر، لكن مملكة مصر تمتد حتى ميناء السلطان، وهو ميناء يقع بعيداً
عن الاسكندرية، ويبعد عنها سبعين ميلاً باتجاه الغرب، وذلك حسبما

تحدثنا في الكتاب الثاني، القسم الرابع — الفصل الخامس والعشرين، والمسافة من الاسكندرية إلى الفسطاط هي مائتين وثلاثين ميلاً، وذلك عبر نهر النيل، والمسافة من الفرما، عبر تنيس ودمياط إلى الفسطاط هي مائتي ميل فقط، وذلك على سطح نهر النيل مثلما تقدم، ومن الفسطاط إلى أسوان — التي هي أقصى جزء من مصر باتجاه الجنوب واتجاه الحبشة — هي مائة وأربعين ميلاً، ومن مدينة أسوان المتقدمة الذكر إلى المكان الذي يعرف باسم قوص، عبر النيل، جاءت المسافة مائتين وستين ميلاً، وفي قوص تشحن السفن بالبضائع القادمة من عدن، وتعرف الحبشة المتقدمة الذكر بشكل صحيح باسم النوبة، وهي مسكونة كلياً، من قبل المسيحيين، الذين اهتمدوا بوساطة القديس متى، وإذا ما مضى الانسان صعوذاً فوق النيل من دمياط يصل أولاً إلى بدالة، ثم إلى المنصورة، حيث ينقسم النيل، والفرع الأصغر هو الذي يجري إلى الفرما، لكن المكان الذي ينقسم فيه النيل انقساماته الرئيسية، ويجعل من الجزء الأكبر من مصر جزيرة، يدعى باسم الدلتا، وذلك لأن شكل الجزيرة شكل مثلث، وهو مثل حرف دلتا، ويجري الفرع الأكبر نحو الاسكندرية، والفرع الأصغر نحو دمياط، ومن الدلتا إلى عين شمس ثلاثة أميال، ويجري فرع النيل من هنا باتجاه الشمال نحو مدينة بلبس، التي عرفت فيما مضى باسم Pelusium (تل الفرما) [القسم السادس — الفصل الثامن عشر]، ويجري من هناك خلال القفار نحو الأرض المقدسة، ويدخل البحر قرب مدينة العريش، وهي على مسافة سفر يوم من غزة وبير السبع، وهذا ربما الذي ورد ذكره في العهد القديم باسم «وادي مصر» [الملوك الأول: ٨ / ٦٥، الملوك الثاني / ٢٤ / ٧]، وهناك كانت حدود ديار سبط يهوذا (العدد...) لكن لا يمكن الملاحظة به، وعين شمس بلدة جميلة جداً، غير أنها ليست محصنة، ومثلها كذلك جميع بلدان مصر الأخرى، باستثناء الإسكندرية والقاهرة، ومن الممكن أن يُرى في عين شمس والفسطاط الأماكن التي سكنت فيها العذراء

الرائعة مع ابنها عندما هربت إلى مصر خوفاً من هيرودس، وبما أنها لم يكن لديها مكان تدخل إليه للاستراحة، فإنها دخلت إلى معبد كان فيه ثلاثمائة وخمسة وستين وثناً، حيث كان يحتفل طقوسياً تشريفاً لها في كل يوم من أيام السنة، إنما لدى دخول المسيح والعذراء مريم سقطت جميع الأوثان، وبذلك تحققت كلمة إشعيا (الاصحاح ١٩) في قوله: «هو ذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر، فترتجف أوثان مصر من وجهه»، وعندما حملت هذه الأخبار إلى أفروودوسيوس Af-rodosius، قدم إلى المعبد ومعه كل جيشه، واقترب من الطفل الرضيع وتعبده، وقال لجيشه: «لولا أن هذا هو رب الأرباب، لما سجد هؤلاء أمامه، ولهذا إذا لم نكن حريصين بأن نفعل ما نرى أربابنا قد فعلوه، لسوف نصاب بالرعب مثلما حدث لفرعون»، وهكذا فإن الرب المقدس، الذي تفكر بالرحمة أثناء غضبه، فأرسل ابنه إلى مصر، وبذلك قدم برهاناً على غفرانه، شفى بذلك العلاج جميع أوبئة مصر العشرة، وعلى مسافة سبعة فراسخ من عين شمس تقوم مدينة الفسطاط، وهي مدينة محصنة بشكل جيد وعظيمة جداً، وتقوم على الضفة الشمالية لنهر النيل، هذا ويجري وسط المدينة فرع كبير من ذلك النهر، وكذلك وسط مدينة القاهرة (القسم السادس — الفصل الثاني والعشرون) التي هي مرتبطة بالفسطاط، وفي القاهرة يعود هذا الفرع إلى النهر الأساسي ثانية، ويوجد إلى جانب القاهرة شجرة نخيل قديمة جداً، وهي التي حنت نفسها للعذراء المباركة حتى تتمكن من قطف التمر منها، ثم إنها انتصبت وعادت إلى وضعها ثانية، وعندما رأى الكفار ذلك قطعوها، لكنها التحمت بأجزائها ثانية في الليلة التالية، ووقفت منتصبة من جديد، ومن الممكن رؤية آثار القطع حتى هذا اليوم، ويوجد حول هذه المدينة كثيراً من الحداثق الرائعة، وعلى بعد ميل واحد منها يقوم بستان البلسم، التي هي شجرة بحجم نصف شجرة Mansus، وحجم أغصانها بقدر حجم دالية عنب عمرها ثلاث سنوات، وأوراقها مثل

ورقة ثلاثية الوريقات صغيرة، أو مثل ورقة الفيجن، لكن لونها أشد
بياضاً، وعندما تصبح ناضجة وذلك في حوالي شهر أيار، يتفجر لحاء
الأشجار، ويتم جمع الماء في أوعية زجاجية، ثم يوضع في وسط روث
حام ويجفف، وبهذه الوسيلة يجري صنع البلسم الحقيقي، ويقال بأن
هناك طريقة أخرى لجمعه، وهي باقتلاع الأوراق الموجودة على الجهة
المتوجهة نحو الشمس، ذلك أن الأوراق تلتصق بالساق، وعندما يجتمع
عدد منها فوق بقعة واحدة من الأرض، يمتلكون ساقاً واحدة، وعندما
تنتزع الأوراق يتدفق من الساق مباشرة سائل شفاف جداً وطيب
الرائحة، ويأخذ بالتنقيط، وهذه الحديقة يمكن سقايتها من نبع ماء
واحد فقط، التي قيل بأن العذراء المباركة قد غسلت فيها قماش قماط
الطفل يسوع، ويجتمع الناس من مسلمين ومسيحيين في أيام عيد
الغطاس عند هذا النبع، ويغسلون أنفسهم تبركاً وصدوراً عن التقوى،
وهناك معجزة أخرى تحدث هناك، وهي أن الثيران التي تقترب من الماء
المتقدم ذكره، لا تقترب من أي ماء آخر فيما بين منتصف يوم السبت
حتى الساعة نفسها من يوم الأحد، حتى لو حاولت سلخها حية، وفي
الفسطاط هناك أعجوبة أخرى جديرة بالتدوين، ففي دير بني هناك
وكرس على اسم القديس يوحنا المعمدان، هناك صندوق يحتوي على
آثاره، وقد اعتادوا على حمل الصندوق المتقدم الذكر، والنزول به فوق
النيل مسافة خمسة أميال إلى كنيسة رهبان أخرى، بنيت وكرست على
اسمه أيضاً، وبعد القداس يضعون الصندوق في النهر، لمعرفة أي مكان
رغب هذا القديس بأن ترتاح آثاره فيه، أي في هذا المكان أم في المكان
المتقدم، وما أن يضعوه، حتى يأخذ الصندوق بالتحرك أمام أعين
الجميع، ويسير بسرعة فائقة على عكس التيار، ويبلغ من سرعة التحرك
أن راكب فرس يجري به بسرعة كاملة لا يمكنه أن يسبقه، وعلى بعد
خمسة فراسخ من الفسطاط هناك بعض الأهرامات الثلاثية الشكل،
وهي ذات ارتفاع شاهق، وقد قيل بأنها كانت أهراءات قمح يوسف،

وعلى بعد فرسخين منهم هناك خرائب مدينة طيبة، التي منها جاءت
الفرقة الطيبة، ومرتبط بها قفار طيبة التي كان فيها في الأيام الخوالي
حشد من الرهبان.

ويجري النيل من خلف الفسطاط، ويتدفق كله نهراً واحداً من
أسوان، المكان المتقدم الذكر، وتبعد أسوان عن الفسطاط مائتين
وأربعين ميلاً، ومن أسوان إلى مدينة مروا مائتين وستين ميلاً، وتقوم
مدينة أسوان تحت خط الاستواء، ولذلك لا يشاهد فيها ظل عندما
تكون الشمس في المحطة الأولى من برج السرطان، وتلقي مروا في
ذلك الوقت بظلها نحو الجنوب، وعليك أن تتنبه أنه صحيح أن المسافة
من الفسطاط إلى أسوان، ومن أسوان إلى مروا، هي مسافة طويلة، مع
ذلك فإن الأرض ليس لها عرض إلا بالنادر، لأن هذا الطريق كله يسير
النيل، الذي يمتلك جبلاً على كلا الجانبين، ولا يمكن العثور على منابع
النيل، فيما يتعدى الجبال الموجودة على الجهة اليسرى من النوبة، التي
يجري بينها، فخلف ذلك منطقة لا يمكن اجتيازها، ومن النادر حماية
مصر من جهة البحر، ويوجد إلى الغرب منها ويحدها بلاد المغرب، التي
تدعى برقة، وهناك قفار بينهما تحتاج إلى رحلة خمسة عشر يوماً، وإلى
جهة الجنوب هناك قفار الحبشة، والرحلة إلى النوبة تحتاج إلى اثني عشر
يوماً أو أكثر، وعلى الجانب الشرقي هناك فيافي طيبة، التي تمتد حتى
البحر الأحمر، والرحلة تحتاج إلى ثلاثة أيام إلى مكان يدعى
البرلس (كذا) (رأس بناس)، فهذا هو الميناء الرئيسي لمصر على البحر
الأحمر، لأنه بالنسبة للذين يرغبون بالبحار نحو الهند، ونحو الجنوب
الغربي، ونحو الشمال، هناك قفار واسعة تمتد حتى الأرض المقدسة،
وهي التي تاه فيها بنو إسرائيل لمدة أربعين سنة، ولا يستطيع الإنسان
عبور هذه القفار إلى سورية بأقل من ثمانية أيام، وعمل هذا نجد مملكة
مصر محاطة من كل جانب — باستثناء ساحل البحر — بالرمال

والقفار، والمناخ في مصر صحي، والطعام جيد، والأرض أكثر اعتدالاً منها في فلسطين أو سورية، مع أنه من خلال وضعها، قد يخيل للإنسان أنه سوف يجد العكس، وتسقى أرض مصر بمياه النيل فقط، ويبدأ النيل بالزيادة اعتباراً من عيد ميلاد القديس يوحنا (٢٤ — حزيران)، ويتابع الزيادة حتى أيام عيد تمجيد الصليب المقدس (١٤ — أيلول)، ويبدأ بالتناقص من هذا التاريخ حتى أيام عيد الغطاس، فوقتها تظهر الأرض الجافة، ويأخذ الفلاح برمي بذاره، والحصاد سوف يكون في آذار، ويقوم في وسط النهر عمود رخامي، فوق جزيرة صغيرة (جزيرة الروضة) وذلك خارج مدينة مصر القديمة، التي هي على مقربة من مدينة القاهرة، ووضعوا على ذلك العمود علامات، يعرفون من خلالها فيما إذا كان الموسم المقبل سوف يكون جيداً أم سيئاً، ويتم جمع الفواكه والخضار شروعاً من أيام عيد القديس مارتن (١١ — تشرين الثاني) حتى آذار، وتحمل الشياه والماعز مرتين في السنة.

ووصف الطريق من أرض الميعاد إلى القاهرة براً، وعبر القفار هو كمايلي:

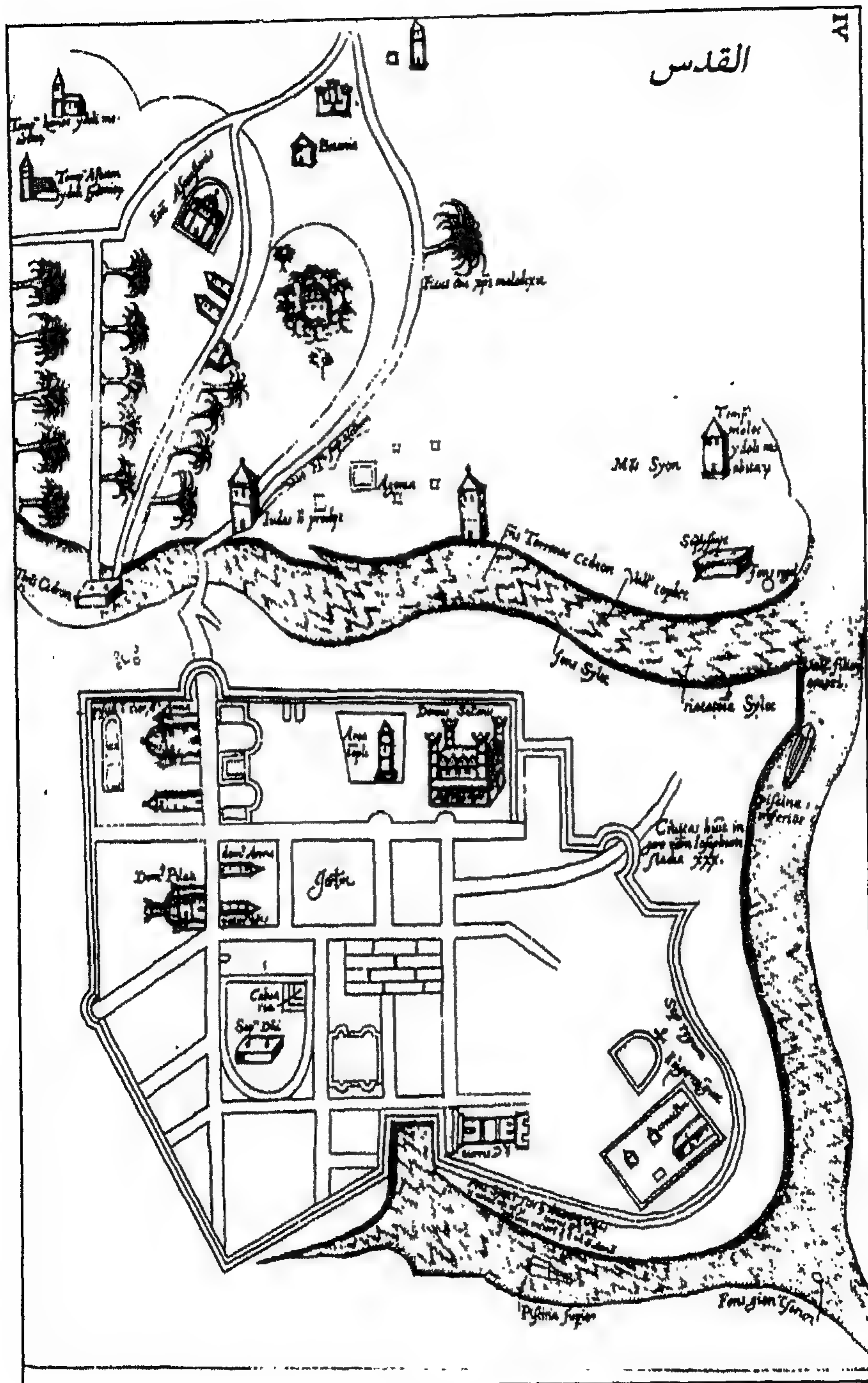
من غزة إلى الدارون ثلاثة فراسخ، والطريق جيد مع مياه كثيرة، ووفرة من الأعشاب، ومن هناك إلى رفح مسافة فرسخين، والطريق جيد، ووفرة من المياه مع جميع الأشياء، ومن هناك إلى Zasque أربعة فراسخ، ولا يوجد هناك رمل كثير، والطريق طريق كثير الأعشاب، وفيه كثير من المياه الجيدة، ومن هناك إلى الحسي Heus أربعة فراسخ، والطريق هو فوق الرمال، وفيه مياه جيدة إلى حد ما، ومن هناك إلى العريش أربعة فراسخ، والطريق كله فوق الرمال، وفيه مياه كافية، ومكان للبيع وللشراء، ومن هناك إلى Burelaui أربعة فراسخ، وينقسم الطريق هنا إلى إلى طريق علوي، وطريق سفلي، والطريق السفلي هو الطريق الأكثر استخداماً، وهو يعبر مكاناً اسمه سبخة البردويل،

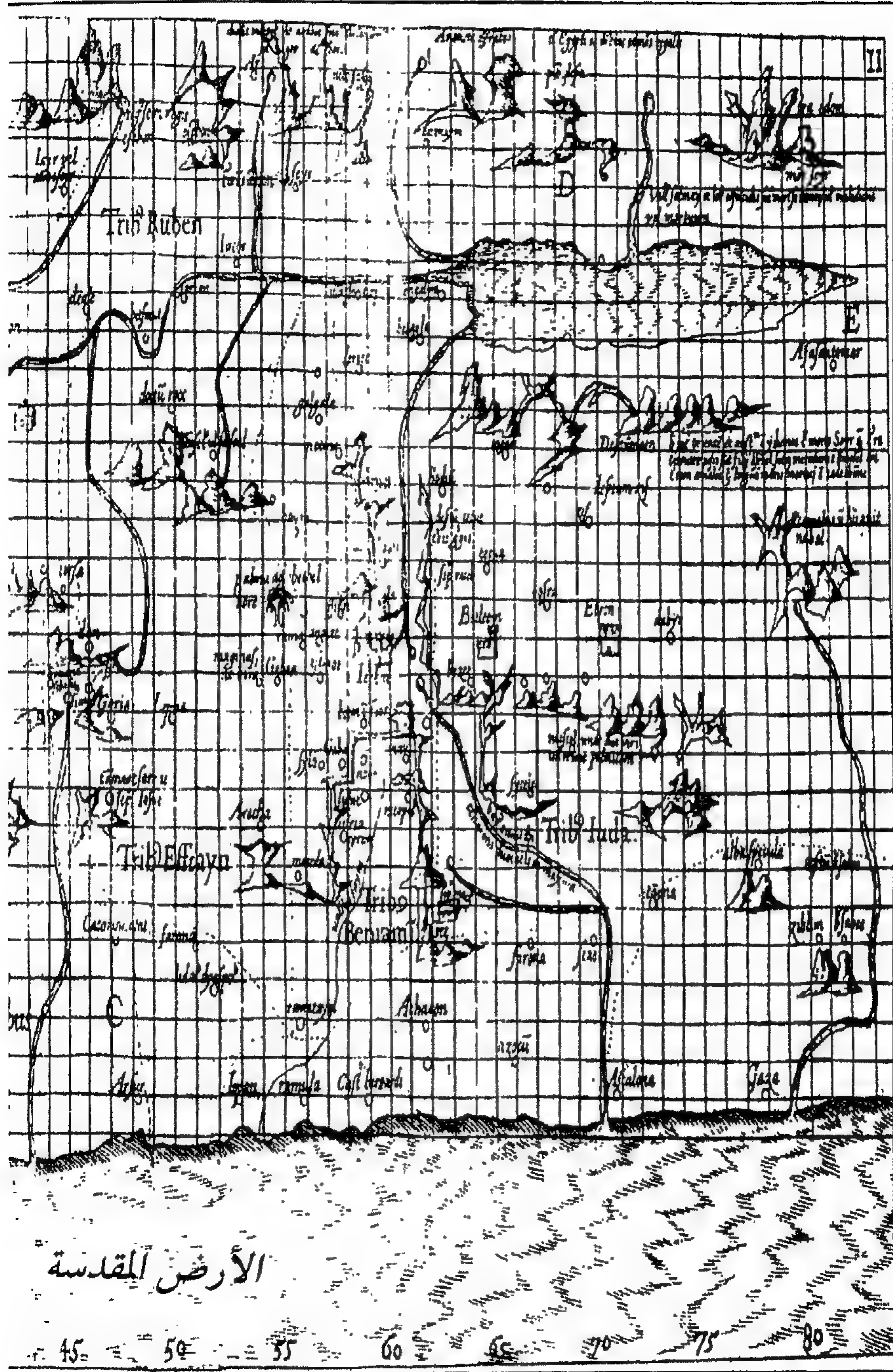
وهو المكان الذي فيه مات الملك بلدوين، ومن Bouser إلى Tarade فرسخين، وهناك كثير من الأعشاب وماء جيد، كما ويوجد سوق هناك، ومن هناك إلى Asbede أربعة فراسخ، وهناك كذلك كثيراً من الرمال، ووفرة من الأراضي المعشوشبة، وهناك أيضاً سوق، ومن هناك إلى Viteleb خمسة فراسخ، وهناك الكثير من الرمال، والقليل من الأعشاب، وماء سيء جداً، لكن هناك الكثير منه، ومن هناك إلى Nah-er Lersibia أربعة فراسخ، وهناك كثير من الرمال، لكن مع ماء جيد، ومن هناك إلى قطيا(كذا)...فرسخ، وهذه قرية جيدة، فيها ماء جيد إلى حد ما، وينقسم الطريق هنا إلى طريقين: علوي وسفلي، والطريقان معاً يقودان إلى [بركة] الحبش Habesse ، وهي قرية رائعة، والطريق السفلي هو الطريق الأكثر استعمالاً بين الطريقين.

والطريق الأعلى هو كمايلي: من قطيا(كذا) إلى العرس خمسة فراسخ، وهناك كثير من الرمال ومن الماء، لكنه ماء سيء، ومن هناك إلى بير أبي روق أربعة فراسخ، وكثير من الرمال، وماء سيء جداً، ومرّ ومالح، ومن هناك إلى Hucar أربعة فراسخ [حيث كثير من الرمال، والعشب، والماء الجيد، ويوجد سوق هناك] ، ومن هناك إلى Hesiune أربعة فراسخ [حيث كثير من الرمال، وماء جيد من نهر، ومن هناك إلى Masinach ثلاثة فراسخ وهناك كثير من الرمال، ومياه جيدة من نهر، وتبدأ بعد Sbesbie أرض مفلوحة، ومن هناك إلى Vacaria — وهي قرية جيدة — فرسخين طويلين، وهناك كثير من الماء من نهر، ومن هناك إلى [بركة] الحبش abesse ثلاثة فراسخ، والطريق جيد، والأرض خصبة، والقرية مليئة بجميع الأشياء الجيدة، ومن هناك إلى بليس ثلاثة فراسخ، والأرض هناك صالحة للزراعة، والقرية واسعة وخصبة، ومن هناك إلى Abirelcara ثلاثة فراسخ، وهي أرض خصبة، ذات مياه جيدة، وفيها الكثير منها، ومن هناك إلى Hus أربعة

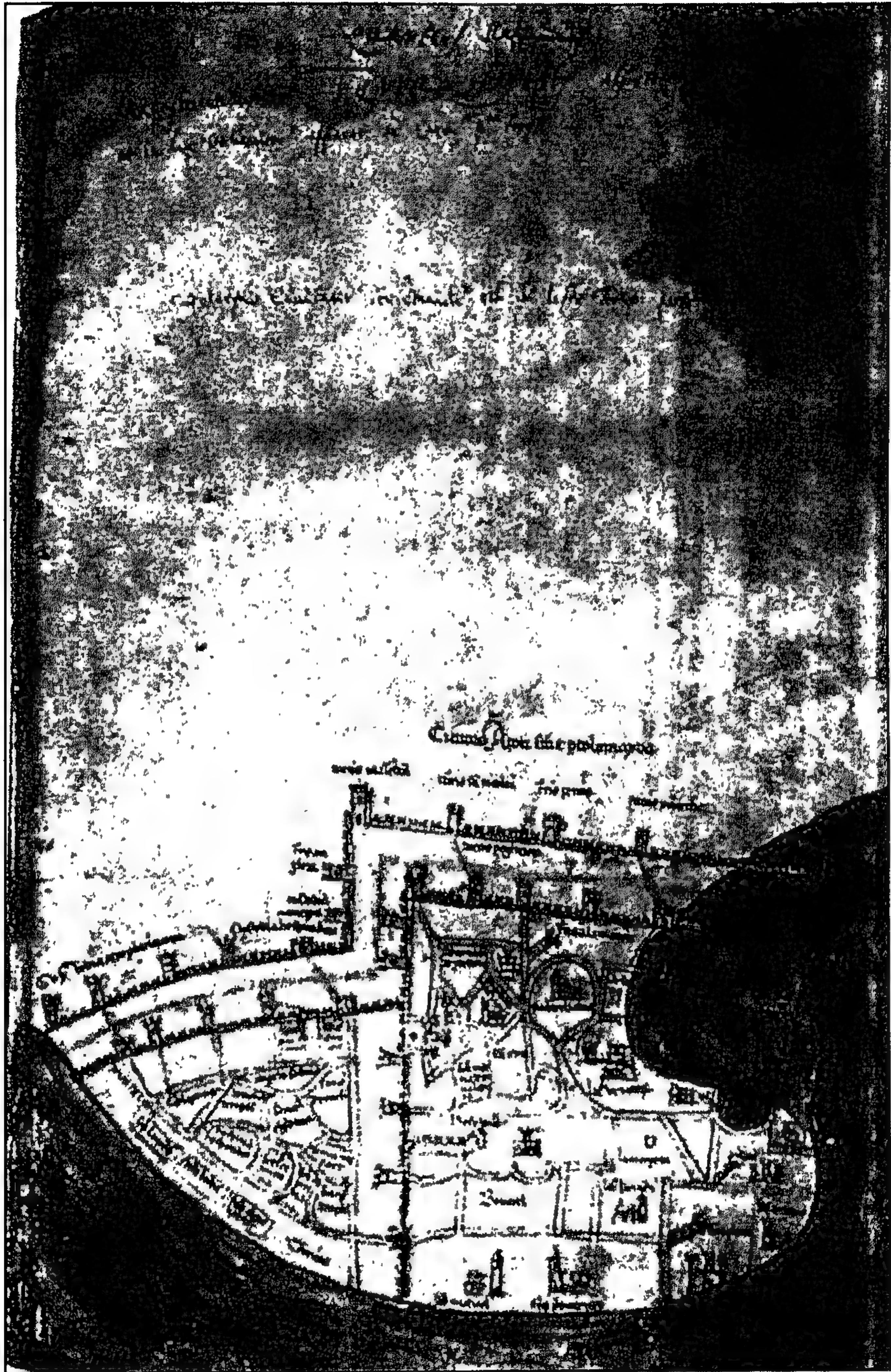
فراسخ، حيث الأرض خصبة، والماء جيد، وهناك كثير منه، ومن هناك إلى Quiriai ثلاثة فراسخ، حيث الأرض خصبة وكثيرة الثمار، ومن هناك إلى القاهرة ثلاثة فراسخ والطريق جيدة.

والطريق السفلي: من قطيا إلى الغرابي أربعة فراسخ، حيث كثير من الرمال، وقليل جداً من الماء، وهو ماء مالح، ومن هناك إلى القصير خمسة فراسخ، حيث كثير من الرمال، وكثير من المياه، لكنها مياه سيئة جداً، ومن هناك إلى بيرخيس أربعة فراسخ، وليس هناك الكثير من الرمال، وهناك وفرة من الماء، لكنه ماء مالح، ومن هناك إلى الصالحية — وهي قرية جيدة — أربعة فراسخ حيث الكثير من المياه الصالحة، ومن هناك إلى [بركة] الحبش Habesse ستة فراسخ، وهو طريق جيد فيه وفرة من الماء الجيد من نهر، ومن هناك إلى القاهرة، كما من قبل، وعلى هذا تمتد القفار إلى حوالي السبعين فرسخاً، والأرض المفلوحة إلى حوالي العشرين أو أكثر، ما بين غزة والقاهرة.









القسم الخامس عشر

الاجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب
العثرات والأخطاء الكثيرة التي ورد ذكرها، وهو في خمسة
وعشرين فصلاً.

الفصل الأول

الاجراء الضروري للاحتفاظ بها، دراسة للخطط العسكرية،
وللقيام بتدريب متواصل على استخدام الأسلحة.

شرحنا فيما تقدم معائب كثيرة سواء في الحياة الخلقية أو في الانضباط
العسكري، حيث ارتكب الشعب المسيحي في مجالها أخطاء كثيرة في
أرض الميعاد، ولهذا زال من هناك كل وجود كاثوليكي، ولكن «لأن
سماع خبره فقط يخيف» كما يقول إشعيا ٢٨ / ١٩، ولأن الشرور
الماضية تساعد على تجنب المستقبلية، وتقدم الحيلة المناسبة مما لحق من
مساوئ، نحاول بحق أن نقطف ما هو نافع، أي الأمان من المخاطر
والأغلاط، وكذلك أن نقدم ناموساً للحياة، وطريقة للسلوك، وهنا
نجد أولاً أن المؤمنين قد قصرُوا في الانضباط العسكري مراراً كثيرة،
ونجد أن الصليبيين كثيراً ما تحرشوا بالمسلمين وأثاروهم عندما كانوا
مرتاحين غير هيابين، مما جعلهم ينفرون بأعداد كبيرة، فيحرقون القرى
أحياناً مع القلاع والمدن، وعندما كانوا يقعون في ضيق لم يكونوا
يحسنون التخفي، أو إرسال رسل للتهادن، غير متنبهين لما أوصى المسيح
به في لوقا ١٤ / ٣١ — ٣٢ «وأي ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر في
حرب لا يجلس أولاً ويتشاور هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف الذي
يأتي عليه بعشرين ألفاً، وإلا فما دام ذلك بعيداً يرسل سفارة ويسأل ما
هو للصلح»، لاسيما عندما يشهدون أن العدو هو أغنى وأكثر ثروة
وأعظم دهاء، وأشد ضراوة، وأقوى بالعدد والعُدَد، وتطلب إرادة الرب

في مثل هذه الظروف منا التواضع بسبب الخطايا وعندئذ إنه لضرب من الحماقة أن نتعجرف ولا نقدم على عقد اتفاقية منقذة، ونحذوا حذو ما فعله يواكيم وصدقيا، كما جاء في القسم الأول — الفصل السادس، وما فعله الملك اللاتيني الثاني في القسم السادس — الفصل الرابع، فقد اختار هؤلاء، على الرغم من قتلهم القتال ضد عدو شرس وكثير العدد — انظر القسم الثاني عشر — الفصل الأول، ذلك أنهم حتى بعد أن احتلت مدنها كانوا لا يعرفون إلى أين المهرب، وهكذا يروى بأن البندقداري قال لبعض المسيحيين بعد احتلاله لأنطاكية: «حقاً أيها المسيحيون إنكم أغبياء وبلا فطنة، لأنكم لا تعرفون كيف تقاتلون، ولا كيف تعقدون الصلح، ولا كيف تهربون في الوقت المناسب»، ولهذا إنه بعد احتلال الأرض المقدسة، نرى بين الأمور المطلوب المحافظة عليها، من المناسب تماماً درس الانضباط العسكري والتمرين المتواصل عليه، ويتوجب اتخاذ قرار علني بفرض تعليم فيجيتيوس Vegetius في مقرر الشؤون العسكرية، وأن تتم قراءة غيره في المدارس من قبل معلمي فن الحرب، وذلك في أمكنة موائمة، وذلك كما كان الرومان يعملون قديماً، وبموجب ذلك يعلمون العسكريين والمهتمين بشؤون الحرب، لأن عليهم التمرين المتواصل، حتى إذا طرأ طارئ يكونوا متأهبين لمجابهة المخاطر، وأخذين حذرهم، لأنه كما يقول فيجيتيوس: «في الحرب ليس المهم العدد، بل الفن والتمرين هما يعطيان بالعادة الغلبة»، وهكذا نجد أن أماتوس روفوس Amatus Rofos عندما ضايقته الأعداد الكبيرة من الداشيين Dacis ، أمر القلة التي معه، أنها إذا رأت المعركة تنقلب نتائجها ضده، بالانقضاض من خلف العدو، وبالظهور في قمم الجبال وهم يصدحون بالأبواق، على أمل أن يرعب هذا الأعداء، فيديرون ظهورهم.

ويتوجب اتخاذ قرار، تحت طائلة عقوبة محددة: إن على جميع سكان

القدس، لا بل أيضاً على جميع سكان مملكة القدس الالتزام — على الأقل مرة في الاسبوع — أن يتمرنوا على الرماية بالقوس، أو على الرماية بالمنجنيق، سواء أكانوا في المدن أم في القرى، ومثل هذا نقرأ في سفر الملوك الثاني أن داوود قد أمر أن يتعلم يهوذا الرماية بالقوس، لأنه سمع أن الملك شاؤول وابنه يوناثان قد أصيبا برشقة سهام، وكذلك قال الأب الأكبر لليهود في (سفر التكوين: ٤٨ / ٢٢) [لابنه يوسف]: «وأنا قد وهبت لك سهماً واحداً فوق أخوتك أخذته من يد الأموريين بسيفي وقوسي»، وكذلك لم يكن سكيبيو Scipio الإفريقي يرى أن بإمكانه إحراز النصر إلا إذا وزع على جميع الجهات رماة قوس منتخبين، يطلقون السهام من بعيد فيرعبون الأعداء، وإذا كان بعض الناس يتمتعون بالتدرب على الحرب بالرمح الطويلة، فليعكفوا أيضاً على التدريب على الرمي، فكثيراً ما تكون إسهاماتهم مفيدة جداً في الحروب، وهكذا للدفاع عن أرض الميعاد المقدسة يصير الشعب المسيحي بارعاً، وفي الوقت نفسه يتم تجنب كسل المقاتلين، ذلك أنه بؤرة لجميع الرذائل، فقد نادى حزقيال هكذا وأعلن عن إثم اليهود قائلاً: «هذا كان إثم أختك سدوم الكبرياء والشبع من الخبز وسلام الاطمئنان» (حزقيال: ١٦ / ٤٨)، وقد جعل التدريب على السلاح الرومان يخضعون العالم — حسب فيجيتيوس — وإلا ماذا كان بمقدور تلك القلة من الرومان ضد حشود الغالين والإسبان، وضد مكر الأفارقة، وفطنة اليونانيين، ففي جميع الميادين يتفوق التدريب على الجرأة، وقلة متدربة هي الأسرع نحو النصر، والكثرة الجاهلة هي الأسرع نحو الفرار، ولا يظن أحد أنه ضد القداسة انصراف الانسان نحو الجندية للدفاع عن الحق والوطن، فقد قال هيرونيμος Heronimos في رسالته إلى بونيفاسيوس Bonifacius: «إياك أن ترى أنه غير ممكن للمرء أن يرضي الرب إذا كان يقاتل بالسلاح في الحروب»، ففي هذا الميدان كان الملك داود القديس، وغيره كثير من

الأبرار في تلك الأيام، وكان هذا أيضاً وضع الجند الذين سألوا يوحنا المعمدان عما يتوجب عليهم أن يفعلوا، فأجابهم قائلاً: «لا تظلموا أحداً، ولا تشوا بأحد، واكتفوا بعلائفكم» [لوقا: ٣ / ١٤]، فهو لم يحرم عليهم القتال تحت السلاح، بل أمرهم بالاكْتفاء بأعطياتهم.

الفصل الثاني

الفائدة الكبرى للعازمين على الذهاب إلى قتال العدو، بعدم كشفهم عن مقاصدهم وخططهم.

قد روي بأن واحداً من الشعراء قد قال: «إذا فهمك العدو، فقد خسرت المعركة»، ولذلك كان القادة أصحاب الفطنة يبذلون أقصى جهودهم حتى يخفوا عن العدو مقاصدهم، وبناء عليه عندما ألح أحدهم على ميتليوس بيوس Metellius Pius بالسؤال قائلاً: «ماذا ستصنع غداً؟» أجابه «لأجابه على ذلك قميصي لأحرقته»، ورأى بورتوس كاتو Portius Cato أن المدن الإسبانية التي قهرها في الحرب قد تتمرد عليه، اعتماداً على كونها محصنة، فكتب إلى كل واحدة منها، يهددها بالحرب إذا لم تهدم تحصيناتها على الفور، وأمر أن ترسل الرسائل إلى كل واحدة منها في يوم واحد، وبإخفائه مقاصده، فكرت كل واحدة من تلك المدن أن الأمر قد صدر إليها وحدها، وكان يستهدف منعها من التحالف ضد أوامره، وعندما ذهب ج. ليليوس G. Lelius إلى سفاقس، أخذ معه وفداً من القادة ومن أمراء السرايا، على أساس أنهم عبيد، فيما هم في الحقيقة كانوا جواسيس، وكان إذا ظن أن أحدهم معروف من قبل الأعداء، كان يؤدبه بالعصا مثل تأديب العبيد، حتى يخفي وضعه، وهكذا نجح مخططه، وكان مثيريدات Mithridates عندما حاصره بومبي، قد فكر بالهرب في اليوم التالي، ولكي يخفي نواياه وعزمه على ذلك، تقدم على جبهة واسعة، واقترب من مواقع العدو، وعقد اجتماعات عدة حتى لا يلفت انتباه العدو،

ولكي لا يثير الريبة لدى العدو أمر بإشعال النيران الكثيرة في جميع أرجاء المعسكر، وقام بعد ذلك عند الهجوع الثاني من الليل بقيادة جيشه، فعبر من خلال وسط معسكر العدو.

ولدى وقوع جيش لوسيوس فيريوس Lucius Furius في مأزق خطير، أخفى قلقه لئلا يخاف الباقون، وارتد بعد ذلك بقليل كما لو كان سيهاجم العدو من كل صوب، ثم لف جيشه واقتاده سالماً، والجيش نفسه لم يكن يعرف ماذا يجري، وتعلمنا هذه الأمثلة بما فيه الكفاية، كم هو مجدي لقائد المعركة إخفاء نواياه سواء لإلحاق الأذى بالعدو، أو لتأمين سلامة جماعته، والتتار هم أكثر من يلجأ إلى الأخذ بأسباب الحيلة، حيث يروى عنهم أنهم لا يدعون أحداً يدخل إلى معسكرهم أو يخرج منه دون موافقتهم حتى لا تنكشف مقاصدهم إلى الأعداء، وهذا ما لم يفعله الصليبيون عندما استولوا على دمياط، وهكذا عندما انكشفت خططهم جرحوا وأسروا، ثم اضطروا إلى إرجاع دمياط (انظر القسم الحادي عشر — الفصل التاسع) ومثلهم كان أهل عكا، فإنهم عندما نصبوا الكمائن لم يعرفوا كيف يخفون خططهم فقتلوا (انظر القسم الثاني عشر — الفصل الثامن).

الفصل الثالث

ضرورة الاهتمام بمعرفة خطط أعدائهم.

المسلمون كثيرون الاهتمام بمعرفة مقاصد أعدائهم، وأكثر ما يسعون نحوه هو معرفة ما يجري بين المسيحيين، ليس فقط في الأماكن القريبة منهم، بل في الأماكن النائية عنهم.

وكان م. كاتو M. Cato عندما أخفق بطريقة من الطرق بالتعرف إلى ما كان يدبره الاسبان، أمر ثلاثمائة من جنوده بالهجوم على معسكر الأعداء، ليغلبوا سالماً بأحدهم، وكان بعدما عذبوه أن اعترف بكل

أسرارهم، وباح بها، ذلك أن معرفة مخططات الأعداء تفيد في تجنب المخاطر، لأنه كما قال القديس غريغوريوس: «تجرح السهام المنتظرة أقل، وتحتمل الشرور أكثر إذا تسلحنا ضدها بترس الاحتراز المسبق»، ولذلك أرسل أهل قرطاج إلى الاسكندر هملقار وبعثوا رجلاً قاسياً، انتقل إلى عنده وتظاهر بأنه منفي ليكسب صداقته، وليتمكن بذلك من الكشف عن خطته، فيأمن أذيته، ويهيء ما يلزم ضدها.

وكذلك عندما رأى القنصل أميليوس عن بعد كثرة من الطيور قد طارت من الغابة أدرك أن كهائن تنصب هناك ضده، وهكذا لما كشف مخطط الأعداء أفلتت من المخاطر، وتصلح هذه الطريقة أيضاً لمضايقة العدو، وخاصة عندما يتم الكشف عن نقاط الضعف لديه، وهكذا فعل سكيبيو الإفريقي، عندما بعث مع ليليوس إلى سفاقس قادة وأمراء سرايا منتخبين، وهم يرتدون ألبسة العبيد حتى يراقبوا بكل دقة قوات ذلك الملك، ولكي يتفحص هؤلاء مواقع الجيش المعادي بحرية أكبر، أفلتوا جواداً عن عمد، وطاردوه كما لو كان هارباً، وداروا يبحثون عنه في كل مواقع المعسكر، ولدى عودتهم تحدثوا عن كل ما شاهدوه، وهنا بعدما عرف سكيبيو كيف عليه أن يهاجم العدو، أنشب المعركة.

ويفيد هذا لطمأنة النفس أيضاً، ويحكى أنه عندما كان القنصل ج. ماريوس مختاراً حول حرب سمبروكو Cympruco مع الغالين واللغاريين Ligurii، أرسل إليهم رسائل أمرهم في مطلعها أن عليهم قبل نهار حدده لهم النظر فيما جرى معهم من الالتزام بالمعاهدة، وكرر بعد وقت بعث الرسائل إليهم، وعندما تأكد بأن الرسالة الأولى قد وصلت إليهم، أدرك أنهم يضمرون شن الحرب ضده، وقتها ارتاح من الشك الذي ارتابه.

وهكذا قصّر الصليبيون كثيراً في التنقيب عن أسرار المسلمين، وهذا يمكن ملاحظته من خلال أخبار الأحداث التي سردناها من قبل، فلقد

وجدنا مرة أن واحداً من البداة المسلمين دل الصليبيين على معبر بالنهر (راجع القسم الثاني عشر — الفصل الثاني)، وهكذا عندما لم يكن بين الصليبيين مخبرون بل خونة، حل بهم ما حل بحق لأنهم كانوا يقبلون أن يخالطهم دون تمييز الهراطقة والكفرة (أرثوذكس ومسلمين).

الفصل الرابع

أمثلة عديدة حول ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب المخاطر الكثيرة التي تتعرض الجيوش لها بالعادة وهي على طريقها .

مع أن كل ما هو متعلق بالعدو، وما هو مختص به ينبغي البحث به بسرية مطلقة — حسبنا أوردنا في الفصل الثاني المتقدم — إن من بين الأمور الواجب إتمامها بسرية أكبر أمر تنقلات الجيش وتحركاته، وهكذا نجد الاسكندر الكبير قد تمكن من احتلال اليونان، لأنه وصل قبل الوقت الذي كان متوقعا وصوله فيه، وبالطريقة نفسها احتل التتار مدناً عديدة، لا سيما دربند، أو باب الأبواب، ولتجنب المكائد والمخاطر ينبغي التنقل بالجيوش بسرية، وإذا تم ذلك ببراعة من قبل القائد، فإن مخاطر كثيرة يمكن تجنبها.

وهكذا نجد قستوريوس Questorius عندما كان في إسبانيا، ضغط عليه العدو من الخلف، لذلك توجب عليه عبور نهر هناك، فقام فحفر عند ضفته خندقاً على شكل هلال، ثم ملأه بمواد مشتعلة، وأوقد فيه النيران، ومن ثم عبر النهر بحرية، في حين كان ذلك متعذراً على أعدائه.

وكذلك عندما عجز غريسوس Gressus عن عبور نهر من محل كان قليل المياه، ولم يستطع أيضاً بناء جسر، حفر قناة من وراء معسكره، وحوّل إليها مجرى النهر، ومثل هذا عندما وجد هرقل موفد

سرتوريوس Sertorius في إسبانيا، نفسه محصوراً بين الجبال، وقد أقبل إليه عدد كبير من الأعداء، ووجد أن طريقه للافلات صعب وطويل، قام بحفر خندق بالعرض بين الجبال، وملاه بمواد مشتعلة، ثم أوقد فيه النيران، وبذلك أقام حاجزاً بينه وبين العدو، وأفلت.

وعندما وجد بركليس Pericles الأثيني نفسه مطوقاً من قبل العدو، وجميع الممرات مغلقة في وجهه، إلا مخرجان، أقدم على حفر خندق عميق وكبير، كما لو أنه كان يستهدف عزل العدو، هذا من جهة، وتظاهر من جهة أخرى بأنه عازم على الانقضاض على الأعداء، فتركوا جميعاً جهة الخندق وتجمعوا أمام المخرج الآخر، وعند ذلك مدّ جسوراً فوق الخندق، وعبر ومعه جيشه.

ولكي يخدع داريوس شعب السكيت Schytas ، انسحب من معسكره، وترك فيه الكلاب والحمير، فلما سمعوها تنبح وتنهق، خُيِّل إلى هؤلاء الأعداء أن داريوس مابرح هناك.

ومثله غيره ربطوا الثيران إلى الأشجار، فترأى للناس من سماع خوارها الكثير أن أصحابها مايزالون هناك، وكان آنو Anno عندما حاصره الأعداء قد اختار مكاناً مناسباً جداً للافلات، فجمع مواد خفيفة أضرم فيها النيران، ووقتها تجمع أعداؤه لحراسة بقية المنافذ، وهنا أمر جنوده بالعبور من خلال تلك النيران، بعدما أمرهم بأن يضعوا أمام وجوههم الترس، وأن يغطوا سيقانهم بالثياب.

وعندما ضغط فابيوس Fabius على هانيبل، وحاصره في مكان شديد الخطر، ربط في قرون الثيران حزماء وأضرم فيها النيران وأطلقها، فأخذ القطيع الهائج يركض هنا وهناك، وأشعل النيران في الجبل من كل جهة، فخاف القائد الروماني من الكهائن والمصائد، فجمد جنده حيث هم، وهكذا أفلت المغربي سالماً.

وصدف أن قاد القنصل إميلوس بولس Aemilius Paulus جيشه في طريق ضيق جداً عند الشاطئ، فحمى جوانب جيشه بأن صف الأسرى على الأطراف، وبسببهم امتنع العدو عن رمايته بالسهم.

وعندما كان بورو Poro يمنع الاسكندر المقدوني من عبور نهر ايداسبن Idaspen ، أمر أتباعه أن يركضوا بعزم نحو الجهة المقابلة من النهر، فتبعهم بورو، خشية منه أن ينفذوا العبور من هناك، وعند ذلك أمر الاسكندر جيشه بالعبور من الجهة العليا.

وهكذا إذا كان القادة البارعين قد تخطوا المخاطر، بأخذهم بإجراءات احترازية متنوعة وقادوا جيوشهم سالمة، على عكس ذلك تصرف بلدوين الأول ملك القدس عندما أقبل ليواجه ثلاثين ألفاً من المسلمين بين اللد والرملة، فأوقع نفسه مع أتباعه في موقع حرج جداً، وفعل مثل هذا أيضاً قرب جبل الطور.

الفصل الخامس

كيفية إقامة المخيم

يتوجب دوماً أن يقام المعسكر — خاصة إذا كان على مقربة من العدو — في مكان آمن حيث تتوفر كمية من الأخشاب والعلف والماء، ولهذا عندما خدع الخونة امبراطور ألمانيا ومعه ملك فرنسا وملك القدس أثناء حصارهم لدمشق، فبدلوا موقعهم المناسب بموقع آخر لا ماء فيه، دحروا وتخلوا عن حصار دمشق، وبالطريقة نفسها هزم صلاح الدين غي لوزغان وأسره.

وإذا كانت الإقامة ستطول يتوجب اختيار المكان الصالح، والمناخ الجيد، لنصب المعسكر، كذلك ينبغي تجنب أن يكون هناك جبل قريب، ولا بأس أن يكون المكان مرتفعاً حتى لا يسهل على العدو احتلاله، ومن غير المناسب أيضاً أن تكون هناك كثرة من سواقي المياه، فإن أهل

دمشق قد دحروا التتار بسبب ذلك، كذلك ينبغي تجنب حصر الجيش الكبير في مكان ضيق، أو زج الجيش الصغير في مكان ممتد أكثر من اللازم، ويجب نصب المعسكر حسب المعطيات والظروف، بحيث يكون أحياناً مربعاً، وأحياناً مثلثاً، وأحياناً على شكل نصف دائرة، وذلك حسبما يقتضي وضع المكان، هذا وإن الشكل المربع والمستطيل أنسب في حالة الدفاع، وللشكل المستدير مفعولاً أكبر، وإذا لم تكن هناك ضرورة قصوى ينبغي عدم تثبيت الأوتاد في الأرض، بل ليصنع منها ما يشبه الجدار بارتفاع ثلاثة أقدام فوق سطح الأرض، وأن يكون أمامها خندق عرضه تسعة أقدام وعمقه ثمانية أقدام، إنما ينبغي إحاطة النقاط التي يكون ضغط العدو عليها شديداً بخندق عرضه اثني عشر قدماً وعمقه تسعة أقدام، وأن تحاط قمة الخندق بسواتر خشبية متينة جداً، هذا وقد اعتاد الجنود أن يحملوا كمية منها معهم، وأن يكون منها على الأرض تلة يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام، لكن إذا حالت مقاومة العدو دون ذلك، فليُنظم الفرسان جميعاً مع الرجال في الوسط على شكل جبهة قتال، في حين يتبعهم الباقون، وهكذا نجد يوليوس قيصر أثناء الحرب الأهلية، عندما قاد قواته ضد أفراانيوس Afranius، ووجد نفسه غير قادر على التقدم دون التعرض للخطر، صف جيشه على شكل ثلاثة صفوف الواحد وراء الآخر، وحفر خندقاً عمقه خمسة عشر قدماً، لجأ إليه مع جنده عند غياب الشمس.

ويلزم فوق كل شيء أخذ الحيطة في أن لا تتم مواجهة الأعداء من جهتين في وقت واحد، فإن ذلك يعرض لأكبر خطر داهم، ويترك المجال واسعاً للخوف، وكذلك ينبغي السهر الشديد على حراسة المعسكر، وينبغي إضاءة الأماكن الهامة لتوفير الرؤية من بعيد، لئلا ينقض العدو فجأة، وعلى كل عنصر أن يكون سلاحه جاهزاً بالقرب منه.

وينصب المسلمون معسكراتهم حسب نظام دقيق، حيث يضعون في الوسط سرادق السلطان، ومن حوله الأشراف والرجالات الأشداء حيث يكون تعدادهم حوالي الألفين، ويدعى هؤلاء باسم الحلقة السلطانية، ثم يوزعون ما تبقى ويرتبونه حسب تلك الدائرة، وهم يتبعون هذه الطريقة وينفذونها جميعاً، وهي مناسبة، ذلك أن كل مسلم يعرف في أي دائرة هو، وفي أي دائرة ينبغي أن يكون، ومكان خيمته بالتهام والكمال.

الفصل السادس

توضيحات وأمثلة تدل على خطورة ترك العدو يستدرجنا إلى خوض المعركة.

لاترك الأوضاع في الحرب مجالاً للمغالطة، والمغالطة هي أن تفيد عدوك، وتدعه يؤذيك، ولذلك ينبغي أن لا تصنع أي شيء حسب هوى عدوك، لئلا تكون أنت نفسك عدواً لنفسك، ويؤدي هذا أكثر ويضر وقت التحام الجيوش، من ذلك مثلاً نجد روجر أمير أنطاكية، قد انطلق بتحريض من المسلمين وإثارة، دون أن يكون لديه أدنى أمل بوصول نجدة مرتقبة، فقتل بسيف الأعداء هو وكامل الجيش الصليبي تقريباً، وفي الحقيقة لإنشابه القتال ينبغي اغتنام الفرصة المناسبة، لا الخضوع إلى إرادة العدو، على هذا عندما بلغ سكيبيو في إسبانيا أن جيش أسدروبل، قد زحف إلى القتال صباحاً دون تناول للطعام، ضبط جنوده، وأمرهم بالجلوس وبتناول الطعام، وعندما حل بالعدو التعب من الوقوف الطويل تحت السلاح، وعرف أن الأعداء قد جاعوا وعطشوا، أخرج جيشه وتقدم به، فأحرز النصر.

ومثل هذا حدث في إسبانيا مع متلوس Metellus ، فقد زحف هرقل ضده عند شروق الشمس في وقت من السنة شديد البرد، وتقدم

نحو خنادقه، فضبط متلوس قواته، وانتظر حتى الظهر، وإذا شعر بأن الأعداء قد تعبوا انقض عليهم، وانتصر.

وكذلك عندما كان بوستوميوس Posdtumius في صقلية يقاتل ضد البونيين، (أهل قرطاج) جعلهم يتقدمون كل يوم مسافة ثلاثة آلاف قدم منه، حيث كان يقاومهم برخاوة ودونما شدة عند خندقه ويشتبك معهم بمعارك خفيفة، واستمر الوضع هكذا حتى سئم أهل قرطاج من هذه الرتابة، وكان هو قد ترك جنده داخل الخنادق وكل شيء معهم جاهز تماماً، وفي النهاية تمكن مع جيشه المرتاح من التغلب على جيشهم الذي هده التعب وأرهقه العوز.

ولاحظ أبقرات الأثيني أن أعداءه يتناولون الطعام دوماً في الساعة ذاتها، فأطعم أتباعه في ساعة مبكرة، وهاجم أعداءه وهم يتناولون طعام الإفطار، وأمسك بهم فجأة، بحيث لم يترك لهم مجالاً للحرب، ولا للانصراف، وعند اقتراب حلول الظلام أرجع جنده، وتركهم تحت السلاح، وبينما أعداؤه يتناولون طعام العشاء وهم غير معبئين للقتال، هجم عليهم، ومثل هذا فعل فولك ملك القدس، فهو عندما عرف أن المسلمين يرتاحون بين أنطاكية وحلب، من أجل تضيق الخناق على أهل أنطاكية، سبقهم ليلاً، وهم ما يزالون في خيامهم داخل معسكرهم، ويطش بهم، وكذلك عندما وجد صلاح الدين الحشد الصليبي في مكان خطير، وهو يعاني من العطش الشديد، هاجمه قبل أن يصل أفراداه إلى الماء، وانتصر على الملك وعلى الجيش الصليبي.

الفصل السابع

مواصفات المكان الموائم لخوض المعركة.

مثلاً يجب لدى إقامة المعسكر أخذ الحذر، وعدم تمكين العدو من أخذ الأماكن المرتفعة (انظر الفصل الخامس، المتقدم أعلاه)، هكذا

يجب، عندما يلتحم القتال، اختيار المكان الأعلى، ووفق هذا اختار كنويوس بومبيوس Cneus Pompeius في كبدوكية مكاناً مرتفعاً لمعسكره، حيث ساعد انحدار المكان جنوده في هجومهم، فتغلب بسهولة على عدوه بفضل عملية الانحدار، ومثله فعل يوليوس قيصر عندما ذهب للحرب ضد فرناس Farnace ابن ميثريدات Mithridatis فنصب محلته على رابية، وكان هذا تدبيراً موفقاً منه، أمن له الانتصار، ذلك أن الجرف المطل من الرابية فوق البرابرة وهم في الأسفل، ردهم فوراً على أعقابهم، وكان هانيبعل عندما ذهب للحرب ضد مارسيلوس، قد هاجمه من جانب الطرق المنخفضة ومن المرتفعات، واستعان بوضع الأرض كحصن، وبذلك تغلب على ذلك القائد الشهير؛ ولاحظ هانيبعل أيضاً عندما كان قرب بلدة كان Ca-nas أن الرياح جنوبية، وأنها تثير عند الصباح الرمال وتشر الغبار، فنظم صفوفه بشكل جعل فيه قوة الرياح تضربه بمحملها من الظهر، في حين تصدم الرومان وتصفعهم في وجوههم وعيونهم، وهكذا بسبب ما لحقهم من ضيق أحرز عليهم نصراً حاسماً مشهوراً، وأقدم كليومنس اللاكدموني Cleomenes Lacedaemonius عندما كان يحارب ضد هسبياس Hyspiاس الأثيني، الذي كان يتفوق عليه بعدد الفرسان، أقدم على قطع عدد من الأشجار، ورمها في الميدان الذي كان ينوي أن يخوض المعركة فيه، وبذلك جعله غير صالح لحركة الخيول، وأيضاً عندما خاف الايبيريون في إفريقية أن يحاصروهم الحشد الغفير من الأعداء، مع أنهم كانوا أشجع منهم، استداروا من خلف النهر، وانقضوا على من كان قريباً منهم، وبذلك حطموا بالنهاية الحشد كله، وكذلك عندما لاحظ أنطيبس Antipus اللاكدموني أن الأفارقة فاقدون للامل، وكانت قواتهم معتمدة على الخيول والفيلة، وكانوا يسلكون طريق التلال، فيما كان الرومان يمسكون بالسهول، وتعتمد قواتهم على الرجالة، عند ذلك قلب مصير

الحرب، بمجرد تبديل الأماكن، حيث قاد الأفارقة نحو السهل، فتمكن بوساطة الفيلة من تبديد صفوف الرومان.

وكان إپاميننداس Epaminundas قائد الطيبين في أثناء مواجهته لأهل لأكدمونيا قد أمر خياله بأن يركضوا ذهاباً وإياباً حتى يتعالى الغبار، وفي هذه الأثناء استدار مع الرجال، وانقض على الأعداء من الخلف وهم غارون، فصرعهم.

ومما تقدم، وبناء عليه، على قائد الجيش أن يتنبه لاختيار المواقع المناسبة، وعليه أيضاً أن يدفع بالعدو إلى حيث البقاع الخطرة، وأن يتقصى بعناية لدى اختياره للأماكن حتى يكون على معرفة تامة بها، وبما أن الخطر أثناء الحروب ليس أقل منه أثناء السفر في البحار وعلى ظهر المراكب، عليه أن يسعى لامتلاك خرائط مكتوبة أو مرسومة، قد دون عليها تعرجات الطرق، مع إيضاح الأخطار بقدر ما يكون ذلك ممكناً.

وليكن لديه أيضاً مستشارون أمناء، فإنه بسبب عدم أمانتهم نقرأ بأن الاسكندر خذل في الهند، ومثل ذلك حدث مع امبراطور ألمانيا، ومع فولك ملك القدس، كما كاد خليفته الملك بلدوين أن يهلك بسبب صعوبات المكان، لولا أنه أنقذ بأعجوبة ربانية، ولحقت الهزيمة بغري لوزغنان على يدي صلاح الدين، نتيجة للنصيحة الفاسدة التي تلقاها من كونت طرابلس، حيث دله على موقع غير مناسب.

الفصل الثامن

الاحتياطات الواجب اتخاذها لدى قيادة الجيش لخوض المعركة.

كان بإمكاننا أن ندرك من الفصل المتقدم، بما فيه الكفاية، وأن نتوصل إلى أنه من المستحسن عدم انشأ القتال بلا روية، ويفضل ذلك على أن يسلم المرء نفسه للحظ دون أن يتخذ الاحتياطات الموائمة،

لذلك يتوجب قبل خوض المعركة، الالتزام فوق كل شيء ، بالأوامر والأنظمة، لأنه حيث تكون هناك مجموعة بلا نظام وأوامر، يكون هناك الخزي، يضاف إلى هذا أن النظام والتعبئة في أثناء المعركة يرعب الأعداء، وجاء في الكتاب المقدس في شعر نشيد الانشاد، (٦ / ٤): «مرهبة كجيش بألوية»، ولقد كان التار ينظمون قواتهم تحت قيادة أمراء عشروات، وأمراء مئات ، الخ... وبذلك تمكنوا من بسط سيطرتهم على الهند، وينبغي كذلك أن يعين لكل كتيبة راية خاصة بها، حتى إذا ضل أحد الجنود سبيله يعود إليها بسرعة، ولهذا السبب ذاته من المفيد أن يشار إلى أمراء العشروات وإلى أمراء المئات، على خوذهم أو في مكان آخر بعلامة مميزة لهم؛ وليكن مع الصليبيين رماة قسي ورماة مجانيق كثرة، يكونون مختلطين بهم، يردون هجمات المسلمين، ويكونوا متنبهين جيداً لعقر خيولهم الخفيفة، ذلك أن المسلمين ليسوا من الرجال الجيدين، وليحذروا من إطلاق السهام طائشة بلا هدف أو جدوى، وكذلك ليكن عدد الرجال كبيراً، بحيث إذا لم يكن بمكنتهم مرافقة جميع الفرسان. يكونوا وقتها من حولهم مع رماح طويلة، وليكن هؤلاء متكئين ومجتمعين مع بعضهم في كتلة واحدة، بشكل لا يتمكن فيه أحد من الدخول بين صفوفهم، وليكن بينهم حملة رماح يردون عنهم بالترسة نشاب المسلمين، ويؤمنون لهم التغطية، ويتوجب على هؤلاء أن يكونوا من الخارج أشبه بجدار، أما في الداخل فيجب أن لا يكونوا مكتظين حتى لا يضايق بعضهم بعضاً، ولكي يتركوا لرماة النشاب المجال للتصرف بحرية، ذلك أن هؤلاء هم الذين يعرقلون حملات المسلمين، وعلى هذا ينبغي أن يحملوا معهم الرماح والخناجر والسهام والنشاب المتنوع بوفرة، وليحذروا كل الحذر أن تتخلخل صفوفهم وأن يتباعدوا عن بعضهم، حتى لا يقعوا بسهولة تحت سيطرة الأعداء ومكايدهم فيقهرون، وعليهم أن يتعلموا مما يفعله المسلمون، في العودة والانضمام إلى بعضهم، وذلك إذا ما حدث طارئ فصلهم عن

بعضهم، وليعاودوا رصّ صفوفهم، ومستندين إلى الإشارة التي تصدر إليهم، وبهذا سوف يتجنبون المخاطر، وسيكونوا مرهوبين أكثر من قبل المسلمين.

وإذا كان قصدهم الأخذ بخطة دفاعية فقط، فلتكن صفوفهم على شكل دائرة، وينبغي أن تكون كثيفة لئلا تتفكك، على أن يوضع في الواجهة الذين هم أحسن تسليحاً حتى يتحملوا الضربات، لكن إذا كانت خططهم هجومية، فلتكن صفوفهم على شكل هرمي، ففي هذه الحالة لا يمكن وضعيتها بسهولة، وإذا ما تبين أن عدد الأعداء قليل، فقد يكون من المفيد العمل على تطويقهم، ووقتها ينبغي أن تكون الصفوف مفتوحة من الامام، ومقفلة عند الساقة، بحيث تأخذ شكل كمان، أما تشكيلة الصفوف المربعة فإنها لا تفيد أصلاً أحداً من الناس، وعلى قائد المعركة التنبه إلى أحوال الطقس وإلى أوضاع المكان، وذلك حسبما ذكرنا في الفصلين المتقدمين، ولينتبه أيضاً إلى معرفة من عنده عدد أكبر من الفرسان والرجالة هو أم الأعداء، وفي العادة يدافع الفرسان عن أنفسهم في السهل بشكل أفضل، أما في التلال والأحراش فالمشاة أفضل، وليحاول أن يعرف أين موقف الأعداء من الخصوم، وأين الركيك فيهم، وأين الأكثر قوة، وأين الأشد ضعفاً.

وكان ج. سكييو عندما ذهب إلى إفريقية ليقا تل هنون، قد لاحظ أن الإسبان قد وقفوا عند الجناح الأيمن، وكان يعرف أنهم أشداء، لكنهم يعملون لمصلحة غيرهم، ووقف الأفارقة عند الجناح الأيسر، وكانوا أدنى قوة، لكن أشد شكيمة، فرتب صفوف جنوده بحيث وضع عند الزاوية اليسرى نخبة جنوده، وخفف عن الجهة الأخرى وأرسل الجند من هذا الجانب للوقوف ضد صفوف الأفارقة، وهكذا عندما تمكن من تبديدهم وهزيمتهم، استطاع بسهولة الحصول على استسلام الإسبانين. وكان الملك فيليب المقدوني عندما لاحظ أن مقدمة جبهة العدو مترابطة

ومكونة من الجنود النخبة، قد أمر باقتحام الجهة الضعيفة، وهكذا بلبل الجهة.

وعندما جابه برمانس Parmenes الطيبي صفوفاً قوية جداً من الفرس، درّب ضعفاء جيشه، وأوصاهم أن يلوذوا بالفرار عند أول صدمة، ومن ثم الاختباء داخل الأحراش وبين الأماكن الصخرية والمتعرجة الوعرة، أما هو فقد اتجه مع نخبة قواته نحو من هم أقل عدداً، وهكذا اختل ميزان القوى بين صفوف الفرس، فأحاط بالجيش كله وبدده.

وكان سكيبيو الإفريقي عندما توجه لمحاربة أسدروبل في إسبانيا، قد سار بجيشه بانتظام لمدة أيام متواصلة، وقد ترك النخبة في الوسط، وكان أعداؤه يزحفون أمامه باستمرار وفق النمط ذاته، فبدل سكيبيو تعبئة صفوف قواته، ووضع الأشداء من النخبة على الجناحين والضعفاء في الوسط، وفي الساقة، وتولى بنفسه قيادة الجناحين، وتقدم على شكل هلال، وبذلك استطاع بكل سهولة أن يدحر الفئات الضعيفة من جيش عدوه، وحقق الانتصار.

ومثل هذا لما اكتشف ميتلوس في إسبانيا أن هرقل قد مركز في القلب فرق المحاربين الأشداء، خفف القوات المتمركزة في الوسط من جيشه، وجعلها لا تنشب القتال مع قلب قوات العدو، قبل تحطيم الجناحين، فعند ذلك يحاط القلب من كل جانب ويدمر.

وعندما قدم كاسترونيوس Castronius اللاكدموني إلى نجدة المصريين ضد الفرس، ولمعرفته أن الفرس يرهبون الإغريق أكثر من سواهم، قام بتغيير التعبئة، فوضع الإغريق في الصفوف الأولى، وبدل سلاحهم وزعيمهم، ووضع خلفهم المصريين، وقاوم حملة الفرس بضراوة، والفرس يعتقدون أنهم يقاتلون ضد المصريين، وعندما أطلت

بعد ذلك صفوف المصريين وحشودهم خيل للفرس أنهم الإغريق فراجعوا.

ولكي يثير سيلا Silla الخلل بين صفوف العربات التي أرسلت ضده لضعضة صفوفه، أثار البلبلة بينها بغيرز أوتاد على طريقها، وبالطريقة نفسها أوقف يوليوس قيصر عربات الغالين المسننة.

ووضع استياغس Astiages ملك الميديين في أثناء حربه ضد الفرس المقاتلين الأشداء في مؤخرة جيشه، وأبلغهم أنهم إذا لم ينتصروا، لن يعاود وضعهم في المقدمة، وبذلك دحر الأعداء.

الفصل التاسع

بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لهزم جيش العدو.

فيما كان ابن القنصل بابيريوس كيرسور Papirius Cursor يقاتل ضد السانيت Sanites ، وهم يبدوون صلابة في القتال، أمر بعض راكبي البغال أن يجروا على الأرض آلات ضجيج، وأن يثيروا بها ضجة عظيمة، ولما رآها صرخ لقد بات النصر حليفنا، وذلك حتى يتحمس جنده وينالوا مجد تلك المعركة، وبالفعل استعاد الرومان عند هذا العمل ثقتهم بأنفسهم، وارتعب العدو، ولاذ بالفرار، وعندما كان القنصل فابيوس Fabius يقاتل ضد السانيت، فصل عن صفوف قواته حملة الرماح، وأمرهم بالصعود إلى ظهر تلة كانت هناك، كان من الممكن النزول منها إلى ساقه جيش السانيت، وبذلك هزمهم.

وعندما اشتد الضغط على أميتيوس روفوس Amitius Rufus من قبل الداشين Dacis ، وكان عددهم كبيراً، أمر قلة ممن معه، أن يقوموا حالما يرون أن المعركة قد احتدمت بالإطلال على مؤخرة الأعداء من جبل كان هناك، وأن يملأوا الجبل بأصوات الأبواق، وبهذا خاب أمل الداشين وأداروا ظهورهم لأعدائهم، وصنع

سيلبيتيوس Sulpitius الشيء نفسه ضد الغالين، وفي أثناء حرب جوغارتا Jugarta ضد ج. ماريوس ركض أمام صفوف الرومان، وهو يصرخ أنه قتل ماريوس، وبهذه الوسيلة هزم الحشد الروماني الكبير، ويمثل هذا هزم فاليريوس ليفينوس -Valerius Le-vinius الأعداء، عندما ركض وهو شاهر سيفاً يقطر دماً وينادي كاذباً: لقد قتلت بيروس Pyrrhus .

وعندما كان ميرونيديس Mironides الأثيني يشك بنتيجة القتال ضد أهل طيبة، أطل فجأة على الجناح الأيمن لجيشه، وصرخ بأنه قد فرغ لتوه من دحر الجناح الأيمن للعدو، فثار حماس جنوده، ودبت النخوة بين صفوفهم، والخيبة في صفوف العدو، وبذلك انتصر.

ولدى مواجهة كريسوس Cressus لخيول أعدائه، وكانت قوية جداً، تصدى لها بقطيع من الجمال فارتعبت الخيول من منظرها غير المألوف، وجفلت وهي مرعوبة، ولم تكتف بأن رمت من كان على ظهورها، بل نشرت الفوضى بين صفوف الرجال.

وكذلك كثيراً ما استعان ملك إيروتي Epeyroti في حروبه ضد الرومان بالفيلة، وكذلك فعل البونيون القرطاجيون.

وربط الاسبان أثناء حربيهم ضد هملقار حزماً من القش مشبعة بالقار والكبريت ووضعوها في عربات كانت تجرها الثيران، وعند إعطاء الإشارة ببدء المعركة أضرموا النيران بالعربات، ودفعوا بالثيران نحو الأمام، فنشروا الفوضى بين صفوف الأعداء وضعضعوها.

وفي أثناء حرب التركيوننس Traquinenses ضد الرومان، تقدم عدد كبير من حشدهم بلباس الكهنة، وهم يحملون المشاعل، وانتشروا بشكل مرعب بين صفوف الرومان، فأثاروا الفوضى فيها.

الفصل العاشر

بعض الاجراءات الاحتياطية، والأمثلة لإعادة تنظيم الجيش في حالة إصابته بانتكاسة.

الذي يستطيع إعادة تنظيم جيشه، عندما يبدأ بالتفكك والانحلال هو كمن ينقذ أتباعه من براثن الموت، ففي تلك الظروف ينبغي إظهار القسط الأكبر من الحنكة، ذلك أن الفرار من صفوف القتال ينشر الرعب في النفوس، ولقد أجبر المسلمون أحياناً الصليبيين على الفرار، إتقاء لرشقات خفيفة من النشاب، مع أن المؤمن الحقيقي يبعد عن نفسه الخوف وينفيه، لعلمه بأنه يقاتل في سبيل قضية محقة، وأنه بعد التعب سوف ينال المكافأة، وهل من قضية محقة أكثر من إزالة العار عن المسيح وعن الشعب المسيحي، أو ليس من المخجل بالنسبة للشعوب المسيحية أن تسكت شريعة الإنجيل، وأن تعلن شريعة أخرى واحدة فقط، في أرض حملت فيها العذراء بالمسيح الرب، وفيها هناك ولد، وهناك تألم، وهناك أنزل إلى القبر، وهناك تدبر الخلاص في وسط الأرض، حيث يمكننا أن نردد مع سفر المكابيين ١ / ١: «صار اسم القدس غريباً، وهجرها المولدون فيها، وبقدر ما كان عزها صار عارها».

ليته يهب واحد من الناس مثل يهوذا المكابي، يساعده أخوته كلهم، فيحاربون حرب الرب بفرح، ويلبس يهوذا الحديد كالجبار، وليكن كالأسد الذي لا يخاف قدوم أي كان، وقد قال الرسول بولص في رسالته إلى العبرانيين (الاصحاح: ١١ / ٣٢ - ٣٤): «جدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداود وصموئيل والأنبياء الذين بالإيمان قهروا ممالك، صنعوا براً، نالوا مواعيد، صاروا أشداء في الحرب، هزموا جيوش غرباء»، وهل أفيد وآمن من ذلك الموت الذي يحصل فيه الانسان على غفران لكافة خطاياهم؟ ويموت مثل هذا لا تفنى أجسادنا، بل تتبدل إلى ما هو أحسن، ويقول صاحب سفر الرؤيا (الاصحاح الثاني: ١٠): «كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة».

وحدث أنه عندما احتل البندقاري صفد، قام بإعطاء الأمان للمؤمنين إذا استسلم إليه من في القلعة، وضمن مواكبتهم حتى مدينة عكا، وبعدما تسلم القلعة دعا المسيحيين إلى اعتناق شريعة محمد (ﷺ) وتملق إليهم، وفي الغداة هددهم بالموت، لكن اثنان من الرهبان الفرنسيكان الصغار قضيا الليل يشدان من عزيمتهم بالنصائح المقدسة، فاختاروا إكليل الشهادة، وسال عند منحدر الجبل ليس قليل من الدم بل نهر، ويحكى أنه تكلم بالاستشهاد في ذلك اليوم ما لا يقل عن خمسمائة شخص.

وأمر بعد هذا بتجريد هذين الراهبين، واسم أحدهما يعقوب دي باديو Padio ، واسم الآخر جيروم دي جانوا Janua ، وكان معها مقدم فرسان الداوية، ثم أمر بجلدهم بكل قسوة، واقتيدوا أخيراً إلى حيث استشهد الباقون، فهناك أكمل استشهادهم بقطع رؤوسهم، وغطى ذلك الملك الهمجي أجسادهم المقدسة بالردميات، ومع ذلك كان يشاهد في ساعات الليل، على مرأى من المسلمين، نوراً عظيماً كان يشع مراراً منهم، ولذلك لا مسوغ للمسيحيين أن يخافوا في الحرب، وإذا قوي الضعف البشري على القائد، فليعتمد إلى الاقتفاء بأعمال القادة الكبار.

من ذلك أن سيرفيوس توليوس Servius Tullius الفتى، عندما رأى حملة الرايات لديه في أثناء الحرب التي شنها الملك تاركينوس ضد السابين Sabinos، يقاتلون باسترخاء كبير، انتزع إحدى الرايات، وأرسلها إلى بين الأعداء، ولاسترجاعها قاتل الرومان بشجاعة فائقة، حيث استردوها وأحرزوا النصر.

وأعلن سكيبيو، عندما رأى جيشه بدأ يتخاذل، أنه يعدّ عدواً له كل من يرجع إلى المعسكر، وفي حالة مماثلة قال ق.فوريوس Q.Furius ، أنه لن يدع أحداً يعود إلى المعسكر إلا إذا كان منتصراً، وهكذا أعاد

جنوده رص صفوفهم وأحرزوا النصر.

وأمر فوليوس بريسكوس Fuluis Priscus لما تردد حامل رايته في تنفيذ أوامره بالهجوم على العدو، بقتله، ولما تم ذلك ونفذ خاف الباقون، وانقضوا على الأعداء، وصنع كوسوس كورنليوس Cosus Cornelius، قائد الفرسان، مثل هذا، وعندما بدأ بعض الجنود في قوات القنصل ق. أتيليوس Q. Attilius بالهرب إلى المعسكر، حيث تصدى لهم بصفوف جيشه، وأعادهم إلى ساحة القتال ضد العدو، وعندما تراجعت كتائب دي سيلا D. Silla أمام ميتريتكو Mitritico، استل سيفه، واندفع نحو مقدمة الصفوف وخاطب الجنود قائلاً: «إذا سألكم أحد أين تركتم الامبراطور قولوا تركناه يقاتل في بوشيا Boe-tia»، فخرجوا من ذلك، ورجعوا كلهم وتبعوا.

وخاف فيليب أن لا يتمكن أتباعه من الصمود أمام هجمات السكيت، فمركز في المؤخرة الفرسان الأكثر إخلاصاً له، وأمرهم أن لا يدعوا أحداً من المقاتلين يهرب من ساحة الوغى، وإذا أصر أحد على ذلك وتمادى بفعلته فليقتلوه، ولهذا فضل أتباعه أن يقتلهم العدو على أن يصرعهم رفاقهم، وبذلك أحرزوا النصر، وقد قيل الشيء نفسه عن أستياغس Astiages، في الفصل الثامن أعلاه.

الفصل الحادي عشر

بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لنصب كمائن للعدو.

من الممكن معرفة كم هي الكمائن مفيدة للمقاتلين من خلال الأمر الذي وجهه الرب إلى يشوع، إذ قال له: «اجعل كميناً للمدينة من ورائها» [يشوع: ٨ / ٢]، وعندما تظاهر يشوع بالهرب، لحق به سكان المدينة، بحيث لم يبق واحد منهم فيها، وعندها انبعث الذين كانوا مختبئين في الكمائن، ودخلوا المدينة، وأفنوها بالحرائق.

وعندما كان سكيبيو الإفريقي يواجه معسكران: أي جيش سفاقس وجيش قرطاج، أضرم النيران في المعسكر الأول، حيث كانت هناك مواد كثيرة قابلة للاحتراق، فهرع رفاقهم لنجدتهم، وقد خيل إليهم أن النار اشتعلت قضاء وقدرًا، فقتلهم بالكائن.

وعندما كان بومبي في إسبانيا، شرع بتركيز عناصر تخرج من جيشه سرًا، وتظاهر بالخوف واستدرج العدو المطارد له إلى أماكن موبوءة، وفي المكان الذي كان يرغب به استدار وهاجمهم من الأمام ومن الجوانب، وظل يوقع بهم الضربات حتى أبادهم.

وعندما سمعت الملكة تماريز Tamaris بموت ابنها، أخذت تبحث عن طريقة تروي بها غليل انتقامها، فأحاطت الأعداء بالكائن خدعة، وتظاهرت بالانسحاب تغرييرًا، واستدرجت قورش إلى مكان ضيق، فقتلته وقتلت معه نحوًا من عشرين ألفًا من الفرس، ووضعت رأس الملك في قرية مليئة بالدم وألقت بها وهي تقول مخاطبة إياه بشكل وحشي: «اشرب من الدم الذي طالما تعطشت إليه، فقد كنت دائمًا تتعطش إليه».

وفي أثناء حرب بومبي ضد ميثريدات Mithridate ، صف في الغابة ثلاثة آلاف جندي وعبأهم على شكل رتلين، ووضع معهم قسماً خفيفاً من الفرسان المسلحين، وتظاهر بالخوف، واستدرج الأعداء إلى أبعد من موقع الكائن، ثم ضربهم من المجنبتين، إذ صار الهاربون يصطدمون ببعضهم وجهاً لوجه.

وكان ملانتوس Melantus قائد أثينا، قد تحداه وطلبه للمبارزة فرداً مقابل فرد، فاستجاب وعندما وصل إليه سمع عدوه يقول له: «أنت مجرم، كيف تأتي ضدي أنا وحدي، ومعك رفيق»، فالتفت ليرى من الذي يرافقه، فصرعه عدوه بضربة واحدة.

وأخرج أبقراط الأثيني من السفن فرقة من الجنود لديه، ووضعها في كائن، وأمر بعد ذلك السفن بالإقلاع وكأنها محملة بالجنود، وأن تبحر علناً، فاطمأن اللاكدمونيون، وهنا أقدم على حين غرة، فضربهم من الخلف، وأذلهم في الطريق.

وعندما كان هانيبعل في كان أمر ستمائة من الجنود البدو بالفرار، ولكي يصدقهم الرومان تخلوا لهم عن ترستهم وسيوفهم، وعندما وصلوا إلى الفرقة الأخيرة، فإنهم مثلما فروا راكضين، كروا مرتدين نحو أعدائهم، حيث استلوا السيوف القصيرة التي كانوا قد أخفوها والتقطوا ترستهم من على الأرض، وضربوا صفوف الرومان.

وتجسس هانيبعل نفسه أيضاً على معسكر القائد الروماني فوليوس Fulvius ، فوجده مهملًا للتحصين، ثم علم بعد ذلك أن لا جراءة كبيرة لديه، ولهذا أظهر لحراس المعسكر الروماني قبل بزوغ الفجر، والظلام ما يزال مخيمًا، قلة من الفرسان، وللحال سحب فوليوس جيشه، وقتها احتل هانيبعل المعسكر الروماني بمهاجمته من الجهة الخلفية، وانقض على الرومان من وراء ظهورهم، فقتل ثمانية آلاف من نخبة جنودهم، وقتل معهم قائدهم.

وبعد أن كان فرياتوس Veriatus لصاً صار قائداً للكلتيروس Celtiberos في الحرب ضد الرومان، وفي إحدى المعارك تظاهر بالانهزام أمام الفرسان الرومان، واستدرجهم إلى مكان وعمر مرتفع، وبعد أن أفلت هو عبر ممرات كان يعرفها واعتاد عليها، دفع بالرومان إلى مستنقع غرقوا فيه وقتلوا.

ولاحظ ج فوليوس G.Fulvius عندما وصل إلى تخوم الرومان أن جيش الفلسيكي Falsici كان أكبر من جيشه بكثير، فنصب معسكره، وبعث ببعض جنوده لحراسة بعض الأبنية القريبة من

معسكره، حتى يظن الفلسيكي أن جماعتهم قد فعلوا ذلك، فتفرقوا للنهب.

وعندما أرسل أهل قرطاج هانيعل ضد الأفارقة، علم أن أولئك القوم يتشوقون إلى شرب الخمرة، ولذلك شن عليهم هجوماً خفيفاً ثم توقف، وتظاهر بعد ذلك في ساعة متأخرة من الليل بالفرار، بعد أن ترك في معسكره خوابي مليئة بالخمرة الممزوجة باللفان، وهي مادة مفعولها ما بين السمية وتسبيب النعاس، فانتشى الأفارقة فرحاً واحتلوا المعسكر، واحتسوا الكثير من تلك الخمرة المزيجة، فما لبثوا أن ارتموا مثل الأموات، وهنا ارتد عليهم فأسر منهم من أسر، وقتل من قتل.

وتظاهر المسلمون عندما كان الصليبيون يحاصرون عكا، ويعانون من الجوع، تظاهروا خديعة بالهزيمة، فاستدرجوهم إلى نهب المواد الغذائية وسواها، وفيما الصليبيون راجعون قد أثقلتهم المنهوبات، ارتد عليهم المسلمون ووجهوا إليهم ضربة قاضية.

وعندما لاحظ القائد هانيعل نفسه عدم وجود الخطب في منطقة صحراوية، ترك القطعان الكثيرة التي كانت معه في أحد الوديان، وجاء الرومان وحملوا معهم اللحوم نصف نيئة، فما كان منه إلا أن أعاد جيشه ليلاً وشدّد الضغط عليهم بكل عنف.

وكان أهل هي HY في حرب مع الأريتيريين، فقبضوا على واحد منهم قدم إليهم متجسّساً، وقتلوه فوق مكان مرتفع، ثم ألبسوا واحداً منهم ثيابه، وأعطى إشارة إلى الأريتيريين من فوق ذلك المرتفع، أن يهجموا، ففعلوا فوقعوا بالفخ.

الفصل الثاني عشر

بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لقطع طريق الفرار على

العدو، أو لتسهيل فراره.

كان الاغريق قد عقدوا العزم على منع ملك الفرس خسرو Xerxes من الانسحاب عن طريق تحطيم الجسر القائم على طريقه، لكن تيميستكل Themistocles خشي من دفع الأعداء إلى اليأس، فيبذلون وقتها كل قواهم، فأرسل خادمه إلى خسرو حتى يحتل الجسر، ويعجل بالهرب.

وعندما حاصر قيصر الألمان، وصاروا يقاتلون ببسالة بسبب يأسهم، أمر بتركهم يذهبون، وطاردهم بعد ذلك الفارين.

وعندما وصل الخبر إلى جيش ت. مارتوس T.Martius بأن القادة البونيين قد قتلوا، وإذا شرع أفراد جيش قرطاج يقاتلون بعنف حتى يحققوا الانتقام، أخلى السبيل أمامهم وتركهم يتفرقون، حيث خلى بينه وبينهم مسافة كافية للهروب، ثم كرّر عليهم وقتلهم دون أن يعرض جماعته للخطر.

ولما عاد القنصل مانيليوس Manilius من ميدان القتال، وجد أن المعسكر الروماني قد احتله المتمردون، وأن جميع أبوابه محاصرة، والأعداء في الداخل، فانقض عليهم كالمسحور حتى أنه سقط في القتال، وعندما لاحظ بعض رجاله ذلك وكانوا في الطرف الأقصى من المعسكر، فتحوا منفذاً ليخرج منه المتمردون، وبعد أن خرجوا وتبددوا، وصل القنصل الثاني، وطاردهم.

ومثل هذا فعل بنو إسرائيل عندما اشتد القتال ضد سبط بنيامين (القضاء: ٢٠) تركوا لهم مكاناً يهربون منه، حتى يقعوا في كمائن قد نصبوها لهم من قبل.

وبعدما احتل بيروس Pyrus ملك إبيروتا Epirota إحدى المدن، رأى أن سكانها قد ضاقت بهم الأمر، وأغلقوا الأبواب، وأخذوا

يحاربون بشدة، فبادر ففتح لهم منفذاً، وترك لهم مجالاً يهربون منه.

وترك بيروس نفسه في جملة ما ترك من وصايا وأوامر قوله: «لاتقاوموا العدو المصر على الفرار، ليس فقط حتى لا تخرجوه بسبب المضايقة، وتدفعوه لبذل مقاومة أشد، بل لكي يسهل عليكم قتله فيما بعد، ولكي لا تكونوا من الظافرين الذين دأبوا على الشر».

الفصل الثالث عشر

بعض الاجراءات الاحتياطية، والأمثلة لإخفاء الكمائن،
ولتضليل الأعداء.

بقدر ما يكون أحدهم مقدراً ذا قيمة كبيرة لدى الأعداء، بقدر ما يخسر من الجرأة والبسالة، ولذلك من الضروري أن تخفي على العدو كل النواقص الضرورية.

فلدى خوض توليوس هوستيليوس Tullius Hostilius ملك الرومان الحرب ضد الفيغنت Vegentes وصل الألبان إلى بعض التلال القريبة بعدما تخلى عنها الرومان، وهنا أعلن جهارة أن ذلك تم بأمر منه حتى يطوق الأعداء، فهدأت نفوس الرومان المضطربة وتحطمت قلوب أعدائهم.

وعندما عرف سيلا بوجود من يتآمر في جيشه للاستسلام، أرسل مبعوثين من قبله يطوفون في أرجاء الجيش كله، وقال بأن ذلك يتم بتدبير منه، وبذلك أخفى مظاهر الهزيمة الواضحة، وشد من عزائم الجنود.

وكان هانيبعل قد جلب معه ثلاثة آلاف نجار إلى إيطاليا، وعند وصوله تخلوا عنه وهجروه، فما كان منه — حتى لا يضطرب الباقون — إلا أعلن أنه هو الذي صرفهم، ولهذا السبب كسب الذين بقيوا

معه.

وعندما لاحظ لوكولوس Lucullus أن الفرسان المقدون الذين كانوا معه لمساعدته، اتفقوا سوية والتحقوا فجأة بالأعداء، أمر بالنفخ بالأبواق، وأرسل الفرق التي كانت تحت إمرته، وشن بها الهجوم على الأعداء، وفضل ملاحقة الفارين بالنبال، فاضطروا إلى العودة إلى الرومان، وهاجموا العدو معهم.

وعندما انهزم الرومان الذين كانوا مع القنصل ت. كونتوس كابيتولينوس T. Quintus Capitolinus كذب مصرحاً، قبل أن تفلت الأمور، بأن قنصلاً آخر على الجناح الآخر قد هزم الأعداء، فتماسك من كان معه، وأحرز النصر.

ومثله فعل ج. مانليوس G. Manlius في حربه ضد المتمردين، فعندما جرح زميله فابيوس Fabius الذي كان يقود الجناح الأيسر، أقبل مع مجموعات من جنده نحو المنهزمين، صارخاً في وجوههم بأن زميله حي، وأنه موجود في الجناح الأيمن، وقد حقق النصر، وبرباطة الجأش هذه استرد معنويات جنده، وانتصر.

الفصل الرابع عشر

بعض الاجراءات الضرورية اتخاذها في حال تحقيق النصر في المعركة، وإجراءات احتياطية ضد الفارين.

بعدما غلب ج. ماريوس التيوتون في الحرب، حاصر فلولهم، وكان الليل قد حل، فترك من جيشه جماعة ترعبهم، وتركهم طوال الليل بدون نوم، فنتج عن ذلك أنه تمكن في اليوم التالي من هزيمتهم بكل سهولة، كونهم لم ينعموا بالراحة.

وعلى عكس ذلك تصرف بلدوين الرابع، ملك القدس، بعد أن هزم

نور الدين (كذا)، فصرف بعض البارونات، ولذلك عندما عاد المسلمون لم يسلم المسيحيون من الإبادة إلا بالفرار، وبالطريقة ذاتها، وللسبب نفسه لحقت الهزيمة عند قلعة هنزيط ببعض البارونات الواصلين من فرنسا.

وبعدما غلب نيرو Nero البونين رمى برأس أسدروبل في معسكر هانيبل، حتى يحطم معنوياته ومعنويات جيشه بالبكاء على أخيه، ولكي يدركوا أن لا أمل بوصول النجدة إليهم.

وأرسل جوسلين أيضاً برأس بلك إلى الصليبيين المحاصرين لمدينة صور، وبذلك اغتم المسلمون وحزنوا كثيراً،

وأمر ل. سيلا L. Silla برفع رؤوس القادة المقتولين في الحرب على أسنة الرماح، حتى يراها الواقعون تحت الحصار في مدينة بنسترا Penestrae ، وبذلك حطم تصلب المتصلين.

وبعدما تغلب إرموكراتس Ermocrates السرقسطي على القرطاجيين في المعركة، أعاد معه عدداً كبيراً جداً من الأسرى، وخوفه من أن تخفف الحراسة عليهم وأن تتدنّى، لأن المنتصرين بطروا بسبب النصر، ومالوا نحو المآكل، وركنوا إلى الطمأنينة، نشر إشاعة بأن جيشاً من الفرسان قادم في الليلة التالية، وكانت نتيجة ذلك الاحتراز والانتباه أكثر للحراسة.

وينبغي أن لا يتوزع المنتصرون حالاً لجمع الغنائم وللنهب.

فهكذا فعل التيوتون بعد انتصارهم، ففرقوا للنهب، فانقض عليهم شارل ملك صقلية، وهم متفرقين، وانتصر عليهم بسهولة، وهذا ما فعله يهوذا المكابي عندما انتصر على جناح من جيش جورجياس (المكابيون الأول: ٤) فقال لشعبه: «لا تطمعوا بالغنائم لأن الحرب ما تزال قائمة بيننا»، وأطلت وقتها مع جورجياس فرق الجيش

تراقب من الجبل، ورأت هذه الفرق ما يحدث، وأن يهوذا واقف في السهل مستعد للقتال، فحل بين صفوفها الرعب، وهربت، ووقتذاك فقط رجع يهوذا إلى المعسكر ليأخذ الأسلاب.

ومثل هذا الاحتراز ضروري لا بل ضروري جداً بالنسبة إلى الذين يقاتلون ضد المسلمين، ذلك أن المسلمين يحسنون الفرّ والانصراف، ويعرفون بالوقت نفسه أيضاً، ويحسنون الكرّ، حيث يقومون بجمع بعضهم بعضاً للعودة، لأنهم يقفون عن بعد، ويقومون بمراقبة ما يعمله الصليبيون، فإذا رأوهم قد تفرقوا وانشغلوا بالغنائم والأسلاب يكرون عليهم وينتصرون.

ولهذا يمدح الغاليون، لأنهم عندما ذهبوا للحرب ضد أثيلا، سلموا إلى بعض الحراس كل ما كان معهم من ذهب وفضة، وهكذا إذا تقلبت حظوظ القتال، وكان اليوم عليهم، يكونوا قد أنقذوا كنوزهم، وتركوها للناجين من أصحابهم.

كذلك فعل تريفون Tryphon ملك سورية عندما هرب من أمام أنطيوخوس، حيث ذر المال ونثره على طول الطريق، وبذلك أفلت من جنود أنطيوخوس، لأنهم تمهلوا لالتقاط الدراهم.

وعندما هزم كونت متللو بيو Metello Pio في المعركة ضد ق.سرتوريوس Q.Sertorius، أمر سرتوريوس جنوده بالانصراف متفرقين، ولكي لا يعتقدوا أن في الفرار أمن، أوصاهم بأن يتجمعوا من جديد في مكان عينه لهم.

ولم يصنع الصليبيون صنيعاً مماثلاً عندما وقعوا أسرى مع الملك لويس قرب القلعة المسماة سرياقوص، ولم نقرأ أنهم لجأوا في مرة من المرات إلى مثل هذا التدبير والاحتياط.

الفصل الخامس عشر

طرق متعددة لإلقاء الحصار، والاعراض الاحتياطية اللازمة.

يأتي الضرر الأعظم إلى المحاصرين من خلال النقص بالمياه، لذلك ينبغي أثناء الحصار المراقبة بكل عناية لمعرفة من أين تصل المياه، فعندما حاصر أولفرنس Olofernes بتوليا Bethulia أمر بكسر قناة الماء، فجال جنده يفتشون عنها، ولما اكتشفوها وضعوا حراسة مشددة على الينابيع، مما جعل رئيس الكهنة، يقرر بعد خمسة أيام استسلام المدينة.

وكذلك يجب محاصرة الطرق ومراقبتها من حيث تصل المواد الغذائية، وقبل وقت حصاد الغلال، فهكذا فعل فابيوس ماكسيموس Fabius Maximus حيث أقدم على تدمير حقول الكامباني Campani ، ثم انسحب حتى يزرعوها من جديد، ويفقدوا البذار، وعندما أنبتت أتلّفها، هذا ونجد أن أساليب متنوعة قد استعملت من أجل سحب الحبوب من المحاصرين، من ذلك أن ديونيسيوس Dio-nysius ، أراد — بعدما احتل مدناً كثيرة — أن يهاجم الريجينيوس Reginos ، الذين كانت لديهم غلال كثيرة، فتظاهر بالمسألة، وطلب أن تقدم المواد الغذائية إلى جيشه، وعندما استنفد القمح الذي كان عند أهل المدينة هاجمها.

وكان عندما حاصر الاسكندر لوكاديا Leycadia ، وكانت غنية بالمؤن، بدأ باحتلال القرى التي في جوارها، وسمح أن يهرب إليها السكان حتى تنفذ المؤن التي فيها بسرعة.

وتظاهر فالاريس أغريجتنتوس Fallaris Agrigentinus بأنه تعاقد مع إحدى الجماعات التي أراد إخضاعها، ووضع عندها كميات من القمح برسم الأمانة، لكي تأكل قمحها بدون حذر، ولما نفذ ما

عندها، طلب استرداد ما أودعه، ومن ثم تغلب عليها عن طريق التجويع، هذا وهناك المزيد من الأساليب لخداع المحاصرين.

فلقد احتل هانيبعل مدناً كثيرة في إيطاليا، وهو يرتدي ألبسة الرومان ويتكلم لغتهم، لأنه تعلمها من كثرة الاستعمال أثناء تلك الحروب الطويلة.

وهكذا احتل المسلمون مدناً كثيرة للمسيحيين، عندما بدا لهم أنهم قد انتصروا.

وكان قائد جيش أثينا قد أحرق هيكل ديانا خارج إحدى المدن، فخرج أهل المدينة للعمل على إطفاء النيران تاركين المدينة بلا دفاع فاحتلها.

وفي أثناء قيام ألسيبيادس قائد جيش أثينا بحصار مدينة أغريجنثيا Agrigentia الجيدة التحصين، سأل مجلس المدينة أن يتداول معهم حول بعض الشؤون العائدة للمصلحة العامة، وفيما كانت جماعة المجلس مجتمعين معه، تاركين مدينتهم بدون حراسة، هاجمها جيش أثينا، وكان مستعداً لتلك المهمة، واحتلها.

وألقى أنطيوخوس في كبدوكيا القبض على مكاريين كانا يحملان على البغال حنطة لقلعة محاصرة، وألبس اثنين من جنده لباس المكاريين، وسلمهما وظيفتهما، وبالطريقة ذاتها دخل الأرمن إلى إحدى القلاع، وهم يخفون سلاحهم، وخدع المسلمون قرب عكا مسيحيين كثيرين.

وعندما أدرك ب. كورنيليوس صعوبة الاستيلاء على مدينة دلفينا Delvina، لأن كل من كان في أحواضها كان يهب للدفاع عنها، شرع باحتلال بلدات الأحواز، فاستدعت كل منها مقاتليها للدفاع عنها، وعندما باتت دلفينا من دون من يهب لنجدها، استولى عليها.

وعندما عجز القنصل كورنيليوس روفينوس -Cornelius Ru- finus عن احتلال بلدة كروتونا Crotona ، تظاهر بالانسحاب، وبعدها صرفت الذين قدموا لعونها، عاد فاحتلها عاجزة.

وبعدما غلب مانغو Mango، قائد جيش قرطاج القائد بيزون Pisone ، شاهده يطل من أحد الأبراج، فخشي أن تكون هناك نجيدات قادمة إليه، فأطلق سراح أحد الأسرى لديه ليقنع النجيدات القادمة أن بيزون وقع أسيراً، فخاف هؤلاء وهربوا وبذلك أكمل نصره.

وعندما كان ثليوبيداس Theleopidas الطيبي يهاجم بلدين معاً في آن واحد، أمر أن يرسل إليه أربعة فرسان مكبلين بسرعة كبيرة، وأضاف إلى هذه الخدعة أنه أمر بإشعال النيران في غابة كانت بين البلدين، ليعطي انطباعاً ووهماً أن المدينة ت احترق، وأمر بالوقت نفسه بجر بعض الرجال وهم يلبسون زي تلك المدينة.

وأرسل فاييوس مكسيموس عندما كان الأربوس Arpos منشغلين في مساندة هانيبعل ستمائة فارس ليتسلقوا في ليلة دهماء الأسوار من الجهة الأقل تحصيناً في المدينة، وقد ساعدتهم أصوات المياه المتساقطة، ولدى إعطائه إشارة متفق عليها، هاجم الأربوس من الجهة الأخرى.

وأمر كاتو Cato بمهاجمة إحدى المدن من قبل أكثر الجنود ركاكة لديه، وترك المحاصرين ينتصرون ويطاردون المهاجمين بحماس، وعند ذلك قام مع الكتائب الجيدة التي احتفظ بها ، باحتلال المدينة التي فرغت من المقاتلين.

وهكذا فعل سكيبيو في سردينيا، حيث تظاهر بالفرار، فلحق به أهل المدينة، وعند ذلك استولى على المدينة بوساطة فرق كان خبأها على

مقربة من هناك.

واستولى هانييعل على جيمرا Gemera بالأسلوب نفسه.

وتظاهر بنو إسرائيل أيضاً بالهروب (انظر سفر القضاة) عندما عقدوا اجتماعاً لقلع أبناء بنيامين من المدينة، وبذلك احتلوا جبعة، وقتلوا خمسة وعشرين ألف مقاتل منهم.

ولم يصنع عموري، ملك القدس، هكذا عندما كان يحاصر دمياط مع جيش امبراطور القسطنطينية بل إنه اضطر بعد انتظار طويل إلى الانسحاب بسبب الجوع والبرد.

وعندما ذهب الملك هيغ Hugo مع الأمير ادوارد لهدم مدينة كاكو Caco، عدلا عن ذلك ولم يحاصرها لأنها وجدا غنائم.

الفصل السادس عشر

توصيات مفيدة للعساكر وتعليمات.

من المفيد توجيه قادة الحروب وتزويدهم ليس فقط بالأمثلة، بل إعطائهم أيضاً قواعد ثابتة، وتعليمات غير قابلة للخطأ أبداً، ففي الحروب والحملات العسكرية هناك قاعدة هي: كل ما يفيدك أنت، يضر عدوك، وكل ما يضرك أنت، يفيد هـو.

لا تعمل شيئاً يجرك العدو إليه، ولا تخفيه، واختر ما يبان في رأيك أنت أنه الأفضل والأنسب اختياره، واحذر أن تعمل ضد نفسك إذا بدأت تقتدي بما يعمله العدو لنفسه، وفي الحرب من يكون أكثر سهرًا في الشدائد، ومن يثابر على إجراء التمارين للجنود، يكون الأقل تعرضاً للخطر، ولا تكلف جندياً بأمر صعب ما لم يكن كفؤاً للقيام به، وعند الوقوع في ضيق، وأثناء الارتباك والكائن، من المفيد أكثر أن تدرك عدوك لا أن تقاتله، وفي تلك الظروف الحظ أقوى من الشجاعة، و

المخطط الأنجح لإنجاز مهمة ما، هو معرفة ما من شأنه أن يحول دون نجاحها، وفي العادة يفيد أكثر أن يكون المقاتل صاحب قضية عادلة، من أن يكون صاحب مهارة في القتال، وعند ملاقات العدو، أو مهاجمته، عنصر الثقة هو المهم، في حين يلحق الهاربون بالعدو ضرراً أعظم ويحطمونه أكثر من القتلى، والاحتفاظ باحتياط كبير في مؤخرة الجبهة، أفضل من نشر الجنود على جبهة واسعة في المقدمة، ومن الصعب التغلب على من يستطيع الانتقام، أكثر ممن معه جحافل الأعداء، وقلة مدربة مقدمة للنصر، والمحصلة الحتمية لجمهور غشيم هي في العادة الهرب، وكثيراً ما يكون المكان والزمان أهم من المهارة في الحرب، وقلة هم الذين يلدون رجالاً أقوياء، وكثرة هم الذين يصيرهم التدريب كذلك، ولا تصفّ قواتك للقتال ما لم يكن عندك أمل بالانتصار، ولا شيء يثمر أكثر من التقدم بانتظام، وينبغي التقيد به، إلا إذا تعلم الجيش الزحف السريع المتوازي، ودوماً يتعرض للخطر الجيش غير المنظم والموزع، ويتوجب أخذ أقصى حيلة حتى لا يحل شيء بمن ليس عندهم خبرة، إذا ما حصلت شدة، ولا يغلب العدو بالسلاح المحلي والمزين، بل بالمهارة في استعماله، وبالرعب، ويمكن الإصلاح في باقي الحالات، بعد ارتكاب الخطأ، أما الغلطة في الحروب فلا يمكن تداركها، ذلك أن عقوبتها تنزل حالاً، وخضع العالم للشعب الروماني ولمجلس شيوخه، بفضل التدريب على السلاح، وخبرة الجيش، والانضباط في المعسكر.

ويزيد الانضباط العسكري الشجاعة والخبرة في القتال، ومن اعتاد على الحياة الخشنة، فذاك الذي الخوف عليه من الموت أقل في الحرب، ولا شيء يفيد ويجدي أكثر من ترتيب المعدات في المعسكر، ومن أن يقضي الناس هناك الليل والنهار وكأنهم قد حملوا مدينتهم معهم، وهكذا إذا حلت بهم شدة، ووقعوا في الخطر، يجدون ملاذاً، ولا يقتلون

مثل البهائم، ويقهر بدون سيف من لا يجهز القمح وباقي الحاجيات.
ما ينبغي أن يكون، ابحثه مع كثيرين، واعلم أن الحكماء هم أعين
القادة، وما تريد أن تعمله ابحثه مع قلة، بل الأفضل أن تبحثه مع
نفسك فقط، ولا يعتمد القادة الصالحون إلى القتال العام، إلا في بعض
الظروف الاستثنائية، أو عندما تضطربهم حاجة كبرى.

ويطلب من الجندي: الكفاءة بالعمل، والسرعة، والقوة، والتدريب
على السلاح.

ومن الموائم أن يُضم إلى الجيش: حدادون، ونجارون، وجزارون،
وصيادون.

ومن شيم فرقة النخبة أن لا تهرب بسهولة، وعدم إغفال الشهامة
تجعل الجندي مؤهلاً، والخجل من الفرار يجعله منتصراً.

والمطوقون تزداد بسالتهم بدوافع اليأس.

ولا مسامحة لمن يستسلم للاهمال، عندما تكون المعركة للخلاص.

ولا تُطلب كثرة العدد، إذا كانت الفرائص ترتعد فوراً، وإذا كانت
النفوس لا تسعى فقط إلى التهرب من سهام العدو بل من مواجهته.

ويكفي حتى الآن ما ذكرنا به حول الانضباط العسكري، وعلى كل
حال، كل ما لم يرد ذكره هنا من قواعد وأمثلة يعوض عنه في المدارس.

الفصل السابع عشر

وجوب الاكتفاء بملك واحد بعد الاستيلاء على أرض الميعاد.

يجب بعد الاستيلاء على أرض الميعاد تنصيب ملك يتأمر على الجميع،
ويحكم شعبه بفطنة وعدل، ويهزم الأعداء ويرعبهم، وذلك حسبما
يوصي الكتاب المقدس إذ يقول سفر التثنية في الأصحاح السابع

عشر: ١٤ — ١٥: «متى أتيت إلى الأرض التي يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها، فإن قلت أجعل عليّ ملكاً لجميع الأمم الذين حولي فإنك تجعل عليك ملكاً الذي يختاره الرب إلهك».

واستخدم كلمة ملك لا ملوك، وكما قلنا من قبل إنه ينبغي اختيار قائد واحد للجيش، حتى يستتب السلام، وتحقق الوحدة بشكل أعم، حيث يجب فوق كل شيء تجنب الانقسام، والانقسام قد يحل بسهولة بين المؤمنين، إذا حصلوا على انتصار، وذلك بسبب تنوع لغاتهم، وتعدد بلادهم، واختلاف تركيباتهم الاجتماعية، وشبه سلطان مصر نفسه بأفعى لها ذنب واحد وعدة رؤوس، علماً أنه لا يمكن لذنب واحد أن يتبع عدة رؤوس لها رغبات متنافرة، وذلك بشهادة المسيح في قوله: «لا يمكنكم خدمة رين»، وبناء عليه، ينبغي انتخاب ملك واحد، لكن ليس كيفما كان، أو بدون مبالاة، بل اختر الذي اختاره لك الرب إلهك، بحيث يكون ممن يكره ما هو عيب، ومتحلياً بالفضائل، ويؤثر ما هو نافع، ويمقت الإثم، وليكن مثل داود آخر، مسح الجميع بقلب واحد في حبرون (سفر صموئيل الثاني — الاصحاح الخامس)، وانتزع نير الجزية من يد الفلسطينيين، وضرب مآب وأذل المآبيين، وجعلهم عبيداً يدفعون الجزية، وانتشر صيته، وعندما رجع ضرب السوريين في وادي صوبا، وصارت أدوم بكاملها تخضع لداود.

وليكن مثل سليمان آخر، الذي كانت الأرض تشاق لرؤية وجهه، وكان بفضائله أعظم من سمعته وصيته، وقد استولى على جميع المنطقة الواقعة عبر نهر الأردن، وخضع له كل ملوك تلك المناطق، وفي كل مكان حوله كانت له مشاركات (سفر الملوك الثاني — الاصحاح الرابع)، وكان سكان يهوذا وإسرائيل يعيشون بدون خوف، كل واحد منهم تحت كرمته وتحت تينته، وكذلك حصن حزقيا المدينة، وجرّ إليها المياه، فبالحديد نقب الصخور وحفر بئراً (أخبار الأيام الثاني: ٣٠، سفر

ابن سيراخ: ٤٨)، وأخيراً ليكن مثل يواش الذي أرسله الرب ليعيد الشعب إلى التوبة، وفي أيامه أزال جميع الأرجاس، ودعم التقوى (أخبار الأيام الثاني: ٢٤ / ١. ابن سيراخ: ٤٩).

على هذه الشاكلة ينبغي أن يكون ملك القدس، حتى يتمكن الشعب المسيحي هناك من النمو عدداً، والارتقاء مرتبة، وقد أحسن الشاعر أنتي كلاديوس Anticladus حين قال: «الناس على شاكلة ملوكهم، والقرارات التي تدغدغ أحاسيس الناس لا تستميلهم، بل الذي يستميلهم هو حياة حكامهم».

فهكذا كان غودفري المختار من الرب والمحبوب، وكذلك الذين خلفوه، الذين جبوا الجزية من سلطان مصر ودمشق.

الفصل الثامن عشر

يتوجب على الملك الامتناع عن النفقات غير الضرورية وغير ذلك من الأباطيل:

ومثلما قدمنا من قبل بعض الارشادات المفيدة المتعلقة بالانضباط العسكري، من المفيد أن نضيف إليها أيضاً — فيما يلي — بعض النصائح المرتبطة بالمثل الأخلاقية والحياة المستقيمة، ونحن إذا قرأنا بوعي ما تقدم وذكرناه، نلاحظ أن الصليبيين قد افتقروا إلى الخلتين، وسلف أن أشرنا أعلاه بشيء من الایجاز إلى أن الشعب يكون بالعادة مثلما ملكه، وأنه كما يكون حاكم المدينة يكون سكانها (ابن سيراخ: ١٠)، وتقدم بنا القول «بأن الناس في العادة على شاكلة ملوكهم».

ولا يظن الملك أنه معفى من تطبيق الشريعة عليه (سفر التثنية — أعلاه)، بل عليه الالتزام بطاعة الناموس المعطى له من السماء، وعندما يتوج ملكاً: «لا يكثر لنفسه الخيل» [التثنية ١٧ / ١٦]، لكن هذا لا يعني عدم اقتناء الخيول الجيدة، والفرسان لحماية المملكة، بل المحظور هو

الاكثار للأبهة والجاه مثلما حدث مع سليمان[الملوك الأول: الاصحاح الرابع] حيث ورد أنه كان لدى سليمان أربعين ألف مزود لخيل مراكبه واثنى عشر ألف فارس، وجاء في موضع آخر أنه كان لديه عشرين ألف فارس.

فلتمنع عن الملك هذه العجرفة وهذا الاسراف كي لا يثقل شعبه، ويصبح هو صلفاً جباراً، ذلك أن الذي قصده المشرع بكلمة «الخيل» هو «الحشم» والحاشية وكل ما يمت إلى الملك، وقد تطرف سليمان وتجاوز الحدود في ذلك، حيث كان طعامه «لليوم الواحد ثلاثين كراً سميذ، وستين كراً دقيق. وعشرة ثيران مسمنة، وعشرين ثوراً من المراعي، ومائة خروف ما عدا الأيائل والظباء واليحامير والأوز المسمن»، وعمل مجنباً من ذهب مطروق، وثلاثمائة مجن من ذهب، كل ذلك لإظهار أبهة ملكه وبذخه، وهذه كانت كلها من استخدامات الحرس الذين كانوا ينامون عند باب الملك، وكان يتقدمهم لدى خروج الملك فرسان شبان، يتولون توزيع العطور من حوله، وكانوا يفعلون ذلك حتى عند مرابض الخيول، ويحلّون أسلحتهم ويطلونها بالذهب حتى إذا ضربتها أشعة الشمس تبرق لمعاناً، وقد أرهق هذا الاسراف كله الشعب الذي كان خاضعاً لسليمان، وعبر عن ذلك سفر الملوك الأول — الاصحاح الثاني عشر، عندما صرخ الناس من أفراد الشعب إلى ابنه رجبعام قائلين: «إن أباك قسى نيرنا، وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك»، وعندما أجابهم بعكس ما طلبوه وهددهم بما هو باهظ أكثر، خسر الأسباط العشرة، وجرّ الانقسام إلى المملكة.

وما الذي يفيد الملك الفائض من السلاح أو المسلحين؟ وكان لما رأى أفلاطون ديونيس Dionys طاغية صقلية وقد أحاط نفسه بالحرس، قال له: «أي شر صنعت حتى لزم أن تقيم حولك هذه

الحراسة؟! وقال سناكوس Senecus في كتابه إلى نيرون عن الرحمة: «حصن واحد لا يمكن اقتحامه هو محبة الشعب»، فليتبه الحكام والبارونات إلى هذا: إذا كان لا يجوز للملك أن يكثر من الخيل والفرسان من أجل الجاه، فكم هو بالحري أن لا يكثروا من الكلاب والطيور الجارحة، والقردة، والحيوانات البرية المختلفة، التي تهبها الطبيعة.

ولعلمهم أخطأوا، وتمادوا أكثر من اللازم في هذه الأمور، ذلك أنهم تعودوا كثيراً على التعلق بالمهرجين، وصرفوا أنفسهم عن الاستماع إلى من وعظهم بالحقيقة، وقالوا: إنه شرف للزعماء أن يتمرنوا على الصيد للترفيه، وأن يلاعبوا طيور السماء، وأن يجمعوا الخيول السريعة، والمخمل المطرز، وغير ذلك من المقتنيات، فهل هناك من يجهل كم كل هذا التمتع هو من عفونة الكسل والاستخفاف؟

وقال الفيلسوف تيموستكل Themistocles: «ينبغي إبعاد القضاة عن اللعب وعن كل ما ليس فيه رصانة، لئلا يبدو أن المصلحة العامة هي لعبة يلتهون بها».

الفصل التاسع عشر

الجرم الذي يقترفه الملك الفاسد الأخلاق، ضد المملكة.

إذا كان يتوجب على ملك القدس الامتناع عما هو باطل وغير رصين، كونه بؤرة للخطايا، بات متوجباً عليه أيضاً أن يقدر مدى العناية التي عليه أن يتجنب بموجبها الخطايا الأكثر جسامة التي من شأنها، أن تجلب آخرته، ليس وحده فقط، بل وآخرة المملكة كلها، لابل والشعب كله، وتجبر على الجميع عدم التوفيق والخطر، ولذلك من الموائم أن يلتزم بذاته بالقاعدة التالية: «ألا يرجع الشعب إلى مصر بسبب كثرة الخيل»، ذلك أن البذخ والباطل لدى الملك يقودان إلى الخطيئة،

وخطيئة الملك تعيد الشعب إلى مصر، أي إلى ظلمات الخطايا، فقد قال أمبروز Ambros في رسالته إلى الرومانيين: «يعمل الأدنى ما يرى الأعلى يفعله»، وقال ايرونيـموس أيضاً إلى الأسقف هليودوروس: «إقامتك في البيت هي كمن هو واقف أمام المرأة، وهي معيار للانضباط العام، فكل ما يعمل هناك يظن الناس أن عليهم الاقتداء به»، وهكذا قاد يربعام عشرة أسباط إلى عبادة الأصنام كما لو كانوا في مصر، ولهذا السبب تم تدمير المملكة على أيدي الآشوريين، وكذلك أفسد يوشع ملك القدس نخبتهـا، عندما زاغ عن وصايا الرب وابتعد، (انظر الفصل المقبل)، ولذلك لم يعد كلام الرب يخرج لا من دبير Dobyr ، ولا من إفود Ephod ، وبسبب خطيئة داود، عندما أجرى الاحصاء للشعب جرى قتل الآلاف العديدة (صموئيل الثاني: ٢٤)، وهكذا يتضح صدق ما جاء في سفر ابن سيراخ — الاصحاح العاشر قوله: «مثلاً يكون قاضي الشعب يكون الخادمون له، ومثلاً يكون رئيس المدينة يكون جميع سكانها».

ولأن نتائج الخطيئة تشمل الشعب مع الملك، فإنهم بحق يتسربلون بالعقوبة المشتركة، وعن هؤلاء قال الرب في سفر حزقيال: «الملك ينوح، والرؤساء يتسربلون بالدهش، وأيادي الناس معفرة بالأرض، وما يفعلونه يذهب سدى».

وهكذا عدّ الملك متحملاً لمسؤولية الذين أعادهم إلى مصر (إلى الخطيئة) بمثله السيء الذي ضربه لهم، ولهذا توجب على الملك أن يتحلّى بالفضائل، حتى يضرب لشعبه المثل الأعلى بالأخلاق الفاضلة، ويحثهم عليها، مثلاً يفعل الرأس في الأعضاء، حتى لا يستحق التنويخ الذي وجهه إيليا إلى آحاب بقوله: «أنت مقلق إسرائيل، أنت وبيت أبيك»، ولكي لا ينتحب الشعب في النهاية ويردد ما جاء في المراثي: «هددني وساقني في الظلمة وليس في النور»، ثم يستطرد فيقول (مراثي: ٥ /

٥): «نتعب ولا راحة لنا، أعطينا اليد للمصريين والآشوريين لنشبع خبزاً».

الفصل العشرون

كيف ينبغي على الملك، بدافع من القناعة، وإرشاد من العقل
لجم شهواته وملذاته الجسدية.

مثلاً يمثل الجميع، في المدينة الحسنة التنظيم، لأوامر الملك الواحد، ويطيعونها، هكذا يتوجب على من يريد العيش باستقامة أن يخضع كافة شهواته لسلطان العقل، وألا يسعى أبداً وراء شهواته (ابن سيراخ: ١٨)، بل عليه لجم نفسه، وإبعادها عن الملذات التي نتشارك بها مع البهائم (كتاب الأخلاق الثالث)، والذي يسعى خلفها دونما رادع ليس مؤهلاً لأن يحكم على غيره، بل بالحري أن يكون تحت حكم غيره، ممن يتبعون حكم العقل، مثلاً قال الرب على لسان نوح، عندما أوصى أولاده في سفر التكوين — الاصحاح التاسع (٢): «ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض»، فإنه ذكر «الحيوانات» ولم يذكر «البشر» حتى لا يخاف العقل، بل تخاف البهيمة من تسلط الانسان، فالرذيلة هي من الأمور القابلة للاشتهاء (الأخلاق الثالث)، ومثلها عدم القناعة، وهي تشبه بالطفل «والويل لأرض ملكها طفل وحكامها يأكلون منذ الصباح» (ابن سيراخ ١٠)، وعلى هذا من الضروري أن تدار الحواس وقوة الغرائز بوساطة العقل، فالعقل ضروري مثلاً المعلم ضروري للطفل، وقد قال بولس الرسول في رسالته إلى تيطس - الاصحاح الثالث (الصحيح إلى ثيموثاوس: ٣ / ٥): «وإنما إن كان أحد لا يعرف أن يدبر بيته، فكيف يعتني بكنيسة الرب؟» وعلى هذا على ملك أرض الميعاد المختارة أن يتعلم بطريقة عمله ونمط سلوكه، كيفية

إدارة شؤون جميع شعبه، وأن يكون حسبما قال كلوديانو -Clau-
diano في قصيدة عن الأخلاق:

«إذا استولى عليك الرعب، إذا استحوذت عليك شهوات كثيرة، إذا
استدرجوك إلى الغضب»

«إذا طغت عليك الرذائل وأرهقتك، وإذا ثارت في داخلك رغبات
آثمة فتحملها»

«وإنك حقاً ستمسك بزمام جميع الأمور» .

«عندما تتمكن من أن تكون سيد نفسك وملكها».

ويقول بلوتارخ Plutarchus في وصاياه إلى تراجان: «لن
تصنع شيئاً باستقامة تامة ما لم تتخلى عن نفسك، وإذا ما لزمك ذاتك
بالسير حسب الفضيلة، فإن كل ما سيتج سيكون مستقيماً».

وبما أنه بين الملذات الحسية، تعدّ الملذات الجنسية أهمها، فإنها ذكرت
باسمها عندما حرمها قانون الملوك في سفر التثنية: ١٧ / ١٧ في
قوله: «ولا يُكثر له نساء لئلا يزيغ قلبه».

وعلى هذا الأساس كم هو بالأحرى تحريم اقتراف الزنا، أو الاتيان
بأية قباحة، وإذا اعترض معترض، انطلاقاً مما ذكر عن داود الملك، وابنه
سليمان، اللذان اتخذا زوجات كثيرة نجيب: لما فهم داود المثل الذي
ضربه له ناثان، أقر بأنه ابن الموت (صموئيل الثاني: ١٣...)، وعن سليمان
قال سفر ابن سيراخ: ٤٧ (/ ٢١) بعدما تحدث عن عظمتة وعن
أعماله: «أمال فخذه إلى النساء فكان وصمة في مجده»، وحين اتخذه هيرود
هيروديا خلافاً للناموس، أمر بقطع رأس يوحنا (متى: ١٤ . مرقس: ٧)،
وحين لم يأبه بلدوين الأول، أول الملوك اللاتين على القدس، بهذا الأمر،
حل رباط الزوجية الذي يلتزم به الانسان نحو الآخر منذ البدء، وأقل

على الملكة وألقاها في أحد الديرة، في دير القديسة حنة، قرب بركة الضأن، وعلى مقربة أيضاً من باب شعفاط، وتزوج كونتيسة صقلية، التي كانت تمتلك الأملاك الكثيرة، وكانت مطلقة روجر أخو روبرت غويسكارد، وحين فعل ذلك ضربه المرض، وخسر أخيراً مملكة صقلية وأبوليا، وعرض مملكة القدس وأملاكها للانقسام والكراهية لمدة طويلة.

وكذلك ايزابيلا [ابنة عموري الأول] التي خلفت أختها الملكة سيبيل، تخلت عن همفري، وتزوجت من كونراد، بل لنقل إنها تمرغت في الزنى، لأنه بشهادة المعلم معلم الحق «كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني» [لوقا: ١٦ / ١٨] هذا من جهة ومن جهة ثانية: «وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزني»، وإنه لأمر بشع لا يليق بشرف الملوك، لابل إنه لا يكاد يترك للضالين، أن يفسخ إنسان الزيجات المعقودة، أو أن يضاجع نساء غير شرعيات، أو أن يربط واحداً بكثيرات، خلافاً لوصية الرب، ولما حرّمته الكنيسة، ولهذا على الملك أن يلجم شهواته وميوله، تحت سلطان العقل حتى لا تنزلق نفسه إلى الخطيئة، ولئلا تتلطح نصابة سمعة الملك بأحوال الخطيئة، وتفسد سيرته الشعب، في حين إنه لوبقي على الفضائل، لأمكنه إبقاء الشعوب الكافرة المقيمة من حوله تحت نير الجزية، ويقول توليوس Tullius ، في كتابه عن المتناقضات: «هل هناك من لا يستطيع أن يلجم شهواته»؟.

فليلجم الملك أولاً شهواته الجنسية، وليحتقر الملذات، وليبعد الوصيات عن نفسه، وعندها ليبدأ بالحكم، وذلك بعدما تأمر على أسياذ مكروهين، وعلى ما يجز العار والمخجلات.

الفصل الحادي والعشرون

كيف يمكن للملك لجم شهواته وملذاته الجسدية وتأمين

الثروات الوافرة.

كما أن جميع الأشجار قابلة للتطعيم في الجذع المناسب، هكذا جميع الآثام مطعمة بالبخل حسبما قال [بولس] الرسول في رسالته الأولى إلى تيموثاوس — الاصحاح السادس (١٠): «لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذي إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الايمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة»، ثم عاد فقال: «وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون في تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة تغرق الناس في العطب والهلاك»، ذلك أنه «ليس هناك من هو أكثر إثماً من البخيل» (سفر ابن سيراخ)، ولا نتحدث هنا فقط عن الطمع بالثروات، وهو الجذع الذي تطعم عليه كل الشرور، بل نريد أيضاً الطمع بالثروات الحسية والشهوانية، التي يتوجب على الملك الامتناع عنها (انظر الفصل المتقدم)، ويقول كتاب الأخلاق عن داء الحب: «الحب الشهواني يتغذى بالثروات»، ولذلك لا نتزاع وصمة جميع الرذائل ومنبع الرذائل الجنسية خاصة، قضي في قانون الملوك: «وفضة وذهباً لا يكثر له كثيراً» [التثنية: ١٧ / ١٧]، وذلك حتى لا يقوم مجد الملك على مصائب الكثيرين الذين يرغمون على حرمان أنفسهم من الضروريات في حين كان الأنسب لهم الاستفادة منها، والقادرون على عمل الخير لغيرهم يستحقون فخر تسميتهم ملوكاً، وإلا بأي حق يكس الثروات من يملكها باسم غيره؟ ولا يجوز أن يفرض ضرائب خاصة ذاك الذي يعترف بأنه يفرض ضرائب عامة، وبما أنه يلزم التخفيض من الامتيازات لا توسيعها، يجب أن نتأمل بعناية — بعد استرداد الأرض المقدسة — وننظر ما هو الأكثر فائدة للاحتفاظ بالملكة، وهل يجب تحويل مداخيل تلك الأرض إلى ضريبة تغذي صندوق الملك، حتى تصرف في وقتها على الرجال المحاربين، وذلك حسبما يتدبره الملك، وكما يتصرف سلطان مصر حتى الآن، أم أنها يجب أن توزع بعد احتلال الأرض على البارونات والجنود

ورجال الحرب، الذين يخدمون الملك والمملكة لقاء رواتب محددة، وتحفظ المداخل الفائزة عند الملك حتى يتمكن من أن يقدم بسخاء المساعدات لرجال الدين وللرهبان وللعلمانيين، وخاصة المعاقين والمعوزين، وبشكل أخص إلى الذين يكونوا قد تعبوا في احتلال الأرض المقدسة، أو خدموا في بلاط الملك، وكذلك لبناء الكنائس والديرة ولترميمها، وللعناية بالمرضى، والمحرومين من المساعدة الزمنية، وإذا تم التوصل إلى رأي أنه أجدى وأكثر فائدة القيام بتوزيع المداخل على المدن والقلاع، فلربما يكون ذلك أكثر فائدة لمدن بعض المجموعات القوية في أوربا أن تقيم توأمة مع تلك المدن، بحيث يكون لها مداخل الاقطاع نفسه تحت الولاء لها، وبذلك يكون لها عليها سلطة إدارية، وتعطي لكل ذي حق حقه، وتدفع إلى الملك وإلى المملكة شيئاً من رسومات ملاحظتها، أو ترسل له بعض الجنود، أو تقدم له الخدمتين معاً، لأن كل إنسان يسعى بجهد أكبر للمحافظة على ما هو له، وبالفعل إننا نرى أن بعض أقسام بيزنطة يحافظ عليها أهل البندقية حتى اليوم بفضل تلك الطريقة، وبما أنه يلزم بناء القلاع ورفع التحصينات وإشادتها ليس فقط في الأرض المقدسة، بل في العربية وفي الداخل السوري وفي مصر، وذلك ليس فقط من أجل الدفاع عن المملكة بل أيضاً من أجل الكسب الكبير، وللخيرات الدنيوية التي سوف تتدفق بوفرة، عندما تفتح أمامها شواطئ مصر وسورية، ومهما كانت الطريقة — من بين الطرق التي ذكرناها أعلاه — التي سوف تعتمد بخصوص الترتيبات في المملكة، يحتفظ الملك في جميع الحالات دوماً لنفسه بمنطقة تكون ضريبتها له حتى «يكون له مثاقيل كثيرة من ذهب ومن فضة» ولكي «لا يعلق قلبه بها» [مزمو: ٦٢ / ١٠] إذا كثرت بتدبير من الرب.

ولقد خسر موريتيوس Mauritius الامبراطورية بسبب تمسكه بالذهب، لأنه عندما وجد في أرض معادية له، ورفض أن يدفع

للجنود أعطياتهم، طلبوا فوقاس فانتزع الراية الامبراطورية وهرب موريثيوس مع زوجته وأولاده الخمسة إلى إحدى الجزر، وأمر فوقاس بقتلهم.

ولطمع شاول بغنائم العمالقة استندرج إلى عصيان أوامر الرب، فخلع من الملك، وبعد اقتراف آخاب لجريمة القتل، لأنه كان يشتري ضم كرم نابوت، سمع الرب يقول له على لسان إيليا: «هل قتلت وورثت أيضاً، ثم كلمه قائلاً: هكذا قال الرب: في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس دمك أنت أيضاً» [الملوك الأول: ٢١ / ١٩]، ويقول سفر ابن سيراخ (٣١): «طوبى للغني الذي لا يسعى وراء الذهب، ولا يتكل على كنوز الفضة، من هو ذاك فتمدحه؟»، ومثلما الملك يلحقه الدمار بسبب بخله، مثل هذا أيضاً إنه يشع خاصة بسبب كرمه».

وكان بوليكراتس Policratis ، ملك أهل جزيرة ساموس، الذي اشتهر أثناء حياته بكرمه وبصنعه الخيرات، قد تمكن من الوصول إلى الهند، لأن كل من اشتهى أن يقطف من عنده ثمرة شيء، كان يهبه إياها، وعلى هذا ليسع ملك القدس، وأرض الميعاد، وأن يتصرف بكرم وسخاء وذلك حيث يلزم ويناسب، حتى يتجنب كراهية حشمه أو الخاضعين له ولسلطانه، وبذلك يدفع الخطر عن نفسه وعن مملكته، وعند انتشار هذه السمعة عنه، يجذب الشعوب الغريبة إلى عنده، ويرعب أعداء المسيح والشعب المسيحي.

الفصل الثاني والعشرون

اهتمام الملك بشريعة الرب وغيرته عليها، وطاعته لوصاياها.

يقول سفر الحكمة: «الملك الحكيم ثبات الشعب»، ويقول سفر ابن سيراخ: ١٠ / ٣: «الملك يدمر شعبه، وتعمر المدينة بعقل ولايتها» ،

ويقول الشاعر بواتيوس Boetius مخاطباً الفلسفة في كتابه الأول، في «التعزية»: «أنت قررت على لسان أفلاطون أن الجمهوريات ستكون سعيدة إذا تسلم إدارتها من يدرسون الحكمة باستمرار، أو صدف وكان حكامها ممن دأبوا على الحكمة»، وعلى هذا تقول الحكمة في سفر الأمثال: «بي أنا يملك الملوك، وبى يشرع المشرعون القوانين العادلة»، ودون تلك القوانين ثيوديسيوس، وجستنيان، وليون، فكانوا من عالم لم يكن له شكل عالم آخر، وذلك عندما كرسوا العدالة للعالم، وأتحفوه بشرائع كما لو كان هيكلاً.

وبما أن كل الشرائع باطلة وغير فعالة، إذا لم تأخذ شكل الشريعة المقدسة، وبناء على هذا عن حق ما جرى تدوينه في سفر التثنية، قوله في قانون الملوك: «وعندما يجلس — الملك — على كرسي مملكته يكتب لنفسه نسخة من هذه الشريعة في كتاب» [التثنية: ١٧ / ١٨] وأضاف: «أيها الملوك اتعظوا وتعقلوا بشريعة الرب، وتأدبوا يا قضاة الأرض، إن شريعة الرب كاملة، وترد النفس، وشهادة الرب صادقة تعطي الحكمة للصغار» [المزامير: ٢ / ١٠، ١٨ / ٨].

ولا يقطع التشريع الصادر عن القيصر، أو عن الناس، دابر كل خطيئة، لا بل قد يجيز في بعض الأحيان مخالفة ما معينة، أما شريعة الرب، فهي التي لا عيب فيها، وهي تحرم الخطايا جميعاً، وتجمد الشريعة البشرية اليد، ولا تجمد النفس، وتبدل شريعة الرب النفوس وتعيدها، وبسبب تنوع الأعمال البشرية لا يمكن للشريعة البشرية أن تتناولها بما فيه الكفاية، في حين تعطي شريعة الرب، شهادة أمينة، ومعرفة كاملة حتى للصغار، وبعدما تبحر فيلادلفوس Philadelphus بنقاء تلك الشريعة وكمالها، طلب من المؤمنين بالرب الحصول على نسخة منها، حتى يفهم بوضوح أكبر ما يتعلق بالرب، ويحكم شعبه بعدالة أكبر، وإذا كان الملك قاصراً في السن، أو كان بسبب إهمال أهله لا يحسن

القراءة والكتابة، فليحضر لمساعدته ناتان النبي، وصادوق الكاهن.

ولهذا أضاف في قانون الملوك: «ليتخذ لنفسه نسخة من هذه الشريعة في كتاب من عند الكهنة اللاويين» [التثنية: ١٧ / ١٨]، وهكذا ساند يهويا داغ يواش، فعاش باستقامة لكن لما رفع عنه المساندة اقترف الخطيئة (انظر ما تقدم القسم الأول — الفصل السادس)، وكان ملوك الوثنيين يتخذون الفلاسفة معلمين لهم، فلقد اتخذ الاسكندر أرسطو، واتخذ نيرون سناكوس Senecus واتخذ تراجان بلوتارخ، وإلى الاسكندر صاحب العبقرية الرفيعة كتب أرسطو كتاب «أسرار الفلسفة»، ولنبيون صاحب النفس المجرمة، كتب سناكوس عن «الرحمة»، وكان تراجان قد وصل إلى السلطة دون أن يطمح إليها، وإليه كتب بلوتارخ مجلداً لطيفاً عن التنظيم السياسي عرف باسم «معهد تراجان»، وهكذا عرف معلمون مشهود لهم تطبيق كلامهم حسب الأمكنة والأزمنة والأشخاص بالشكل الموائم، فليسع ملك القدس إلى الحصول على مثل هؤلاء الحكماء والوعاظ له ولشعبه، حتى يتولوا جعل الناس يكرهون الآثام ويصرخون ضد الرذائل باستمرار، مثلما صنع زكريا بن يهويا داغ مدفوعاً بروح الرب، إذ وقف فوق الشعب وقال: «لماذا تتعدون وصايا الرب فلا تفلحون» [أخبار الأيام الثاني: ٢٤ / ٢٥] لماذا تفعلون ذلك، وما الذي أحوجكم للمخالفة، طالما أن حفظ الوصايا سهل، وقد جاء في سفر التثنية: «الوصايا التي أنا أمرك بها هي ليست فوق طاقتك»، لماذا طالما عندونا لا يتغلب إلا على من يريد، ولأي طمع، طالما أن السعادة بحفظ الوصايا، ويقول المسيح في متى: «إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا» [متى: ١٩ / ١٧]، فالمدن يرد الفائدة إلى الدائن، وتعطي الأرض المزروعة بذراً ثمارها لواحد ثلاثين ضعفاً، ولآخر ستين، ولآخر مائة، ولسوف ترد الحقيقة ما وعدت به، فإنه قال: «تأخذون مائة ضعف وترثون الحياة الأبدية»، ولكن لماذا أيضاً؟

وبأي خسارة؟ إذ إن هناك مخالفات تستوجب العقاب.

وقال المزمور: ١٩ / ٢١: «انتهرت المتكبرين الملاعين الضالين عن وصاياك»، وقال الديان في متى: ٢٥ / ٤١: «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته»، فهم يذهبون إلى النار ويزداد عذابهم بقدر ما خسروا مكافأته، وبحق قال: «إلى النار الأبدية» فهذا لم يحدث عرضاً بل جاء تنفيذاً منطقياً، ذلك أن الملاحق ليس هو المجرم، بقدر ما هي الجريمة، وعلى هذا إن المتوجب هو البحث عن الذنب، ولا يجوز إخفاء مادته، وكذلك إن الخطيئة التي لا توضع نهاية لها تحترق في نار لا نهاية لها، وبما أنه ليس هناك أمل، إذ أنه ليس بإمكان أحد أن يعد بالنهاية بعد أزمنة طويلة، فإنهم سوف يشعرون بالألم في الوقت الحاضر، وفي كل الأجيال التي ستتبع، فعودوا إلى قلوبكم أيها الزائفون، أنتم يا من من أجل ملذات عابرة خالفتم وصية الوقت، فلماذا أنتم معرضون ذاتكم لمثل هذه الأنواع القاسية من العذاب، وهي أنواع غير منتهية، لا يكفي كلام للتعبير عنها؟ ونحن نرى أنه من أجل اتباع الوصايا بعناية وكما ينبغي، من المفيد — بالإضافة إلى المواعظ والارشادات المألوفة والمعطاة إلى العموم — إجراء تدريس نصوص الكتابات المقدسة، في مدارس اللاهوت، باللغات الشعبية على أيدي بعض الرهبان، وقد تمّ اختبار هذا الأسلوب في البندقية، وثبت أن الناس أخذوا يتجمعون بتقوى منذ الصباح الباكر، ليسمعوا القداس، وللمشاركة في الوظائف بعناية أكبر بعد الانتهاء من القداس الرباني، حيث تعطى لهم في ساعة مناسبة إرشادات متعلقة بالإيمان والأخلاق والوصايا، وعندما يجري تكرار ذلك يومياً، ويعاد إلى الذاكرة، يصيرون مؤهلين أكثر ليشرحوا لكل من يستوضح عن حقائق الإيمان، حتى يتجنب ما هو مؤذي ويتبع ما هو مفيد وأكثر جدارة، وقد أضاف قانون الملوك بعد أمره بأن يتخذ الملك لنفسه نسخة من كتاب الشريعة

فقال: «فتكون معه، ويقرأ فيها كل أيام حياته لكي يتعلم أن يتقي الرب إلهه، ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة، وهذه الفرائض ليعمل بها» [التثنية: ١٧ / ١٩]، أما ما هو أجل وأدق، فإنه يبحث بالحوار مع من هم متعلمون ومختصون.

الفصل الثالث والعشرون

تقوى جلالة الملك ولطفه وعطفه على رعيته منذ بداية الخليقة.

لم يُسلط الانسان على الانسان، لأن الرب قال في سفر التكوين —
الاصحاح الأول (٣٦): «وقال الرب نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا،
فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل
الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض»، ولم نقرأ عن ذكر
للعبودية إلا عندما انحرف الكافر حام عن طريق العقل ليعيش
كالبهيمة، وسخر من سوء أبيه السكران، لذلك ليعلم ملوك الأرض
والمتسلطون عليها أن المتوجب عليهم هو التحكم بغرائزهم وبرذائلهم
أكثر من تحكمهم برجالهم، ولا يصير أحد تحت حكم غيره، طالما هو
سائر في الطريق المستقيم، وملتزم بمنهج العدالة، وعلى هذا نقرأ في
قانون الملوك قوله: «لئلا يرتفع قلبه على أخوته» [التثنية: ١٧ / ٢٠]،
وإنه لأخ حقاً ذاك الذي لا يتجاهل تقلبات الطبيعة المخلوقة، والذي
يؤمن عليه بذلك التراث، ومن لا تفصله الخطيئة عن مجموعة المؤمنين،
وبناء عليه قال المسيح في متى: ٢٣ [٨]: «وأنتم جميعاً أخوة»، ذلك أن
جميع المؤمنين يدعون أخوة المسيح، وقد جاء في الرسالة إلى
العبرانيين: «لأن المقدس والمقدس جميعهم من واحد فلهذا السبب لا
يستحي أن يدعوهم إخوة» [٢ / ١١]، ولينتبه الملك وليأخذ بنصائح
ابن سيراخ (في الاصحاح ٣٢).

فالاحتياط والحذر هو شأن الطغاة، ولا يجوز للملوك أن يخافوا وأن

يرتعدواحتي يستمروا آمنين، ولا يؤمنوا سلامتهم بالسلاح، بل بالمعاملة الحسنة، فهذا ما قاله سناكوس في كتابه عن الرحمة: «ليس هناك من تليق به الرحمة أكثر من الملك، وعليه أن يكون حليماً، لأن شيم النفوس الكبيرة أن تكون هادئة ومطمئنة، وأن لا تأبه بالشتم والاهانات، والنحل سريع الغضب وهو يترك إبرته مغروسة في مكان القرصة، وهكذا يكون بوضعه الاعتيادي، فإذا رمى بسهم الغضب بقي بدون سلاح، وينطبق هذا المثل على الملوك الكبار، ويقول كلوديانوس: «الحلم وحده يجعل منكم دائماً متساوين أمام الآلهة»، وحاول ثيودوسيوس إقناع الآخرين بفعالية الحلم إذ قال في مجموعة القوانين: «إذا خيل لأحد أن على أسمائنا أن تتمزق، فنحن لن نكتفي برفض الخضوع للعقوبة، لكن إذا صدر ذلك عن خفة فنحن نزدريها، وإذا كانت طبعاً منذ الطفولة فهي تستحق الشفقة، وإذا كانت صدرت عن إهانة، فنحن نسامح»، وعلى هذا إذا جرح الملك، فليعف عن أهل بيته، وعن من هم تحت سلطته.

ويقول سناكوس في الموضع ذاته أعلاه: «ولمنح العفو عن الذنب، إذا استطاع ذلك بأمان وإلا فليخفف من العقوبة»، وليكن أرحب صدرًا في العفو عن الاساءات لدى المقربين إليه أكثر مما لدى الأغراب، وليس كريماً كبير النفس من يُكرم سواه من مال غيره، لأنه يعطي مما هو لغيره، وإن كان يتنزه عن نفسه، ومثل هذا إنني لا أعدّ حليماً من يميل بسهولة إلى مشاركة غيره في المهم، بل الحليم الذي لا ينقاد بسهولة إلى الغرائز التي تحركه، وضعف الطبيعة البشرية هو نداء موجه إلى الملك كي يكون حليماً، وكذلك يدفعنا الميل المولود معنا نحو الخطيئة إلى الشفاق على كل ما هو بشري، وهذا ما توحى به الطبيعة مع تبدل الظروف.

وكان ابن ملك الليديين قد بقي صامتاً إلى الوقت الذي أرادوا فيه

صلب أبيه، حيث صاح بقورش قائلاً: «اعف عن أبي يا قورش، واتعظ مما يحل بنا، ذلك أنك أنت أيضاً إنسان».

الفصل الرابع والعشرون عدالة الملك وإنصافه وصحة أحكامه.

إذا فقد النظام وانعدمت العدالة تكاثرت اللصوصية، لذلك يتوجب على ملك القدس، أن يسن — بعد الدراسة والاستشارة الحذيرة — قوانين توائم الأرض، والأحوال، والأشخاص، ذلك أن تطبيقها يضمن الاستقرار للمملكة، والاحترام للملك، والطاعة لدى الشعب، والسلام للجميع، ولقد كانت المدينة المقدسة يسودها السلام (مكايون: ٢ / ٣) عندما كانت الشرائع تطبق فيها بدقة بسبب أونيا، الكاهن الأعلى، وبما أن رذيلة الجند المقنونة لدى الرب، والتهافت نحو الرغبات، كانا في أكثر الأحيان — حسب الكتب — سبب خراب أرض الميعاد المقدسة، وبما أنه من الثابت أن أكثرها سعيماً هو التمرغ في وحول الجنس، والسكر الدائم، لاسيما في الحانات الليلية حيث الغانيات اللائي يخرضن على الخطيئة، بالآلات الموسيقية، والرقصات، والحركات الخلاعية، حسب عادات البلد، يجب إلغاء هذا كله بقرار ملكي، على أن تبقى الفنادق كما هي الحال في البندقية، لاستقبال الضيوف المسافرين، الذين ليس لديهم بيوت خاصة بهم، كما يمنع أن يكون عند الناس زمارين ونادبات، يجلبونهم يوم دفن الأشراف للبكاء والنحيب على زوال المجد الباطل، فالمسيح لم يرض إقامة البنت المتوفاة بحضور تلك النسوة (متى: ٩ / ٢٣ — ٢٤)، ومن الأفضل لو سنحت الفرصة إبداهن، حتى لا يحرم الميت من الصلاة، وأن توجه إليهن كلمات المخلص: «لاتبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن» [لوقا: ٢٣ / ٢٨]، أما أنا الذي أتلوى في العذاب، فليس هذا الذي يمحو خطاياي، بل الأدعية الربانية، وذبيحة القداس، والصدقة المخبأة في

حُضِنَ الْفَقِيرُ، وَكَافَةُ أَعْمَالِ التَّقْوَى.

وَهُنَاكَ مِنْ يَمَارْسُونَ — وَخَاصَّةً النِّسَاءَ بَيْنَهُنَّ — أَعْمَالِ السَّحَرِ وَالشَّعْوَذَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ، فَهَؤُلَاءِ يَشَارِكُونَ الْمُنْشَقِينَ وَالْهَرَاطِقَةَ وَالْمُلْحِدِينَ، وَيَتَعَلَّمُونَ أَعْمَالَهُمْ، الَّتِي كَثِيرًا مَا تَحُولُ إِلَى تَشْكِيكِ، وَخَرَابٍ، وَهُنَاكَ رِذَائِلُ كَثِيرَةٌ كَانَتْ سَبَبَ الدَّمَارِ، وَسَبَبَ خَسَارَةِ أَرْضِ الْمِيْعَادِ الْمُقَدَّسَةِ، هِيَ مِنَ الْضَرُورِيِّ اقْتِلَاعُهَا، وَمَحْوُهَا كَلِيًّا بِتَدَابِيرِ نَاجِعَةٍ.

وَعَلَى الْمَلِكِ السَّهَرِ حَتَّى يَطْبُقَ الْجَمِيعَ الْقَوَانِينِ الْمَشْرُوعَةِ، وَذَلِكَ بِكُلِّ عَنَاءٍ، وَبِدُونِ اسْتِثْنَاءٍ كَمَا هُوَ مَدُونٌ فِي الْبَنْدِ الْآخِرِ مِنْ قَانُونِ الْمُلُوكِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «وَلِئَلَّا يَحِيدَ عَنِ الْوَصِيَّةِ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا» [تَثْنِيَّةٌ: ١٧ / ٢٠]، وَالْمَقْصُودُ «بِيَمِينًا» الْأَقْوِيَاءَ، «وَبِشِمَالًا» الضَّعَفَاءَ أَوْ الْغُرَبَاءَ، فَقَدْ جَاءَ فِي سَفَرِ التَّثْنِيَّةِ قَوْلُهُ: «أَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِمَا هُوَ عَدْلٌ، وَسَوَاءٌ أَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ، أَوْ مِنَ الْغُرَبَاءِ»، وَيَنْبَغِي أَنْ لَا تَكُونَ هُنَاكَ مُحَابَاةٌ لِأَحَدٍ، بَلْ كَمَا تَسْمَعُونَ لِلْكَبِيرِ اسْمَعُوا كَذَلِكَ لِلصَّغِيرِ، وَقَدْ يَكُونُ أَرَادَ «بِيَمِينًا» التَّوْزِيعَ بِدُونِ تَمْيِيزٍ، «وَبِيسَارًا» الْقِسَاوَةَ بِدُونِ عُنْفٍ، حَيْثُ يَتَوَجَّبُ عَلَى الْمَلِكِ، اتِّخَاذُ الْمَوْقِفِ الْوَسْطِيِّ فِي أَحْكَامِهِ، وَيَكُونُ هَذَا بِاعْتِمَادِ الْعَدَالَةِ الَّتِي تَلَطَّفُ الرَّحْمَةَ قِسَاوَتَهَا، وَهَكَذَا فَعَلَ الْمَسِيحُ حِينَ ضَرَبَ مِثْلًا بِمُعَالَجَةِ السَّامَرِيِّ، حَيْثُ قَامَ هَذَا السَّامَرِيُّ لَدَى مُعَالَجَتِهِ لِلجَّرْحِ بِمَزْجِ الْخَمْرَةِ الَّتِي تَحْرِقُ وَتَعُضُّ بِالزَّيْتِ، وَالزَّيْتُ هُوَ لَطَافَةُ الرَّحْمَةِ، وَمِثْلُ هَذَا جَمْعٌ فِي تَابُوتِ الْعَهْدِ مَا بَيْنَ عَصَا الْقِسَاوَةِ، وَالْمَنْ، الَّذِي هُوَ الْعَذُوبَةُ وَالْحَلَاوَةُ، وَيَقُولُ غَرِغُورِيُوسُ فِي الْكِتَابِ الْعَشْرِينَ مِنْ قَانُونِ الْأَخْلَاقِ — الْبَابِ الْخَامِسِ وَالْأَرْبَعِينَ: «تَفْقَدُ صَرَامَةَ النِّظَامِ وَرَحْمَتَهُ مِنْ قِيَمَتَيْهَا إِذَا صَارَ التَّمَسُّكُ بِوَاحِدَةٍ دُونَ الْآخَرَى»، ذَلِكَ أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنَ الْحَاكِمِ نَحْوُ شَعْبِهِ اسْتِعْمَالَ الرَّحْمَةِ الَّتِي تَفِيدُهُمْ بِالْحَقِّ، وَالنِّظَامَ الَّذِي يَقْسُو عَلَيْهِمْ بِحُبٍّ.

الفصل الخامس والعشرون

إعادة موجزة لكل ما قيل بشأن الحفاظ على الأرض المقدسة بعد استردادها.

مثلاً حدث في الماضي، وطرد اليوسفي واليهودي، وفيما بعد المسيحي، بسبب إهانتته الخالق، كما تقدم وقلنا في القسم الأول كله، وأيضاً في الثامن والتاسع من هذا الكتاب، هكذا نرى أن احترامه للرب والحرص على حفظ وصاياه، سوف يحفظها كاملة، ويحفظها للعبادة المسيحية وللإسم المسيحي، وبدون ذلك سيكون كل ما يصنع عبثاً، ولن يكون ضماناً، كما بينت جميع أجزاء هذا الكتاب، فلقد بحثنا واسترسلنا في سرد الوقائع بجد وبإسهاب لتوضيح هذه المسألة، ثم إنه بعد احتلال الأرض ينبغي إدارتها بفطنة، وبشكل مفيد، حسبما ذكرنا أعلاه، ويتوجب بناء قلاع وتحصينات في مواضع مواتمة، لصد الهجمات المباشرة من قبل الكفار، وخاصة في مصر والعربية، وحواران، والأردن، وأنطاكية وكليكية، ودمشق، وذلك مثلاً بنى الأقدمون ضد عسقلان، أو المصريين قلعة زبلیم Zebelim حيث كانت مدينة بئر السبع من قبل، والمغارة البيضاء، وغزة، وجبلیم Jbelim أي جت Geth ضد سوبعل Sobal السوري، والمونيين، ومونتريال، أي الكرك، وهو الموقع الذي كان يعرف من قبل باسم بتراء الصحراء، وبنو ضد طرابلس شقيف تيرون، وكذلك صفد بين طبريا وعكا، والقرين على مقربة من جبل الطور .

ويلزم في كل وقت انتزاع الأسلحة من المسلمين، وكل ما هو ضروري بقدر ما يكون ذلك ممكناً بسهولة، وهناك حاجة للتدريب المتواصل للمؤمنين الساكنين هناك على القوس وعلى المنجنيق، وعلى اتخاذ كافة الاحتياطات الحربية، كما قيل في مطلع هذا القسم، وعليهم كذلك ممارسة أعمال المحبة، والالتزام بالتقوى، التي تكاد التمارين الجسدية أن تكون بلا قيمة إزاءها.

ولقد جاء في الرسالة الأولى إلى تيموثاوس قول [الرسول بولس]: «وروض نفسك للتقوى» [٤ / ٧]، وعلى هذا يتوجب عليهم بناء مشفى في كل مدينة يعمرونها، كما قيل من قبل، وعليهم أيضاً عندما يشرعون بتناول طعامهم أن يحسبوا حساب الفقراء، وأن يرسلوا حصّة للمحتاجين، حتى يكون للمؤمنين جميعاً قلب واحد، ونفس واحدة، وعلى الأمراء والبارونات نبذ البدعة، وأن يتصرفوا كرجال، وأن لا يحتفظوا بالأولاد كالنساء مع زوجاتهم، بل بالحري ليتولوا إرسالهم إلى البلاط، عندما يبلغ أحدهم العاشرة من عمره، ليعيشوا مع البارونات، ولكي لا يتشربوا الأخلاق النسائية، وليحكم الملك شعبه بالحلم، فقد قال أحدهم: «إذا كان الملك متمهلاً في العقوبة، فليكن سريعاً بالمكافأة»، وليتذكر دائماً أنهم سوف يكونون معه في المستقبل ملوكاً، وورثة في الملكوت السماوي، وليقض بالعدل للجميع حسب الحق، ولتكن عنده شدة خاصة ضد الذين يستغلون القادمين الجدد لنجدة الأرض المقدسة، ولمعاقبة الآثام الجنسية، بل الذي عليه هو محوها من الأرض المقدسة، فقد جاء في سفر التثنية: «لا تكن بغى بين بنات إسرائيل، ولا زنى بين أبناء إسرائيل»، وليكن الجميع أكثر من باقي الشعوب الكافرة «خاضعين للملك، يعتمد عليهم، أما بالنسبة للولاة، فهم بمثابة مرسلين من قبله للانتقام من فاعلي الشر، وللثناء على فاعلي الخير»، وبما أنه من الصعب أن نرضي الرب دون الإيمان (عبرانيون: ١١)، كورنثوس الأولى: ١٥)، ولأن الأحاديث الشريرة تفسد الأخلاق الحميدة يتوجب الحفاظ على نقاوة الايمان والأخلاق، وبعد أن يكون قد جرى طرد المسلمين، وكذلك الباقيين الذين على شاكلتهم، من الذين خلعوا نير الطاعة للكرسي الروماني المقدس، ولم يعودوا يخضعون له بكل تواضع واحترام، وكذلك الذين بطقوسهم المختلفة ابتعدوا عن الكنيسة فيما هو جوهرى في الايمان، إلا إذا عادوا إلى القطيع وإلى حضن تلك الأم الحنون، وذلك بعد أن يكونوا قد تركوا لهم المجال،

ويجب أيضاً أن يقتلع من الأرض العرافون، وأيضاً المنجمون، والسحرة كلهم، لأن كلامهم ينتشر ويتسرب كالسرطان، وكثيراً ما يتفشى، فيصيب الأبرياء، ولا يجوز قبول من هم خطاة معروفون، ولا الرجال أصحاب الآثام الفظيعة، من القادمين من بلدان الغرب، فقد تقدم لنا إيضاح أنهم سببوا أكثر من سواهم دمار الأرض المقدسة وخرابها.

وللحفاظ على هذا كله بالتمام والكمال، ينبغي إقامة آباء للكنيسة ورعاة لها، يتولون رعاية قطيع الرب بالعلم والمعرفة (إرميا: ٣)، وتكون حياتهم وأعمالهم قانونية، ويحافظون على الأكليروس في حياة لائقة، وينبغي كذلك اعتماد رهبان نظاميين، من النخبة المجربة، فيجري إرسال بعضهم للوعظ والتعليم حسبما قلنا أعلاه، وللتبشير بناموس الحياة، والملك الحسن، على أن تكون لديهم غيرة على الرب وعلى الأيمان، فيتولون ملاحقة الهرطقة والمنشقين، والسحرة، والعرافين، وذلك بكل عناية وجرأة، ملقين جانباً كل مجال للخوف.

ولا يتصورن أحد أنه سيكون قاسياً إذا لاحق الهرطقة هناك بمثل هذه الطريقة، لأنه فضلاً عما ذكرناه أعلاه يقول الرسول في غلاطية: ٥ (/ ٧ - ٩) «كتم تسعون حسناً، فمن صدكم حتى لا تطاوعوا للحق، هذه المطاوعة ليست من الذي دعاكم. خيرة صغيرة تخمر العجين كله».

وهؤلاء هم الذين قال عنهم المسيح: «احذروا الأنبياء الكذبة الذين يأتون إليكم بثياب الحملان»، ذلك أنه ما من شيء يدمر أكثر من التظاهر بالخير، فإن الشر، عندما يكون مخفياً تحت ستار الخير لا يثير الريبة، طالما أنه غير معروف، وثياب الحملان هي كلمات التملق التي يتفوه بها الهرطقة، وهي كافة مظاهر التدين والتقوى، وهي التي جعلت الشرقيين يحيدون عن حقيقة الانجيل، وكأنها ثوب لبسوه واختفوا تحته، حتى يضلوا غير المتيقظين، بينما هم في الداخل ذئاب خاطفة، وفي

داخلهم حقد لا يحمد، وجشع لا يشبع لتمزيق نقاوة الايمان عند القطيع، فيخطفون الحقيقة وينتزعونها من قلوب المؤمنين، ولكي تعلم أنك لن تجني من ذلك أية فائدة أضاف: «هل يقطف من الشوك عنب، أو من العوسج تين؟»، وهكذا إنك لن تقطف ثمرة الحياة لا من الهراطقة، ولا من أي من غير المؤمنين، وفي هذه الأثناء يجري اجتذاب الكاثوليك إلى صفوفهم الممقوتة، بسبب الانقطاع عن الطقوس الكنسية، وبسبب عدم الرغبة بسماع شيء عن الرب، وأيضاً بسبب بعض مكاسب الثروات التي تتمازج مع اجتماعاتهم، ومع الزيجات التي يعقدونها، والتي كانت من أسباب تزعزع متانة الايمان في قبرص، وفي جزيرة كريت، وفي إمارة أخيا، وهذا مما لا شك فيه عند الكثيرين من الشعب، لابل حتى أيضاً عند قسم من الجنود.

ولا يعترض أحد فيقول: «لا يهلك الانسان إذا وجد بالقرب من الخطر، ومع ذلك إنه أضمن له أن لا يكون قرب الخطر، وعندما يكون الأمر متعلقاً بأمور الايمان وبضرورة الخلاص، ينبغي اختيار ما هو أضمن.

وأخيراً، ينبغي — بعد طرد الكفرة من الأرض المقدسة — العمل على اجتذاب الكاثوليك والمؤمنين من كافة أنحاء المعمورة، اجتذابهم وكأنهم غرسات جديدة، غدتهم مياه النعمة، فيعطون ثمار الحياة، «لأنه هكذا قال الرب لرجال يهوذا ولأورشليم احرثوا لأنفسكم حرثاً ولا تزرعوا في الأشواك» [إرميا: ٤ / ٣].

ولكي يتشجع القادمون الجدد للمجيء عن طيبة خاطر ويكونوا مفيدين، رأينا أنه من الموائم ومن النافع، لو قام الحبر الروماني، نائب المسيح بتحريض الذين يريدون الابحار إلى الشرق، على البقاء في الشرق مهما كان جنسهم — ذكوراً وإناثاً — ومهما كانت حالتهم، شرط أن لا يكون بينهم من هو خاطيء معروف ومشهور، أو مجرم، حتى

نتجنب، — كما قلنا أعلاه — امتلاء الأرض بمثل هؤلاء، لا بل حتى لا نفسد بهم، على أن يترك الأمر إلى حكم الأساقفة، وأن يمنح البابا القادمين الصفح والغفران الكامل عن خطاياهم، وأن يتم ذلك بوساطة مبشري الإيمان، الذين يعلنون كل هذا، وينشرونه في كل مكان، وأن يتدبر بالطريقة المناسبة شؤون سفرهم، ومساعدتهم المناسبة، لئلا ينقطعوا بسبب الفاقة عن متابعة هذا المشروع التقوي.

وعلى الملك، وعلى سائر الذين يمتلكون الأرض المحتلة، أن يؤمنوا للقادمين الجدد أراضي للإقامة فيها، ولبناء بيت وبستان وكرم، وذلك مقابل مبلغ سنوي محدد يدفعونه، وبعد هذا تكون هذه العقارات ملكاً أبدياً لهم ولورثتهم، وإذا وجد أنه من الأنسب منحهم أراضي زراعية يعتنون بها، وتقدم لهم المساعدة في سبيل ذلك وفي سبيل اقتناء المواشي، وسائر الأشياء المحتاجة والمناسبة ليفعل.

فهكذا اجتذب الملك بلدوين الأول الكثيرين ليسكنوا في القدس، ويجب أخذ الحذر خاصة في البداية، حتى لا توضع العراقيل أمام المؤمنين القادمين إلى الأراضي المحتلة مع بضائع وحاجيات أخرى، وأن تفرض عليهم مكوس وأتاوات، وأن يسمح لهم بكل حرية أن يستثمرونها كما يطيب لهم، وبهذه الطريقة تتوافر الخيرات، وتكثر المتاجرات، ولا سيما مع تدفق الآخرين بغية السكن في الأراضي المقدسة، ووقتذاك سوف تتدفق على سكان الأرض الحاجيات الضرورية بكثرة، ويلقون من وراء ذلك المنفعة، فهذا ما احتاط له في مدينة القدس بلدوين دي بورغ.

ولهذه الأسباب، ومع مرور الزمن، ولأن المكوس، ليست في نظر العامة إلا سرقة وسلب لابس ثوباً قذراً، لا يحل فرضها إلا في حال الضرورة القصوى، وبعد مداولات طويلة، وباعتدال كبير.

وهذا مختصر لما عددناه مساوياً ينبغي تجنبها، ومحاسن يتوجب اتباعها حتى نمتلك أرض الميعاد المقدسة بفائدة وأمان، وسلام، واستمرار، وراحة، وليت ربنا يسوع المسيح يشفق على دموع وتوسلات الشعب المسيحي، فيهبه إياها، لعزته ومجده، ولتحقيق الأمانة التي طالما انتظرتها الكنيسة المقدسة، والذي «هو مع الأب والروح القدس يمجّد ويعبد، إله واحد»، آمين.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
استهلال	٧
بداية كتاب الأسرار	١٢
خطاب المؤلف إلى البابا	١٥
تقرير الرهبان حول كتاب سانوتو	١٧
مذكرة من سانوتو إلى الملك (فيليب الجميل)	٢١
الاجراءات الملحة لصالح المسيحية	٢٤
بداية رسالة كتاب الأسرار	٢٧
الكتاب الأول مع عناوين أقسامه وفصوله	٣١
الكتاب الثاني مع عناوين أقسامه وفصوله	٣٤
الكتاب الثالث مع عناوين أقسامه وفصوله	٤٠
بداية إنجيل يوحنا	٥٧
من إنجيل مرقس	٥٧
من إنجيل لوقا	٥٨
من إنجيل متى	٥٨
مذكرة سنة ١٣٠٧	٥٩
مذكرة سنة ١٣٠٦	٦٢
بداية الكتاب الأول	٦٣
القسم الأول — طرق إضعاف السلطان	٦٥
الفصل الأول الأرباح التي يجنيها السلطان من تجارة الهند	٦٥

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني — الاستغناء عن بضائع بلاد السلطان	٦٩
الفصل الثالث — الأفاوية والكتان	٦٩
الفصل الرابع — أضرار قطع التجارة على السلطان	٧٠
الفصل الخامس — خسائر السلطان	٧١
الفصل السادس — وصف مصر	٧١
القسم الثاني — كيف ضعفت إحدى مناطق السلطان	٧٤
الفصل الأول — نقص ثروة إحدى مناطق السلطان	٧٤
الفصل الثاني — تضاؤل عدد جند السلطان	٧٤
القسم الثالث — البضائع التي يحتاجها المسلمون	٧٦
الفصل الأول — منع تصدير السفن إلى المسلمين	٧٦
الفصل الثاني — محاماة أهل مصر عن بلادهم	٧٦
القسم الرابع — وجوب مقاطعة المسلمين	٧٨
الفصل الأول — مقاطعة تجار المسلمين	٧٨
الفصل الثاني — وجوب مطاردة التجار المسلمين	٨٠
الفصل الثالث — وجوب إغلاق الطرق في وجه المسلمين	٨١
الفصل الرابع — المناطق التي يتوجب أن يشملها الحظر	٨٢
الفصل الخامس — وجوب منع كل مسيحي من المتاجرة مع المسلمين	٨٣
الفصل السادس — العقوبات التي ينبغي إنزالها بكل مخالف	٨٤
الفصل السابع — مراقبة البحر وحراسته	٨٤

الموضوع	الصفحة
الغلايين اللازمة في أوروبا	٨٨
القسم الخامس — وجوب يقظة الكنيسة	٩٠
الفصل الأول — الحث على متابعة هذا المشروع	٩٠
الفصل الثاني — طلب النجدة من كل أوربي	٩١
الفصل الثالث — خاتمة الكتاب الأول	٩٢
مدخل الكتاب الثاني	٩٧
بداية الكتاب الثاني — طرق استرداد الأرض المقدسة	٩٩
القسم الأول — تنظيم الجيش المسيحي الثاني	١٠١
الفصل الأول — وجوب وجود قبطان واحد للأسطول	١٠١
الفصل الثاني — الدولة الموائمة لهذا المشروع البحري	١٠٢
الفصل الثالث — الاعدادات للبحار	١٠٤
الفصل الرابع — كمية نفقات الجيش	١٠٥
القسم الثاني — تحديد الطرق الموائمة للسفر	١٠٧
الفصل الأول — لايحوز سلوك الطرق البرية	١٠٧
الفصل الثاني — لايحوز رفع راية الكنيسة في أرمينيا وسورية أولاً	١٠٨
الفصل الثالث — لايحوز أن يكون الانزال البحري في قبرص أولاً	١١٠
الفصل الرابع — التحصينات وملحقاتها	١١٢
الفصل الخامس — تمثيل مصر بشجرة	١١٤
الفصل السادس — حديث حول التحصينات	١١٧

الموضوع	الصفحة
الفصل السابع — حديث حول الشجرة وتوابعها	١٢٥
الفصل الثامن — ضرورة محاربة المسلمين في مصر أولاً	١٣٠
الفصل التاسع — ما حدث في مصر أيام القديس لويس	١٣١
الفصل العاشر — الذي ينتظره الذين يطبقون توصية المؤلف	١٣٣
القسم الثالث — بناء سور أمني مسيحي في مصر	١٣٧
الفصل الأول — كيف يحمي المسيحيون أنفسهم في مصر البحرية	١٣٧
الفصل الثاني — استعدادات الصليبيين لحماية أنفسهم	١٤٠
الفصل الثالث — كيف يزعم الصليبيون أركان مصر	١٤٢
الفصل الرابع — جواب مقنع للشكوك	١٤٤
القسم الرابع — احتمالات ما يمكن أن يحدث في الحرب	١٤٦
الفصل الأول — حول قدرة الجيش المسيحي	١٤٦
الفصل الثاني — حول إمكانية أن يهاجم السلطان من جهة النيل	١٤٨
الفصل الثالث — المثل الذي ضرب قورش	١٥٠
الفصل الرابع — إمكانات المسلمين البحرية على النيل	١٥٢
الفصل الخامس — حول شحن الأسطول الصليبي بالمؤن	١٥٣
الفصل السادس — جاهزية السفن الفرنجية	١٥٦
الفصل السابع — سفن النقل	١٥٧
الفصل الثامن — أصناف الأسلحة	١٥٨

الموضوع	الصفحة
الفصل التاسع — كيف ينظم القبطان الجيش	١٦١
الفصل العاشر — كميات الميرة	١٦٣
طريقة توزيع الاغذية	١٧٠
تخمين أسعار المواد الغذائية	١٧٢
الفصل الحادي عشر — عدد الغلايين	١٧٣
أنواع الغلايين	١٧٤
الفصل الثاني عشر — صناعة أدوات الملاحة	١٧٥
الفصل الثالث عشر — أنواع باقي السفن	١٧٨
الفصل الرابع عشر — شروط الابحار إلى مصر ومقتضيات ذلك	١٨٣
الفصل الخامس عشر — المواصفات المطلوبة من الأشخاص الذين تريد الكنيسة التعاقد معهم	١٨٤
الفصل السادس عشر — شكل تبديل عناصر الجيش	١٨٥
الفصل السابع عشر — أماكن توفر رجال بحر جيدين	١٨٨
الفصل الثامن عشر — حول الملاحين في ألمانيا	١٩٠
الفصل التاسع عشر — التبشير بحملة صليبية عامة	١٩٥
الفصل العشرون — عدد الرجال اللازمين لكل غليون	١٩٧
رواتب طواقم الغلايين	٢٠٠
راتب ثلاثمائة فارس وخدمهم	٢٠٢
الفصل الحادي والعشرون — تنبيهات احتياطية	٢٠٤

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني والعشرون — السلاح والعتاد	٢٠٨
صناعة المجانيق	٢١٠
صناعة القسي العقارة	٢١٢
الفصل الثالث والعشرون — كيفية إرباك المسلمين	٢١٤
الفصل الرابع والعشرون — إعدادات متقدمة	٢١٦
الفصل الخامس والعشرون — وصف المناطق البحرية الخاضعة للسلطان	٢٢٢
الشواطئ الممتدة من يافا إلى دمياط	٢٢٥
الشواطئ البحرية من دمياط إلى الاسكندرية	٢٢٦
الفصل السادس والعشرون — شواطئ ملك أرمينيا	٢٢٩
الفصل السابع والعشرون — دور المرتزقة من الصليبيين	٢٣٤
الفصل الثامن والعشرون — حول قدرة المسيحيين	٢٣٨
الفصل التاسع والعشرون — مذكرة حول شؤون السلاح والحرب	٢٤٤
بعض أمور تتوجب معرفتها	٢٤٦
بداية الكتاب الثالث — العمل للحفاظ على أرض الميعاد	٢٤٧
بداية الكتاب الثالث	٢٥١
الكتاب الثالث — عناوين الأقسام	٢٥٣
القسم الرابع عشر — وصف أوضاع الأماكن في الأرض المقدسة	٢٥٤
الفصل الأول — حدود الأرض المقدسة	٢٥٤

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني — المنطقة الساحلية لسورية	٢٥٧
الفصل الثالث — أماكن أرض الميعاد	٢٦٢
الفصل الرابع — الجبال فيها وراء الأردن	٢٧٤
الفصل الخامس — الجبال الرئيسية	٢٧٦
الفصل السادس — مجاري المياه والأنهار	٢٧٩
الفصل السابع — الحج من عكا	٢٨٢
الفصل الثامن — الحج في القدس	٢٨٤
الفصل التاسع — الحج من عكا إلى القدس	٢٨٩
الفصل العاشر — الحج إلى الأماكن المنسية في القدس	٢٩٤
الفصل الحادي عشر — الحج إلى بيت لحم والخليل	٢٩٦
الفصل الثاني عشر — أوضاع مملكة مصر	٣٠٠
القسم الخامس عشر — إجراءات الحفاظ على الأرض المقدسة	٣١٥
الفصل الأول — الخطط العسكرية للحفاظ عليها	٣١٥
الفصل الثاني — فوائد عدم الكشف عن خطط الصليبيين	٣١٨
الفصل الثالث — الاهتمام بخطط العدو	٣١٩
الفصل الرابع — احتياطات لتجنب المخاطر	٣٢١
الفصل الخامس — كيفية إقامة المخيم	٣٢٣
الفصل السادس — خطورة ترك العدو يستدرجنا إلى المعركة	٣٢٥
الفصل السابع — المكان الموائم لخوض المعركة	٣٢٦

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن — احتياطات قيادة الجيش	٣٢٨
الفصل التاسع — الاجراءات الاحتياطية لهزم جيش العدو	٣٣٢
الفصل العاشر — إعادة تنظيم الجيش	٣٣٤
الفصل الحادي عشر — نصب الكمائن	٣٣٦
الفصل الثاني عشر — قطع طريق الفرار على العدو	٣٣٩
الفصل الثالث عشر — إخفاء الكمائن وتضليل العدو	٣٤١
الفصل الرابع عشر — الاجراءات الواجب اتخاذها وقت النصر	٣٤٢
الفصل الخامس عشر — طرق إلقاء الحصار	٣٤٥
الفصل السادس عشر — توصيات مفيدة للعساكر	٣٤٨
الفصل السابع عشر — وجوب الاكتفاء بملك واحد	٣٥٠
الفصل الثامن عشر — على الملك الامتناع عن النفقات غير الضرورية	٣٥٢
الفصل التاسع عشر — الجرم الذي يقترفه الملك الفاسد الأخلاق	٣٥٤
الفصل العشرون — على الملك لجم شهواته وملذاته	٣٥٦
الفصل الحادي والعشرون — كيف يمكن للملك لجم شهواته	٣٥٨
الفصل الثاني والعشرون — اهتمام الملك بشريعة الرب	٣٦١
الفصل الثالث والعشرون — تقوى الملك ولطفه وعطفه على رعيته	٣٦٥
الفصل الرابع والعشرون — عدالة الملك وإنصافه	٣٦٧
الفصل الخامس والعشرون — إعادة موجزة لما تقدم .	٣٦٨